

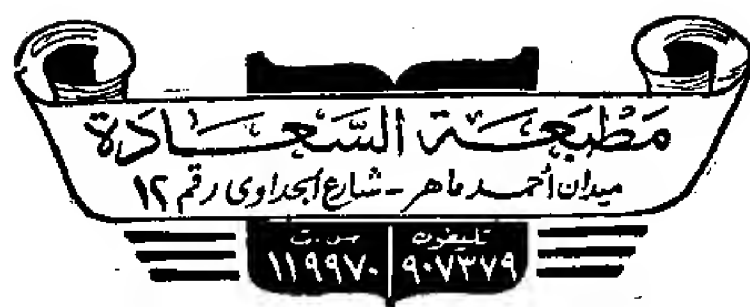
التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة المشاءة

دكتور
محمد شير طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الجزء السادس
الطبعة الثانية

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م



« رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أرسله ربه رحمة للعالمين اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد : فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أنزله على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ليخرج الناس به من الظلمات إلى النور ، ولينقذهم من الظلم والفجور .

قال - تعالى - : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » .

ولقد كان من فضل الله علينا ، أن وفقنا لخدمة كتابه ، فأعاننا على كتابة تفسير سور : الفاتحة والبقرة ، وآل عمران ، والنساء والأنعام والأعراف ، ويسعدني أن أتبع ذلك بتفسير محرر لسورة المائدة ، حاولت فيه أن أكشف عما اشتملت عليه هذه السورة من هدايات جامعة وتشريعات حكيمة ، وحيج باهرة ، تقذف حقها على باطل الضالين فإذا هو زاهق .

وقد رأيت من الخير قبل أن أبدأ في تفسيرها بالتفصيل والتحليل ، أن أسوق كلمة بين يديها تكون بمثابة التعريف بها ، وبيان فضلها ، ووجه إتصالها بالسورة التي قبلها ، وزمان نزولها ، والمقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها ...

وقد كان منهجى في تفسير هذه السورة ، هو المنهج الذي سلكته في تفسير السور السابقة .

وملخصه : أني أبدأ بشرح الالفاظ القرآنية شرحا لغويا مناسباً ، ثم أبين المراد منها - إذا كان الأمر يقتضئ ذلك .

ثم أذكر سبب النزول للآية أو الآيات - إذا وجد وكان مقبولا - .
ثم أذكر المعنى الإجمالي للجملة أو للآية ، مستعرضاً ما اشتملت عليه من وجوه البلاغة وحسن التوجيه ...

ثم أتبع هذا ببيان ما يؤخذ من الآية أو الآيات من أحكام وآداب وتشريعات ...

وقد حرصت كثيراً على تخرج الأحاديث التي أذكرها ، وعلى بيان المصادر التي أنقل عنها . وتعمدت - عند النقل من المصدر لأول مرة - أن أبين زمان طبعته ومكانها ثم التزم النقل عنه بعد ذلك إلى نهاية السورة ، دون أن ألتجأ إلى طبقات أخرى إلا عند الضرورة القصوى .

وقد تجنبت التوسع في وجوه الإعراب ، واكتفيت بالراجع منها ...
وذلك لأنني توخيت فيما أكتب إبراز ما اشتمل عليه القرآن الكريم من هدايات جامعة وتشريعات حكيمة ، وآداب سامية ، وعظات بليغة وتوجيهات نافعة . وأقوال مأثورة ...

والله أسأل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وأن يعيننا على إتمام ما بدأناه من خدمة لكتابه ، وأن يجعل أقوالنا وأعمالنا خالصة لوجهه ، ونافعة لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

محمد سيد طنطاوى
مفتى جمهورية مصر العربية

١٥ من ربيع الأول ١٤٠٧ هـ
١٧ من نوفمبر ١٩٨٦ م

تمهيد بين يدي السورة

١ - سورة المائدة هي السورة الخامسة من سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف ، فقد سبقتها سور : الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران ، والنساء .

٢ - وهي مدنية باتفاق العلماء ، بناء على القول الذي رجحه العلماء من أن القرآن المدني هو الذي نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد الهجرة ولو كان نزوله في غير المدينة .

٣ - وعدد آياتها عشرون ومائة آية عند الكوفيين ، ويرى الحجازيون والشاميون أن عدد آياتها ثنتان وعشرون ومائة آية ، ويرى البصريون أن عدد آياتها ثلاث وعشرين ومائة آية .

٤ - وهذه السورة الكريمة أسماء أشهرها : المائدة .

وسميت بهذا الإسم ، لأنها انفردت بذكر قصة المائدة التي طالب الحواريون من عيسى - عليه السلام - نزولها من السماء . وقد حكى الله - تعالى - ذلك في أواخر السورة في قوله - تعالى - : « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ... » (الآيات من ١١٢ : ١١٥) وتسمى أيضا بسورة العقود ، لأنها السورة الوحيدة التي افتتحت بطالب الإيفاء بالعقود . قال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ... » وتسمى - أيضا - المنقذة .

قال القرطبي : « وروى عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال ، « سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنقذة » تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب ، (١) .

٥ - ووجه اتصالها بسورة النساء - كما يقول الألوسي - « أن سورة النساء قد اشتملت على عدة عقود : صريحا وضمنا . فالصريح : عقود الإنكحة .

وعقد الصداق . وعقد الحلف . وعقد المعاهدة والأمان . والضمنى : عقد الوصية والوديعة . والوكالة . والعارية . والإجازة . وغير ذلك مما يدخل فى قوله - تعالى - : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... » .

فناسب أن تعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود . فكأنه قيل : يأبى الناس أوفوا بالعقود التى فرع من ذكرها فى السورة التى تمت ، وإن كان فى هذه السورة - أيضا - عقود .

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة ، أن أول تلك : يأبى الناس ... ، وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهى أشبه بتنزيل المكي . وأول هذه : يأبى الذين آمنوا ... ، وفيها الخطاب بذلك فى مواضع وهو أشبه بخطاب المدني . وتقديم العام وشبه المكي أنسب ... ، (١) .

٦ - وقد وردت روايات تفيد أن سورة المائدة نزلت على النبى - صلى الله عليه وسلم - دفعة واحدة . ومن هذه الروايات ما أخرجه الإمام أحمد عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لأخذه بزمام ناقة رسول الله العضياء ، إذ نزلت عليه المائدة كلها . فكادت من ثقلها تدق عنق الناقة ، (٢) .

وروى الإمام أحمد - أيضا - عن عبد الله بن عمرو قال : أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم - سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها ، (٣) .

وهناك روايات أخرى تحدثت عن زمان ومكان نزولها ، ومن هذه الروايات ما أخرجه أبو عبيد عن محمد القرظى قال : نزلت سورة المائدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فيما بين مكة والمدينة (٤) .

(١) تفسير الألوسى ج ٦ ص ٤٨ . طبعة منير الدهمشقى .

(٢) ، (٣) تفسير ابن كثير ج ٢ طبعة عيسى الحلبي .

(٤) تفسير الألوسى ج ٦ ص ٤٧ .

وقال القرطبي : وروى أنها نزلت عند منصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية (١) .

وهناك روايات تحدثت عن زمان ومكان نزول بعض آياتها .

قال السيوطي في كتابه ، الإتيقان ، - عند حديثه عن معرفة الحضري والسفري - : وللسفري أمثلة منها : قوله - تعالى - : اليوم أكملت لكم دينكم ، ففي الصحيح عن عمر بن الخطاب : أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة ، عام حجة الوداع .

ومنها : آية التيمم . ففي الصحيح عن عائشة ، أنها نزلت بالبيداء وهم داخلون المدينة - بعد إقمتهم من غزوة المريسيع كما جاء في بعض الروايات - .

ومنها : قوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فقد نزلت بيطن نخل .

ومنها : قوله - تعالى - : والله يعصمك من الناس ، فقد نزلت في غزوة ذات الرقاع .

وهذه الآيات جميعها من سورة المائدة ، (٢) .

والذي تطمئن إليه النفس عند تلاوة سورة المائدة بتدبر وإمعان ف فكر ، وعند مراجعة الروايات التي وردت في سبب نزول بعض آياتها ، يرى أن هذه السورة الكريمة لم تنزل دفعة واحدة ، وإنما نزلت متفرقة ، وفي أوقات مختلفة وما يشهد لذلك ما جاء في كتب الحديث وفي كتب السيرة من المقداد بن الأسود قد قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - قبيل التحام المسلمين مع المشركين في غزوة بدر : يا رسول الله إمض لما أمرك الله . فوالله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى . اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٠ .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن ج ١ ص ١٨ طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٤٠١ هـ .

فقد أخرج البخارى عن عبد الله بن مسعود قال : شهدت من المقداد ابن الأسود مشهدا ، لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به . أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يدعو على المشركين - فى بدر - فقال : لا تقول كما قال قوم موسى : إذهب أنت وربك فقاتلا ... ولنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك .. (١) .

فهذا النص يفيد أن الصحابة كانوا على علم قبل غزوة بدر بهذه الآيات التى وردت فى سورة المائدة ، والتى تحكى موقف بنى إسرائيل من نبيهم موسى عندما دعاهم إلى دخول الأرض المقدسة (٢) .

كذلك مما يشهد بأن سورة المائدة قد نزلت منجمله ولم تنزل دفعة واحدة ، ما نقلناه منذ قليل عن السيوطى من أن بعض آياتها قد نزلت فى أزمنة وأمكنة مختلفة .

وأىضا مما يشهد لذلك ، أن المتأمل فى بعض آياتها يراها تحكى لنا ألوانا من تعنت اليهود مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ، ومن تحاكمهم إليه لا من أجل الوصول إلى الحق وإنما من أجل إظهاره بمظهر الجاهل بأحكام التوراة . قال - تعالى - : ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون . إن أوتيتم هذا فخذوه . وإن لم تؤتوه فاجذروا ... ،

وفعلهم هذا يدل على أنهم كانت لهم قوة ونفوذ فى المدينة عند نزول هذه الآيات .

ومن المعروف تاريخيا أن نفوذ اليهود بالمدينة قد تلاشى بعد غزوة بنى قريظة فى السنة الخامسة من الهجرة . وأن قوتهم قد زالت بعد فتح خيبر فى أوائل السنة السابعة من الهجرة .

(١) صحيح البخارى ج ٥ ص ٩٢ طبعة مصطفى الحلبي - سنة ١٩٤٥ هـ

ومن كل هذا نستخلص أن بعض آيات هذه السورة يغلب على ظننا أنها نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - في السنوات التي سبقت صلح الحديبية وأن الروايات التي نقلناها قبل ذلك عن بعض المفسرين ، والتي يستفاد منها أن سورة المائدة قد نزلت دفعة واحدة ، أو أنها نزلت عند منصرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية ، أو فتح مكة . أو في حجة الوداع ، أو عند رجوعه منها ... كل هذه الروايات فيها مقال ، - لأنهما بجانب - تفرد بعض المحدثين بها فإنها تخالف ما جاء في كتب السنة الصحيحة من أن بعض آياتها قد نزل في حجة الوداع ، وبعضها قد نزل بعد غزوة المريسيع ، وبعضها كان معروفا للصحابة قبل إشتراكهم في غزوة بدر .

ولأن بعض آيات هذه السورة تحكي لنا أحداثا ومجالات قد حصلت بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين اليهود ، وهذه الأحداث وتلك المجادلات من المستبعد أن تكون قد حدثت بعد غزوة بني قريظة في السنة الخامسة من الهجرة ، لأنه - كما سبق أن أشرنا - لم يبق لليهود نفوذ في المدينة بعد غزوة بني قريظة ، حتى يستطيعوا أن يواجهوا النبي - صلى الله عليه وسلم - بما واجهوه من مجادلات ومن تحاكم اليه بقصد إحراجهم - كما سنفصل ذلك عند تفسيرنا للآيات المتعلقة بهذا الموضوع .

ومع كل هذا فنحن نرجح أن جانباً كبيراً من آيات سورة المائدة قد نزل متأخراً عن صلح الحديبية ، بل عن فتح مكة ، لأن بعض آياتها تقرّر أن المشركين قد صاروا في يأس من التغلب على المسلمين بعد أن فتح المسلمون مكة بعد أن أتم الله لهم دينهم ... قال - تعالى - اليوم يثب الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ...

ولأن هناك آثاراً تشهد بأن سورة المائدة - في مجموعها - من آخر ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن .

قال القرطبي : وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قرأ سورة المائدة في حجة الوداع وقال : « يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر ما نزل فأحلوا حلالها ، وحرّموا حرامها » .

ونحوه عن عائشة - رضي الله عنها موقوفا . قال جبير بن نفير : دخلت على عائشة فقالت : هل تقرأ سورة المائدة ؟ فقلت : نعم . فقالت : فإنها من آخر ما أنزل الله . فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرّموه ، (١) .

والخلاصة ، أن الذي يغلب على ظننا أن سورة المائدة لم تنزل دفعة واحدة في وقت معين أو في زمان معين . وإنما نزل بعضها في السنوات التي سبقت صلح الحديبية ، ونزل معظمها بعد هذا الوقت ، للأسباب التي سبق أن بيناها ، وأن الروايات التي تقول بنزولها دفعة واحدة أو في وقت معين وزمان معين من الممكن أن تحمل على أن المراد بها مجموع السورة لا جميعها

٧ - هذا وعندما نستعرض سورة المائدة لاستعراضها إجمالاً نراها في مطالعها تأمر المؤمنين بالوفاء بالعهود ، وبالتزام التكاليف التي كلفهم الله بها ، ثم اردفت ذلك ببيان الحلال من الذبائح والحرام منها ، ثم ببيان حكم طعام أهل الكتاب ، وحكم الزواج بالكتابيات ...

وبعد أن تكلمت عن المباحات التي يحتاج إليها الجسد أتت ذلك بالحديث عن الصلاة هي غذاء الروح ، فأمرت المؤمنين بأن يدخلوها متطهرين ، ووضعت لهم أنه - سبحانه - لا يريد من وراء ما يشرعه لهم الضيق أو الحرج وإنما يريد لهم الخير والطهر وإتمام النعمة : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

ثم أمرت المؤمنين بالتزام العدل مع الأصدقاء ومع الأعداء ، ووعدت

المطيعين لله - تعالى - بالمغفرة والأجر العظيم ، وتوعدت الكافرين بآيات الله
بمذابح الجحيم ، ثم ذكرت المؤمنين بجانب من مظاهر فضل الله عليهم ورحمته
بهم ، حيث كف أبدى المعتدين عنهم ، وحمام من مكرهم . .

قال - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم
أن يبسطوا إليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم ، واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل
المؤمنون ، (الآيات من ١ - ١١) .

- ثم نراها في الربع الثاني (١) منها نحكي لنا جانباً من ردائل أهل الكتاب .
فتبين كيف أن الله - تعالى - أخذ عليهم العهد والميثاق بأن يؤمنوا به ويطيعوه
ولا يكتنهم تقضوا عهودهم ، فكانت نتيجة ذلك أن لعنهم الله ، وأن أدام بينهم
العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة . .

ثم وجهت نداء إلى أهل الكتاب أرشدتهم فيه إلى طريق الحق ، وأمرتهم
باتباعه . . ووبخت الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ، . وحكت
جانباً من الدعاوى الباطلة التي ادعاها اليهود والنصارى ، حيث قالوا : نحن
أبناء الله وأحباؤه . . .

ثم وجهت نداء ثانياً إلى أهل الكتاب أمرتهم فيه باتباع محمد - صلى الله
عليه وسلم - ، لأنهم بسبب عدم إتيانهم سيكون مصيرهم إلى النار ، ولن يقبل الله
منهم عذراً بعد أن أرسل إليهم - سبحانه - من يبشرهم وينذرهم .

قال - تعالى - : يا أيها أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة
من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ،
والله على كل شيء قدير . .

ثم حكمت السورة الكريمة قصة من قصص موسى - عليه السلام - مع
بنى إسرائيل :

فقد ساقط بأسلوبها البليغ إغراء لهم بدخول الأرض المقدسة ، ولكنهم جبنوا وانخذلوا عصيانه سيبلهم... فكانت نتيجة ذلك أن عاقبهم الله - تعالى - بالتيه . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين . .

- ثم نراها بعد ذلك في الربع الثالث^(١) نحكي لنا قصة ابني آدم بأسلوب مؤثر: نحكي لنا قصة أول جريمة وقعت على ظهر الأرض بسبب الحسد . ونحكي لنا تلك المحاورات التي دارت بين الأخوين : القاتل والقتيل .

وكيف أن القاتل قد تحير في مواراة جثة أخيه، إلى أن تعلم كيفية مواراتها من غراب أخذ يبحث في الأرض ليرأى جثة غراب مثله .

وإذا كان الحسد حتى في العبادات يؤدي إلى القتل وسفك الدماء ، فقد شرع الله القصص لحماية الأنفس والأموال والأعراض، فقد ذكر - سبحانه - بعد ذلك ، جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا . .

وجزاء السارق والسارقة . وجزاء الذين كفروا بالحق بعد أن جاءهم من عند الله ...

وخلال ذلك أمر - سبحانه - عباده المؤمنين بتقوى الله ، وبالتقرب إليه بالعمل الصالح ، وبمداومة الجهاد في سبيل الله ، حتى يذلوا الفلاح في الدنيا والآخرة .

- وبعد هذه التشريعات الحكيمة ، نراها في الربع الرابع^(٢) نحكي لنا بعض الوسائل الخبيثة التي اتبعها اليهود في محاربتهم للدعوة الإسلامية قد كرت بعض أقوالهم التي كانوا يقولونها عندما يأتون إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لينتصروا إليه في منازعاتهم ويقولون إن أوتينهم هذاخذوه وإلزم تؤتوه فاحذروا، ووصفتهم بأنهم - صماعون للكذب أكالون للسحت . .

وأرشدت الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى طريقة التعامل معهم
« فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك
شيئاً . وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » .

ثم بعد أن مدحت التوراة ، ووصفت الذين لم يحكموا بما أنزل الله بالكفر ،
والظلم ... بعد كل ذلك نوهت بشأن عيسى - عليه السلام - وبشأن الإنجيل ،
وأمرت أهله بأن يحكموا بما أنزل الله فيه .

قال : تعالى - « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما
أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » .

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن القرآن الكريم ، فوصفته
بأنه هو الكتاب المصدر لما بين يديه من الكتب ، وهو الميمن عليها ،
وهو الذى إليه المرجع فى الأحكام ، وأن الذين ييغون التحاكم إلى غيره
ضالون ظالمون .

قال - تعالى - « أقم الجاهلية ييغون ، ومن أحسن من الله حكماً
لقوم يوقنون » .

- ثم وجهت السورة الكريمة فى مطلع الربع الخامس (١) منها نداه
إلى المؤمنين لمرتهم فيه بأن يعملوا ولا يهتم لله ورسوله وإخوانهم فى العقيدة ،
ونتهم عن موالاة الذين يخالفونهم فى الدين ، ووصفت الذين يتولون من غضب
الله عليهم بالنفاق ومرض القلب ، وبشرت المطيعين لله بالنصر والظفر
قال - تعالى : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

ثم أمرت السورة الكريمة النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخ أهل الكتاب
بسبب كراهيتهم لأهل الحق ، وأن يخبرهم بأن المستحقين للكراهية هم أولئك
الذين لعنهم الله وغضب عليهم ، لكفرهم ، ومسايرتهم فى الآثم والعدوان ..

ولا فترائهم على الله - تعالى - الكذب ، حيث وصفوه - سبحانه - بالبخل والشح .

قال - تعالى - : « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً . وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، كلياً أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ، ويسمعون في الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين . »

وبعد أن بينت السورة المكرمة لأهل الكتاب أنهم لو آمنوا بالحق الذي جاءهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - لكفر الله عنهم سيئاتهم ، ولأدخلهم جنات النعيم ، ولرزقهم من فضله الرزق الجزيل ... بعد أن بينت كل ذلك ، وجهت في مطلع الربع السادس^(١) منها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أمرته فيه بتبليغ ما أمره الله بتبليغه بدون خشية أو تردد ، ووعدته بعصمة الله - تعالى - له من الناس كما أمرته بمصارحة أهل الكتاب بما هم فيه باطل وضلال ...

ثم سأقت جملة من الرذائل التي انغمس فيها أهل الكتاب ، فحككت نقضهم للهود والمواثيق ، وتكذيبهم للرسول نارة وقتلهم إياهم نارة أخرى ، كما حككت قولهم الباطل : « إن الله هو المسيح ابن مريم » . وقولهم : « إن الله ثالث ثلاثة » .

وقد هددتهم بالعذاب الأليم إذا ما تمادوا في ضلالهم وطغيانهم ، وحشتم على التوبة والاستغفار ، وأقامت لهم الأدلة على بطلان عقائدهم ، وبينت لهم القول الحق في شأن عيسى وأمه مريم حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم . .

قال - تعالى - : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يا كلان الطعام . . . »

ثم كشفت السورة عن الأسباب التي أدت إلى طرد الكافرين من بني إسرائيل من رحمة الله ، فقد كرت أنهم قد استحقوا ذلك بسبب عصيانهم ، واعتدائهم ، وعدم تناهيهم عن منكر فعلوه ، ولا ينهم لأهل الكفر وعداوتهم لأهل الإيمان ...

قال - تعالى - : ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لينس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم ، وفي العذاب هم خالدون . ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيراً منهم فاسقون .

ثم وضعت السورة الكريمة في مطلع الربع السابع (١) منها مراتب أعداء المؤمنين ، فصرحت بأن أشد الناس عداوة للمؤمنين هم اليهود والذين أشركوا . وأن أقربهم مودة إلى المؤمنين أولئك الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون

ثم وجهت فداء إلى المؤمنين تهتم فيه عن تحريم الطيبات التي أحلها الله لهم وأرشدتهم إلى ما يجب عليهم فعله إذا ما حنثوا في إيمانهم . وأمرتهم بحفظ هذه الأيمان ، وعدم اللجوء إليها إلا عند وجود المقتضى لها .

ثم أخبرتهم بأنه إذا كان الله - تعالى - قد أحل لهم الطيبات ، فإنه في الوقت نفسه قد حرم عليهم الخبائث ، وعلى رأس هذه الخبائث : الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، فعليهم أن يجتنبوا هذه الأرجاس لينالوا رضا الله في عاجلتهم وآجلتهم ...

ثم ساقَت السورة الكريمة ألواناً من مظاهر نعم الله على عباده ورحمته بهم حيث أباح لهم أن يتمتعوا بما أحله الله لهم مع مراقبته وخشيته في كل ما يأتون وما يذرون ، ومع التزامهم بتعاليم شريعة الله في الحل وفي الحرم .

وبعد هذا الحديث المستفيض عما أحله الله وعما حرمه ، أخذت السورة في مطلع الربع الثامن (١) منها في التنويه بشأن الكعبة وبشأن البيت الحرام ، ووظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ...

ثم نهت المؤمنين عن الأسئلة التي لا منفعة من ورائها ، فإن هذا يتنافى مع ما يقتضيه إيمانهم من أدب في القول ، ومن تطالع إلى ما ينفع و فيسد قال - تعالى - ، يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها ، والله غفور حلیم . قد سأها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ، .

ثم حكمت السورة أنواعا من الأوهام التي تعلق بها أهل الجاهلية ، حيث حرموا على أنفسهم بعض المطاعم التي أحلها الله ، مستغنين في تحريمهم لما حرموه إلى عادات جاهلية اعتنقوها ، وهذه العادات أبعد ما تكون عن شرع الله ، وعما تقتضيه المقول السليمة

وفي وسط هذا الحديث عما أحله الله وحرمه ، سأقت السورة توجيها حكما للمؤمنين ، حيث بينت لهم أن الداعي إلى الله متى قام بواجبه نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو غيره ، فإنه لا يكون بعد ذلك مسئولا عن ضلال من ضل .

قال - تعالى - ، يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ، .

وبعد أن بينت بعض الأحكام التي تتعلق بالوصية ووسائل إثباتها ، فوهت السورة الكريمة في الربع الأخير منها (٢) بشأن عيسى - عليه السلام - ، وحكت بعض المعجزات التي أبدها الله بها في رسالته ، وقصت ما طلبه الحواريون منا حيث قالوا له - كما حكى القرآن عنهم - :

(١) الآيات من ٩٧ - ١٠٨

(٢) الآيات من ١٠٩ إلى نهاية السورة .

« هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء . . . » وسأقت مدار بينهم وبين عيسى - عليه السلام - من محاورات في هذه المسألة .

ثم ختمت السورة حديثها عن عيسى بتلك الآيات التي تحكى براءته من كل ما افتراه المفترون عليه ، وأنه - عليه السلام - لم يأمر قومه إلا بعبادة الله وحده ، وأنه لم يكن إلا رسولا من رسل الله الذين أخلصوا له - سبحانه - العباد والطاعة . استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكى هذا المعنى بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانه . ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، إناك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به ، أن أعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فىهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم .

٨ - هذا عرض يحمل للتشريعات والقصاص والآداب والتوجيهات التى اشتملت عليها سورة المائدة . ومن هذا العرض نستطيع أن نستخلص بعض الحقائق البارزة فى هذه السورة بصورة أظهر منها فى غيرها . ومن تلك الحقائق ما يأتى :

١ - أن السورة الكريمة زاخرة بالأحكام الشرعية المتنوعة ، فأتت تفرؤها بتدبر وخشوع فتراها قد بينت أحكاما شرعية منها ما يتعلق بالحلال والحرام من الذبائح ومن الصيد ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام فى فترة الإحرام وفى المسجد الحرام . ومنها ما يتعلق بالحلال والحرام من النكاح ، ومنها ما يتعلق بالطهارة والصلاة والتميم ، ومنها ما يتعلق بوجوب التزام العدل فى القضاء وفى الشهادة وفى غيرهما . ومنها ما يتعلق بالحدود فى السرقة وفى قطع الطريق والإفساد فى الأرض . ومنها ما يتعلق بأهل الكتاب إذا ماتوا

إليها . ومنها ما يتعلق بكفارات الإيمان وكفارات قتل الصيد في حالة الإحرام . ومنها ما يتعلق بالخمر والميسر والأنصاب والأزلام . ومنها ما يتعلق بالبحر والسائبة والوصيلة والحامى من الأنعام . ومنها ما يتعلق بالوصية عند الموت . إلى غير ذلك من الأحكام الشرعية التي أفاضت في الحديث عنها هذه السورة المكرّمة

قال القرطبي : قال أبو ميسرة : المائدة من آخر ما نزل ليس فيه منسوخ . وفيها ثمان عشرة فريضة ليست في غيرها ، وهي : المنخنة والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع ، وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ، وما علمتم من الجوارح مكلّبين ، وطعام الذي أقوا الكتاب ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، وتم الطهور : إذ قتم إلى الصلاة ، أي : إتمام ما لم يذكر في سورة النساء . والسارق والسارقة ، ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ، إلى قوله : عز ذو انتقام . وما جعل الله من بحيرة ، لاسائبة ولا وصيلة ولا حام . وقوله تعالى : شهادته بينكم إذا حضر أحدكم الموت . الآية .

ثم قال القرطبي : قلت : وفريضة تاسعة عشرة وهي قوله تعالى : وإذا ناديتكم إلى الصلاة ، إذ ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السور أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة . وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات . (١)

٢ - أن الذي يقرأ سورة المائدة يراها قد وجهت جملة من النداءات إلى المؤمنين وقد تجاوزت هذه النداءات في كثرتها ، تلك النداءات التي وردت أطول سورة في القرآن وهي سورة البقرة .

فقد وجهت سورة المائدة إلى المؤمنين ستة عشر نداء . وقد تضمن نداء تشريعاً من التشريعات ، أو أمراً من الأوامر : أو نهياً من النواهي ،

توجيها من التوجيهات ؛ مما يدل على أن هذه السورة قد اهتمت اهتماما ملحوظا بتربية المؤمنين على المنهج الذي اختاره الله لهم ، لاسيما بعد أن أكمل - سبحانه - لهم دينهم ، وأنتم عليهم نعمته .

وهذه هي النداءات التي وجهها الله - تعالى - إلى المؤمنين ، نسوقها مرتبة كما وردت في السورة .

- ١ - قال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » الآية ١
- ٢ - وقال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله » الآية ٢
- ٣ - : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا » الآية ٦
- ٤ - : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » الآية ٨
- ٥ - : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم » الآية ١١
- ٦ - : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة » الآية ٢٥
- ٧ - : « يا أيها الذين آمنوا من يرد منكم عن دينه » الآية ٤٥
- ٨ - : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم » الآية ٥٧
- ٩ - : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرما طيبات ما أحل الله لكم » الآية ٨٧
- ١٠ - : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب » الآية ٩٠
- ١١ - : « يا أيها الذين ليبلونكم الله بشيء من الصيد » الآية ٩٤
- ١٢ - : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » الآية ٩٥
- ١٣ - : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تشؤكم » الآية ٢٠٦

١٥ - : يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم، الآية ٥ .

١٦ - : يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحد

الموت ، الآية ٦ .

هذه هي النداءات التي وجهها - سبحانه - إلى المؤمنين في سورة المائدة وأنت إذا تأملت فيها ترى كل نداء منها يعتبر قانوناً منظماً لناحية من نواحي الحياة عند المسلمين فيما يختص بأنفسهم ، أو فيما يختص بعلاقتهم بغيرهم .

ومن فصل القول في هذه الآيات المشتملة على تلك النداءات عند تفسيرها - إن شاء الله - .

٣ - أن السورة الكريمة حافلة بالحديث عن أحوال أهل الكتاب فقد تحدثت عن عقائد الفاسدة ، وردت عليهم بما يبطل معتقداتهم بأسلوب منطقي رصين : ولم تكف بهذا بل أرشدتهم في كثير من آياتها إلى طريق الحق حتى يسلكوه ، وحتى لا يكون لهم عذر يوم القيامة . وأمرت النبي - صلى الله عليه وسلم - في كثير من آياتها - أيضاً - أن يكشف لهم عن ضلالهم وفسوقهم من أمر ربهم .

ومن ذلك قوله - تعالى - : د قل يا أهل الكتاب هل تنعمون منّا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ، .

وقوله - تعالى - : د قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم ، .

وقوله - تعالى - : د قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل ، .

وقد ذكرت السورة الكريمة - كما سبق أن أشرنا - ألواناً من مسالة اليهود الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، كتحاكمهم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لا بقصد الوصول إلى الحق ، وإنما بقصد إظهاره بمظهر الجاهل بأحكام التوراة

ولكن الله - تعالى - خيب سعيهم ، وأبطل مكرهم ، وكاستهزأهم بالدين الإسلامى وشعائره :

قال - تعالى - : « وإذا ناديتهم إلى للصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ،

كما ذكرت - أيضا - أنواعا من رذائلهم التى من أشنعها : نقضهم للعهود والمواثيق ، ومسارعهم فى الإثم والعدوان ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، ومكذبيهم للرسل نارة ، وقتلهم لهم نارة أخرى ...

أما فيما يتعلق بالنصارى فقد تميزت سورة المائدة بالإضافة فى الحديث عنهم بصورة لا تسكاد توجد فى غيرها بهذه السعة .

فقد تحدثت عن عقائدهم الباطلة ، وعن أفوالهم الكاذبة فى شأن عيسى - عليه السلام - وفى شأن أمه مريم ، وردت عليهم بما يدحض حججهم ، وبما يرشدهم إلى الصراط المستقيم ...

وقد أنصفت السورة من يستحق الإنصاف منهم ، وبشرت أولئك الذين اتبعوا الحق منهم بالثواب الجزيل من الله - تعالى - .

٢ - أن الذى ينظر فى الأحكام والتشريعات والتوجيهات التى اشتملت عليها سورة المائدة ، يراها تمتاز بأنها أحكام نهائية لا تقبل النسخ .

وخذ على سبيل المثال ماورد فى هذه السورة بشأن تحريم الخمر ، فإنك تراه قاطعا وحاسما فى التحريم .

فلقد مر تحريم الخمر بمراحل كان أولها قوله - تعالى - فى سورة البقرة : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ... » (الآية ٢١٩) .

وكان ثانيها قوله - تعالى - فى سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ... » (الآية ٤٣) .

وكان آخرها قوله - تعالى - هنا فى سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا

إنما الخمر الميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون . .

والسر في أن الأحكام الشرعية التي وردت في هذه السورة تعتبر نهائية ولا تقبل النسخ ، أن معظم آياتها - كما سبق أن ذكرنا - كان من آخر ما نزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - من قرآن ، وكان نزول كثير من آياتها بعد أن انزوى الشرك في مخالبه ، وصار المسلمون في قوة ومنعة ، كانوا بهما أصحاب الساطن في مكة وفي بيت الله الحرام ، دون أن يتعرض لهم متعرض لهم ، أو ينازعهم منازع ، فقد تم فتح مكة ودخل الناس في دين الله أفواجا .

ولهذا فأنت لا ترى السورة الكريمة تتحدث عن الشرك أو عن المشركين ، أو عن الجهاد في سبيل الله وما يتعلق به من حض عليه ومن أحكام تختص به .

ولما سورة المائدة تتحدث عن قضايا أخرى كان المسلمون في حاجة إليها عند نزولها . ومن أم هذه القضايا : حث المؤمنين على التزام العهود والمواثيق وتحذيرهم من الإخلال بشيء منها ، وإنزال التشريعات التي هم في حاجة إليها بعد أن تم لهم النصر على أعدائهم ، وإرشادهم إلى طرق المحاجة والمناقشة التي يردون بها على ما يشيره أهل الكتاب من شبهات حول تعاليم الإسلام وآدابه وتشريعاته . وبيان وجه الحق فيما حكته السورة عن أهل الكتاب من أقوال باطلة ، ومن معتقدات فاسدة

أما فيما يتعلق بالشرك والمشركين أو بالجهاد في سبيل الله ، فلم يكن مقتضى حال المسلمين يستدعي الكلام في ذلك ، لأن نزول معظمها كان بعد أن تم للمسلمين النصر على أعدائهم ، وبعد أن أصبحت كلمتهم هي العليا ، وكلمة المشركين هي السفلى . . .

وقد تكفلت السور المدنية الأخرى التي نزلت قبل سورة المائدة ، بالحديث

المستفيض عن الشرك وعن المشركين ، وعن الخوض على الجهاد في سبيل الله ، وعن غير ذلك من القضايا التي تقتضيها حالة المسلمين .

وبعد : فهذا التمهيد بين يدي السورة الكريمة تعرضنا خلاله لمكان نزولها ولزمانه ، ولوجه تسميتها بسورة المائدة . وللمقاصد الإجمالية التي اشتملت عليها ، وللأمور البارزة فيها . . .

وقد قصدنا بهذا التمهيد إعطاء القارئ الكريم فكرة واضحة عن هذه السورة ، قبل البدء في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل . والله الهادي إلى سواء السبيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة المائدة

قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ (١) » .

وقوله : « أوفوا » من الإيفاء . ومعناه : الإتيان بالشئ . وافياً تاماً لا نقص فيه . ولا نقص معه . يقال وفي بالعهد وأوفى به إذا أدى ما التزم به .

قال صاحب الانتصاف : ورد في الكتاب العزيز « وفي » بالتضييف في قوله - تعالى - : « وإبراهيم الذي وفى » . وورد « أوفى » كثيراً . ومعناه « أوفوا بالعقود » . وأما « وفى » ثلاثياً فلم يرد إلا في قوله - تعالى - : « ومن أوفى بعده من الله » . لأنه بنى أفعل التفضيل من « وفى » : إذ لا ينفى إلا من ثلاثي ، (١) .

والعقود : جمع عقد - بفتح العين - . وهو العهد الموثق :

قال الراغب : العقد : الجمع بين أطراف الشئ . ويستعمل ذلك في الأجسام الصلبة كعقد الحبل ، وعقد البناء . ثم يستعار ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما : فيقال : عاقده ، وعقده ، وتعاقدا ...

وهو مصدر استعمل اسماً فجمع نحو : « أوفوا بالعقود » ، (٢) .

(١) حاشية ابن المنبر على الكشاف ج ١ ص ٦٠٠

(٢) للفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ج ٢ ص ٢٤١

وقد فرّق بعضهم بين العقد والعهد فقال : ، والعقود جمع عقد وهو بمعنى العقود ، وهو أوكده العهد . والفرق بين العقد والعهد أن العقد فيه معنى الاستيثاق والشد ، ولا يكون إلا بين متعاقدين . والعهد قد ينفرد به الواحد . فكل عهد عقد ولا يكون كل عقد عهدا ... (١) .

والمراد بالعقود هنا : ما يشمل العقود التي عقدها الله علينا وألزمنا بها من الفرائض والواجبات والمنهوبات ، وما يشمل العقود التي تقع بين الناس بعضهم مع بعض في معاملاتهم المتنوعة ، وما يشمل العهود التي يقطعها الإنسان على نفسه ، والتي لا تتنافى مع شريعة الله - تعالى - .

وبعضهم يرى أن المراد بالعقود هنا : ما يتعاقد عليه الناس فيما بينهم كعقود البيع ، وعقود النكاح ...

وبعضهم يرى أن المراد بها هنا : العهود التي كانت تؤخذ في الجاهلية على النصرة والموازنة للمظلوم حتى ينال حقه ...

والأول أولى لأنه أليق بعموم اللفظ ، إذ هو جمع محلي بأل المفيدة للجنس وأوفى بعموم الفائدة .

قال القرطبي : والمعنى : أوفوا بعقد الله عليكم ، وبعقدكم بعضكم على بعض . وهذا كله راجع إلى القول بالعموم وهو الصحيح في الباب . قال - صلى الله عليه وسلم - : « المؤمنون عند شروطهم » . وقال : « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط » .

فبين أن الشرط أو العقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله . أي : دين الله . فإن ظهر فيها ما يخالف رد ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ، (٢) ...

(١) تفسير الطبرسي ج ٦ ص ٧ طبعة دار مكتبة الحياة سنة ١٣٨٠ هـ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٣ .

والبهيمة : اسم لذوات الأربع من دواب البر والبحر .

قال الفخر الرازي : قالوا كل حي لاعتقـل له فهو بهيمة . من قولهم : استبهم الأمر على فلان إذا أشكل عليه . وهذا باب مبهم أى : مسدود الطريق . ثم أختص هذا الاسم بكل ذات أربع في البر والبحر ،

والأنعام جمع نعم - بفتحـتين - . وأكثر ما يطلق على الإبل ، لأنها أعظم نعمة عند العرب . والمراد بالأنعام هنا : ما يشمل الإبل والبقر والغنم . ويلحق بها كل حيوان أو طير يتغذى من النبات ، ولم يرد نص بتحريمه فيدخل الطيبى وحمار الوحش وغيرهما من آكلات العشب ، كما تدخل الطيور غير الجارحة وإضافة البهيمة إلى الأنعام إضافة بيانية من إضافة الجنس إلى ما هو أخص منه كشجر الأراك ، وثوب الخز .

أى : أحل الله لكم أيها المؤمنون الانتفاع بهيمة الأنعام . وهذا الانتفاع بلحمها وجلدها وعظمها وصوفها وما أشبه ذلك بما أحله الله منها .

قال الألوسى مامـلخصه : وقال غير واحد : البهيمة اسم لكل ذى أربع من دواب البر والبحر . وإضافتها إلى الأنعام للبيان كمحـوب خز . أى : أحل لكم أكل البهيمة من الأنعام . وهى الأزواج الثمانية المذكورة فى سورتها ..

وأفردت البهيمة لإرادة الجنس : وجمع الأنعام ليشمل أنواعها . وألحق بها الظباء وبقر الوحش . وقيل : هما المراد بالبهيمة ونحوهما مما يماثل الأنعام فى الاجترار وعدم الأنياب .. وإضافتها إلى الأنعام حينئذ للملازمة المشابهة بينهما

وقيل : المراد بهيمة الأنعام : ما يخرج من بطونها من الأجنة بعد ذكاتها وهى ميتة ، فيكون مفاد الآية صريحاً حل أكلها . وبه قال الشافعى ... (١).

وقوله : « إلا ما يتلى عليكم » ، إستثناء مما أحله - سبحانه - لهم من بهيمة الأنعام . أى : أحل الله لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم بعد ذلك فى كتابه أو على لسان رسوله فإنه محرم عليكم .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : « إلا ما يتلى عليكم » ، لى يقرأ عليكم فى القرآن والسنة من قوله - تعالى - فى الآية الثالثة من السورة نفسها - « حرمت عليكم الميتة والدم ... الخ » ، وقوله - صلى الله عليه وسلم - « كل ذى ناب من السباع فأكله حرام » .

فإن قيل : الذى يتلى علينا الكتاب وليس السنة ؟ قلنا : كل سنة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى كتاب الله . والدليل عليه أمران : أحدهما : حديث العسيف « لأقضى بينكما بكتاب الله » ، والرجم ليس منصوصاً عليه فى كتاب الله . الثانى : حديث عبد الله بن مسعود : « ومالى لا ألعن من لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو فى كتاب الله ... »

ويحتمل إلا ما يتلى عليكم الآن . أو ما يتلى عليكم فيما بعد من مستقبل الزمان على لسان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فىكون فيه دليل على جواز تأخير البيان عن وقت لا يفتقر فيه إلى تعجيل الحاجة .

وقوله : « غير محلى تصيد وأنتم حرم » ، بيان لما حرم عليهم فى أحوال معينة ، وبسبب أمور أقرنت به .
وقوله : « حرم » ، جمع حرام . يقال . أحرم الرجل فهو محرم وحرام ومم حرم .

وقوله : « محلى » ، جمع محل بمعنى مستحل . والتصيد مصدر بمعنى الإصطياد . أو اسم للحيوان المصيد .

وقوله : « غير محلى الصيد » ، حال من الضمير فى « لكم » .

وقوله : « وأنتم حرم » ، حال من الضمير فى « محلى » .

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا كونوا أوفياء بعهودكم مع الله ومع أنفسكم ومع غيركم ، فقد أحل الله - تعالى - بهيمة الأنعام لتنتفعوا بها فضلا منه وكرما ، إلا أنه - سبحانه - حرم عليكم أشياء رحمة بكم فاجتنبوها ، كما حرم عليكم الاصطياد أو الانتفاع بالمصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، سواء أكنتم في الحل أم كنتم في الحرم ويدخل في حكم الحرم من كان في الحرم وليس محرما .

وذلك لأن الحرم أو من كان في أرض الحرم يجب عايه أن يكون مشغلا بما يرضى الله ، وأن يحترم هذه الأماكن المقدسة التي جعلها الله أمانا ، واطمئنانا ، وعبادة لله رب العالمين .

وقد دعا الله - تعالى - المؤمنين إلى الوفاء بالعقود ، وناداهم بوصف الإيمان ، ليجتنبهم على أمثال ما كفهم به ، لأن الشأن في المؤمن أن يمثل لما أمره الله به أو لما نهاه عنه .

روى ابن أبي حاتم ، أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال : أعمد إلى . فقال له : إذا سمعت الله يقول : يا أيها الذين آمنوا... ، فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه وقوله : إن الله يحكم ما يريد ، تذييل قصد به بيان مشيئة الله النافذة ، وإرادته الشاملة ، وحكمه الذي لا يعقب عليه معقب .

أى : إن الله يحكم بما يريد أن يحكم به من الأحكام التي تتعلق بالحلال وبالحرام وبغيرهما ، بمقتضى مشيئته المبنية على الحكم البالغة ، دون أن ينازعه منازع ، أو يعارضه معارض ، فاستجيبوا - أيها المؤمنون - لحكمه لتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب الوفاء بالعهود التي شرعها الله - تعالى - . وهذا المعنى ترى سورة المائدة زاخرة به في كثير من آياتها .

فأنت ترى في مطلعها هذه الآية الكريمة التي تمحض على الوفاء بالعقود ، ثم ترى الآية الثانية منها تنهى عن الإخلال بشيء من شعائر الله ، ثم تراها بعد

ذلك بقليل تذكر المؤمنين بنعم الله عليهم وبميثاقه الذي واثقهم به : واذكروا
نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به ، ثم نحكي أن من الأسباب التي أدت
إلى طرد بني إسرائيل من رحمة الله ، نقضهم لمواثيقهم . . . فبما نقضهم ميثاقهم
لعنهم . . .

وهكذا نرى السورة الكريمة حافلة بالتوجيهات التي تحض المؤمنين على
التزام العهود والمواثيق التي شرعها الله ، وتحذرم عاقبة إهمالها ، أو الإخلال
بشيء منها .

كما اخذ العلماء منها حل بهيمة الأنعام من جهة الانتفاع بلحومها وجلودها
وأصوافها .. وحرمة ما حرم الله - تعالى - منها في موطن أخرى .
كما أخذوا منها حرمة الأسطياد أو الانتفاع بالمصيد على من كان محرماً
بحج أو عمرة ، وعلى من كان في أرض الحرم ولو لم يكن محرماً .

قال القرطبي : وهذه الآية تلوح فصاحتها . وكثرة معانيها على قلة ألفاظها
لكل ذي بصيرة بالكلام ، فإنها تضمنت خمسة أحكام :

الأول : الأمر بالوفاء بالعقود . الثاني : تحليل بهيمة الأنعام . الثالث :
استثناء ما يلي بعد ذلك . الرابع : استثناء حال الإحرام فيما يصاد . الخامس :
ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم .

وحكى النقاش أن أصحاب الكندي قالوا له : أيها الحكميم أعمل لنا شيئاً
مثل هذا القرآن . فقال : نعم أعمل مثله . فاحتجب أياماً كثيرة ثم
خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد . أني فتحت المصحف فخرجت
سررة المسائدة . فنظرت فإذا هو نطق بالوفاء ونهى عن النكاح ، وحل تحليلها
عاماً ، ثم استثنى استثناء بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ،
ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا (١) .

وبعد أن أشار - سبحانه - إلى ما أحل لعباده من طيبات ، وما حظره عليهم من أفعال ، أتبع ذلك ببناء آخر إليهم نهاهم فيه عن استحلال أشياء معينة فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْمِلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ ، وَلَا الشَّعِيرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَقُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ، وَلَا يَجْزِي مِنْكُمْ شَيْءٌ أَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) » .

وقوله : « لا تحلوا » من الإحلال الذي هو ضد التحريم . ومعنى عدم إحلالهم لشعائر الله : تقرير حرمتها عملاً واعتقاداً ، والالتزام بها بالطريقة التي قررتها شريعة الله .

والشعائر : جمع شعيرة - على وزن فعيلة - وهي في الأصل ما جعلت شعاراً على الشيء . وعلامة عليه من الإشارات بمعنى الاعلام . وكل شيء اشتهر فقد أعلم . يقال : شمرت بكذا . أي علمته .

والمراد بشعائر الله هنا : حدوده التي حددها ، وفرائضه التي فرضها ، وأحكامه التي أوجبها على عباده .

ويرى بعضهم أن المراد بشعائر الله هنا : مناسك الحج وما حرمه فيه من لبس للثياب في أثناء الاحرام . ومن غير ذلك من الأفعال التي نهى الله فعلها في ذلك الوقت فيكون المعنى . لا تحلوا ما حرم عليكم حال إحرامكم . والقول الأول أولى لشموله لجميع التكاليف التي كلف الله بها عباده .

وقد رجحه ابن جرير بقوله : وأولى التأويلات بقوله : لا تحلوا شعائر الله ،

قول من قال : لا تحلوا حرمات الله ، ولا تضيعوا فرائضه ... فيدخل في ذلك مناسك الحج وغير ذلك من حدوده وفرائضه وحلاله وحرامه ...

وإنما قلنا ذلك القول أولى ، لأن الله نهى عن استحلال شعائره ومعالم حدوده وإحلالها ، نهياً عاماً من غير اختصاص شيء من ذلك دون شيء . فلم يجوز لأحد أن يوجه معنى ذلك إلى الخصوص إلا بحجة يجب التسليم لها . ولا حجة بذلك .. (١)

وأضاف - سبحانه - الشعائر إليه - تشریفاً لها ، وتحويلاً للعقوبة التي اقترت على التهاون بحرماتها ، وعلى مخالفة ما أمر الله به في شأنها .

وقوله : « ولا الشهر الحرام » معطوف على شعائر الله ، والمراد به الجنس . فيدخل في ذلك جميع الأشهر الحرم . وهي أربعة : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب وسمى الشهر حرماً : باعتبار أن إيقاع القتال فيه حرام . أي : لا تحلوا - أيها المؤمنون - القتال في الشهر الحرام ، ولا تبدؤا أعداءكم فيه بقتال :

قال ابن كثير : يعني بقوله : « ولا الشهر الحرام » تحريمه ، والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه ، من الابتداء بالقتال كما قال - تعالى - : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » قل قتال فيه كبير ، وقال - تعالى - « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً » . وفي صحيح البخاري عن أبي بكرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال في حجة الوداع : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً . منها أربعة حرم ... وهذا يدل على استمرار تحريمها إلى آخر وقت . كما هو مذهب طائفة من السلف ...

وذهب الجمهور إلى أن ذلك منسوخ . وأنه يجوز إبتداء القتال في الأشهر

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٥٥ - وتأخير -

(٣ - سورة المائدة)

الحرم . واحتجوا بقوله - تعالى - ، فإذا انسلك الشهر الحرام فاقتلوا المتترحين حيث وحدثهم . .

والمراد أشهر التسيير الأربعة . قالوا : فلم يستثن شهرا حراما من غيره . . (١) والمقصود بالهدى في قوله ، ولا الهدى ، ما يتقرب به الإنسان إلى الله من النعم لينذبح في الحرم . وهو جمع هدية - بتسكين الدال - .

آى : ولا تحلوا حرمة ما يهدى إلى البيت الحرام من الأنعام تقربا إلى - تعالى - ، بأن تعرضوا له بنحو غضب أو سرقة أو حبس عن بلوغه إلى عهده . وخص ذلك بالذكر مع دخوله في الشعائر ، لأن فيه نفعا للناس ، ولا قد يتساهل فيه أكثر من غيره ، ولأن في ذكره تعظيما لشأنه .

وقوله : ، ولا القلائد ، جمع قلادة ، وهى ما يعلق به الهدى ليعلم أنه مهدى إلى البيت الحرام فلا يتعرض له أحد بسوء .

وقد كانوا يضعون في أعناق الهدى صفائر من صوف ، ويربط بها نعلان أو قطعة من لحاء الشجر أو غيرهما ليعلم أنه هدى فلا يعتدى عليه والمراد : ولا تحلوا ذوات القلائد من الهدى بأن تعرضوا لها بسوء .

وخصت بالذكر مع أنها من الهدى تشريفا لها واعتناءا بشأنها ، لأن الثواب فيها أكثر ، وبها الحج بها أظهر . فكأن قيل : لا تحلوا الهدى وخصوصا ذوات القلائد منه .

ويجوز أن يراد النهى عن التعرض لنفس القلائد مباغاة في النهى التعرض لذواتها أى : لا تعرضوا للقلائد الهدى فضلا عن ذاتها .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذين الوجهين بقوله : وأما القائلان ففيهما وجهان : أحدهما : أن يراد بها ذوات القلائد من الهدى وهى اليد وتعطف على الهدى للاختصاص وزيادة التوصية بها لأنها أشرف الهدى كما

• وجبريل وميكال ، كأنه قيل : والقلائد منها خصوصا . والثاني : أن ينهى عن التعرض لقلائد الهدى مبالغة في النهي عن التعرض للهدى . على معنى : ولا تحلوا قلائدها فضلا عن أن تحلوها . كما قال « ولا يبدن زينتهن ، قهى عن إبداء الزينة مبالغة في النهي عن إبداء مواعها » (١) .

وقوله : « ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ، معطوف على قوله : « لا تحلوا شعائر الله » .

وقوله : « آمين » جمع آم من الأم وهو القصد المستقيم . يقال : أمت كذا أى : قصدته أى : ولا تحلوا أذى قوم قاصدين زيارة البيت الحرام بأن تصدوهم عن دخوله حال كونهم يطلبون من ربهم ثوابا ، ورضوانا لتعبدتهم في بيته المحرم ولكن ما المراد بهم هؤلاء الآمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ؟

قال بعضهم : المراد بهم المسلمون الذين يقصدون بيت الله للحج والزيارة . فلا يجوز لأحد أن يمنعهم من ذلك بسبب نزاع أو خصام ، لأن بيت الله - تعالى - مفتوح للجميع وعلى هذا يكون التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى غيرهم في قوله « من ربهم » للتشريف والتكريم .

وبجمله « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » حال من الضمير المستكن في قوله « آمين » . وقد جرى بها لبيان مقصدهم الشريف ، ومسامح الجليل .

أى : قصدوا البيت الحرام يبتغون رزقا أو ثوابا من ربهم ، ويبتغون ما هو أكبر من كل ذلك وهو رضا - سبحانه - عنهم .

وعلى هذا القول تكون الآية الكريمة محكمة ولا نسخ فيها ، وتكون توجيهها عاما من الله - تعالى - لعباده بعدم التعرض بأذى لمن يقصد زيارة المسجد الحرام من إخوانهم المؤمنين ، مهما حدث بينهم من نزاع أو خلاف . وقال آخرون : المراد بهم المشركون . واستدلوا بما رواه ابن جرير عن

السدى من أن الآية نزلت في رجل من بني ربيعة يقال له الحطيم بن هند وذلك أنه أتى إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأله إلام تدعو ؟ فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم : أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فقال له : حسن ما تدعو إليه إلا أن لى أمراء لا أقطع أمرا دونهم ، ولعلى أسلم وآتى بهم . . فلما خرج من سرح من سرح المدينة فساهه وانطلق به . .

ثم أقبل من العمام القادم حاجا ومعه تجارة عظيمة . فسأل المسلمون النبي - صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم فى التعرض له . فأبى النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم نزلت الآية ، (١) .

وعلى هذا القول يفسر إبتغاء الفضل بمطلق الرزق عن طريق التجارة . وإبتغاء الرضوان بأنهم كانوا يزعمون أنهم على سداد من دينهم ، وأن الحج يقربهم من الله ، فوصفهم - سبحانه - على حسب ظنهم وزعمهم . ثم نسخ ذلك بقوله - تعالى - : إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . .

وعليه يكون إبتغاء الفضل والرضوان عاما للديوى والأخرى ولو فى زعم المشركين .

والذى نراه أولى هو القول الأول ، لأن الآية الكريمة مسوقة لبيان ما يجب على المؤمنين أن يفعلوه نحو شعائر الله التى هى حدوده وفرائضه ومعالم دينه ، ولأن قوله - تعالى - : " يستغفون فضلا من ربهم ورضواقا " هذا الوصف إنما يليق بالمسلم دون الكافر ، إذ المسلمون وحدهم هم الذين يقصدون بحجهم وزيارتهم لبیت الله الثواب والرضوان منه - سبحانه - .

قال الفخر الرازى : " أمرنا الله فى هذه الآية أن لا نخلف من يقصد بيته من المسلمين ، وحرّم علينا أخذ الهدى من المهديين إذا كانوا مسلمين . والدليل عليه أول الآية وآخرها .

(١) تفسير ابن جرير ٦ - من ٥٧ - بتصرف وتلخيص

أما أول الآية فهو : « لا يحملوا شعائر الله » . وشعائر الله إنما تليق بنسك المسلمين وطاعتهم لا بنسك الكفار .

وأما آخر الآية فهو قوله : « يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا » ، وهذا إنما يليق بالمسلم لا بالكافر ، (١) .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن استحلال أى شيء من الشعائر التى حرم الله - تعالى - إستحلالها ، وخصت بالذكر هذه الأمور الأربعة التى عطف عليها إهتماما بشأنها ، وهجرا للنفوس عن إنتهاك حرمتها ، لأن هذه الأمور الأربعة منها ما ترغب فيه النفوس بدافع شهوة الانتقام ، ومنها ما ترغب فيه النفوس بدافع المتعة والميل القلبي ، ومنها ما ترغب فيه النفوس بدافع الطمع وحب التملك ...

ثم أتبع - سبحانه - هذا النهى ببيان جانب من مظاهر فضله . حيث أباح لهم الصيد بعد الانتهاء من إحرامهم فقال : « وإذا حللتم فاصطادوا » .

أى : « وإذا خرجتم من إحرامكم أبيح لكم الصيد » ، وأبيح لكم أيضا كل ما كان مباحا لكم قبل الإحرام .

وإنما خص الصيد بالذكر ، لأنهم كانوا يرغبون فيه كثيرا . كبيرهم وصغيرهم ، وغنيهم وفقيرهم . والإشارة إلى أن الذى ينبغى الحرص عليه هو ما يعد قوتا تندفع به الحاجة فقط لا ما يكون من الكماليات ولا ما يكون لإرضاء للشهوات .

والأمر فى قوله : « فاصطادوا » ، للإباحة ، لأنه ليس من الواجب على المحرم إذا حل من إحرامه أن يصطاد . بل يباح له ذلك كما كان الشأن قبل الإحرام ومثله قوله - تعالى - « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » ، أى : أبيح لكم ذلك بعد الفراغ من الصلاة .

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين عن أن يحملهم البغض السابق لقوم لأنهم صدوم عن المسجد الحرام على أن يمنعهم من دخوله كما منعهم من دخوله أولئك القوم فقال - تعالى - : « ولا يجر منكم شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله : « لا تحلوا شعائر الله » ، لزيادة تقرير مضمونه ومعنى « ولا يجر منكم » ، ولا يحملنكم مأخوذ من جرمه على كذا إذا حمله عليها أو معناه : « ولا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب غير أنه في كسب مالا خير فيه . ومنه الجريمة .

وأصل الجرم : قطع الثمرة من الشجرة ، أطلق على الكسب ، لأن الكاسب ينقطع لكسبه .

قال صاحب الكشاف : جرم يجرى بجرى « كسب » ، في تعديبه إلى مفعول واحد واثنين .

تقول : جرم ذنباً نحو كسبه . وجرمته ذنباً ، نحو كسبته إياه . ويقال : أجرمته ذنباً ، على نقل المتعدى إلى مفعول بالهمزة إلى مفعولين . كقولهم : أكسبته ذنباً .. (١) .

والشأن : البغض الشديد . يقال : شئت الرجل أشنؤه شناً وشناً إذا أبغضته بغضاً شديداً .

والمعنى : « ولا يحملنكم - أيها المؤمنون - بغضكم الشديد لقوم بسبب أنهم منعوكم من دخول المسجد الحرام ، لا يحملنكم ذلك على أن تعتدوا عليهم ، فإن الشرك إذا كان يبرر هذا العمل ، فإن الإسلام - وهو دين العدل والتسامح - لا يبرره ولا يقبله ، ولكن الذي يقبله الإسلام هو إحترام المسجدا الحرام ، وفتح الطريق إليه أمام الناس حتى يزداد المؤمن إيماناً ، ويبقى العاصو إلى رشده وصوابه .

قال ابن كثير : وقوله : « ولا يجر منكم شأن قوم ... » أي : ولا يحملنكم بغض قوم ، قد كانوا صدوكم عن المسجد الحرام . وذلك عام الحديبية . ، على أن تعتدوا حكم الله فيهم فتقتصوا منهم ظلمنا وعدوانا ، بل احكموا بما أمركم الله به من العدل في حق كل أحد ... فإن العدل واجب على كل أحد ، في كل أحد ، وفي كل حال . والعدل ، به قامت السموات والأرض .

وقال بعض السلف : ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعن زيد ابن أسلم ، قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه بالحديبية ، حين صدق المشركون عن البيت ، وقد اشتد ذلك عليهم ، فربهم فاس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة . فقال الصحابة : نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم ، فنزلت هذه الآية ، (١)

وقوله : « شأن قوم » مصدر مضاف لمفعوله . أي : لا يحملنكم بغضكم قوما ...

وقوله : « أن صدوكم » - بفتح همزة أن - مفعول لأجله بتقدير اللام . أي : لأن صدوكم . فهو متعلق بالشأن .

وقوله : « أن تعتدوا » في موضع نصب على أنه مفعول به .

أي : لا يحملنكم بغضكم قوما صدكم إياكم عن المسجد الحرام الاعتداء عليهم . وقراءة « أن صدوكم » بفتح الهمزة - هي قراءة الجمهور ، وهي تشير إلى أن الصد كان في الماضي ، وهي واضحة ولا إشكال عليها .

قال الجمل : وفي قراءة لأبي عمرو وابن كثير بكسر همزة أن على أنها شرطية وجواب الشرط دل عليه ما قبله . وفيها إشكال من حيث إن الشرط يقتضي أن الأمر المشروط لم يقع . مع أن الصد كان قد وقع ، لأنه كان في عام الحديبية وهي سنة ست . والآية نزلت عام الفتح سنة ثمان ، وكانت مكة عام الفتح

في أيدي المسلمين فكيف يصدون عنها ؟ وأجيب بوجهين : أولهما لا نسلم أن الصد كان قبل نزول الآية ، فإن نزولها عام الفتح غير مجمع عليه . والثاني : أنه وإن سلمنا أن الصد كان متقدما على نزولها فيكون المعنى : إن وقع صد مثل ذلك الصد الذي وقع عام الحديبية - فلا تعتدوا - (١) .

قال بعضهم : وهذا لا يمنع من الجزاء على الاعتداء بالمثل ، لأن النهي عن استئناف الاعتداء على سبيل الانتقام ، فإن من يحمله البغض والعداوة على الاعتداء على من يبغضه يكون منتصرا لنفسه لا للحق . وحينئذ لا يراعى المماثلة ولا يقف عند حدود العدل ، (٢) .

ثم أمر الله - تعالى - عباده بالتعاون على فعل الخيرات وعلى ترك المنكرات فقال : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

والبر معناه : التوسع في فعل الخير ، وإسداء المعروف إلى الناس . والتقوى تصفية النفس وتطهيرها وإبعادها عن كل ما نهى الله عنه .

قال القرطبي : قال الماوردي : ذنب الله - تعالى - إلى التعاون بالبر ، وقرنه بالتقوى له ، لأن في التقوى رضا الله ، وفي البر رضا الناس . ومن جمع بين رضا الله ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته .

والإثم - كما يقول الراغب - اسم للأفعال المبطئة عن الثواب وجمعه آثام والإثم هو المتحمل للإثم . . . ثم أطلق على كل ذنب ومعصية .

والعدوان : تجاوز الحدود التي أمر الشارع الناس بالوقوف عندها .

أي : وتعاونوا - أيها المؤمنون - على كل ما هو خير وبر وسعادة لله - تعالى - ، ولا تتعاونوا على ارتكاب الآثام ولا على الاعتداء على حدوده ، فإن التعاون على الطاعات والخيرات إلى السعادة ، أما التعاون على ما يبغض الله - تعالى - فيؤدى إلى الشقاء .

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٤٥٩

(٢) تفسير المنار ج ٦ ص ١٢٦

قال الألوسي : والجملة عطف على قوله ولا يجر منكم... من حيث المعنى ، فكانه قيل : لا تعتدوا على قاصدي المسجد الحرام لأجل أن صدوكم عنه ، وتعاذوا عن العفو والإغضاء .

وقال بعضهم : هو استئناف ، والوقف على : أن تعتدوا ، لازم (١) . هذا ، وفي معنى هذه الجملة الكريمة وردت أحاديث كثيرة منها ما رواه مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إني أبدع بي - أي : هلكت دابتي التي أركبها - فأحملني . فقال : ما عندى . فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أدله على من يحمله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من دل على خير فله مثل أجر فاعله (٢) . وروى الإمام مسلم - أيضا - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا تنقص ذلك من أجورهم شيئا . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه . لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا (٣) .

وقوله - تعالى - : وانقروا الله إن الله شديد العقاب ، تذييل قصد به إنذار الذين يتعاونون على الإثم والعدوان .

أي : اتقوا الله - أيها الناس - واخشوه فيما أمركم ونهاكم ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب لمن خالف أمره ، وانحرف عن طريقه القويم .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد نهت المؤمنين عن استحلال ما حرمه الله عليهم من محارم ، وعن الإخلال بشيء من أحكامها ، كما نهتهم عن أن يحملهم بعضهم لغيرهم على الاعتداء عليه . وأمرتهم بأن يتعاونوا على فعل الخير الذي ينفعهم وينفع غيرهم من الناس ، وعلى ما يوصلهم إلى طاعته - سبحانه - وحسن مشورته ، ولا يتعاونوا على الأفعال التي يأتهم فاعلها ، وعلى مجاوزة حدود الله

(١) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - ج ٦ ص ٤١ - طبعة مصطفى الحلبي سنة

١٩٨٠ هـ سنة ١٩٦٠

(٢) صحيح مسلم - كتاب العلم - ج ٨ ص ٦٢

بالاعتداء على غيرهم . ثم حذرتهم في نهايتها من العقاب الشديد الذي ينزله .
سبحانه - بكل من عصاه ، واحرف عن هداه .

ثم شرع - سبحانه - في بيان المحرمات التي أشار إليها قبل ذلك بقوله :
« لا ما يتلى عليكم ، فبين ما يحرم أكله من الحيوان لأسباب معينة فقال - تعالى - :
« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ، وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
به ، والمنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع
إلا ما ذكيتُمْ ، وما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ، وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ
ذَلِكَ فِسْقٌ ، اليومَ يَبَيِّنَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ
وَاحْشَوْنِ ، اليومَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ
لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ ، فَإِنَّ
اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) » .

ففي هذه المحرمات يتجلى في قوله - تعالى - « حرمت عليكم الميتة » .
والميتة كما يقول ابن جرير - كل ماله نفس - أي دم ونحوه - مائلة من دواب
البر وطيوره ، مما أباح الله أكلها . أهليها ووحشيها . فارقنهار ووحها بغير تذكية .
وقال : بعضهم : الميتة : هو كل ما فارقه الحياة من دواب البر وطيوره بغير
تذكية شرعية ، مما أحل الله أكله ، (١) :

أي : حرم الله عليكم - أيها المؤمنون - أكل الميتة لحبث لحمها ، ببقاء بعض
المواد الضارة في جسمها .

وقد أجمع العلماء على حرمة أكل الميتة ، أما شعرها وعظمها فقال الأحناف
بطهارتهما وبجواز الانتفاع بهما . وقال الشافعية بنجاستهما وبعدم جواز
استعمالها .

وقد استثنى العلماء من المأثرة المحرمة السمك والجراد . فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن أبي أو في قال : « غزونا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سبع غزوات نأكل الجراد . (١) » .

وفيها - أيضا - من حديث جابر ، « إن البحر ألقى حوتاً ميتاً فأكل منه الجيش . فلما قدموا قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - : فقال : « كلوا رزقاً أخرجته الله ليكم . أطعمونا منه إن كان معكم . فأثاء بهضمهم بشيء منه (٢) » .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أحل لنا ميتتان ودمان . فأما الميتتان السمك والجراد . وأما الدمان فالنكبد والطحال ، (٣) » .

وثاني هذه المحرمات ما ذكره - سبحانه - في قوله : « والدم ، أي : وحرمة عليكم أكل الدم .

والمراد به : الدم المسفوح . أي السائل من الحيوان عند التذكية . لقوله - تعالى - في آية أخرى « أو دماً مسفوحاً » (٤) وهي خاصة . والآية التي معنا عامة . والخاص مقدم على العام .

وكان أهل الجاهلية يجعلونه في المباح ويشترونه ويأكلونه ، فحرمه الله - تعالى - لأنه يضر الأجسام .

أما الدم الذي يكون جامداً بأصل خلقته كالنكبد والطحال فإنه حلال كما جاء في حديث ابن عمر الذي سقناه منذ قليل .

وثالث هذه المحرمات ما جاء في قوله - تعالى - « ولحم الخنزير ، أي :

(١) أخرجه البخاري في باب غزوة سيف البحر من كتاب المغازي ج ٥ ص ٢١١

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧ .

(٤) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

وحرم عليكم الخنزير وكذلك شحمة وجلده وجميع أجزائه ، لأنه مستفذر
تعافه الفطرة ، وتضرر به الأجسام .

وخص لحم الخنزير بالذكر مع أن جميع أجزائه محرمة ، لأنه هو المقصود
بالأكل قال ابن كثير ما ملخصه : وقوله - تعالى - : ولحم الخنزير ، يعنى
إنسيه ووحشية ، واللحم بهم جميع أجزائه حتى الشحم . كما هو المفهوم من لغة
العرب ، ومن العرف المطرد ... وفي الصحيحين أن رسول الله ، - صلى الله
عليه وسلم - قال : إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام . فقيل :
يا رسول الله ، أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن ، وتدهن بها الجلود ،
يستصبح بها الناس ؟ فقال : لا . هو حرام : ثم قال : قاتل الله اليهود . إن الله
لما حرم شحومها جملوه - أى أذابوه - ثم باعوه فأكلوا ثمنه (١) .

ورابع هذه المحرمات بينه - سبحانه - بقوله : وما أهل لغير الله به ،
الإهلال : رفع الصوت عند رؤية الهلال . ثم استعمل لرفع الصوت
مطلقاً . ومنه : إهلال الصبى أى : صراخه بعد ولادته . والإهلال بالحج .
أى رفع الصوت بالتلبية .

وكانوا فى الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى آلهتهم ، سمو عليها أسماءها
- كالكلات والعزى - ورفعوا بها أصواتهم ، وسمى ذلك إهلالاً . ثم توسع فيه
فقيل لكل ذابح : مهل . سمي أو لم يسم . جهر بالتسمية أو لم يجهر .

والمعنى : وحرم عليكم - سبحانه - أن تأكلوا مما ذبح فذكر عليه عند ذبحه
غير إسم الله - تعالى - ، سواء إفتصر على ذكر غيره كقوله عند الذبح باسم الصنم
فلان ، أو باسم المسيح أو عزير أو فلان ، أو جمع بين ذكر الله وذكر غيره
بالعطف عليه كقوله : باسم الله وإسم فلان .

أما إذا جمع الذابح بين إسم الله وإسم غيره بدون عطف بأن قال : باسم الله
المسيح نبي الله ، أو باسم الله محمد رسول الله ، فالأحناف يجوزون الأكل

من الذبيحة ، ويعتبرون ذكر غير الله كلاماً مبتدأ بخلاف العطف فإنه يكون نصاً في ذكر غير الله .

وجمهور العلماء يحرمون الأكل من الذبيحة متى ذكر مع اسم الله إسماء آخر سواء أكان ذلك بالعطف أم بدونه .

وذهب جماعة من التابعين إلى تخصيص الغير بالأصنام ، وإلى حل ذبائح أهل الكتاب مطلقاً . والتحريم هنا ليس لذات الحيوان ، بلى لما صحبه من عمل فيه شرك بالله - تعالى - .

ثم ذكر - سبحانه - أربعة أنواع أخرى من المحرمات فقال : والمنخنقة والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، .

والمنخنقة : هي التي تموت خنقاً إما قصداً بأن يخنقها آدمي . وإما إتفاقاً بأن يعرض لها من ذاتها ما يخنقها .

والموقوذة : هي التي تضرب بمثل غير محدد كخشب أو حجر حتى تموت وكانوا في الجاهلية يضربون البهيمة بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها .

والوقد : شدة الضرب . وفلان وقيد أي : مشغن ضرباً . ويقال : وقده يقذه وقذا ضرباً حتى يسترخي وأشرف على الموت .

قال القرطبي : وفي صحيح مسلم عن عدي بن عدي بن حاتم قال قلت لرسول الله فإني أرمى بالمعراض الصيد فأصيب ؟ - والمعراض : وهو سهم يرمى به بلا ريش وأكثر ما يصيب بعرض عوده دون حده - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : إذا رميت بالمعراض فخرق - أي ففقد وأسال الدم - فكله . وإن أصاب بعرضه فلا تأكله . .

والمتردية : هي التي تتردى أي : تسقط من أعلى إلى أسفل فتموت من التردى مأخوذ من الردى بمعنى الهلاك - سواء تردت بنفسها أم رداها غيرها .

والنطيحة : هي التي تنطحها أخرى فتموت من النطاح . يقال : نطحه ينطحه وينطحه أى أصابه بقرنه .

والمعنى : وحرم الله عليكم كذلك - أيها المؤمنون - الأكل من المنخنقة ، والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، إذا ماتت كل واحدة من هذه الأنواع لهذه الأسباب دون أن تذكوها ذكاة شرعية ، لأن الأكل منها في هذه الحالة يعود عليكم بالضرر .

وتاسع هذه المحرمات ذكره - سبحانه - في قوله : وما أكل السبع إلا ما ذكيتم . .

المراد بالسبع كل ذو ناب وأظفار من الحيوان . كالأسد والثور والذئب ونحوها من الحيوانات المفترسة .

وقوله : ذكيتم ، من التذكية وهي الإنعام . يقال : ذكيت الغار إذا أنعمت إشتغالها .

والمراد هنا : إسالة الدم ، وفري الأوداج في المذبوح ، والنحر في المنحور والمعنى : وحرم عليكم - أيضا - الأكل مما افترسه السبع حتى مات سواء أكل منه أم لم يأكل ، إلا ما أدركتموه من هذه الأنواع وقد بقيت فيه حياة يضطرب معها اضطراب المذبوح وذكيتموه أى ذبحتموه ذبحا شرعيا : فإنه في هذه الحالة يحل لكم الأكل منه . فقوله : إلا ما ذكيتم ، الإستثناء هنا يرجع إلى هذه الأنواع الخمسة .

وقيل : إن الإستثناء هنا يختص بقوله : وما أكل السبع . .

أى : وحرم عليكم ما أكل السبع بعضه فمات بسبب جرحه ، إلا ما أدركتموه حيا فذكيتموه ذكاة شرعية فإنه في هذه الحالة يحل الأكل منه والأول أولى ، لأن هذه الأنواع الخمسة تشترك في أنها تعلققت بها أحوال قد تنفضى بها إلى الهلاك ، فإن هلكت بتلك الأحوال لم يبيع أكلها لأنها حينئذ ميتة ، وإذا أدركت بالذكاة في وقت تنفع فيه الذكاة لها جاز الأكل منها .

أما النوع العاشر من هذه المحرمات فيتجلى في قوله - تعالى - : وما ذبح على النصب ، والنصب : جمع أنصاب . كما كتب وكتاب . أو جمع نصب كسقف وسقف . ويصح أن يكون لفظ النصب واحدا وجمعه أنصاب مثل : طنب أطناب وعلى كل فمى حجارة كان الجاهليون ينصبونها حول الكعبة ، وكان عددها ثلاثمائة وستين حجرا ، وكانوا يذبحون عليها قرابينهم التي يتقربون بها إلى أصنامهم . ويعتبرون الذبح أكثر قربة إلى معبوداتهم منى تم على هذه النصب . وليست هذه النصب هي الأوثان ، فإن النصب حجارة غير منقوشة بخلاف الأوثان فإنها حجارة مصورة منقوشة .

والمعنى : وحرم عليكم - سبحانه - أن تأكلوا مما ذبح على النصب لأنه لم يتقرب به إلى الله ، وإنما تقرب به إلى الأصنام ، وما تقرب به إلى غير الله فهو فسق ورجس يجب البعد عنه .

هذه عشرة أنواع من المأكولات أحرمت الآية الكريمة الأكل منها ، لما إشتملت عليه من مضرة وأذى ، ولما صاحب بعضها من تقرب لغير الله . ويمكن لتجنب الأكل من هذه المعلومات أن الله - تعالى - قد حرمها ، لأنه - سبحانه - لا يحرم إلا الخبائث . ومن شأن المؤمن الصادق في إيمانه أن يقف عند ما أحله الله - تعالى - وحرمه .

ثم ذكر - سبحانه - نوعا من الأفعال المحرمة ، بعد ذكره لعشرة أنواع من المطاعم المحرمة فقال : ، وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق ، .

وإنما ذكر - سبحانه - هذا الفعل المحرم مع جملة المطاعم المحرمة ، لأنه مما إبتدعه أهل الجاهلية ؛ كما إبتدعوا ما إبتدعوه في شأن المطاعم .

والإستقسام : طلب معرفة ما قسم الإنسان من خير أو شر .

والأزلام : قداح الميسر واحدها زلم - بفتح اللام بفتح الزاى أو صمها - وسميت قداح الميسر بالأزلام ، لأنها زلمت أى سويت ، ويقال : رجل مزلم وامرأة مزلمة ، إذا كان جيد القد ، جميل القوام .

وكان لأهل الجاهلية عرق للاستقسام بالأزلام من أشهرها: أنهم كانت لديهم سهام مكتوب على أحدها : أمرني ربي . وعلى الآخر : نهاني ربي . والثالث غفل من الكتابة ، فإذا أرادوا سفراً أو حرباً أو زواجاً أو غير ذلك أتوا إلى بيت الأصنام واستقسموها ، فإن خرج الأمر أقدموا على ما يريدونه وإن خرج الناهي أمسكوا عنه ، وإن خرج الغفل أجالوها ثانية حتى يخرج الأمر أو الناهي .

والمعنى : وحرم عليكم - سبحانه - أن تطلبوا معرفة ما قسم لكم في سفر أو غزو أو زواج أو ما يشبه ذلك بواسطة الأزلام ، لأن هذا الفعل فسق ، أي : خروج عن أمر الله وطاعته .

فاسم الإشارة ، ذلكم ، يعود إلى الاستقسام بالأزلام خاصة . ويجوز أن يعود إليه وإلى تناول ما حرم عليهم .

قال ابن كثير : وقد ثبت في الصحيحين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما دخل الكعبة ، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها . وفي أيديهما الأزلام . فقال : قائلهم الله . لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً .

وثبت في الصحيحين أيضاً أن سراقه بن مالك بن جعشم لما خرج في طلب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر ، وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين قال فاستقسمت بالأزلام . هل أضرم أو لا ؟ فخرج الذي أكره : لا تضرم ، قال : فمضيت الأزلام واتبعتهما . ثم استقسم بها ثانية وثالثة . كل ذلك يخرج الذي يكره : لا تضرم . وكان كذلك وكان سراقه لم يسلم إذ ذاك . ثم أسلم بعد ذلك ، (١) .

فإن قيل إن الاستقسام بالأزلام هو لون من التفاؤل ، وكان - صلى الله عليه وسلم - يحب الفأل الحسن فلم صار فسقاً ؟

فالجواب أن هناك فرقاً شامعاً بين الاستقسام والأزلام وبين الفأل ؛ فإن

القال أمر الإنفاق تنفعل به النفس وتشرح للعمل مع رجاء الخير منه بخلاف الاستقسام بالأزلام فإن القوم كانوا يستقسمون بالأزلام عند الأصنام ويمتقدون أن ما يخرج من الأمر والنهي على تلك الأزلام بإرشاد من الأصنام فلماذا كان الاستقسام بها فسقا وخروجاً عن طاعة الله .

وفضلاً عن هذا فإن الاستقسام بالأزلام طلب لمعرفة علم الغيب الذي استأثر الله به ، وذلك حرام وافتراء على الله - تعالى - .

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد ذكرت أحد عشر نوعاً من المحرمات عشرة منها تتعلق بالمأكولات ، وواحد يتعلق بالأفعال .

وهناك مطعومات أخرى جاء تحريمها عن طريق السنة النبوية ، كتحريمه - صلى الله عليه وسلم - للأكل من لحوم الحمر الأهلية .

وبعد أن بين - سبحانه - هذه الأنواع من المحرمات التي حرمها على المؤمنين رحمة بهم ، ورعاية لهم ، أتبع ذلك ببيان مظاهر فضله عليهم ، وأمرهم بأن يجعلوا خشيتهم منه وحدة ، فقال - تعالى - : « اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشونهم واخشون ... » .

وقوله « اليوم » ظرف منصوب على الظرفية بقوله « ينس » ، والآلف واللام فيه للعهد الحضورى ، فيكون المراد به يوماً معيناً وهو يوم عرفة من عام حجة الوداع .

ويصح أن لا يكون المراد به يوماً بعينه ، وإنما أراد به الزمان الحاضر وما يتصل به ويدانيه من الأزمنة الماضية والآتية .

وقد حكى الإمام الرازى هذين الوجهين فقال ما ملخصه : وقوله : « اليوم ينس الذين كفروا من دينكم ... » ، فيه قرآن .

الأول : أنه ليس المراد به ذلك اليوم بعينه حتى يقال لهم ما ينسوا قبله بيوم أو يومين ، وإنما هو كلام خارج على عادة أهل اللسان أى لا حاجة بكم (٤ - سورة المائدة)

الآن إلى مداينة هؤلاء الكفار ، لأنكم الآن صرتم بحيث لا يطمع أحد من أعدائكم في توهين أمركم ونظيرة قوله : كنت بالأمس شابا واليوم قد صرت شيخا . ولا يريد بالأمس اليوم الذي قبل قومك ، ولا باليوم يومك الذي أنت فيه .

الثاني : أن المراد به يوم نزول هذه الآية . وقد نزلت يوم الجمعة من يوم عرفه بعد العصر في عام حجة الوداع سنة عشر من الهجرة ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - واقف بعرفات على ناقته العضباء ، (١) .

وقوله : اليوم ينس الذين كفروا من دينكم أى انقطع رجاؤهم في التغلب عليكم ، وفي إبطال أمر دينكم ، وفي صرف الناس عنه بعد أن دخلوا فيه أفواجا ، وبعد أن صار المشركون مقهورين لكم ، أذلة أمام قوتكم . . ومادام الأمر كذلك فلا تخشوم وأخشون ، أى : فلا تجعلوا مكانا خشية المشركين في قلوبكم فقد ضعفوا واستكانوا ، بل اجعلوا خشيتكم وخوفكم وهيبتكم من الله وحده الذى جعل لكم الغلبة والنصر عليهم .

ثم عقب ذلك - سبحانه - ببيان أكبر نعمه وأعظم منته على هذه الأمة الإسلامية فقال : اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً .

أى . اليوم أكملت لكم حدودى وفرائضى وحلالى وحرامى ، ونصرتكم على أعدائكم ، ونمكنت لىاباكم من أداء فريضة الحج دون أن يشارككم في الطواف بالبيت أحد من المشركين .

وأتممت عليكم نعمتى ، بأن أزلت دولة الشرك من مكة ، وجعلت كلمتكم هى العليا وكلمة أعدائكم هى السفلى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ، بأن اخترته لكم من بين الأديان . وجعلته الدين المقبول عندى ، فيجب عليكم الالتزام بأحكامه وآدابه وأوامره ونواهيه قال - تعالى - : ومن يبتغ غير الإسلام

دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ، وليس المراد بإكمال الدين أنه كان ناقصا قبل اليوم ثم أكمله ، وإنما المراد أن من أحكامه قبل اليوم ما كان مؤقتا في علم الله قابلا للنسخ ، ولكنها اليوم كملت وصارت مؤبدة وصالحة لكل زمان ومكان ، وغير قابلة للنسخ ، وقد بسط هذا المعنى كثير من المفسرين فقال الإمام الرازي : قال القفال : إن الدين ما كان ناقصا ألبتة ، بل كان أبدا كاملا . يعني : كانت الشرائع النازلة من عند الله في كل وقت كافية في ذلك الوقت إلا أنه - تعالى - كان عالما في أول وقت المبعث بأن ما هو كامل في هذا اليوم ليس بكامل الغد ولا صلاح فيه . فلا جرم كان ينسخ بعد الثبوت . وكان يزيد بعد العدم . وأما في آخر زمان المبعث فنزول الله شريعة كاملة . وحكم ببقائها إلى القيامة . فالشرع أبدا كان كاملا . إلا إن الأول كمال إلى زمان مخصوص . والثاني كمال إلى يوم القيامة . فلاجل هذا قال : « اليوم أكملت لكم دينكم » (١) .

وقال القرطبي ما ملخصه : لعل قاعلا يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم » يدل على أن الدين كان غير كامل في وقت من الأوقات . وذلك يوجب أن يكون جميع من مات من المهاجرين والأنصار ... قبل نزول هذه الآية ... ما نوا على دين ناقص ... ومعلوم أن النقص عيب ... ؟

فالجواب أن يقال له : لم قلت إن كل نقص فهو عيب وما دليلك عليه ؟ ثم يقال له : أرأيت نقصان الشهر هل يكون عيبا ، ونقصان صلاة المسافر أمر عيب لها ... ؟ لا شك أن هذا النقصان ليس بعيب ...

وقوله : « اليوم أكملت لكم دينكم » يخرج على وجهين :

أحدهما : أن يكون المراد بلغته أقصى الحد الذي كان له عندي فيما قضيته وقدرته ، وذلك لا يوجب أن يكون ما قبل ذلك ناقصا نقصان عيب ، لكنه يوصف بنقصان مقيد فيقال له : إنه كان ناقصا عما كان عند الله أنه ملحقه

، وضامه إليه . . وهكذا شرائع الإسلام شرعها الله شيئاً فشيئاً إلى أن انتهى - سبحانه - الدين منتهاه الذي كان له عنده .

وثانفهما : أنه أراد بقوله ، اليوم أكملت لكم دينكم ، أنه وفقهم للحج الذي لم يكن بقي عليهم من أركان الدين غيره ، فحجوا ، فاستجمع لهم الدين داء لأركانه ، وقياماً بفرائضه وفي الحديث : (بنى الإسلام على خمس . . .) قد كانوا يشهدوا ، وصلوا ، وزكوا ، وصاموا ، وجاهدوا ، واعتصموا ، لم يسكنوا حجوا ، فلما حجوا ذلك اليوم مع النبي - صلى الله عليه وسلم - نزل الله وهم بالوقوف عشية عرفة ، اليوم أكملت لكم دينكم . . . أي : كل وضعه لهم .

وقد روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر قال : يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرر ونها لو علينا أنزلت معشر اليهود نتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال وأي آية ؟ قال : (اليوم أكملت لكم دينكم . . .) قال عمر : إني لأعلم اليوم الذي أنزلت فيه والمسكان الذي أنزلت فيه نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعرفة في يوم الجمعة .

وروى أنها لما نزلت في يوم الحج الأكبر وقرأها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بكى عمر ، فقال له ما يبكيك ؟ فقال : أبكاني أفا كنا ، وبادة من ديننا فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - صدقت ، (١) .

وبعد أن ذكر - سبحانه - في صدر الآية أحد عشر نوعاً من المحرمات ، أتبع ذلك ببيان إكمال الدين وإتمام النعمة على المؤمنين . . . جاء ختام الآية بيان حكم المضطر إلى أكل شيء من هذه المحرمات فقال - تعالى - : (فمن نظر في غمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ، .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٦١ - بتصرف وتلخيص .

وقوله : اضطر ، من الاضطرار بمعنى الوقوع في الضرورة .
 والمخمصة : نخلو البطن من الغذاء عند الجوع الشديد . يقال خمسه الجوع
 خمصاً ومخمصة . إذا اشتد به . وفي الحديث : إن الطير تغدو خمصاً - أى جياعا
 ضامرات البطون - وتروح بطاناً - أى مشبعات ، . وقال الأعشى :
 يبيتون في المشتى ملاماً بطونهم وجاراتهم غرثى يبتن خمصاً
 أى : وجاراتهم جوعى وقد ضممت بطونهم من شدة الجوع .
 وقوله : متجانف ، من الجنف وهو الميل ، يقال : جنف عن الحق
 - كفرح - إذا مال عنه . وجنف عن دريفة - كفرح وضرب - جنفاً وجنرفاً
 إذا مال عنه .

والمعنى : فن ألجأه الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات في مجاعة
 شديدة حالة كونه غير مائل إلى ارتكاب لإثم من الآثام ، فلا ذنب عليه في ذلك
 لأن الله - تعالى - واسع المغفرة . فهو بكرمه يغفر لعباده تناول ما كان محرماً
 إذا اضطروا إلى تناوله لدفع الضرورة بدون بغى أو تعد ، وهو واسع الرحمة
 حيث أباح لهم ما يدفع عنهم الضرر ولو كان محرماً .

قال الألوسى : وقوله : غير متجانف لإثم ، أى غير مائل ومنحرف إليه
 ومختار له . بأن يأكل منها زائداً على ما يمسك ريقه فإن ذلك حرام . وقيل :
 يجوز أن يشبع عند الضرورة . وقيل : المراد غير عاص بأن يكون باغياً
 أو عادياً بأن يزعمها من مضطر آخر أو خارجاً في معصية (١) . .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت ما يحرم في حالة الاختيار ، وما يحل
 في حالة الاضطرار . وجاءت بين ذلك بحمل معترضة - وهى قوله : اليوم بشس
 الذين كفروا من دينكم . . . إلى قوله : ورضيت لكم الإسلام ديناً . لتأكيد
 تحريم هذه الأشياء ، لأن تحريمها من جملة الدين الكامل ، والنعمة التامة ،
 والإسلام المرضى عند الله .

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ما يأتي :

١ - حرمة هذه الأنواع الأحد عشر التي ذكرها الله - تعالى - في هذه الآية ووجوب الابتعاد عنها لأنها رجس أو فسق ، ولأن استحلال شيء منها يكون خروجاً عن تعاليم دين الله ، وانتهاكاً لحرمة الله .

٢ - حل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ، متى ذبحت ذبحاً شرعياً وكانت بها بقية حياة تجعلها تضطرب بعد ذبحها اضطراب المذبوح .

وللفقهاء كلام طويل في ذلك يؤخذ منه اتفاقهم على أن الخنق وما معه إذا لم يبلغ بالحيوان إلى درجة اليأس من حياته بأن غلب على الظن أنه يعيش مع هذه الحالة كانت الزكاة محللة له . أما إذا غلب على الظن أنه يهلك بما حصل له بسبب الخنق أو الوقذ أو التردى أو النطح أو أكل السبع منه ، فقد أفتى كثير من العلماء بعمل الزكاة فيه ، وقد أخذ بذلك الأحناف . فقد قالوا : متى كانت ميتة أو ذنبه يتحرك أو رجله تركض ثم ذكى فهو حلال . وقال قوم لا تعمل الزكاة ويحرم أكله .

ومنشأ اختلافهم في أن الزكاة تعمل أو لا تعمل يعود إلى هل الاستثناء هنا متصل أو منقطع ؟

فن قال إنه متصل يرى أنه أخرج من الجنس بعض ما تناوله اللفظ ، فما قبل حرف الاستثناء حرام ، وما بعده خرج منه فيكون حلالاً .

ومن قال إنه منقطع يرى أنه لا تأثير للاستثناء في الجملة المتقدمة . وكأنه

قال : ما ذكيتموه من غير الحيوانات المتقدمة فهو حلال أباح الله لكم التمتع به .

أما هذه الحيوانات التي حرمها الله في الآية فلا يجوز لكم أكل منها مطلقاً .

وقد رجح المحققون من العلماء أن الاستثناء متصل ، وقالوا : يؤيد القول

بأن الاستثناء متصل الإجماع على أن الزكاة تحلل ما يغلب على الظن أنه يعيش

فيكون مخرجاً لبعض ما يتناوله المستثنى منه ، فيكون الاستثناء فيه متصلاً .

هذا ملخص لما قاله العلماء في هذه المسألة ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتب

الفروع .

٣ - إباحة تناول هذه المحرمات عند الضرورة لدفع الضرر ، وأن هذه الإباحة مقيدة بقيود ذكرها الفقهاء من أهمها قيدان ، الأول : أن يقصد بالتناول دفع الضرر فقط . الثاني : ألا يتجاوز ما يسد الحاجة . أما إذا قصد التلذذ أو إرضاء الشهوة ، أو تجاوز المقدار الذي يدفع الضرر فإنه في هذه الأحوال يكون واقعاً في المحرم الذي نهى الله عنه .

وقد تسكلم الإمام ابن كثير عن هذه المسألة فقال : قوله - تعالى - : فمن اضطر في نخمة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ، . أى : فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله لضرورة ألجأته إلى ذلك فله تناوله والله غفور له رحيم به ، لأنه - تعالى - به لم حاجة عبده المضطر ، وافتقاره إلى ذلك ، فيتجاوز عنه ويفقر له .

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن ابن عمر - مرفوعاً - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته ، . ولهذا قال الفقهاء : قد يكون تناول الميتة واجباً في بعض الأحيان ، وهو إذا خاف على نفسه ولم يجد غيرها ، وقد يكون مندوباً ، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال . . واختلفوا : هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمي ، أو له أن يشبع ويتزود على أفوال ، وليس من شرط تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجرد طعاماً ، كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم - بل متى اضطر إلى ذلك جاز له .

وقد روى الامام أحمد عن أبي واقد الليثي أنهم قالوا : يا رسول الله ، إنا بأرض نصيبنا بها النخمة ، فتنحل لنا بها الميتة ؟ فقال : إذا لم تصطحبوا ولم تغتبقوا ولم تحتفموا بقلأ فشأنكم بها ، .

والاصطحاب شرب اللبن بالغداة فما دون القائلة ، وما كان منه بالعشي فهو الاغتباق ومعنى لم تحتفموا : أى تغتلبوا .

وقوله : غير متجانف لإثم ، أى متعاط لمعصية الله .

وقد استدلل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفوره لا يترخص بشيء من رخص السفر ، لأن الرخص لا تنال بالعاصي (١) .

٤ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - : « وأن تستقسموا بالأزلام ذلکم فسق » ، الاستقسام بالأزلام محرم . ومحرم أيضا كل ما يشبهه من القمار والتنجيم لرمي وما إلى ذلك قال بعض العلماء : « ومن عمل بالأيام في السعد والنحو تنقدا أن لها تأثيرا كافر . وإن لم يعتقد أنتم » .

وقد روى أبو داود والنسائي وابن حبان عن قطن بن قبيصة ، عن أبيه ، سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « العيافة والطرق والطيرة ، الجبت » .

والعيافة : زجر الطير . والطرق : الخط يخط في الأرض . وقيل : الطرق ضرب بالحصي الذي تفعله النساء .

وفي القاموس : عفت الطير عيافة زجرتها . وهو أن تعتبر بأسمائها مسانطها ، فتسعد وتنشام . وهو من عادة العرب كثيرا .

والجبت : كل ما عبد من دون الله .

وقد روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه ، لم تقبل له صلاة أربعين يوما » . وروى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - » .

وعن عمران بن حصين مرفوعا : ليس من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر أو سحر له ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٤ - بتصرف وتاخير -

(٢) تفسير القاسمي ج ٦ ص ١٨٣١ .

هـ - لم يستدل بعضهم بقوله - تعالى - « اليوم أكملت لكم دينكم ... » على نفي القياس وبطلان العمل به لأن إكمال الدين يقتضى أنه نص على أحكام جميع الوقائع إذ لو بقى بعض لم يبين حكمه لم يكن الدين كاملاً .

وأجيب على ذلك بأن غاية ما يقتضيه إكمال الدين أن يكون الله - تعالى - قد أبان الطرق لجميع الأحكام وقد أسرار الله بالقياس ، وتعبد المكلفين به بمثل قوله - تعالى - « فاعتبروا يا أول الأبصار » . فكان هذا مع النصوص الصريحة بياناً لكل أحكام الوقائع ، غاية الأمر أن الوقائع صارت قسمين : قسمها نص الله على حكمه . وقسمها أرشد الله - تعالى - إلى أنه يمكن إستنباط الحكم فيه من القسم الأول . فلم تصلح الآية متمسكاً لهم (١)

٦ - الآية الكريمة قد إشتملت على بشارات لأبناء هذه الأمة الإسلامية فقد بشرتهم - أولاً - بأن أعداءهم قد إنقطع رجائهم في إبطال أمر الإسلام أو تحريفه أو تبديل أحكامه التى كتب الله لها البقاء .

وما نحن أولاً - نراجع التاريخ فترى المسلمين قد تغلب عليهم أعداؤهم في معارك حربية ، وليكن هؤلاء الأعداء لم يستطيعوا التغلب على أحكام هذا الدين ومبادئه ، بل بقيت محفوظة يتناقلها الخلف عن السلف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فى خطبة حجة الوداع : « إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون فى جزيرة العرب ولكنه رضى بالتحريش بينهم » .

وبشرتهم - ثانياً - بإكمال هذا الدين ، فأنت ترى نصوصه وافية بكل ما يحتاج إليه البشر ، إما بالنص على كل مسألة يحتاجون إليها ، أو بإندراج هذه المسألة أو المسائل تحت العمومات الشاملة والمبادئ الكلية التى جاء بها دين الإسلام المكتمل فى عقائده وفى تشريعاته وفى آدابه ، وفى غير ذلك مما يسعد الإنسان .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ١٦٤ الأستاذ الشيخ محمد على السابيس

وبشرتهم - ثالثا - بإتمام نعمة الله عليهم ، وأى نعمة أتم على المؤمنين من راج الله إليهم من ظلمات الشرك إلى نور الوحدةانية ، ومن تمكينه لهم في رضى وإستخلاصهم فيها ، وجعل كلمتهم العليا بعد أن كانوا فى ضعف من هم ، وفساد فى أحوالهم .

وبشرتهم - رابعا - بأن الله قد اختار لهم الإسلام ديناً، وجعله هو الدينضى عنه وهو الذى يجب على الناس أن يدخلوا فيه ، وأن يعملوا بأوامره رايه ، لأنه من الحق والغيباء أن يتبع الإنسان عن الدين الذى اختاره الله تعالى ، ليختاره لنفسه طريقاً من نزعات نفسه وهو اه .

وهذه بعض الأحكام والآداب التى إستلهمها العلماء من الآية الكريمة .
 ناك أحكام أخرى ذكرناها خلال تفسيرنا لآلفاظ الآية الكريمة .

وبعد أن بين - سبحانه - أنواعاً من المحرمات . شرع فى بيان ما أحله لهم طيبات فقال - تعالى -

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ ، قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ لُؤَارِحٍ مَكَلَّيْنِ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ اذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) » .

أورد المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن حاتم عن سعيد بن جبير عن عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائفين أنهما الأرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالا : يا رسول الله ، قد حرم الله ميتة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت هذه الآية (١) .

والمعنى : يسألك أصحابك يا محمد ما الذى أحل لهم من المطاعم بعد أن عرفوا حرم منها ؟ قل لهم أحل الله لكم الطيبات .

والطيبات : جمع طيب وهو الشئ المستلذ . وفسره بعضهم بالحلال .

أى : قل لهم أحل الله لكم الأطعمة الطيبة التى نستلذها النفوس المستقيمة
وتستطيعها ولا تستقززها ، والذى لم يرد فى الشرع ما يحرمها ويمنع من تناولها
وفى قوله : يسألونك ماذا أحل لهم ، التفات من الحاضر إلى الغائب ، لأن
فى السياق حكاية عنهم كما يقال : أقسم فلان ليفعلن كذا ، ولأن هذا الالتفات
أدعى إلى تنبيه الأذهان ، وتوجيهها إلى ما يراد منها .

وقد أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتولى الجواب عن
سؤالهم ، لأنه - و المبلغ للرسالة ، وهو المبين لهم ما خفى عليهم من أمور
دينهم ودنياهم .

وقوله : ماذا ، اسم استفهام مبتدأ ، وقوله : أحل لهم ، خبره كقولك :
أى شيء أحل لهم .

وقوله : وما علمتم من الجوارح مكليين . . . ، معطوف على الطيبات
بتقدير مضاف و د ما ، موصولة . والعائد محذوف .

و د الجوارح ، جمع جارحة . وهى - كما يقول ابن جرير - الكواسب
من سباع البهائم والطيور . سميت جوارح لجرحها لأربابها ، وكسبها لإيادهم
أقواتهم من الصيد . يقال منه : جرح فلان لأهله خيرا . إذا أكسبهم خيرا
وفلان جارحة أهله . يعنى بذلك : أكسبهم لا جارحة لفلانة إذا لم يكن
لها كاسب ، (١) .

ومنه قوله - تعالى - وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار
أى : أكسبتم بالنهار .

وقيل : سميت جوارح ، لأنها تجرح الصيد عند إمساكه .

وقوله : د مكليين ، أى : مؤدبين ومؤودين لها على الصيد . فالتكليب : تعليم
الكلاب وما يشبهها الصيد . فهو اسم فاعل مشتق من اسم هذا الحيوان المعروف
لأن التأديب أكثر ما يكون فى الكلاب . أو هو مشتق من المكاب بمعنى

أية . يقال : كلب الكلب يكلب واستكلب أى : ضرى وتعود نمش نيره
حال من فاعل علمتم .

والمعنى : أحل الله لكم الطيبات ، وأحل لكم صيد أو أخذ ما علمتموه
الجوارح حال كونكم مؤدبين ومعودين لها على الصيد .

وقوله : « تعلموهن » ما علمكم الله ، فى محل نصب على أنه حال ثانية من
« علمتم » ، أو من الضمير المستتر فى « مكابن » ،

أى : تعلمون هذه الجوارح بعض ما علمكم الله لإياه من فنون العلم والمعرفة
تدربوهن على وسائل التحايل وعلى الطرق المتنوعة الإصططاد وعلى الإلتقياد
لكم عند الإرسال وعند الطلب ، وعلى عدم الأكل من المصيد بعد صيده .
فالمقصود بهذه الجملة الكريمة بيان بعض مظاهر فضل الله على الناس ،
منهم من علم الذى عن طريقه علموا غيرهم ما يريدونه منه ، وسخروا
الغير لمنفعتهم ومصلحتهم .

ورحم الله صاحب الكشف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : قوله :
« علمتم من الجوارح » عطف الطيبات : أى : أحل لكم الطيبات وصيد
لتم من الجوارح ، تخفف المضاف أو يجعل ، ما ، شرطية وجوابها
لوا ، والجوارح : الكواكب من سباع البهائم والطيور ، كالكلب والفهد
والعقاب والصقر والبازى والمكعب : مؤدب الجوارح ومغريها بالصيد
حبها ، ورائضا لذلك بما علم من الخيل وطرق التأديب .

وإنتصاب « مكابن » على الحال من « علمتم » .

فإن قلت : ما فائدة هذه الحال وقد إستغنى عنها بعلمتم ؟ قلت : فائدتها أن
من يعلم الجوارح يحريها فى علمه ، مدربا فيه ، موصوفا بالتكليب .

قوله - تعالى - « تعلموهن » حال ثانية أو إستئناف . وفيه فائدة جليلة
أن على كل آخذ علما أن لا يأخذه إلا من أبرع أهله علما ، وأكثرهم دراية

وأغوصهم على اطائفة وحقائقه ، ، وإن احتاج إلى أن يضرب إليه أكباد
الإبل . فكم من آخذ عن غير متقن ، قد ضيع أيامه ، وعض عند لقاء النحارير
أنامله (١) .

وقوله د فكلوا مما أمسكن عليكم ، جملة متفرعة على بيان حل صيد
الجوارح المعللة ، ومشيئة إلى نتيجة التعليم وأثره والأمر فيه للإباحة .

و ، من ، في قوله د مما أمسكن ، تبعيضية ، إذ من الممسك ما لا يؤكل
كالجلد والعظم ونحوهما . ويحتمل أن تكون بيانية أى : فكلوا الصيد وهو
ما أمسكن عليكم .

و ، ما ، موصولة أو موصوفة والمائد محذوف أى : أمسكنه .

وقوله د أمسكن ، أى : حبسن وحسن ، والضمير المؤنث يعود
للجوارح .

وقوله د عليكم ، متعلق بأمسكن ، وهو هنا بمعنى لكم ، والاستعلاء
بجازى .

والتقييد بذلك ، لإخراج ما أمسكنه لأنفسهم لا لأصحابهم .

والمعنى : إذا علمتم الجوارح وتوفرت شروط الحل فيما تصيده ، فكلوا
مما أمسكنه محبوسا عليكم ولا جليكم .

والضمير فى د عليه ، من قوله : د واذكروا اسم الله عليه ، يعود إلى
د ما علمتم من الجوارح .

أى : عند إرسالكم الجوارح للصيد فسموا عليها ، ويدل عليه قوله - صلى
الله عليه وسلم - لعدي ابن حاتم : د وإذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم
الله تعالى - فكل مما أمسك عليك ، .

وقال بعضهم . إنه يعود على المصدر المفهوم من الفعل وهو الأكل .
 وكأنه قيل : واذكروا اسم الله عند الأكل مما صدن لكم .
 وقيل : يعود على قوله : ما أمسكن ، أى : اذكروا اسم الله على ما أدركتم
 كانه مما أمسكن عليكم الجوارح .

ولا بأس من عود الضمير إلى كل ما ذكر ، بأن يذكر اسم عند إرسال
 لجوارح ، وعند الأكل مما صادته . وعند تذكية الحيوان الذى صادته
 لجوارح .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : واتقوا الله إن الله مريب الحساب .
 أى : واتقوا الله وراقبوه واخشوه فى كل شئونكم وأحذروا مخالفة
 ربه فيها شرع لكم وفيما كلفكم به ، فإنه - تعالى - لا يعجزه شيء ، وسيجازى
 ، إنسان بما يستحقه من خير أو شر .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير من مخالفة أمر الله ، واتهاك محارمه .
 ١ - ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتى :

١ - إباحة التمتع بالطيبات التى أحلها الله - تعالى - لعباده ، والتى تستطيبها
 نفوس الكريمة ، والعقول القويمة ، من مطعومات ومشروبات وغير ذلك
 أحله - سبحانه - لعباده . وفى هذا المعنى وردت آيات كثيرة منها ، قوله
 تعالى - : قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ،
 ، هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، (١) .

٢ - إباحة الصيد بالجوارح بشرط كونها معلية ، وعلامة كونها معلية
 ، تسترسل إذا أرسلت ، وتزجر إذا زجرت ، وتمسك الصيد ولا تأكل
 به ، وتعود إلى صاحبها متى دعاها .

ويدخل في الجوارح - عند جمهور الفقهاء - كل حيوان يصنع صنيع الكلب ، وكل طير كذلك ، لأن قوله - تعالى - « من الجوارح » بهم كل حيوان يصنع صنيع الكلب . وكان التعبير بمكبلين ، لأن الكلاب أكثر الحيوانات استعمالاً للصيد .

وقد جاء في حديث عبيد بن حانم الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال له : ما علمت من كلب أو باز ثم أرسلته وذكرت اسم الله عليه ، فكل ما أمسك عليك ،

ويرى بعض الفقهاء أن الصيد لا يكون إلا بالكلاب خاصة .

قال القرطبي ما ملخصه : وقد ذكر بعض من صنف في أحكام القرآن أن الآية تدل على أن الإباحة تتناول ما علمناه من الجوارح وهو ينتظم الكلب وسائر جوارح الطير . وذلك يوجب إباحة سائر وجوه الارتفاع ، فدل على جواز بيع الكلب والجوارح والارتفاع بها وبسائر وجوه المنافع إلا ما خصه الدليل . وهو ألا كل من الجوارح . أي : الكواكب من الكلاب وسباع الطير

وليس في قوله « مكبلين » دليل على أنه إنما أبيع صيد الكلاب خاصة ، وإن كان قد تمسك به من قصر الإباحة على الكلاب خاصة ، (١) .

٢ - استدل بعض الفقهاء بقوله - تعالى - « فكلوا مما أمسكن عليكم » على أن الكلب وما يشبهه من الجوارح إذا أكل من الصيد الذي أمسكه ، فإنه في هذه الحالة لا يحل الأكل منه ، لأنه لم يمسك لمن أرسله وإنما أمسك لنفسه وبهذا قال الشافعية والحنابلة .

ويرى المالكية أن الخارج ما دام قد عاد بالصيد ولو ما كولا منه ،
يجوز الأكل منه ، لأنه يعودته بما صاده قد أمسكه على صاحبه .

أما الأحناف فقالوا : إن عاد بأكثره جاز الأكل منه ، لأنه في هذه
لغة يكون قد أمسك لصاحبه ، وإن عاد بأقله لا يجوز الأكل منه ، لأنه
ن قد أمسك لنفسه . وهذه المسألة بأدلتها الموسعة مبسوسة في كتب الفقه
بعض كتب التفسير (١) .

٤ - استدلل بعض العلماء بقوله - تعالى - « وأذكروا اسم الله عليه ،
وجوب التسمية عند إرسال الجوارح للصيد ، ولقوله - تعالى - في
أخرى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » (٢) .

ويرى بعضهم أن الأمر للندب ، ويرى فريق ثالث أن التسمية إن تركت
لا يحل الأكل من الصيد .

قال القرطبي : وقد ذهب الجمهور من العلماء إلى أن التسمية لا يد منها
قول عند الإرسال . لقوله - صلى الله عليه وسلم - لعدي بن حاتم :
« إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك ، ولو لم توجد
سمية على أي وجه كان لم يؤكل الصيد . وهو مذهب أهل الظاهر وجماعة
ل الحديث .

وذهبت جماعة من أصحابنا وغيرهم إلى أنه يجوز أكل ما صاده المسلم وذبحه
إن ترك التسمية عمدا ، وحملوا الأمر بالتسمية على الندب .

وذهب مالك في المشهور إلى الفرق بين ترك التسمية عمدا أو سهوا فقال
تؤكل مع العمد ، وتؤكل مع السهو ، وهو قول فقهاء الامصار ، وأحد
إلى الشافعي (٣) .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٦ ص ٦٩ . وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٦

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢١ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٦٨ .

ثم حكى - سبحانه - جانباً آخر من مظاهر نعمه على عباده ، ورجته بهم وتيسيره عليهم في أمور دينهم ودنياهم فقال :

« الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ، وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ . وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ . وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ . وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٥) » .

وقوله ، اليوم أحل لكم ... يصح أن يراد به اليوم الذي نزلت فيه . فإنه يجوز أن تكون هذه الآية وما قبلها من قوله - تعالى - « اليوم ينسئ الذين كفروا من دينكم ... اليوم أكملت لكم دينكم ... » ، قد نزلت جميعها في يوم واحد وهو يوم عرفة من عام حجة الوداع .

ويصح أن يراد به الزمان الحاضر مع ما يتصل به من الماضي والمستقبل . والمراد بالطيبات : ما يستطاب ويشتهر مما أحله الشرع .

والمراد بطعام الذين أوتوا الكتاب : ذبائحهم خاصة . وهذا مذهب جمهور العلماء .

قالوا : لأن ما سوى الذبائح فهي محالة قبل أن كانت لأهل الكتاب ، وبعد أن صارت لهم : فلا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة . ولأن ما قبل هذه الآية في بيان حكم الصيد والذبائح . فحمل هذه الآية عليه أولى ، لأن سائر الطعام لا يختلف من تولاد من كيتابي أو غيره . وإنما تختلف الذكاة . فلما خص أهل الكتاب بالذكر ، دل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم .

وقيل المراد بطعام أهل الكتاب هنا : الخبز والحبوب والفاكهة وغير ذلك مما لا يحتاج فيه إلى تذكية . وينسب هذا القول إلى بعض طوائف الشيعة .

وقيل المراد به : ما يتناول ذبائحهم وغيرها من الأطعمة . وقد روى هذا القول عن ابن عباس ، وأبي الدرداء ، وقتادة ، ومجاهد وغيرهم .
والمراد بالذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .

قالوا الألوسى : وحكم الصابئين كحكم أهل الكتاب عند أبي حنيفة . وقال صاحباه الصابئة صنفان : صنف يقرءون الزبور ويعبدون الملائكة وصنف لا يقرءون كتابا ويعبدون النجوم فهو لاء ليسوا من أهل الكتاب وأما المجوس فقد سن بهم سنة أهل الكتاب في أخذ الجزية منهم دون أكل ذبائحهم ونكاح نسائهم .

فقد روى عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، والبيهقي ، من طريق الحسن ابن محمد بن علي قال : كتب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مجوس هجر يعرض عليهم الإسلام ، فمن أسلم قبل ، ومن أصر ضربت عليه الجزية غير ناكح نسائهم .

واختلف العلماء في حل ذبيحة اليهودي والنصراني إذا ذكر عليها اسم غير الله - كعزير وعيسى - فقال ابن عمر : لا تحل . وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل . وهو قول الشعبي وعطاء قالوا : فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون ، (١) .

والمعنى : إن الله أسبغ عليكم نعمه - أيها المؤمنون - وأكل لكم دينه ، ويسر لكم شرعه ، ومن مظاهر ذلك أنه - سبحانه - أحل لكم

التمتع بالطيبات ، كما أحل لكم أن تأكلوا من ذبائح أهل الكتاب . وأن تطعموهم من طعامكم .

قال ابن كثير : وهذا أمر يجمع عليه بين العلماء ، أن ذبائحهم حلال للمسلمين ، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه ما هو مذهبهم عنه - تعالى وتقدس - (١) .

ولنما قال : « وطعامكم حل لهم ، أى يحل لكم أن تطعموهم من طعامكم للتفنيه على أن الحكم مختلف في الذبائح عن المناكحة . فإن إباحة الذبائح حاصلة من الجانبين ، بخلاف إباحة المناكحات فإنها في جانب واحد ، إذ لا يحل لغير المسلم أن يتزوج بمسلمة ، لأنه لو جاز ذلك لكان لأزواجهن الكفار ولاية شرعية عليهن ، والله - تعالى - لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا شرعيا ، بخلاف إباحة الطعام من الجانبين فإنها لا تستلزم محذور .

قال بعض العلماء : والجمهور على حل ذبائح أهل الكتاب إذا أهرق الدم ، وقد اتفق الجمهور على حل هذه الذبائح ، والخلاف عندهم فيما عدا الذبائح التي ثبت حلها بالنص ، وأما غير الذبائح فهو قسمان :

القسم الأول : ما لا عمل لهم فيه كالفاكهة والبر وهو حلال بالإتفاق .

والقسم الثانى : ما لهم فيه عمل وهو قسمان - أيضا - أحدهما ، ما يحتمل دخول النجاسات فيه كاستخراج الزيوت من النباتات أو الحيوانات ، وهذا قد اختلف فيه الفقهاء . فمنهم من منعه لاحتمال النجاسة ، ومن هؤلاء : ابن عباس ، لأن احتمال النجاسة ثابت ، وهو يمنع الحل . وقد تبسع هذا الراى بعض المالكية ، ومن هؤلاء الطرطوسى ، وقد صنف فى تحريم جبن النصارى ويجرى مجرى الجبن الزيت . وعلى هذا الراى يجرى مجراها السمن الهولاندى

وما شابهه . ولكن الجمهور على جواز ذلك مادام لم يثبت أنه اختلط بهذا النوع من الطعام نجاسة . والمحرم ماثبت أنه قد دخله نجاسة ، بأن دخله أجراه من الخمر أو الميتة ، أو الخنزير ، أو غير ذلك من المحرمات ، (١) .

ثم بين - سبحانه - حكم نكاح نساء أهل الكتاب بعد بيان حكم ذبائحهم فقال : « والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، إذا آتيتهم أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ... » .

وقوله : « المحصنات ، عطف على « الطيبات » ، وهو جمع محصنة .

والإحصان يطلق على معان منها الإسلام . ولا موضع له هنا لأن الكلام في غير المسلمات ، ويطلق على الزوج ، ولا موضع له هنا - أيضا - لأنه لا يحل تزوج ذات الزوج . ويطلق على العفة وعلى الحرية . وهذا المعنيان هما المختاران هنا .

فن الفقهاء من قال . المراد بالمحصنات من أهل الكتاب هنا المصيفات ويكون الوصف للترغيب في طلب العفة ، والعمل على اختيار من هذه صفتها .

وعلى هذا الرأي يصح الزواج من الكتابيات سواء أكن حرائر أم إماء .

ومنهم من قال : المراد بالمحصنات من أهل الكتاب هنا : الحرائر ، أي أنه لا يحل الزواج بنساء أهل الكتاب إلا إذا كن حرائر .

والمراد بقوله « أجورهن » ، أي مهرهن . وعبر عن المهر بالأجر تأكيداً وجوبه . وعدم الاستهانة بأى حق من حقوقهن .

(١) تفسر الآية الكريمة للفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . مجلة لواء الإسلام
لعدد الرابع من السنة التاسعة عشرة ..

وقوله . محصنين - بكسر الصاد - ، أى متعففين بالزواج عن اقتراب الفواحش .

يقال أحصن الرجل فهو محصن أى : تعفف فهو متعفف وأحصن بالزواج الرجل فهو محصن - بفتح الصاد - أى : أعفه الزواج عن الوقوع فى الفاحشة .

وقوله : مسافحين ، جمع مسافح . والسفاح . الزنا . يقال . سافح الرجل المرأة إذا ارتكب معها فاحشة الزنا . وسمى الزانى مسافحا . لأنه سافح مائه أى : صبه ضائعا .

وقوله : ، أخدان ، جمع خدن - بكسر الخاء وسكون الدال - بمعنى الصديق . ويطلق على الذكر والأنثى .

والمراد بالخدن هنا . المرأة البغى التى يخادنها الرجل أى يصادقها ليرتكب معها فاحشة الزنا . وغالبا ما تكون خاصة به .

والمعنى : وكما أحل الله لكم - أيها المؤمنون - الطيبات من الرزق ، وأحل لكم ذبائح أهل الكتاب ، وأحل لكم أن تطعموهم من طعامكم . فقد أحل لكم - أيضا - نكاح المحصنات من المؤمنات . أى العفيفات الحرائر لأنهن أصون لمرضكم . وأنقى لنطفكم ، وأحل لكم نكاح النساء المحصنات أى : الحرائر العفيفات ، من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، أى : من اليهود والنصارى .

قال الألوسى : وتخصيص المحصنات بالذكر فى الموضعين ، للحث على ما هو الأول والأليق ، لا لتنى ما عدلن ، فإن نكاح الإماماء المسلمات بشرطه ، صحيح بالاتفاق . وكذا نكاح غير العفاف منهن . وأما الإماماء الكتابيات فهن كالمسلمات عند الإمام الأعظم (١) .

(١) تفسير الألوسى ج ٦ ص ٦٥ - بتصرف بشير -

وقوله : « إذا آتيتموهن أجورهن ، أى : مهورهن ، وهى عوض عن لاستمتاع بهن . »

قالوا : وهذا الشرط بيان للأكل والأولى لا لصحة العقد ، إذ لا تتوقف صحة العقد على دفع المهر ، إلا أن الأولى هو إيتاء الصداق قبل الدخول .

وقوله : « محصنين غير مسافحين . ولا متخذى أخدان ، أمر لهم بالعفة والبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن . »

وقوله « محصنين ، حال من فاعل « آتيتموهن » ، »

وقوله : « غير مسافحين ، صفة لمحصنين ، أو حال من الضمير المستتر فى محصنين . »

وقوله : « ولا متخذى أخدان ، يحتمل أن يكون مجرورا على أنه عطف على مسافحين ، وزيدت فيه « ولا » لتأكيد النفي المستفاد من لفظ « غير » . ويحتمل أن يكون منصوبا على أنه عطف على « غير مسافحين » .

والمعنى : أبحنا لكم الزواج بالكتابات المحصنات ، لتشكروا الله - تعالى - على تيسيره لكم فيها شرع ، ولتطلبوا من وراء زواجكم العفة والبعد عن الفواحش ، والصون لأنفسكم ولأنفس أزواجكم عن انتهاك - حرمت الله فى السر أو العلن .

وقدم - سبحانه - المحصنات من المؤمنات على المحصنات من الذين أوتوا الكتاب ، للتنبيه على المحصنات من المؤمنات أحق باختيار الزواج بهن من غيرهن ، وأن المحصنة المؤمنة الزواج بها أولى وأجدر وأحسن من الزواج بالمحصنة الكتابية .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين . »

أى : ومن يكفر بشرائع الله وبآياته كاليفه التى أنزلها على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقد حبط عمله .

أى : خاب سعيه . وفسد عمله الذى عمله . وهو فى الآخرة من الهالكين الذين ضيعوا ما عملوه فى الدنيا من أعمال بسبب انتهاكهم لحرمات الله وأحكام دينه .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة : التهيب من مخالفة أوامر الله ، والترغيب فى طاعته - سبحانه - .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من الآية الكريمة :

١ - إباحة التمتع بالطيبات التى أنعم بها - سبحانه - على عباده ، ولم يرد نص بحرمتها .

٢ - إباحة الأكل من ذبائح أهل الكتاب ، وإباحة إيطاعهم من طعامنا .

٣ - الترغيب فى نكاح المرأة المحصنة أى التى أحصنت نفسها عن الفواحش وصانته عن كل ريبة ، واعتصمت بالغفاف والشرف ، وكان سلوكها المستقيم دليلا على أنها متمسكة بتماليم دينها . وبالأداب الحميدة التى جاءت بها شريعة الإسلام .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ، ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها . ولجمالها ، ولدينها فأظفر بذات الدين تربت يداك .

ومعنى (تربت يداك) : افتقرت وندمت إن لم تبحث عن ذات الدين ، ونجعلها محط طلبك للزواج بها .

وروى أبو داود والنسائى عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : إن امرأتى لا تمنع يد لامس . قال : غريها - أى طلقها -

قال : أخاف أن تتبعها نفسى - أى : ارتكب معها ما نهى الله عنه بعد طلاقها -
قال - صلى الله عليه وسلم - فاستمتع بها (. أى : أبقها مع المحافظة عليها (١) .
٤ - إباحة زكاح النساء الكتابيات - وهذا مذهب أكثر الفقهاء ، لأن
هذا هو الظاهر من معنى قوله - تعالى - : والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب
من قبلكم . .

قال ابن كثير : وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية
يقول : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول : إن ربها عيسى ، وقد قال الله
: تعالى - ، ولا تتكحوا المشركات حتى يؤمن) :

وعن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية ، ولا تتكحوا المشركات حتى
يؤمن ، فحجز الناس عنهن حتى نزلت : والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب
من قبلكم ، فتكح الناس نساء أهل الكتاب .

وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى ولم يروا بذلك بأساً
خداً بهذه الآية ، وجعلوها مخصصة للتي في سورة البقرة وهى قوله - تعالى - :
ولا تتكحوا المشركات حتى يؤمن ، . إن قيل بدخول الكتابيات في عمومها
إلا فلا معارضة بينها وبينها ؛ لأن أهل الكتاب انفصلوا في ذكركم عن
لشركين في غير موضع - كقوله - تعالى - : لم يكن الذين كفروا من أهل
كتاب والمشركون مثله - كين حتى تأتيتهم البينة ، (٢) .

وقال بعض العلماء ما ملخصه : قوله - تعالى - : والمحصنات من الذين
يوتوا الكتاب من قبلكم . . . ، أخذها الجمهور على عمومها ، فأباحوا التزوج
بأهل الكتاب وإن غيروا وبدلوا ، ذميين كانوا أو حريين . وقيد جماعة
لذميين دون الحريين .

(١) التاج الجامع الأصول في أحاديث الرسول ج ٢ ص ٢٧٧ للشيخ منصور علي نائف

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠

وذهب جماعة من السلف إلى أن أهل الكتاب قد غيروا أو بدلوا وعبدوا المسيح . وقالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، فهم بذلك والمنركون في العقيدة سواء وقد حرم الله الزوج من المشركين ونسب هذا الرأي إلى عبد الله بن عمر ، وغيره من الصحابة .

وتأولوا الآية بوجوه أقر بها أنها رخصة خاصة في الوقت الذي نزلت فيه . قال عطاء : إنما رخص الله في الزوج بالكتابية في ذلك الوقت ؛ لأنه كان في المسلمات قلة . أما الآن ففيهن الكثرة العظيمة ، فزالت الحاجة فلا جرم زالت الرخصة .

والذي نراه في المسألة أنه ليس في الآية ما يدل على أنه رخصة ، ولا نعلم في الشريعة ما يدل على أنه رخصة . والآية دالة على الإباحة المطلقة ، ولم تقيد بوقت خاص ، ولا بحالة خاصة .

نعم إن ما نراه اليوم في بعض المسلمين من رغبة الزوج بنساء الإفرنج لا لغاية سوى أنها إفرنجية ... ثم يضع نفسه وأولاده تحت تصرفها ... فتدشهم على تقاليدها وعاداتها التي تأباها تعاليم الإسلام .

نعم إن ما نراه من كل ذلك يجعلنا نوجب على الحكومات التي تدين بالإسلام ، وتغار على قوميتها وشعائرها ... أن تمنع من الزوج بالكتابيات ، وأن تضع حدا لهؤلاء الذين ينسلخون عن قوامتهم على المرأة ، حفاظا على مبادئ الدين والقومية في البلاد .

وإن العمل على تقييد هذا الحكم في التشريع الإسلامي أو منعه ، لا لزوم وأوجب مما تقوم به بعض الحكومات الإسلامية ، أو نحاول أن نقوم به ، من تحديد سن الزواج للفتاة ، وتقييد تعدد الزوجات ، وتقييد الطلاق ، وما إلى ذلك من التشريعات التي ينشط لها كثير من رجال الحكم ، سيرا وراء مدنية الغرب المظلمة .

الإلوان انحلال الكثرة الغالبة من يميلون إلى الزوج بالكتابات المعاني
أشرنا إليها لما يوجب الوقوف أمام هذه الإباحة التي أصبحت حالتنا
تفق والغرض المقصود منها .

وهذا معنى تشهد به كليات الذين وقواعده التي يتجلى بها شدة حرصه على
ظ شخصية الأمة الإسلامية ، وعدم انحلالها وفنائها في غيرها ، (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - بعض مظاهر نعمه على عباده فيما يتعلق بطاعتهم .
ما يتعلق بما يحل لهم من النساء . أتبع ذلك ببيان مظاهر فضله عليهم فيما
لق بعبادتهم التي من أهمها الوضوء ، والغسل ، والصلاة . وأمرهم بالمحافظة
مأشروعه لهم من شرائع وأحكام فقال - تعالى - :

و يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
بِأَيْدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .
نَ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا . وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ
مِّنْكُم مِّنَ الْمَاءِ ، فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ . مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ
حَرَجًا ، وَلَسَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ، وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَكْرَهُونَ (٦) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ ،
قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) .

قال الفخر الرازي : أعلم أنه - تعالى - افتتح السورة بقوله : يَأَيُّهَا الَّذِينَ
وَأَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية
عهد العبودية .

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٢٠٤ فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت .

فقله : ، أوفوا بالعقود ، طلب - تعالى - من عباده أن يوفوا بعهد العبودية . فكأننا قيل : يا إلهنا العهد نوعان : عهد الربوبية منك ، وعهد العبودية منا فانت أولى بأن تقدم الوفاء بعهد الربوبية والإحسان . فقال - تعالى - : نعم أنا أوفى أولاً بعهد الربوبية والكرم .

معلوم أن منافع الدنيا محصورة في نوعين : لذات الماطعم ، ولذات المنكح . فاستقصى - سبحانه - في بيان ما يحل ويحرم من الماطعم والمنكح وعند تمام هذا البيان كأنه يقول : قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب في الدنيا من المنافع واللذات ، فاشتغل أنت في الدنيا بالوفاء بعهد العبودية .

ولما كان أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة لا جرم بدأ - سبحانه - بذكر شرائط الوضوء فقال : ، يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق . . . (١) والمراد بالقيام إلى الصلاة إرادة القيام إليها ، والتهيؤ للدخول فيها من باب إطلاق المسبب وإرادة السبب ، للايجاز ، وللتنبيه على أن الشأن في المؤمنين أن يكونوا دائماً على ذكر من إرادتها ، وعدم الإهمال في أدائها . وإنما قلنا المراد بالقيام إلى الصلاة إرادتها لأنه لو بقى الكلام على حقيقته للزم تأخير الوضوء عن الصلاة ، وهذا باطل بالإجماع . وليس المراد بالقيام لإتصاف القامة أو ما يشبه ذلك ، بل المراد به الاشتغال بأفعال الصلاة وأقوالها وكل ما يتعلق بذاتها .

قال الألوسي ما ملخصه : وظاهر الآية يفيد وجوب الوضوء على كل قائم إلى الصلاة وإن لم يكن محدثاً نظراً إلى عموم الذين آمنوا . . . من غير اختصاص بالمحدثين . . . لكن الإجماع على خلاف ذلك ، فقد أخرج مسلم وغيره أن النبي - صلى الله عليه وسلم - صلى الصلوات الخمس يوم الفتح بوضوء واحد . فقال له عمر : يا رسول الله ، صنعت شيئاً لم تكن تصنعه . فقال - صلى الله عليه وسلم - : عمداً فعلته يا عمر . .

يعنى : بيا نال للجواز . فاستحسن الجمهور كون الآية مقيدة ، والمعنى : إذا
م إلى الصلاة وأنتم محدثون بقرينة دلالة الحال .

ولأنه إشتراط الحدث فى البدل وهو التيمم ، فلو لم يكن له مدخل فى
ضربه مع المدخلية فى التيمم لم يكن البدل بدلا . وقوله - تعالى - فلم
دوا ماء ، صريح فى البدلية ...

ويحكى عن داود الظاهرى أنه أوجب الوضوء لكل صلاة ، لأن النبى -
ل الله عليه وسلم - والخلفاء من بعده كانوا يتوضأون لكل صلاة ... ورد
فعل الخلفاء لا يدل على أكثر من الغلب والاستحباب ، وقد ورد ، من
ضأ على طهر كتب الله - تعالى - له عشر حسنات ، (١) .

وقوله : د فاغسلوا ، من الغسل وهو إمراا الماء على المحل حتى يسيل عنه
اد بعضهم : مع الدلك .

وقوله : د وجوهكم ، جمع وجه . وهو مأخوذ من المواجهة .
وحد الوجه من مبدأ سطح الجبهة إلى منتهى الذقن طولا . ومن الأذن
الأذن عرضاً .

والمرافق : جمع مرفق - كمنبر ومجلس - وهو ملتقى عظام المضد بعظم
اع .

والكعبين : ثنية كعب . وهما الجزءان البارزان فى أعلى القدم .
والمعنى : يأبها الذين آمنوا إذا أردتم القيام إلى الصلاة وأنتم محدثون
نأ أصغر ، فاغسلوا وجوهكم ، أى : فاسيلوا الماء على وجوهكم ، واسيلوه
ما على أيديكم إلى المرافق ، وامسحوا بأيديكم المبللة بالماء رؤسكم واغسلوا
بلكم إلى الكعبين .

وهنا توسع الفقهاء وبهض المفسرين فى ذكر مسائل تتعلق بهذه الآية ،
من الواجب الامام بأهمها فنقول :

أولاً : أخذ جمهور الفقهاء من قوله - تعالى - « إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا » إلخ ، أن الوضوء لا بد فيه من القصد إليه وإرادته لأجل الصلاة ، لا لأجل أى شيء آخر كالنظافة وغيرها مما يشبهها ، وذلك لأن الوضوء عمل من الأعمال التى يقصد بها المسلم الطاعة لله ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : إنما الأعمال بالنيات ... ، وعليه تكون النية ركن من أركان الوضوء ، فإذا لم يقصد بوضوئه إرادة الصلاة وابتغاء رضا الله ، لم تكن صلاته بهذا الوضوء صحيحة . وقال الأحناف : إن النية فى الوضوء ليست بفرض . لأن الوضوء ليس عبادة مقصودة لذاتها . وإنما هو وسيلة لغيره وهو الصلاة ، والنية إنما هى شرط فى العبادة نفسها وهى الصلاة باعتبارها المقصد ، وليست شرطاً فى الوسيلة وهى الوضوء .

وعليه فالوضوء يتحقق بغسل ما يجب غسله من الأعضاء المعروفة ، ومسح ما يجب مسحه منها ، والمسلم أن يصلى بهذا الوضوء ما شاء من الفرائض والنوافل . قالوا : ومما يشهد بأن الوضوء وسيلة لعبادة ظاهر قوله - تعالى - « إذا قمتم إلى الصلاة » فإنه يدل على أن الصلاة هى المقصودة وهى الغاية . أما الوضوء فقد شرع ليكون وسيلة إليها .

ثانياً : قوله « فاغسلوا وجوهكم » اتفق الفقهاء على وجوب غسل الوجه إلا أنهم اختلفوا فى دخول المضمضة والاستنشاق فيه فجمهور الفقهاء اتفقوا على أنهما لا يدخلان فى غسل الوجه ، بل هما مستتان كان يفعلها النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه قبل غسل الوجه . وقال بعض الفقهاء : المضمضة والاستنشاق داخلان فى الغسل .

ثالثاً : أخذ كثير من الفقهاء من قوله - تعالى - « إلى المرافق ... » وإلى الكعبين ، أن المرافق داخله مع اليدين فى وجوب الغسل ، وأن الكعبين داخلين مع الرجلين فى وجوب الغسل .

قالوا : لأن « إلى » هنا بمعنى مع ، ولأن بعض علماء اللغة وعلى رأسهم سيديويه قد قرروا أن ما بعد « إلى » إذا كان من نوع ما قبلها دخل فى الحد ،

إذا لم يكن من نوعه لم يدخل . وهنا ما بعد إلى من نوع ما قبلها فوجب دخوله في الحد .

ولأن جعل ما قبل المرفقين حدا ، لا يصلح أن يكون علامة واضحة على لك ، ومن شأن العلامات أن تكون واضحة وهذا لا يتأتى إلا بفصل المرفقين والكعبين .

وفضلا عن كل ذلك فالمعروف من وضوء النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يغسل المرفقين والكعبين .

قال القرطبي : وهذا هو الصحيح لما رواه الدارقطني عن جابر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه ، .

ويرى بعض الفقهاء أن غسل المرفقين والكعبين مستحب ، لأن الغاية من قوله : إلى المرافق ، وإلى الكعبين نحتمل أن تدخل المرافق والكعبين ، الوجوب ، ونحتمل عدم الدخول ، ولا وجوب مع الاحتمال .

وقد أشار صاحب الكشف إلى هذه المسألة بقوله : قوله : إلى المرافق ،

فيد معنى الغاية مطلقا . فأما دخولها في الحكم وخروجها ، فأمر يدور مع الدليل . فما فيه دليل على الخروج قوله : فنظرة إلى ميسرة ، لأن الإعرار ملة الإنذار . وبوجود الميسرة تزول العلة . ولو دخلت الميسرة فيه لمكان

نظرا في كلتا الحالتين معسرا وموسرا . وكذلك ، ثم أتوا الصيام إلى الليل ، ودخل الليل لوجب الوصال . ومما فيه دليل على الدخول قوله : حفظت

قرآن من أوله إلى آخره . لأن الكلام مسوق لحفظ القرآن كله . ومنه

وله - تعالى - : من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، لوقوع العلم بأنه لا يسرى به إلى بيت المقدس من غير أن يدخله . وقوله : إلى المرافق ، .

إلى الكعبين ، لا دليل فيه على أحد الأمرين ، فأخذ كافة العلماء بالاحتياط فحكموا بدخولها في الغسل . وأخذ زفر وداود بالمتيقنين فلم يدخلوها . وعن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يدير الماء على مرفقيه (١) .

رابعاً : أجمع الفقهاء على أن مسح الرأس من أركان الوضوء ، لقوله تعالى - ، وأمسحوا برؤوسكم ، إلا أنهم اختلفوا في مقدار المسح .

فقال المالكية : يجب مسح جميع الرأس أخذاً بالأحياط ، وتبعهم في ذلك الحنابلة .

وقال الشافعية : يكفي مسح أقل ما يطلق عليه اسم المسح أخذاً باليقين .
وقال الحنفية : يفترض مسح ربع الرأس .

ومنشأ الخلاف هنا لإعتبار الباء زائدة أو أصلية . فقال المالكية والحنابلة إن الباء كما تكون أصلية تكون - أيضاً - زائدة لتقوية تعلق العامل بالمعمول وإعتبارها هنا زائدة أولى ، لأن التركيب حينئذ يدل على مسح جميع الرأس ، ويكون البعض داخلاً في ذلك .

وقال الأحناف والشافعية الباء هنا للتبعية ، إلا أن البعض لم يقدره الشافعية بمقدار معين ، وقدره الأحناف بمقدار ربع الرأس أخذاً من حديث المغيرة ابن شعبة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان في سفر فنزل لحاجته ثم جاء فتوضأ ومسح على ناصيته ، قالوا : والناصية تساوي ربع الرأس .

قال بعض العلماء : والسنة الصحيحة وردت بالبيان . وفيها ما يفيد جواز الاقتصار على مسح البعض في بعض الحالات كما في صحيح مسلم وغيره من حديث المغيرة أنه - صلى الله عليه وسلم - أدخل يده من تحت العمامة فمسح مقدم رأسه ولم ينقض العمامة . وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه مسح رأسه فأقبل وأدبر . وهذه هي التي استمر عليها - صلى الله عليه وسلم - فاقترض هذا أفضلية الهيئة التي كان يداوم عليها . وهي مسح الرأس مقبلاً ومدبراً . وأجزاء غيرها في بعض الأحوال (١) .

خامساً : قوله تعالى « وأرجلكم » وردت فيه قراءتان متواترتان أحدهما

ح اللام وهي قراءة نافع وابن عامر وحفص والكسائي ويعقوب . والثانية
سر اللام وهي قراءة الباقيين .

أما قراءة النصب فعلى أن قوله « وأرجلكم » معطوف قوله « وجوهكم »
هو منصوب بفعل مقدر أي : وأمسحوا برءوسكم واغسلوا أرجلكم
المكعبين .

وأما قراءة الجر فعلى أن قوله « وأرجلكم » معطوف على « برءوسكم »

قال القرطبي ماملاحة : فنقرأ بالنصب جعل العامل « أغسلوا » وبني على
« أن الفرض في الرجلين الغسل دون المسح » وهذا مذهب الجمهور والكافة
العلماء وهو الثابت من فعل النبي - صلى الله عليه وسلم - واللازم من قوله
غير ما حديث . وقد رأى قوما يتوضئون وأعقابهم تلوح فتنادى بأعلى
يته : (ويل للأعقاب من النار أسبغوا الوضوء) ثم إن الله حدهما فقال :
ل المكعبين) كما قال في اليمين (إلى المرافق) فدل على وجوب غسلهما .

ومن قرأ بالخفض جعل العامل الباء . فقال ابن العربي : لا تفقت العلماء على
وب غسلهما ، وما علمت من رد ذلك سوى الطبري من فقهاء المسلمين ،
إفضة من غيرهم . وتعلق الطبري بقراءة الخفض - أي قال بمسح الرجلين .
ثم قال : وقد قيل : إن قوله (وأرجلكم) - بقراءة الخفض - معطوف
اللفظ دون المعنى - أي لفظ الرءوس - وهذا أيضا يدل على الغسل ، فإن
اعى المعنى لا اللفظ . وإنما خفض للجوار كما تفعل العرب . وقد جاء هذا
لقرآن وغيره . قال - تعالى - (يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس)
ر لأن النحاس هو الدخان .

ثم قال : والإقاطع في الباب من أن فرض الرجلين الغسل ما قدمناه ، وما ثبت
قوله - صلى الله عليه وسلم - (ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار)
فما يذكر النار على مخالفة مراد الله . ومعلوم أن النار لا يعذب بها إلا من

ترك الواجب . ومعلوم أن المسح ليس من شأنه الاستيعاب . ولا خلاف بين القائلين بالمسح على الرجلين أن ذلك على ظهورهما لا على بطونهما ، فنبين بهذا الحديث بطلان من قال بالمسح ، إذ لا مدخل لمسح بطونهما عندهم ، وإنما ذلك يدرك بالغسل لا بالمسح .

ونقل الجمهور كافة عن كافة عن نبهم - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يغسل رجله في وضوئه مرة واثنين وثلاثاً حتى ينقيهما . وحسبك بهذا حجة في الغسل مع ما بيناه فقد وضح وظهر أن قراءة الخفض المعنى فيها الغسل لا المسح وأن العامل في قوله « وأرجلكم » قوله « فاعسلوا » والعرب قد تعطف الشيء على الشيء بفعل يتفرد به أحدهما . تقول : أكلت الخبز واللبن . أي : وشربت اللبن (١) .

وقد عقد الإمام ابن كثير فصلاً أورداً فيه - عند تفسيره لهذه الآية - كثيراً من الأحاديث التي وردت في غسل الرجلين ، وجعل عنوانه : « ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه » .

ومن هذه الأحاديث ما جاء في الصحيحين والسنن عن عثمان وعلى وابن عباس . . أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غسل الرجلين في وضوئه إما مرة ، وإما مرتين أو ثلاثاً . على اختلاف رواياتهم .

وفي حديث عمر بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توضأ فغسل قدميه ثم قال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به . وعن جابر بن عبد الله قال : رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - في رجل رجل مثل الدرهم لم يغسله فقال : « ويل للأعقاب من النار » .

ثم قال ابن كثير : ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة . وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما ، أو أنه يجوز ذلك لما توعد على تركه ، لأن

(١) تفسير ج ٦ ص ٩١ : ص ٩٦

(٦ - سورة المائدة)

المسح لا يستوعب جميع الرجل . بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف (١) . ويرى الزمخشري أن قراءة الجر في قوله : وأرجلكم ، محمولة في المعنى على النصب ويكون السبب في عطفها على الروس المجرورة ، للإشارة إلى وجوب عدم الإسراف في الماء . فقد قال : فإن قلت : فما تصنع بقراءة الجر ودخولها في حكم المسح ؟ قلت : الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المفسولة بفصل يصب الماء عليها : فكانت مظنة الإسراف المذموم المنهى عنه ، فعطفت على الثالث المسموح لا للمسح ، ولما كان لينبه على وجوب الاقتصاد في صب الماء عليها . وقد وضح هذا المعنى الشيخ ابن المنير بقوله : لم يوجه الزمخشري قراءة الجر بما يشفي الغليل . والوجه فيه أن الغسل والمسح متقاربان من حيث أن كل واحد منهما مساس بالعضو ، فيسهل عطف المفسول على الممسوح من ثم . كقوله : متقلدا سيفاً ورعاً . وعلفها تبناً وماء بارداً . ونظائره كثيرة . ثم يقال : ما فائدة هذا التشريك بعللة التقارب ؟ وهلا أسند إلى كل واحد منها الفعل الخاص به على الحقيقة ؟ فيقال : فائدته الإيجاز والاختصار . وتحقيقه أن الأصل أن يقال مثلاً : واغسلوا أرجلكم غسلاً خفيفاً لإسراف فيه كما هو المعتاد ، فاختصرت هذه المقاصد بإشراك الأرجل مع الممسوح ، ونبه بهذا التشريك - الذي لا يكون إلا في الفعل الواحد أو الفعولين المتقاربين جداً - على أن الغسل المطلوب في الأرجل غسل خفيف يقارب المسح ، وحسن إدراجه معه تحت صيغة واحدة وهذا تقرير كامل لهذا المقصود (٢) . هذا ، ومن كل ما تقدم نرى وجوب غسل الرجلين في الوضوء ، سواء أ كانت القراءة بالنصب أم بالجر . وقد بسطت بعض كتب الفقه والتفسير هذه المسألة بسطاً موسعاً فليرجع إليها من شاء (٣) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٦ .

(٢) تفسير الكشاف وحاشيته ج ١ ص ٦١٠ .

(٣) راجع تفسير الألوسي ج ٦ ص ٦١٠ .

سادسا : أخذ الأحناف من هذه الآية الكريمة أن أركان الوضوء هي هذه الأربعة فحسب أى : غسل الوجه ، واليدين إلى المرفقين ، ومسح الرأس ، وغسل الرجلين إلى الكعبين .

وقد أضاف جمهور الفقهاء إلى ذلك النية - كما سبق أن أشرنا - كما أضافوا الترتيب بين الأركان بحيث يغسل الوجه أولا ثم اليدين ثم اليدين ثم من بعدهما مسح الرأس ، ثم غسل الرجلين ، لأن هذه الأركان قد ذكرت بهذا الترتيب في القرآن فيجب التزامه . ولأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يخالف هذا الترتيب ولو مرة واحدة ، فوجب اتباع ما جاء عنه - صلى الله عليه وسلم - .

وقال الأحناف : الترتيب ليس فرضا ، لأن العطف بين الأركان بالواو ، وهي لا تقتضى ترتيبا ولا تعقيبا .

لذلك أضاف بعض الفقهاء إلى أركان الوضوء الموالاة ، بمعنى أن يواصل للمتوضيء الاشتغال بوضوئه ولا ينقطع عنه . وذهب بعضهم إلى أن ذلك سنة . والنبي تطمئن إليه النفس أن المتوضيء إذا انقطع وضوؤه بعمل أجني لمدة جفت معها أعضاء الوضوء وجب عليه استئناف الوضوء مبتدأ بأوله . لما إذا قطع المتوضيء وضوؤه لفترة قصيرة بحيث بقيت آثار الوضوء ظاهرة فإنه في هذه الحالة يجوز له الاستمرار فيه .

تلك هي بعض المسائل التي رأينا أن نتكلم عنها بإيجاز بمناسبة حديثنا عن هذه الآية الكريمة ، وهناك مسائل أخرى تتعلق بها تكملت كتب الفروع بتفصيلها . وقد انتقلت الآية الكريمة بعد حديثها عن الوضوء إلى الحديث عن الاغتسال وموجبه فقال - تعالى - : « وإن كنتم جنبا فاطهروا » .

والجنب من أصابته الجنابة بسبب جماع أو احتلام أو غيرهما مما تتحقق معه الجنابة . وكلمة جنب من الألفاظ التي يستوى فيها الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث لجريانها مجرى المصدر ، فيقال : رجل جنب ، وامرأة

جنب ، وهما جنب ، ورجال ونساء جنب .. واشتقاقه من المجانبة بمعنى
المباينة ، لأن الجنابة بمعنى شرعى يستلزم من المسلم اجتناب الصلاة ، وقراءة
القرآن ، ومس المصحف ، ودخول المسجد إلى أن يتطهر .

وقوله : فاطهروا ، أصله فتطهروا . فأدغمت التاء فى الطاء فسكنت
فأتى بالهمزة .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم الدخول فى الصلاة فعليكم أن تتوضئوا
قبل دخولكم فيها بأن تغسلوا وجوهكم وتغسلوا أيديكم إلى المرافق ، وتمسحوا
برؤوسكم ، وتغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ، هذا إذا كنتم محدثين حدثا أصغر
وأردتم الصلاة ، أما إذا كنتم محدثين حدثا أكبر ، بأن كنتم جنباً بسبب خروج
منى أو إلتقاء ختانين وأردتم الدخول فى الصلاة فعليكم فى هذه الحالة أن
تتطهروا . أى : تغسلوا بالماء جميع بدنكم . لأن الأمر بالتطهر لما لم يتعلق
بعضو دون عضو ، كان أمراً شاملاً لتطهير جميع البدن ، بدليل أن الوضوء
لما يتعلق ببعضو دون عضو نص الله - تعالى - فى الآية به على تلك الأعضاء
التي أوجب غسلها .

ولنما حملت الطهارة هنا على الطهارة بالماء لأن الماء هو الأصل كما يشير
إلى ذلك قوله - تعالى - : وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به (١) ، ولأنه
- سبحانه - قد ذكر بعد هذه الجملة ما يحل محل الماء عند فقد .

والتعبير بقوله : فاطهروا ، فيه إشارة إلى وجوب العناية فى تعميم الماء
على الجسد كله ، وإيماء إلى النجاسة الممنوعة قد عمت كل أجزاء الجسم ، فوجب
أن تكون الطهارة عامة لكل أجزاء الجسم ، ولا شك أن الاغتسال بعد الجنابة
أو الحيض أو النفاس فيه إنعاش الجسم بعد أن أصابه التعب والإرهاك ، وفيه
كذلك طهارة نفسية ، لأنه يبعث فى الإنسان حسن الاستعداد لذكر الله ،
ولأداء تكاليفه .

قال القنبر الرازى : والدلك غير واجب فى الغسل . وقال مالك : الدلك واجب وحجة غيره أن قوله « فاطهروا » أمر بتطهير البدن وتطهير البدن لا يعتبر فيه الدلك . . . ثم قال والشافعى قال : المضمضة والاستنشاق غير واجبين فى الغسل - ومثله فى ذلك الإمام مالك .

وقال أبو حنيفة - والحنابلة - هما : واجبان لأن الآية تقول « فاطهروا » وهذا أمر بأن يطهروا أنفسهم . وتطهير النفس لا يحصل إلا بتطهير جميع أجزاء النفس ، ماعدا الأجزاء الباطنة التى لا يمكن تطهيرها . وداخل الفم والأنف يمكن تطهيرهما . فوجب بقاءهما تحت النص . ولأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : « بلوا الشعر وأنقوا البشرة فإن تحت كل شعرة جنابة » ، فقوله « بلوا الشعر » يدخل فيه الأنف . لأن داخله شعر . وقوله « وأنقوا البشرة » يدخل فيه الجلد الذى داخل الفم . وحجة الشافعى - ومالك قوله صلى الله عليه وسلم « أما أنا فاحشى على رأسى ثلاث حشيات فإذا أنا قد طهرت » ، وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - ذلك فى مجلس جماعة من أصحابه كانوا يتحدثون أمامه فى أمر الفسل ، وكل يبين ما يعمل (١) .

ثم شرع - سبحانه - فى بيان الأعذار التى تبطل التيمم من أجل الطهارة عند العجز عن استعمال الماء فقال - تعالى - : « وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء : فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه » .

والمراد بالمرضى فى قوله - تعالى - « وإن كنتم مرضى » المرضى الذى يمنع من استعمال الماء مطلقا كان يكون استعمال الماء يزيد المرض شدة ، أو يبطل البرء .

وقوله ، أو على سفر ، فى محل نصب عطفا على خبر كان وهو قوله مرضى

وليس المراد بالسفر هنا سفر القصر ، وإنما المراد السير خارج العمران سواء أوصل المسافر إلى مسافة القصر أم لا ، بخلافه في قوله - تعالى - في سورة البقرة : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » فإن المراد به هناك سفر القصر ، وإنما قيد الأمر هنا بالسفر مع أن المنظور إليه عدم الماء ، لأن السفر هو الذي يغلب فيه عدم الماء بخلاف الحضر ولو فرض عدم الماء في الحضر وجب التيمم على المحدث عند إرادة الصلاة عند الحنفية والمالكية والشافعية .

وقوله « أو جاء أحد منكم من الغائط » معطوف على ما قبله والغائط : من الفيض وهو المكان المنخفض من الأرض . وهو هنا كناية عن الحدث ، لأن العادة جرت أن من يريد الحدث يذهب إلى ذلك المكان المنخفض ليتوارى هن أعين الناس .

وفي إسناد الحجى إلى واحد منهم من المخاطبين ، سمو في التعبير . حيث تحاشى - سبحانه - التصريح بنسبتهم إلى ما يستحيا من ذكره أو يستهجن التصريح به . وفي ذلك ما فيه من تعليم الناس الأدب في الخطاب ، والبعد عن الالفاظ التي تخدش الحياء ، ويعجزها الذوق السليم .

والمراد بالملامسة في قوله تعالى « أولامستم النساء » الجماع : فهو هنا كناية عما يكون بين الرجل والمرأة مما يوجب الاغتسال : وهى كناية قرآنية أراد - سبحانه - أن يعلم الناس منها حسن التعبير ، والبعد عن الالفاظ التي تتنافى مع آداب الإسلام وتعاليمه السامية .

وإلى هذا رأى اتجه كثير من الصحابة ، منهم على ابن أبي طالب وابن عباس وأبو موسى . وتبعهم في ذلك كثير من الفقهاء . كآبي حنيفة وآبي يوسف وزفر والثوري فقد قالوا : لا وضوء على من مس امرأة سواء أكان المسر بشهوة أو بدونها . واستدلوا بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقبل نساءه ثم يصلى ويتوضأ وكان يقبلهن وهو صائم .

ولاستدلوا - أيضا - بأن ظاهر مادة المفاعلة يكون في الفعل من الجانبين مقصودا ، وذلك إنما يتأني في الجماع دون اللمس باليد . وأيضا فإن اللمس وإن كان حقيقة في اللمس باليد إلا أنه قد عهد في القرآن إلى لاقه كناية عن الجماع كما في قوله - تعالى - : « وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة ^(١) » .

ويرى جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب وابن مسعود أن المراد بالملامسة هنا اللمس باليد ، وكافا يوجبان على من مس امرأة الوضوء . وقد سار الإمام الشافعي على هذا الرأي فقال : إذا مس جسدها فعليه الوضوء سواء أكان المس بشهوة أم بغير شهوة .

ومن أدلته أن اللمس حقيقة في المس باليد ، وهو في الجماع مجاز أو كناية ولا يعدل عن الحقيقة إلى غيرها إلا عند تعذر الحقيقة . ويرى الإمام مالك أن المس إن كان بشهوة وتلذذ فعليه الوضوء ، وكذا إذا مسته بشهوة وتلذذ ، وإن كان بغير شهوة فلا وضوء عليهما .

وقد إنتصر كل فريق لرأيه بصورة أوسع من ذلك في كتب الفروع . والذي نراه أولى بالصواب في هذه المسألة ما قاله الإمام مالك - رحمه الله - لأنه بنى رأيه على وجود الشهوة وعدمها . والفاء في قوله : « فلم تجدوا ماء » عطفت ما بعدها على الشرط السابق وهو قوله : « وإن كنتم مرضى » .

والضمير في قوله : « فلم تجدوا » ، يعود لكل من تقدم من مريض ومسافر ومتغوط وملامس . وفيه تغليب للخطاب على الغيبة . وذلك أنه تقدم ضمير الغيبة في قوله : « أوجه أحد منكم من الغائط » ، بينما تقدم ضمير المخاطب في قوله : « كنتم » ، ولا مستم .

والمراد بعدم الوجدان في قوله هناك فلم تجدوا ماء ، ما هو أهم من الوجود

الحسنى أى : أن قوله : فلم تجدوا ماء كناية عن عدم التمكن من استعماله وإن وجد حسا ، إذ أن الشيء المتعذر استعماله هو والمعدوم سواء .

وقوله : د فتيمموا صعيدا طيبا ، جواب الشرط وهو قوله : د وإن كنتم مرضى ...

والمعنى : وإن كنتم - أيها المؤمنون - فى حالة مرض يحول بينكم وبين استعمال الماء ، أو كنتم مستقرين على سفر ؛ أو كنتم محدثين حدثا أصغر أو أكبر ، أو لأمستم النساء ، فلم تجدوا ماء تستعملونه لطهارتكم ، ولأداء ما كلفكم الله به من تكاليف ، أو وجدتموه ولكن منعكم مانع من استعماله ، أو كنتم فى حاجة ماسة إليه ، فعليكم فى هذه الأحوال أن تتيمموا صعيدا طيبا بدلا من الماء ، فإن الله - تعالى - ما جعل عليكم فى الدين من حرج .

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله : د فلم تجدوا ماء ، يعود إلى الجميع ماعدا المرضى ، لأن المرضى يباح لهم التيمم مع وجود الماء ، إذا تضرروا من استعماله . وعلى هذا رأى يكون المراد بعدم الوجدان ، عدم الوجدان الحسى والتيمم لغة القصد . يقال تيممت الشيء إذا قصدته .

ويطلق فى الشرع على القصد إلى التراب لمسح الوجه واليدين به .

وأما الصعيد - بوزن فعيل - فيطلق على وجء الأرض البارز ترابا كان أو غيره . وقيل يطلق على التراب فحسب .

والطيب : الطاهر الذى لم تلوثه نجاسة ولا قدر .

وقوله : د فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، بيان لكيفية التيمم .

أى : إذا لم تجدوا ماء للتطهر به ، أو وجدتموه ولكنكم عجزتم عن استعماله ، فاقصدوا ترابا طاهرا فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم .

وقد استدلل بعض الفقهاء بقوله : د فتيمموا صعيدا طيبا ، على أن التيمم لا يجوز إلا بالتراب الطاهر ، لأنه هو المقصود بالصعيد الطيب .

و يرى بعض آخر أن التيمم يجوز بالتراب والحجر وبما ما ثله من كل

ما كان من جنس الأرض متى كان طاهراً . قالوا : لأن الظاهر من لفظ الصعيد وجه الأرض . وهذه الصفة لا تختص بالتراب .

قال القرطبي - بعد أن ذكر آراء الفقهاء في ذلك - : وإذا تقرر هذا فاعلم أن مكان الإجماع فيما ذكرناه أن يقيم الرجل على تراب طاهر غير منقول ولا منصوب . ومكان الإجماع في المنع أن يقيم الرجل على الذهب والصرف والفضة والياقوت والأطعمة كالخبز واللحم وغيرهما أو على النجاسات واختلاف في غير هذا كالمعادن ، فأجيز وهو مذهب مالك وغيره ومنع وهو مذهب الشافعي وغيره (١) .

كما استدلل الأحناف والشافعية بقوله - تعالى - فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه وعلى أن التيمم المطلوب شرعاً هو استعمال الصعيد في عضوين مخصوصين على قصد التطهير . والعضوان هما الوجه واليدين إلى المرفقين ، فقد جاء في الحديث الشريف عن جابر بن عبد الله أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : « التيمم ضربتان ضربة للوجه ، وضربة للذراعين إلى المرفقين » .

ويرى الأحناف والمالكية أن العضوين هما الوجه واليدين إلى الرسغين . هذا ، وقد تكلمنا عن هذه المسألة وغيرهما بصورة أوسع عند تفسيرنا لقوله - تعالى - في سورة النساء : « وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء » فلم نجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ، (٢) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان بعض مظاهر رحمته بعباده ، ورعايته لمصالحهم فقال - تعالى - (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولاكن يريد ليظهركم وانيتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

أي : ما يريد الله - تعالى - بما فرض عليكم من الوضوء إذا قمتم إلى الصلاة

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٢٧

(٢) أنظر تفسيرنا لسورة النساء الآية ٤٣

ومن الغسل بعد الجنابة ، ومن الأمر بالتبتم عند وجوب أسبابه ، ما يريد . سبحانه . بذلك ليجعل عليكم من حرج ، أى ضيق ومشقة وعسر ، ولكن يريد بذلك ليطهركم .

أى : ليطهر نفوسكم من الأرجاس الحسية والمعنوية ، وإزيل عنها ما علق بها من ذنوب وأوساخ ، ويريد بذلك أيضا ، ايتتم نعمته عليكم ، بما شرع لكم من أحكام ميسرة ، ومن آداب عالية ، ومن تكاليف جميلة لكي تشكروه على نعمه وإحسانه وتشريعاته ، لأنكم متى شكرتموه زادكم من فضله ومنته .

وعبر - سبحانه - عن نفي الحرج بنفي إرادته ، مباينة في بيان رأفته - سبحانه - بعباده ، ورعايته لمصالحهم . فكأنه - سبحانه - يقول : ما كان من شأن الله - تعالى - مع عباده أن يشرع لهم ما فيه مشقة أو حرج . وقوله ، ليجعل ، يحتمل أن يكون الجعل بمعنى الخلق والإيجاد فيتعدي لواحد وهو قوله : من حرج ، وتكون ، من ، زائدة لتأكيد النفي وقوله ، عليكم متعلق بالجعل . ويحتمل أن يكون بمعنى التصيير فيكون قوله ، عليكم ، هو المفعول الثانى . وقوله : ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم املأكم تشكروا ، استدراك قصد به بيان بعض مظاهر رحمته - سبحانه - بالمؤمنين ومحبة لسمادتهم ولتزكية نفوسهم ، وإظهارهم من الذنوب والأدران كما قصد به حفضهم على مداومة شكره حتى يزيدهم من فضله .

وقريب من معنى هذه الجملة قوله - تعالى - . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر (١) . وقوله - تعالى - : ، وما جعل عليكم في الدين من حرج (٢) ، وقوله - تعالى - . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا (٣) .

(١) سورة البقرة - الآية ١٨٥

(٢) سورة الحج الآية ٧٨

(٣) سورة النساء الآية ٢٨

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت للمؤمنين ما يجب عليهم أن يفعلوه إذا ما أرادوا الدخول في الصلاة ، وما يجب عليهم أن يفعلوه إذا ما كانوا جنباً ، وما يجب أن يفعلوه إذا ما فقدوا الماء أو عجزوا عن استعماله . وكانوا يريدون الطهارة أو أدا ما عليهم من تكاليف ، كما بينت لهم حكمة الله في تشريعاته لهم ، ورعايته لمصالحهم حتى يشكروه على نعمه فيزيد منها .

ثم بعد أن بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عباده ورحمته بهم ، أتبع ذلك بأمرهم بمداومته شكره ، وبالوفاء بهمه فقال : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، » .

أى : تنبهوا أيها المؤمنون - بقولكم وقلوبكم لما أسبغه الله عليكم من منن فداوموا على شكرها « واذكروا نعمة الله عليكم ، بدين الإسلام الذي هديتم به إلى الصراط المستقيم ، واذكروا كذلك ميثاقه الذي واثقكم به ، أى : هذه الوثيق الذي أخذه عليكم ، وأمركم بالتزامه بكل قوة . »

وقوله : « إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، ظرف لقوله « واثقكم به ، أى : إذ قلتم وقت أن أخذ عليكم العهد الموثق سمعنا قولك وأطعنا أمرك . »

فأنت ترى أن الآية الكريمة أوجبت على المؤمنين أمرين . أولهما : التفنية إلى نعم الله وعلى رأس هذه النعم نعمة الهداية إلى دين الإسلام ، ومداومته شكره - سبحانه - على ذلك . وثانيهما : الوفاء بهموده التي أخذها عليهم ، وتقبلوه بالسمع والطاعة . لأنهم متى شكروه على نعمه ، وكانوا أوفياء بهمودهم ، زادهم - سبحانه - من فضله وعطائه .

قال الفخر الرازي : وإنما قال : « واذكروا نعمة الله عليكم ، ولم يقل نعمه عليكم ، لأنه ليس المقصود منه التأمل في أعداد نعم الله ، بل المقصود منه التأمل في جنس النعم . كالنظر إلى الحياة والصحة والعقل والهداية وحسن التدبير ، والصون عن الآفات والعاهات ... فجنس هذه النعم لا يقدر عليه سوى الله - تعالى - فيكون وجوب الاشتغال بشكرها أتم وأكمل . »

ولإنما قال : « واذكروا نعمة الله عليكم ، وهو يشعر بنسيانها مع أن مثلها في تواترها لا ينسى ، للإشارة إلى أنه لكثرة هذه النعم وتعاقبها ، صارت كالآمر المعتاد الذي لكثرة وجوده قد يغفل عنه المرء ... » (١)

والمراد بالميثاق الذي أخذه عليهم ما جرى بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وبين المؤمنين من عهد على أن يسمعو له ويطيعوا في العسر واليسر ، والمشط والمكره كما حدث مع الأنصار ليلة العقبة ، وكما حدث مع المؤمنين جميعاً في بيعة الرضوان ...

ولإنما أضيف الميثاق إلى الله ، تأكيداً لوجوب الوفاء به ولأنه - سبحانه - هو الذي شرعه ، وهو الذي سيحاسبهم على نقضه وعدم الوفاء به .

وقال مجاهد : المراد به الميثاق الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من ظهر آدم ، وضمف هذا القول بأن الخطاب هنا للمؤمنين وليس للبشر جميعاً .

قال ابن جرير ما ملخصه : وأولى الأقوال بالصواب في تأويل ذلك : قول ابن عباس ، و « أن معناه : واذكروا أيها المؤمنون - نعمة الله التي أنعمها عليكم بهدايته إياكم إلى الإسلام ، وبميثاقه الذي واثقكم به . » يعني : وعهده الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة له في المشط والمكره ، والعسر واليسر ، إذ قلتم سمعنا ما قلتم لنا وأخذت علينا من المواثيق ، وأطعناك فيما أمرتنا به ، وتنهيتنا عنه ... فأوفوا - أيها المؤمنون - بميثاقه الذي واثقكم به ، ونعمته التي أنعم عليكم بها ... يف لكم بما ضمن لكم الوفاء به ، من إتمام نعمته عليكم ، وبإدخالكم جنته ، وإنعامكم بالخلود في دار كرامته ، وإتقاكم من عقابه

ولإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من قول من قال المراد بالميثاق ما أخذ عليهم في صلب آدم ، لأن الله بعد أن ذكر المؤمنين بميثاقه الذي واثقهم به ، ذكر

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١١ ص ١٧٨ - يتصرف وتأنيس - .

بعد ذلك أهل التوراة بالميثاق الذي أخذه الله عليهم في قوله : واقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل ... ، منبها بذلك المؤمنين على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بما عاهدكم عليه ، ويعرفهم عاقبة سوء عاقبة أهل الكتاب في تضييعهم ما ضيعوا من ميثاقه ... (١)

وبعد أن ذكر الله - تعالى - المؤمنين بنعمته عليهم وبميثاقه الذي واثقهم به وأمرهم بالوفاء بما كلفهم به ، ختم - سبحانه - الآية بأمرهم بخشيته والخوف منه فقال : (واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور) .

أى : اشكروا الله - أيها المؤمنون - على نعمته ، وكونوا أوفياء بعهودكم وإتقوا الله وراقبوه في كل ما تأتون وما تذكرون ، وصونوا أنفسكم عن كل ما يكرهه لكم ، فإنه - سبحانه - عليم علما تاما بخفيات الأمور البكامة في الصدور ، وبكل ما يظهره الإنسان ويبيطنه ، وسيحاسبكم يوم القيامة على أعمالكم ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته و (ذات الصدور) هى الأمور المستقرة في الصدور ، فهمى بالنسبة للصدور كالصاحب بالنسبة لصاحبه الذى يلزمه ولا يفارقه ، ومثلوا لها بالنيات والاعتقادات وسائر الأمور القلبية .

والجملة المكرمة (إن الله عليم ذات الصدور) تعليل لقوله (واتقوا الله) وكرر - سبحانه - اسمه الجليل . لاشعار المؤمنين برقابته التامة عليهم ، وإطلاعه على أحوالهم المختلفة ، وأعمالهم المتنوعة ، والإشارة إلى أنه إذا كان - سبحانه - يعلم خفيات الأمور ، فمن باب أولى يعلم جلياتها .

وبعد أن أمر الله - تعالى - عباده المؤمنين بالوفاء بمواثيقه ، أتبع ذلك بأمرهم بالتزام الحق في كل أقوالهم وأعمالهم ، وذكرهم بما أفاء عليهم من نعم فقال - سبحانه - :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسُطُّوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) » .

وقوله : « قوامين » جمع قوام . وهو صيغة مبالغة من قائم . والقوام : هو المبالغ في القيام بالشئ . وفي الإتيان به على أنهم وجه وأحسنه .

وقوله : « شهداء » جمع شهيد - بوزن فعيل - والاصل في هذه الصيغة ، دلالتها على الصفات الراسخة في النفس ككريم وحكيم .

والقسط : العدل . يقال أقسط فلان يقسط إذا عدل في أقواله وأحكامه .

وقوله « ولا يجرمنكم » أي : ولا يحملنكم من جرمه على كذا إذا حمله عليه . أو معناه : ولا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب غير أنه في كسب ما لا خير فيه . ومنه الجريمة .

وأصل الجرم . قطع الثمرة من الشجرة ، وأطلق على الكسب ؛ لأن الكاسب ينقطع لكسبه .

والشنان : البغض الشديد . يقال : شنت الرجل أشنؤه شناً وشناة وشناً ، إذا أبغضته بغضا شديداً .

والمعنى . يا أيها الذين آمنوا بالحق لإيماننا صادقاً ، كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، أى . ليكن من أخلاقكم وصفاتكم أن تقوموا لله وحده بالحق في كل ما يلزمكم القيام به ، ومن العمل بطاعته ، واجتناب منهياته ، وليكن من دأبكم وشأنكم - أيضاً - أن تلتزموا العدل في شهادتكم ، ولا يحملنكم بغضكم الشديد لقوم على عدم العدل معهم ، فإن عدم العدل في الأقوال والأحكام يتنافى مع تعاليم دين الإسلام . الذى آمنتم به ، ورضيه الله لكم ديناً .

وفي فوائده - سبحانه - لهم بصفة الإيمان ، تنبيه إلى الأمر الخطير الذى ناداهم من أجله ، ودعاهم إلى تنفيذه ، من العمل بطاعته واجتناب منهياته .

وعبر - سبحانه - بقوله : كونوا قوامين ، بصفة الكينونة الدالة على الدوام ، وبصيغة المبالغة الدالة على الكثرة . لتمكين صفة الطاعة له من نفوسهم ، وترسيخها في قلوبهم ...

فكأنه - سبحانه - يقول لهم : روضوا أنفسكم على طاعة خالقكم ، وعودوها على التزام الحق والعدل . واجعلوا ذلك شأنكم في جميع الظروف والأحوال ، فلا يكفي أن تلتزموا الطاعة والعدل مرة أو مرتين ، وإنما الواجب عليكم أن يكون التزامكم لذلك في كل أوقاتكم وأعمالكم .

وقوله : اعدلوا هو أقرب للتقوى ، تصريح بوجوب العدل بعد ما علم من النهى عن تركه في قوله : ولا يجر منكم شأن قوم على أن لا تعدلوا ، للتأكيد على وجوب التزامهم بما أمرهم - سبحانه - به وما نهاهم عنه ، وليبيان العلة في تكليفهم بذلك .

والضمير د هو ، يعود إلى المصدر المفهوم من قوله : اعدلوا ، .

أى : التزموا - أيها المؤمنون - العدل في كل أحوالكم ، فإن العدل مع الأعداء ومع غيرهم أقرب إلى اتقاء المعاصي ، وإلى صيانة النفس عن الوقوع في المهالك .

وقال - سبحانه - : « أعدلوا هو أقرب للتقوى ، مع أن العدل دليل التقوى ولياها ، لأن المؤمن في حال حربيه وقعامله مع عدوه قد يرى أن من التقوى أن يستبيح ماله ، وأن يأخذ منه ما يمكن أخذه ، فبين له القرآن الكريم أن الأقرب إلى التقوى التامة أن يحسن معاملة عدوه ، وأن لا يعتدى على حق من حقوقه .

قال صاحب الكشف ، قوله : « أعدلوا هو أقرب للتقوى ، نهاهم أولا أن يحملهم البغضاء على ترك العدل ، ثم استأنف فصرح لهم بالامر بالعدل تأكيذا وتشديدا ، ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل وهو قوله : « أقرب للتقوى أى : العدل أقرب للتقوى ، وأدخل في مناسبتها . ، وفيه تذكير على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « واتقوا الله إن الله خير بما تعملون » .

أى : واتقوا الله أيها المؤمنون - فى كل ما تأتون وما تذكرون ، وصونوا أنفسكم عما لا يرضيه ، وافعلوا ما أمركم به ، إن الله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، وسيجازيكم يوم القيامة بما تستحقونه على حسب أعمالكم .

فالجملة الكريمة تذييل قصد به التحذير من مخالفة أوامر الله ، ومن انتهاك حرمانه .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد أمرت المؤمنين بالمداومة على طاعة الله فى جميع الأوقات والأحوال ، وبإداء الشهادات على وجهها بدون محاباة ولا ظلم ، وبوجوب العدل فى معاملة الأعداء والأصدقاء ، وبمراقبة الله - تعالى - وخشيته فى السر والعانية .

قال الألوسي : وقد تقدم نظير هذه الآية في سورة النساء (١) - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله . . . ولم يكنف بذلك لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء نائرة الغيظ . وقيل : لاختلاف السبب ، فإن الأولى نزلت في المشركين ، وهذه في اليهود . وذكر بعض المحققين وجها لتقديم القسط هناك وتأخيرها هنا ، وهو أن آية النساء جىء بها في معرض الإقرار على نفسه ووالديه وأقاربه . فبدأ فيها بالقسط الذي هو العدل من غير محاباة نفس ، ولا والد ولا قرابة . وإلى هنا جىء بها في معرض ترك العداوة فبدأ فيها بالقيام لله - تعالى - لأنه أردع للمؤمنين ، ثم ثنى بالشهادة بالعدل فجىء في كل معرض بما يناسبه (٢) .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين ، فقال - تعالى - : وعد الله ، بفضله وإحسانه ، الذين آمنوا ، إيماناً حقاً (وعملوا) الأعمال (الصالحات) التي قالوا بها رضا الله ، وعدم بأن (لهم مغفرة) عظيمة ولهم (أجر عظيم) لا يعرف مقداره إلا هو - سبحانه - .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) التي جاء بها نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - (أولئك أصحاب الجحيم) أى : أولئك الموصفون بما ذكر من الكفر والتكذيب بآياتنا هم المستحقون لدخول النار المشتعلة الشديدة الساجج ، بسبب إشارهم الكفر على الإيمان والتكذيب على التصديق .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة أخرى من نعمه الجزيلة ، حتى يزدادوا شكراً له ، ووفاء بعهده ، والتزاماً لطاعته فقال - تعالى - : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم . . .) وقد أورد المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

(٢) تفسير الألوسي ج ٦ ص ٨٣

مارواه عبد الرزاق عن معمر الزهرى عن أبي أسامة عن جابر: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نزل منزلا وتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها . وعلق النبي - صلى الله عليه وسلم - سلاحه بشجرة فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله فأخذه فسله . ثم أقبل عليه فقال : من يمنعك مني ؟ قال : الله - عز وجل - فسقط السيف من يد الأعرابي . . فدعا النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي ، وهو جالس إلى جانبه ولم يعاقبه .

قال ابن كثير : وذكر محمد بن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين ، ووكلوا عمرو بن جحاش بذلك . وأمره إن جلس النبي - صلى الله عليه وسلم - تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه . فأطلع الله النبي - صلى الله عليه وسلم - على ما تمالؤا عليه . فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه . فأنزل الله في ذلك هذه الآية (١) .

وعلى هاتين الروایتين وما يشبههما يكون المراد بقوله - تعالى - : اذكروا نعمة الله عليكم ، تذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث نجى نبيهم - صلى الله عليه وسلم - مما أضمره له أعداؤه وأعداؤهم .

وقال صاحب الكشف عند تفسيره لهذه الآية . روى أن المشركين رأوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر يصلون معا بعسفان في غزوة ذات أثار . فلما صلوا ندموا أن لا كانوا أكبوا عليهم فقالوا : إن لهم بعدها صلاة هي أحب إليهم من آياتهم وأبنائهم - يعنون صلاة العصر - وهموا أن يوقعوا بهم إذا قاموا إليها . فنزل جبريل بصلاة الخوف (١) .

وعلى هذه الرواية يكون المراد بقوله - تعالى - : اذكروا نعمة الله عليكم ، تذكيرهم برعاية الله لهم ولنبيهم - صلى الله عليه وسلم - من كيد أعدائهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣١

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٦٢

وقد رجح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النضير من كيد وسوء للنبي وأصحابه فقال : وأولى الأقوال بالصحة في تأويل ذلك قول من قال : عني الله بالنعمة التي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به وبرسوله التي أنعم بها عليهم في استنقاذهم فيهم - صلى الله عليه وسلم - مما كانت يهود بنو النضير هممت به من قتله وقتل من معه يوم سار إليهم في الدية التي كان يحملها عن قتيلي عمرو ابن أمية وإنما قلنا ذلك أولى بالصحة في تأويل ذلك، لأن الله عقب ذكر ذلك برى اليهود بسوء صنائعها ، وقبيح أفعالها ، وخيانتها ربهما وأنبيائها (١) .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا تنبهوا إلى نعم الله عليكم، وقابلوها بدوام الشكر والطاعة له - سبحانه - حيث أراد قوم من أعدائكم أن يبسطوا أيديهم ، أى : أن يبسطوا بكم بالقتل والإهلاك ، وليكنه - سبحانه - رحمة بكم، ودفاعاً عنكم ، حال بين أعدائكم وبين ما يريدونه بكم من سوء .

فالآية الكريمة تذكير للمؤمنين بنعمة عظيمة من نعم الله عليهم حيث نجاهم من كيد أعدائهم ، ومن عاوتهم لإهلاكهم . إثر تذكيرهم قبل ذلك بنعم أخرى كما كان الدين ، وهدايتهم إلى الإسلام ، وغير ذلك من الآلاء والمنن .

وفي تكرار هذا التذكير ما فيه من الحض على تأكيد المداومة على طاعة الله والمواظبة على شكره .

وقوله : إذ هم قوم ، ظرف لقوله : د نعمة الله ، والهم : إقبال النفس على فعل الشيء . أى . اذكروا نعمة الله عليكم وقت أن قصدكم قوم من أعدائكم بالسوء والإهلاك .

وبسط اليد هنا كناية عن البطش والإهلاك . يقال : بسط يده إليه ، إذا بطش به . وبسط إليه لسانه : إذا شتمه . والبسط في الأصل : مطلق المد . وإذا استعمل في اليد واللسان كان كناية عما ذكر .

وقوله : فكف أيديهم عنكم ، معطوف على قوله : د كم قوم ، وهذا

الكف هو النعمة التي قصد تدكيرهم بها حتى يداوموا على شكر الله وطاعته .
وعبر - سبحانه - بقوله : إذ هم قوم ، الإيذان بأن نعمة كف أيدي
الاعداء عنهم قد جاءت عند شدة الحاجة إليها .

والفاء في قوله : فكف ، للتعقيب المفيد لتمام النعمة وكما لها . فهو - سبحانه -
قد حال بين الأعداء وبين ما يشتهونه بمجرد أن قصدوا السوء بالمؤمنين .

وقال - سبحانه - : فكف أيديهم عنكم ، بإظهار الأيدي ، ولم يقل فكفها
عنكم ؛ لزيادة التقرير ، وللإشارة إلى أنه - سبحانه - هو الذي قضى على موضع
قوة أعدائهم ، ومناط شدتهم ، إذ الأيدي هي من أهم وسائل البطش والقتل .

أي : أنه - سبحانه - قد منع أيديهم عن أن تمتد إليكم بالأذى عقيب مهمهم
بذلك دفاعاً عنكم - أيها المؤمنون - وحماية لكم من الشرور ، فقابلوا ذلك
بالحكر الخالقكم . وقوله : واتقوا الله ، معطوف على قوله : اذكروا . . .
وقوله : وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، أمر لهم بالاعتماد على الله وحده .

أي : داوموا على شكر نعم الله عليكم ، وصونوا أنفسكم عن كل مانهاكم
عنه ، وعليه وحده اعتمدوا وتوكلوا ، فإنه - سبحانه - هو الفعال لما يريد ،
وهو الذي يدفع الشر عن توكل عليه ، ويعطي الخير لمن شكره وأطاعه .

فالجملة الكريمة تذييل مقرر لما قبله ، من وجوب المداومة على طاعة الله
وشكره على نعمه .

ولإي هنا نرى أن السورة الكريمة قد وجهت إلى المؤمنين خمس نداءات ،
أمرتهم في أول نداء منها بالوفاء بالعقود ، ونهتهم في الثاني عن إحلال شعائر الله
وأرشدتهم في النداء الثالث إلى ما يجب عليهم أن يفعلوه إذا أرادوا الدخول في
الصلاة ، وأمرتهم في النداء الرابع بالمداومة على القيام بالتكاليف التي كلفهم
- سبحانه - بها ، وبالتزام العدل في أقوالهم وأحكامهم ، ثم أمرتهم في النداء
الخامس بالتنبيه إلى نعم الله ومداومة شكره عليها ، حيث نجاهم - سبحانه - ما
أراد لهم أعداؤهم من شرور واستئصال .

وبعد هذه النداءات والتكليفات التي كلف الله - تعالى - بها المؤمنين ، شرعت السورة الكريمة في الحديث عن أحوال أهل الكتاب من اليهود ، فقد كرت ما أخذه الله عليهم من عهود موثقة ، وموقفهم منها ، وعقوبتهم على نقضهم لها .. فقال - تعالى - :

« ولقد أخذ الله ميثاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وبعثنا منهم اثنيَ عشر نقيباً ، وقال الله إني معكم ، لئن أقمتم الصلاةَ وآتيتم الزكاةَ وآمنتم برسلي وعزرتهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً ، لا كفرنا عنكم سبئاً ، ولا أدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السبيل (١٢) فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً ، يحرفون الكلمَ عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، ولا تزالُ تطالعُ على خائنةٍ منهم إلا قليلاً منهم ، فاعفُ عنهم واصفحْ إن الله يحبُّ المحسنين (١٣) » .

قال الفخر الرازي : قوله - تعالى - « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ، وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ، وقال الله إني معكم ... » ، أعلم أن في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه :

الأول : أنه - تعالى - خاطب المؤمنين فيما تقدم فقال : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ، . ثم ذكر الآن أنه أخذ الميثاق من بني إسرائيل لئلا يتركوه ، فلا تكونوا مشركين في هذا الخلق الذميمة .. »

الثاني : أنه لما ذكر قوله : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم ... » ،

وقد ذكرت بعض الروايات أنها نزلت في اليهود ، وأنهم أرادوا إيقاع الشر بالمؤمنين ... فلما ذكر - سبحانه - ذلك أتبعه بذكر فضائلهم ، وبيان أنهم كانوا أبدأ مواعظين على نقض اليهود والمواثيق .

الثالث : أن الغرض من الآيات المتقدمة ترغيب المكلفين في قبول التكليف وترك التمرد والمصيان . فذكر - سبحانه - أنه كاف من كان قبل المسلمين كما كلفهم ليعلموا أن عادة الله في التكليف والإلزام غير مخصوصة بهم ، بل هي عادة جارية له مع جميع عباده ، (١) .

والميثاق : العهد الموثق المؤكد ، مأخوذ من لفظ وثق المتضمن معنى الشد والربط على الشيء بقوة وإحكام .

والمراد به : ما أخذه الله على بني إسرائيل لكي يؤدوا ما أوجب عليهم من تكاليف ولكي يعملوا بما أضمته التوراة من أحكام وتشريعات وغير ذلك مما جاء فيها .

والنقيب : كبير القوم ، والكفيل عليهم ، والمنقب عن أحوالهم وأمرهم فيكون شاهداً وضمينهم وعريفهم . وأصله من النقب وهو الثقب الواسع .

قال الألوسي . والنقيب : قيل : فعيل بمعنى فاعل مشتقاً من النقب بمعنى التفتيش ومنه : فنقبوا في البلاد ، وسمى بذلك لتفتيشه عن أحوال القوم وأمرهم .

قال الزجاج : وأصله من النقب وهو الثقب الواسع والطريق في الجبل . ويقال : فلان حسن النقيبة . أى : جميل الخليفة . ويقال : فلان نقاب للعالم بالأشياء ، الذكى القلب ، المكثير البحث عن الأمور ، (٢) .

والمعنى : ولقد أخذ الله اليهود المؤكدة على بني إسرائيل ، لكي يعملوا بما كلفهم من تكاليف ، وأمر نبيه موسى - عليه السلام - أن يختار منهم

(١) تفسير القرطبي الرازي ج ١١ ص ١٨٢

(٢) تفسير الألوسي ج ٦ ص ٨٥

اثني عشر نقيبا ، وأن يرسل هؤلاء النقباء إلى الأرض المقدسة لكي يطلعوا على أحوال ساكنيها ، ثم يخبروا نبيهم موسى - عليه السلام - بعد ذلك بما شاهدوه من أحوالهم .

وستفصل القول في شأن بعث هؤلاء النقباء عند تفسيرنا لقوله - تعالى - بعد ذلك : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم أذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم اللوكا ... » .

وأكد - سبحانه - ما أخذه على بني إسرائيل من عهد بقدر وباللام ، للاهتمام بشأن هذا الخبر ، ولترغيب المؤمنين في الوفاء بعهدهم مع الله - تعالى - حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل من عقوبات بسبب نقضهم لمواثيقهم .

وأسند - سبحانه - الأخذ إليه ، لأنه هو الذي أمر به موسى - عليه السلام - ولأن في إسناد أخذ الميثاق إليه - سبحانه - زيادة في توثيقه ، وتعظيم توكيده . وأي عهد يكون أقوى وأوثق من عهد يكون بين العبد والرب ؟

وفي قوله : « وبعثنا ، التفات إلى المتكلم العظيم - سبحانه - لتحويل شأن هذا الابتعاث ، لأن الله - تعالى - هو الذي أمر به .

ولما اختار موسى - عليه السلام - اثني عشر نقيبا من بني إسرائيل لأنهم كانوا اثني عشر سبطا ، كما قال - تعالى - « وقطعناهم اثني عشرة أسباطا أمما »^(١) . ولأن كل نقيب كان بمنزلة الرقيب على القبيلة التي هو منها . يذكرها بالفضائل ويرغبها في اتباع موسى - عليه السلام - ، وينهاها عن معصيته .

والجمعية في قوله - تعالى - « وقال الله لني معكم ، معية مجازية بمعنى الحفظ والرعاية والنصرة .

أي : أخذ الله على بني إسرائيل العهد الموثقة ، وأمر نبيه موسى أن يرسل

منهم اثني عشر نقيبا لمعرفة أحوال الجبارين الذين يسكنون الأرض المقدسة
وقال الله - تعالى - لهؤلاء النقباء ، أو لبني إسرائيل جميعا : إني معكم لا تنقن
على خافية من أحوالكم ، وسأبيدكم برعايتي ونصرى متى وفيتهم بعهدى ،
واتبعتم رسلى .

فالجملة الكريمة تحذير لهم من معصية الله ؛ لأنه لا تنقن عليه خافية ،
ووعدهم بالنصر متى أطاعوه .

ثم بين - سبحانه - بعض التكليف التى كلفهم بها ، وأخذ عليهم العهد
بالمحافظة عليها فقال : ولئن أقمت الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتُم برسلى ،
وعزرتُموم ، وأقرضتُم الله قرضا حسنا ، لا كفرن عنكم سيئاتكم ، ولأدخلنكم
جنتنا تجري من تحتها الأنهار .

واللام فى قوله : لئن ، موطئة للقسم المحذوف ، وه إن ، شرطية ، وقوله :
لا كفرن ، جواب التسم وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه .

وقوله : وعزرتُموم ، من التعزير بمعنى النصر والإعانة مع التعظيم
والتفخيم يقال : عزز فلان فلانا إذا نصره وقواه . وأصل معناه : المنع والذب
لأن من نصر إنسانا منع عنه أعداءه .

والمعنى : لئن داومتُم على إقامة الصلاة ، وعلى أدائها على الوجه الأكمل
بخضوع وخشوع ، وأعطيتم الزكاة لمستحقها ، وآمنتُم برسلى إيمانا كاملا ،
ونصرتُموم مع تعظيمهم وطاعتهم (وأقرضتُم الله قرضا حسنا) بأن أنفقتُم
جانبا من أموالكم فى وجوه الخير والبر ، لئن فعلتم ذلك (لا كفرن عنكم
سيئاتكم) بأن أغفرها لكم ، ولأدخلنكم فى الآخرة جنتنا تجري من
تحت أشجارها وبساتينها الأنهار .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد كلف بنى إسرائيل بخمسة أمور نافعة ورعدهم
على أدائها بتكفير سيئاتهم فى الدنيا ، وبإدخالهم جنتاته فى الآخرة .

قال الإمام الرازي : وآخر - سبحانه - الإيمان بالرسول عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنه مقدم عليها ؛ لأن اليهود كانوا مقرين بأنه لا بد في حصول النجاة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، إلا أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل . فذكر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أنه لا بد من الإيمان بجميع الرسل حتى يحصل المقصود . وإلا لم يكن لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تأثير في حصول النجاة بدون الإيمان بجميع الرسل ، (١) .

والمراد بالزكاة في قوله : وآتيتم الزكاة ، الزكاة المفروضة .

والمراد بالقرض الحسن في قوله : وأقرضتم الله قرضا حسنا ، الصدقات غير المفروضة التي يبذلها القادرون عليها في رجوه الخير المتنوعة بدون رياء أو أذى وفي التعبير بقوله : وأقرضتم الله قرضا حسنا ، تأنيص للقلوب ، وترغيب للنفوس في البذل والعطاء ، حيث شبه - سبحانه - ما يعطى للمحتاج رغبة في الثواب بالقرض الذي سيكافئه الله - تعالى - صاحبه عليه بأضعافه من الخير والنعيم .

وأضاف - سبحانه - الرسل إليه في قوله : وآمنتم برسلي ، لتتبرهنهم وتكرهم وتعظيم شأن رسالاتهم ، وللإشارة إلى أن الإيمان بهم جميعا واجب ، فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن كفر بواحد منهم كفر بالله - تعالى - .

ثم بعد أن فتح الله - تعالى - لهم باب كرمه إن أدوا ما أمرهم به ، حذرهم من المخالفة والعصيان فقال : فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، أي : فمن جحد منكم شيئا مما أمرته به فتركه ، أو أعرض عن التكاليف التي كلفته بها بعد أن عرفها فقد بعد عن السبيل المستوية ، وأخطأ

الطريق الواضح المستقيم ، ونسار في مناهات الضلال التي لا هداية فيها ولا خير معها .

فإنجمله الكريمة تهديد شديد لمن ترك الدين الحق واتجه إلى الأديان الباطلة . قال صاحب الكشف : فإن قلت : من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضل سوا السبيل ، فلم قال : من كفر بعد ذلك ؟ قلت : أجل من كفر قبل ذلك أيضا فقد ضل . ولكن الضلال بعده أظهر وأعظم : لأن الكفر إنما عظم قبضه لعظم النعمة المكفورة ، فإذا زادت النعمة زاد قبض الكفر وبلغ النهاية العظمى ، (١) .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت أن الله - تعالى - قد أخذ الميثاق على بني إسرائيل بأن يقوموا بالتكليفات التي كلفهم بها ، وحذروهم من النقض والخيانة والكفر ، ورغبهم في الطاعة والإيمان فإذا كان موقفهم من عهد الله - تعالى - ؟

أقد بين - سبحانه - جانباً من رذائلهم ، ومن العقوبات التي عاقبهم بها بسبب فسوقهم عن أمره فقال : « فبما نقضهم ميثاقهم ، لعناهم ، وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظاً مما ذكروا به ، » .

والغناء في قوله : « فبما نقضهم » للتفريع على ما تقدم من الحديث عنهم . والباء للسببية و « ما » مزيدة لتوكيد الكلام وتمكينه في النفس . والجار والمجرور - متعلق بقوله : (لعناهم) .

وقوله : (وجعلنا قلوبهم قاسية) معطوف على ما قبله .

وقوله : (قاسية) بوزن فاعلة - من القسوة بمعنى الصلابة واليبوسة . يقال : قسا قلبه يقسو فهو قاس ، إذا غلظ واشتد وصار يابساً صلباً .

وقسوة القلب هنا مجاز عن عدم تأثيرها بالمواعظ والترغيب والترهيب .

أى : فبسبب جرائمهم الشديدة أبعدناهم من رحمتنا ، وجعلنا قلوبهم يابسة غليظة تنبو عن قبول الحق ولا تتأثر بالمواعظ والنذر .

وقرأ حمزة والكسائي : « وجعلنا قلوبهم قسية » - بتشديد الياء من غير ألف على وزن فعيلة .

والمفسرين في معناها رأيان : أحدهما : أن (قسية) بمعنى قاسية ، غير أن فيها مبالغة ، إذ هي على وزن فعيلة ، وهذه الصفة تدل على تمكن صفة القسوة من قلوبهم .

والثاني : أن معنى (قسية) هنا غير معنى قاسية ، لأن قسية في هذا الموضع مأخوذة من قولهم : درهم قسى - على وزن شقى - أى : فاسد ردى . لأنه مغشوش بنحاس أو غيره مما يخلو منه الدرهم السليم .

والمعنى على هذا الوجه : وجعلنا قلوبهم لإيمانها ليس خالصا ، وإنما يخالطه كفر ونفاق كالدرهم القسوة التى يخالط فضتها غش من نحاس أو رصاص أو غيرها .

وقد رجح ابن جرير الرأى الأول - وهو أن قسية بمعنى قاسية غير أن فيها مبالغة - فقال : (وأولى التأويلين عندى بالصواب تأويل من تأول فعيلة من القسوة كما قيل : نفس زكية وزاكية ، وامرأة شاهدة وشهيدة ، لأن الله تعالى - وصف القوم بنقضهم ميثاقهم ، وكفرهم به ، ولم يصفهم بشئ من الإيمان ، فتكون قلوبهم موصوفة بأز لإيمانها بخالطه كفر كالدرهم القسية التى يخالط فضتها غش) (١) .

وأما صاحب الكشاف فقد رد التفسير الثانى إلى الأول وجعل بينهما تماثلا وتلازما فى المعنى فقال : (وقرأ عبد الله (قسية) أى : ردية مغشوشة . من قولهم : درهم قسى وهو من القسوة ، لأن الذهب والفضة الخالصين

فيهما لين ، والمغشوش فيه ريب وصلابة ، (١) . . .

وقوله : (يحرفون الكلم عن مواضعه) استئناف مبين لشدة قساوة قلوبهم ، فإنه لا قسوة أشد من تحريف كلام الله - تعالى - والميل به عن الحق والصواب .

أى : أنهم بلغ بهم الحال فى قسوة قلوبهم ، وعدم تأثرها بوعيد الله ، أنهم يميلون كلامه - سبحانه - عن الموضع الذى نزل فيه ولأجله عن طريق التأويل الباطل ، أو التفسير الفاسد ، أو التبديل للألفاظ بالزيادة تارة وبالنقصان أخرى ، على حسب ما تمليه عليهم أهوائهم وشهواتهم المعقوتة .

وعبر - سبحانه - بقوله : (يحرفون) بصيغة الفعل المضارع ، لاستحضار صورة هؤلاء المحرفين ، والدلالة على أن أبناءهم قد نهجوا نهج آبائهم فى هذا الخلق الذميم .

فإن هذا التحريف الذى حكاه الله - تعالى - فى هذه الآية قد كان من بنى اسرائيل بعد عهد موسى - عليه السلام - واستمروا على ذلك حتى أن يصدى عنهم ما كان من نصيح النبي - صلى الله عليه وسلم - لهم ، ومن تحذيره إياهم .. والمراد بالذسيان فى قوله : (ونسوا حظا مما ذكروا به) الترك والإهمال قال الراغب : (الذسيان : ترك الإنسان ضبط ما استودع . إما لضعف قلبه ، وإما عن غفلة ، وإما عن قصد حتى يزول عن القلب ذكره) .

والأنواع الثلاثة التى ذكرها الراغب كأسباب للذسيان قد فعلها بنو اسرائيل فهم قد أصابتهم الغفلة عن تدبر كتابهم والعمل بما فيه بسبب ضعف قلوبهم ، واستيلاء المطامع والشهوات عليها ، وأهملوا أمر دينهم وشريعتهم ولم يقيّدوا أنفسهم بها عن تعمد وإصرار ، لأن تخفيفها يكلفهم الاستقامة على دين الله وهذا ما تأباه نفوسهم الجامحة ، وشهواتهم العارمة .

والتمكيز في قوله : « حظا ، للتكثير والتحويل . أى : تركوا نصيبا كبيرا مما أمرتهم به شريعتهم ، وذكروهم به توراتهم من وجوب اتباعهم للحق وإيمانهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - عند ظهوره .

وهذه الجملة الكريمة وما يشبهها مما أورده القرآن في هذا المعنى تعتبر من المعجزات الدالة على صدق القرآن الكريم ، فإن الناس قبل البعثة النبوية الشريفة لم يكونوا يعرفون أن اليهود نسوا حظا كبيرا مما ذكروهم به توراتهم ، فلما بين القرآن ذلك ، عرفوا ما لم يكونوا يعرفونه من قبل .

ولما كانت أخلاق الآباء كثيرا ما يتوارثها الأبناء ، فقد رأينا القرآن الكريم يحذر النبی - صلى الله عليه وسلم - من اليهود المعاصرين له ، والذين ورثوا رذائل آبائهم فقال : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم » .

وقوله « خائنة » بمعنى الخيانة أى عدم الوفاء بالعهد . فهى مصدر على وزن فاعله كالعافية والطاغية . قال - تعالى - « فأما ثمود فاهلكوا بالطاغية » أى بالطغيان . ويحتمل أن يكون قوله « خائنة » صفة لموصوف محذوف أى على فرقة خائنة أو طائفة ...

والمعنى : ولا تزال - أبها الرسول الكريم - ترى في هؤلاء اليهود المعاصرين لك صورة السابقين في الغدر والخيانة . وإن تباعدت الأزمان ف هؤلاء الذين يعاصرونك فيهم خيانه أسلافهم ، وغدرهم ، ونقضهم لعهودهم ... إلا قليلا منهم دخلوا في الإسلام فوفوا بعهودهم ولم يكونوا ناقضين لها .

وفي هذه الجملة الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه من اليهود المعاصرين له من كيد ومكر وخيانة . فكأن الله - تعالى - يقول له إن ما تراه منهم من غدر وخداع ليس شيئا مستبعدا ، بل هو طبيعة فيهم ورثوها عن آبائهم منذ زمن بعيد : .. وفيها - أيضا - تحذير له - صلى الله عليه وسلم - من شرورهم ومن مسالكهم الخبيثة لكيد الإسلام

والمسلمين ، فإن التعبير بقوله ، ولا تزال ، المفيد للدوام الاستمرار يدل على استمرار خيانتهم ، ودوام نقضهم لعهودهم ومواثيقهم .

وقوله : « إلا قليلا منهم » ، استثناء من الضمير المجرور في قوله « خائنة منهم » والمراد بهذا العدد القليل منهم ، أولئك الذين دخلوا في الإسلام ، واتبعوا الحق كعبد الله بن سلام وأمثاله .

ثم ختم سبحانه - الآية بقوله : « فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » والعفو عدم مقابلة الإساءة بمثلاً .

والصفح : ترك اللوم والمعاتبة . ولذا قالوا : الصفح أعلى رتبة من العفو ، لأن العفو ترك المقابلة بالممثل ظاهراً . أما الصفح فهو يتناول الصراحة النفسية واعتبار الإساءة كما أن لم تكن في الظاهر والباطن .

وللعلماء أقوال في المراد بالذين أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالعفو والصفح عنهم : فيرى بعضهم أن المراد بهم ، القسلة اليهودية التي أسلمت واستثناهما الله بقوله « إلا قليلا منهم » ، وهذا الرأي مردود بأنهم ما داموا قد آمنوا ، فقد عصموا دماءهم وأموالهم ، ولم يصبح للعفو والصفح عنهم موضع

٢ - ويرى آخرون أن الذين أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالعفو والصفح عنهم هم كافة اليهود ، إلا أن الآية نسخت بآية التوبة وهي قوله « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، من الدين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١) وهذا الرأي ضعيف ، لأن النسخ لا يصر إليه إلا إذا تعذر الجمع بين الآيتين وهو غير متعذر - كما سنبين - :

٣ - ويرى أبو مسلم أن المراد بهم اليهود الذين بقوا على كفرهم ، ولكنهم لم ينقضوا عهودهم .

والذي نراه أولى أن العفو والصفح عام لليهود ، وإن من مظاهر ذلك معاملتهم ومساكنتهم ، ومحادثتهم ، بالتى هى أحسن - ومعاملتهم بمبدأ لهم مالنا وعليهم ما علينا ، مع العفو عن زلاتهم التى لا تؤثر على كيان الدعوة الإسلامية ...

فإذا ما نقضوا عهودهم وخانوا الله ورسوله والمؤمنين ، وأصبح العفو عنهم فيه مضرة بالمسلمين ، ففي هذه الحالة تجب معاملتهم بالطريقة التى تقي المسلمين شرورهم ، لأن العفو عنهم - عند إستلزام قتالهم للدفاع عن النفس وعن العقيدة - يكون إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، ويكون قد وضع العفو فى غير موضعه . وهذا القول يقارب ما ذهب إليه أبو مسلم . وربما أعتبر توضيحاً له .

فكان الله - تعالى - يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فادف عن هؤلاء اليهود الذين ورثوا الخيانة عن آبائهم ، وأصفح عن زلاتهم التى لا تؤثر فى سير الدعوة الإسلامية إلى الوقت المناسب لمحاسبتهم ، إن الله تعالى يحب المحسنين .

وبذلك نرى السورة الكريمة قد بينت جانباً مما أخذ الله على بنى إسرائيل من عهود ومواثيق ، ورغبتهم فى الوفاء بها وحذرتهم ، من نقضها ، كما بينت بعض العقوبات التى عاقبهم الله بها - بسبب فسوقهم عن أمره ورسمت للنبي صلى الله عليه وسلم - طريق معالجتهم ومعاملتهم بما بقى المسلمين من شرورهم ومكرهم .

وبعد أن بين - سبحانه - جانباً من قبائح اليهود ونقضهم لمواثيقهم عقب ذلك ببيان حال النصارى فقال - تعالى - :

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ، فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) » .

وقوله - تعالى - : « ومن الذين قالوا إنا نصارى ... » معطوف على قوله قبل ذلك : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ... » .
 والجار والمجرور في قوله « ومن الذين قالوا ... » متعلق بقوله : « أخذنا »
 وقوله « نصارى » جمع نصران كتدامي جمع ندمان ، ولم يستعمل نصران إلا بياء النسب . وقد صارت كلمة نصرائي لكل من اعتنق المسيحية
 وقد سموا بذلك لدعواهم أنهم أنصار عيسى على أعدائهم . أو نسبة إلى بلدة الناصرة التي فيها نشأ عيسى - عليه السلام - وأعلن دعوته للناس .
 والمفى : وكما أخذنا على بني إسرائيل الميثاق بأن يعبدوا الله وحده
 ويطيعوا أنبياءه ، ويستجيبيوا لمحمد - صلى الله عليه وسلم - الذي بشرت به
 الكتب السماوية ... فقد أخذنا - أيضاً - من الذين قالوا إنا نصارى الميثاق
 بذلك ، ولكنهم كان شأهم في الكفر ونقض العهد كشأن اليهود ، إذ ترك
 هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى قدراً كبيراً ، ونصيلاً عظيماً ماذكروا به على
 لسان عيسى عليه السلام - فقد أمرهم بتوحيد الله ، وبشرهم بظهور رسول
 من بعده هو محمد صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى الإيمان به ، ولكنهم استحبوا
 الكفر على الإيمان ، فكان دأبهم كدأب بني إسرائيل في العناد والضلال .
 ونسب - سبحانه - تسميتهم نصارى إلى أنفسهم فقال : « ومن الذين
 قالوا إنا نصارى ، ولم يقل : « ومن النصارى » ، للإشارة إلى أن ادعاهم
 النصرانية هي الدين الذي جاء به عيسى ، إنما هو قول يقولونه بأفواههم دون
 أن يتبعوه بقلوبهم إذ لو كانوا متبعين حقاً لما جاء به عيسى عليه السلام -
 لا قروا الله - تعالى - بالوحدانية ولا منوا بمحمد صلى الله عليه وسلم - الذي
 بشر به عيسى - عليه السلام - .

وإلى هذا المعنى أشار - صاحب الكشف بقوله : فإن قلت : فما قيل
 ومن النصارى ؟ قلت : لأنهم إنما سموا أنفسهم بذلك إدعاء لنصرة الله ،
 وهم الذين قالوا لعيسى : نحن أنصار الله . ثم اختلفوا بعد : نسطورية ،
 ويعقوبية ، وملكانية ، أنصارا للشيطان ، (١)

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ١١٦ طبعة دار الكتب العربي بيروت

وقوله - تعالى - : « ونسوا حظا مما ذكروا به » ، بيان لما حدث منهم بعد أخذ الميثاق .

أى : أخذنا من الذين قالوا لا انصارى ميثاقهم على أن يعبدوا الله وحده ، ويطيعوا أنبياءه ورسله ولكنهم لم يكونوا أوفياء بعهودهم ، بل تركوا نصيباً كبيراً مما أمروا بفعله وما ذكروا به على لسان المسيح عيسى ابن مريم . والمراد بالنسيان هنا الترك والإهمال عن تعمد وقصد ، لأن الناسى حقيقة لا يؤاخذ به الله - تعالى - .

والإتيان بالفاء في قوله : « فنسوا » ، الإشارة إلى أن تركهم لما أخذ عليهم من ميثاق ، كان عن تعجل وعدم تمهل بسبب استيلاء الأهواء والشهوات على قلوبهم .

والتشكير في قوله تعالى : « حظا » للتحويل والتكثير . أى تركوا نصيباً كبيراً مما أمرتهم به شريعتهم ، من وجوب اتباعهم للحق ، وإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم عند ظهوره ، فكان تركهم لهذا الصليب العظيم مما ذكروا به سبباً في ضلالتهم وسوء عاقبتهم .

قال بعض العلماء : « وسبب نسيان حظ أى نصيب كبير مما ذكروا به ، هو اضطهاد النصارى اضطهاداً شديداً في عهد الرومان حتى ضاعت كتبهم ولم يعرف شيء منها ، إلا قليل غير سليم بعد مائتي سنة من ترك المسيح هذه الدنيا . وما ظهرت هذه الأناجيل التى يتدارسونها - ولا يزالون يغيرون ويبدلون فيها على حسب الطبقات المختلفة - إلا بعد أن دخل قسطنطين أمبراطور الرومان فيها ، وغير وبدل في مجمع نيقة الذى انعقد في سنة ٣٢٥ ميلادية . وقد ذهب لب الديانة وهو التوحيد ، (١) .

وقوله : « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » ، وسوف يفتنهم

(١) تفسير الآية المذكورة ، لفظة الشيخ محمد أبو زهرة - رحمه الله - بحجة

لواء الإسلام السنة ١٩ للمعد التاسع ص ٥٤٥

الله بما كانوا يصنعون ، وعيد شديد لهم بسبب تركهم لما أرشدوا إليه ، ولما
ذكروا به .

فالفاء في قوله -- تعالى - ، فأغرينا ، للسببية . وأغرينا أي : ألقينا وهيجنا
والصفتنا . يقال : أغريت فلانا بكذا حتى غرى به أي : ألزمت به والصفته .
وأصل ذلك من الغراء وهو ما يلتصق به الشيء .

وقوله : ، بينهم ، ظرف لأغرينا . والضمير فيه يعود إلى فرق النصارى
المتعددة عند جمهور المفسرين .

والمعنى : بسبب ترك هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى لما ذكروا به ، فرقناهم
شيعاً وأحزاباً ، وجعلنا كل فرقة منهم تعادى الأخرى وتبغضها إلى يوم
القيامة .

ويرى بعضهم أن الضمير في قوله : ، بينهم ، يعود إلى اليهود والنصارى ،
فيكون المعنى :

بسبب ما عليه الطائفتان من عناد وضلال ، ألقينا بينهم العداوة والبغضاء
إلى يوم القيامة ، فهم في عداوة شديدة ، وكراهية مستحكمة .

وقد رجح ابن جرير عودة الضمير إلى فرق النصارى فقال :

وأولى الأولين بالآية عندي : ما قاله الربيع بن أنس وغيره ، وهو أن المعنى
بالإغراء بينهم : النصارى في هذه الآية خاصة وأن الهاء والميم عائدتان على
النصارى ، دون اليهود ، لأن ذكر الإغراء في خبر الله عن النصارى بعد تقضى
خبره عن اليهود ، وبعد إبتداء خبره عن النصارى ، فلأن يكون ذلك معنياً به
النصارى خاصة ، أولى من أن يكون معنياً به الحزبان جميعاً لما ذكرناه ، (١)

وقال ابن كثير : قوله - تعالى - : ، ففهموا حظاً مما ذكرنا به فأغرينا بينهم
العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ، أي : فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم
بعضاً ، ولا يزالون كذلك إلى يوم قيام الساعة . وكذلك طوائف النصارى
على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ، ويأمن

بعضهم بعضاً . فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبداً . فالله - كانية . تكفر اليه عقوبة ، وكذلك الآخرون . وكذلك النسطورية الأريوسية كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، (١) .

والذي تطمئن إليه النفس أن قوله - تعالى - « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » ، يشمل ما بين اليهود والنصارى من عداوة ظاهرة مستحكمة يراها الرائي في كل العصور والأزمان ، كما يشمل ما بين فرق النصارى من اختلاف وتباغض وتقاتل بسبب عقائدهم الزائفة ، وأهوائهم الفاسدة . وما نراه من تصارع وتقاتل بين طائفتي الكاثوليك والبروستانت في أمير لاند ، وفي غيرها خير شاهد على صدق القرآن الكريم ، وأنه من عند الله - عز وجل - . وقوله - تعالى - : « وسوف ينبتهم الله بما كانوا يصنعون » ، بيان لسوء عاقبتهم في الآخرة بعد بيان ما حكم الله به عليهم في الدنيا من عداوة وبغضاء . و « سوف » هنا لتأكيد الخبر وتقويته وبيان أنه وإن تأخر آت لا محالة .

والمعنى : لقد ألقينا العداوة والبغضاء بين هذه الطوائف الضالة ، وسوف ينخيرهم الله في الآخرة بما كانوا يصنعونه من كتمان الحق ، ومخالفة للرسل ، وانغماس في الباطل ، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون من عذاب شديد . وبعد أن بين - سبحانه - بعض الرذائل التي انغمس فيها اليهود والنصارى . وجه إليهم نداء دعاهم فيه إلى الدخول في الدين الحق الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - :

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) » .

والمعنى : يا أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، قد جاءكم رسولنا ، محمد - صلى الله عليه وسلم - ، يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، أى : يظهر لكم كثيرا من الأحكام والمسائل التى ذكرتها كتبكم وكنتموها عن الناس ، كما خفائكم صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - التى تجدونها فى التوراة والإنجيل وكنتم أنكم ما جاء فيها من بشارات تبشر به . . . وغير ذلك من الأحكام التى أخفاها علماءكم عن العامة ، وتولى الرسول - صلى الله عليه وسلم - إعلانها لإظهار الحق ، ووضعها للأمور فى نصابها .

وقوله : ويعفو عن كثير ، أى : يعرض ولا يظهر كثيرا مما كنتم تخفونه ، لأنه لا ضرورة تدعو إلى بانه ، ولا فائدة تعود على الناس من وراء إظهاره ، فى السكوت عنه رحمة بكم ، وصيانة لكم عن الافتضاح والمواخذة .

يقال : عفا عن المذنب ، أى : ستر عنه ذنبه فلم يعاقبه عليه .

والمراد بالكتاب فى قوله : يا أهل الكتاب ، جنس الكتب ، فى شمل التوراة والإنجيل .

وفى ندائهم بهذا الوصف حمل لهم على الدخول فى الإسلام ؛ فإن علمهم بما فى كتبهم من بشارات بالرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعهم إلى الإيمان به . فإذا لم يؤمنوا به مع علمهم بأنه رسول صادق فى رسالته وكانت مذمتهم أشد وأقبح ، وكان عقابهم على كتمانهم الحق أعظم وأفسى . وكان التعبير بقوله - تعالى - : قد جاءكم ، للإشارة إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - قد وصل إليهم ، ويعيش بينهم ، فهم يرونه ويراهم ، ويخاطبهم ويخاطبونه ، ليسمعوا منه ما يشهد بصدقه بدون حجاب أو وساطة .

وفى التعبير بقوله - تعالى - : رسولنا ، تشرىف للرسول - صلى الله عليه وسلم - حيث أضافه - سبحانه - إلى ذاته ، وفيه كذلك إيدان بوجوب إتباعه لأنه رسول مبلغ عن الله - تعالى - ما يأمره بتبليغه بدون تغيير أو تبديل . والمراد بالكتاب فى قوله : تخفون من الكتاب ، التوراة والإنجيل .

فقد امتدت أيدي اليهود والنصارى إلى هذين الكتابين فغيروا وبدلوا فيهما على حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم .

وفي إظهار الرسول - صلى الله عليه وسلم - للكثير مما كتموه ، وعفوه عن الكثير مما أخفوه ، معجزة له ، لأنه لم يقرأ كتابا ، ولم يجلس أمام معلم ، فإخباره بأسرار ما في كتبهم إخبار عن أمور منجية ، فيكون معجزة له تحملهم على الإيمان به فيما يدعوم إليه .

ثم مدح الله - تعالى - رسوله ، وما جاء به من الخير والهدى فقال :
« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، » .

والمراد بالنور هنا : محمد - صلى الله عليه وسلم - فهو نور الأنوار - كما يقول الألوسي - .

والمراد بالكتاب : القرآن الكريم الذي أنزله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - والجملة الكريمة مستأنفة مسوقة لبيان أن فائدة مجيء الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليست منحصرة فيما ذكر من بيان ما كانوا يخفونه ، بل له منافع أخرى لا نحصى .

قال ابن جرير ما ملخصه قوله : - تعالى - « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يقول - جل ثناؤه - لهؤلاء الذين خاطبهم من أهل الكتاب : « قد جاءكم يا أهل التوراة والإنجيل من الله نور هو محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي أنار الله به الحق ، وأظهر به الإيبس - لام وبحق به الشرك ، . . . » وقوله « وكتاب مبين ، يعني : « كتابا فيه بيان ما اختلفوا فيه بينهم من توحيد الله ، وحلاله وحرامه وشرائع دينه وهو القرآن الذي أنزله على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم » (١) .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالنور وبالكتاب هنا : القرآن الكريم

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ١٦١ .

وقد اقتصر على هذا التفسير صاحب الكشف فقال قوله : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » يريد القرآن ، لكشفه ظلمات الشرك والشك ، وإبانه ما كان خافيا عن الناس من الحق ، أو لأنه ظاهر الإعجاز ، (١) .

ويبدو لنا أن ما ذهب إليه ابن جرير أرجح ، لأن العطف في الغالب يقتضي المغايرة في الذات ، إذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد جاء للناس برسالة هي نور في شخصه - صلى الله عليه وسلم - كما جاءهم بالقرآن الكريم الدال على صدقه في رسالته .

ثم بين - سبحانه - الغاية من رسالته - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - « يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام » . والضمير في قوله « به » ، يعود إلى مجموع ما ذكر ، أو إلى الكتاب المبين باعتباره أقرب مذكور .

و « سبيل » جمع سبيل بمعنى طريق . و « السلام » ، مصدر بمعنى السلامة . والمعنى : « قد جاءكم - يا معشر أهل الكتاب - من الله نور وكتاب مبين . يهدي الله - تعالى - بذلك أو بالكتاب - « من اتبع رضوانه ، أى : من علم - سبحانه - منه أنه يريد إتباع ما يرضيه ، بأن يخلص له العبادة ، ويستجيب للحق الذي أرسل به أنبياءه ، فإنه متى كان كذلك ، أوصله - سبحانه - إلى « سبيل السلام » ، أى : إلى طرق السلامة والنجاة من كل خوف وشقاء ، بأن يثبت في الدنيا على طريق الحق ، ويكرمه في الآخرة بمثوبته وجنته . هذه هي الثمرة الأولى من ثمار اتباع ما جاء من عند الله من نور وكتاب مبين . أما الثمرة الثانية فقد بينا - سبحانه - بقوله : « ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه » .

والضمير المنصوب في قوله « ويخرجهم » وهو « هم » ، يعود إلى « من » في قوله « من اتبع رضوانه » باعتبار المعنى .

أى : ويخرج - سبحانه - هؤلاء الأخيار الذين علم منهم لإتباع ما يرضيه فرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الحق والإيمان ، بإذنه ، أى : إرادته وعلمه .

وقوله : « ويهديهم إلى صراط مستقيم » ، بيان للثمرة الثامنة من ثمار إتباع آجاء من عند الله من حق وخير .

أى : ويهدى - سبحانه - هؤلاء الذين علم منهم إتباع ما يرضيه إلى صراط مستقيم ، وطريق قويم لا اعوجاج فيه ولا اضطراب ، وهو طريق الإسلام الذى يوصل إلى الفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة .

وبذلك نرى الآيتين الكريمتين قد دعتا أهل الكتاب إلى إتباع الحق الذى جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من عند الله ، بأوضح أسلوب ، وأكمل بيان ، وبينتا لهم ما يترتب على إتباعه - صلى الله عليه وسلم - من منافع جليلة ، وفوائد عظيمة ، تجعلهم يسارعون إلى تصديقه إن كانوا من يستمعون القول فيتعلمون أحسنه .

وبعد أن أرشد - سبحانه - أهل الكتاب إلى الطريق القويم الذى يجب عليهم أن يسلكوه ، عقب ذلك ببيان ما عليه النصارى من ضلال وبطلان فقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً . والله مَلِكُ السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء . والله على كل شئ قدير » (١٧) .

اللام فى قوله : « لقد كفر » .. ، واقعة جواباً لقسم « قدر » . والمراد بالكفر : ستر الحق وإنكاره ، والانفهام فى الباطل والضلال . والمعنى : أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذباً وزوراً : إن الله المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح عيسى ابن مريم .

قال بعض العلماء مالم يخلصه : ، لقد اتفق النصارى على أن يسوع عندهم فيه عنصر إلهى ، وإذا كان الأمر المعروف عندهم أن يسوع ابن الله ، وفيه عنصر إلهى فقد قالوا : إن الألوهية قد حلت فيه ، ولازم ذلك للقول أن يكون هو الله ، أو هو إله يعبد . ومهما يكن فقد قالوا باتحاد عنصر الألوهية فيه . وقد قال فى ذلك البيضاوى : هم الذين قالوا بالاتحاد منهم . وقيل : لم يصرح به أحد منهم . ولكنهم لما زعموا أن فيه لاهوتا ، وقالوا : لا إله إلا واحد لزمهم أن يكون هو المسيح فحسب إليهم لازم قولهم . .

وذلك بلا ريب يفتى إلى القول بأنهم يعتقدون أن المسيح هو الله ، وإن لم يصرحوا بذلك ، فهو لازم قولهم باتحاد عنصر الألوهية فيه مع الله .

وإن ذلك الكلام تخرج على أن النصارى مذهب واحد فى اعتقاد الألوهية وأنه ابن الله وبذلك يكون قوله - تعالى - فى أواخر هذه السورة : لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، متلاقيا مع هذا النص الكريم . فهمنا صرح بلازم قولهم ، وهناك صرح بذات قولهم .

والحقيقة أن النصارى اليوم - وهم لا يزالون يغيرون ويبدلون - يصرحون بأن الأقانيم ثلاثة ، وأما شئ واحد . وينتهون إلى أن المسيح هو الله ، والله هو روح القدس . فقد قال الدكتور بوسست فى تاريخ الكتاب المقدس : ، طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر هى : الله الآب ، والله الإبن والله الروح القدس . فالآب ينتمى الخلق بواسطة الإبن . وإلى الإبن الفداء ، وإلى الروح القدس التطهير . غير أن ثلاثة الأقانيم تتقاهم جميع الأعمال على السواء . أما مسألة التثليث فغير واضحة فى العهد القديم ، كما هى فى العهد الجديد . .

ومن هذا الكلام يقين أن النصارى يصرحون بأن الإبن هو الله ، ولا يكون الكلام بطريق اللازم لقولهم ، بل بطريق الصريح منه . فهم يصرحون بأن الله هو الإبن ، كما أن الله هو الآب ، كما أن الله هو روح القدس (١)

(١) تفسير الآية الكريمة لفظة الشيخ محمد أبو زهرة ، مجلة لواء الإسلام السنة ١٩

هــذا ، وقد أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد على أولئك الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، بما يكف عن جهلهم وضلالهم فقال - تعالى - :

« قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ... »

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء النصارى الذين قالوا : « إن الله هو المسيح ابن مريم » ، قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ والتجهيل : من ذا الذى يملك من أمر الله وإرادته شيئاً يدفع به الهلاك عن المسيح وعن أمه وعن سائر أهل الأرض ، إن أراد الله - سبحانه - أن يهلكهم ، يبيدهم ؟ لا شك أن أحداً لن يستطيع أن يمنع إرادته - سبحانه - ، لأنه هو المالك لأمر الوجود كله ، ولا يملك أحد من أمره شيئاً يستطيع به أن يحرفه عن عمل يريده ، أو يحمله على أمر لا يريده ، أو يستقل بعمل دونه . ومادام الأمر كذلك فدعوى أن الله هو المسيح ابن مريم ظاهره البطلان ، لأن المسيح وأمه من مخلوقات الله التى هى قابلة لطروء الهلاك والفناء عليها ، وحاشا للمخلوق الفانى أن يكون إلهاً وإلهاً الألوهية لله الخالق الباقي ، إلا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : « لا حجة - سبحانه - على فساد ما ذهب إليه النصارى بقوله :

« فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً » . وهذه جملة شرطية قدم فيها الجزاء على الشرط .

والتقدير : إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً فمن الذى يقدر على أن يدفعه عن مراده ومقدوره . وقوله « فمن يملك من الله شيئاً » أى : فمن يملك من أفعال الله شيئاً . والملك هو القدرة . يعنى فمن الذى يقدر على دفع شيء من أفعال الله - تعالى - ومنع شيء من مراده .

وقوله : « ومن في الأرض جميعاً » يعنى : أن عيسى مشاكلاً لمن في الأرض

في الصورة والخلقة والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والأحوال ، فلما سلمتم كونه - تعالى - خالقاً لكل ، مدبراً لكل ، وجب أن يكون أيضاً خالقاً لميسى ، (١)

وفي توجيه الأمر إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - للرد عليهم ، تثبيت له ، وتقوية لحجته حتى يبطل قوهم الفاسد لإبطالاً يزداد معه المؤمنون إيماناً بالحق الذي آمنوا به .

قال أبو السعود : وإنما نفيت المالكية المذكورة بالاستفهام الإنكارى عن أحد ، مع تحقيق الإلزام والتبكيك بنفيها عن المسيح فقط ، لتحقيق الحق بنبي الألوهية عن كل ما عداه - سبحانه - ، وإثبات المطلوب في غنمه بالطريق البرهاني .

واعميم إرادة الإهلاك لكل - مع حصول المطلوب بقصرها على المسيح - لهو بل الخطاب ، وإظهار كمال العجز ، ببيان أن الكل تحت قهره - تعالى - وملكوته . لا يقدر أحد على دفع ما أريد به . فضلاً عن دفع ما أريد بغيره . وللايدان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للإهلاك ، كما أنه لها فيما ذكر من العجز وعدم استحقاق الألوهية ، (٢)

ونخصيص الأم بالذكر مع إندراجها في عموم المدهلوف ، ازيادة تأكيد عجز المسيح ، وأنه هو وأمه عبدان من عباد الله لا يقدران على رفع الهلاك عنهما .

وعطف عليهما قوله ، ومن في الأرض جميعاً ، من باب عطف العام على الخاص ، ليكونا قد ذكرا مرتين . مرة بالنقص عليهما ، ومرة بالإندراج في العام ، وذلك على سبيل التوكيد والمبالغة في تعلق نفاذ الإرادة فيهما .

وقوله ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، تأكيد لاختصاص الألوهية به - تعالى - ، إثر بيان إنتفائها عما سواه .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١١ ص ١٩١ . طبعة عبد الرحمن محمد

(٢) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ١٧ طبعة صبيح .

أى : الله - تعالى - وحده دون أن ينازعه منازع ، أو يشاركه مشارك ، ملك جميع الموجودات ، والتصرف المطلق فيها ، إيجادا وإعداماً ، وإحياء وإماتة . فهو المالك للسموات وما فيها ، وللأرض وما عليها ، ولما بينهما من فضاء تجرى فيه السحب بأمره ، ويطير فيه الطير بإذنه وقدرته . وما المسيح وأمه إلا من جملة ما فى الأرض ، فهما عبدان من عباد الله يدينان له - سبحانه - بالعبادة والطاعة والخضوع .

وقال - سبحانه - : وما بينهما ، ولم يقل وما بينهما مع أن السموات بالفظ الجمع ، لأن المراد بالسموات والأرض النوعان أو الصنفان .

أى : الله - تعالى - وحده ملك السموات والأرض وما بين هذين النوعين من مخلوقات خاضعة لمشيئة الله وقدرته .

وقوله : يخلق ما يشاء ، جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والالوهية على وجه يزيل ما اعترى النصارى من شبهة فى أمر المسيح ، ولولادته من غير أب ، وإحيائه الموتى ، وإبرائه الأكمه والأرض ، كل ذلك بإذن الله .

أى أنه - سبحانه - يخلق ما يشاء أن يخلقه من أنواع الخلق بالكيفية التى يريد ما تبعاً لمشيئته وإرادته .

فتارة يخلق الإنسان من ذكر وأنثى كما هو المعتاد بين الناس ، وتارة يخلقه بدون أب أو أم كما هو الشأن فى خلق آدم وتارة يخلقه بدون أب كما هو الشأن فى خلق عيسى ، إلى غير ذلك من مخلوقاته التى ليست مقصورة على نوع واحد بل هى شاملة لهذا الكون بما فيه من إنسان وحيوان وجماد ، فكل ما تعلقت إرادته بإيجاده أو جده ، وكل ما تعلقت إرادته بإعدامه أو عدمه ، لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه ولا حائل دون تفاد قدرته .

وقوله : : والله على كل شىء قدير ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

أى : والله - تعالى - قدير على كل شىء ، ومالك لكل شىء ، ومهيمن على

كل شيء لا يعلمه شيء عليه ، ولا يعجزه أمر أراده . وما عيسى وأمه إلا من مخلوقاته وعبيده ، وحاشا للمخلوق المعجز أن يكون إلها من ديار الله - عز وجل - .

فهذه الآية الكريمة تحكي أقوال النصارى الباطلة في شأن عيسى - عليه السلام - وترد عليهم بما يرهق باطلهم ، ويثبت أن عيسى إنما هو عبد من عباد الله - وأن العبادة إنما تكون لله الواحد القهار .

ثم ساق - سبحانه - بعض دعاوى أهل الكتاب الباطلة ، وأمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يخرس أسنتهم فقال - تعالى - :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) » .

قال الإمام ابن كثير : روى محمد بن إسحاق وابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن عباس قال : أنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جماعة من اليهود ، فكلموه وكلمهم ، ودعاهم إلى الله - تعالى - وحذرهم تقصته فقالوا : ما نخوفنا يا محمد ؟ نحن أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى ؛ فأنزله الله - تعالى - فيهم .

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ... الآية (١) » .

وقوله - تعالى - ، وقالت اليهود والنصارى ... ، حكاية لما صدر عن الفريسيين من أقاويل فاسدة ، ودعاوى باطلة ، يدل على سفاهة عقولهم ، وبلاغة تفكيرهم ، حيث قالوا في حق الله - تعالى - ما لا يليق بعظمته - سبحانه - .

قال الألوسي مالمخصه : « و مرادهم بالأبناء : المقربون . أي نحن مقربون
عند الله - تعالى - قرب الأولاد من والدهم . و مرادهم بالأحياء : جمع حبيب
بمعنى محب أو محبوب . ويجوز أن يكونوا أرادوا من الأبناء الخاصة ، كما
يقال : أبناء الدنيا وأبناء الآخرة . ويجوز أن يكونوا أرادوا بما قلوا أنهم
أشباع وأنباع من وصف بالنبوة . أي قالت اليهود : نحن أشباع ابنه عزيز .
وقالت النصارى : نحن أشباع ابنه عيسى . وأسلمق الأبناء على الأشباع مجازا
لما تغلبوا أو تشبهوا لهم بالأبناء في قرب المنزلة . وهذا كما يقول أتباع الملك :
نحن الملوك .

وقيل الكلام على حذف المضاف . أي : نحن أبناء أنبياء الله - تعالى -
وهو خلاف الظاهر

ومقصود الفريقين بقوله - تعالى - حكاية عنهم « نحن أبناء الله وأحباؤه ،
هو المعنى المتضمن مدحا ، وحاصل دعواهم أن لهم فضلا ومزية عند الله
- تعالى - على سائر الخلق » (١) .

والمعنى : وقالت طائفة اليهود التي تزعم أنها شعب الله المختار ، وقالت
طائفة النصارى التي تزعم أنها على الحق دون غيرهم ، قالت كل طائفة منهما :
نحن في القرب من الله - تعالى - بمنزلة أبنائه المدللين ، وأحبائه المختارين ، فلنا
من الفضل والمنزلة والتكريم ما ليس لغيرنا من البشر .

والذي حملهم على هذا القول الباطل ، جهلهم بما اشتملت عليه كتبهم ،
وتخبطهم في الكفر والضلال وفهمهم السقيم لمعاني الألفاظ .

قال ابن كثير : « ونقلوا عن كتبهم أن الله - تعالى - قال لعبيده إسماعيل :
أنت أبى بكرى . فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه . وقد رد عليهم غير
واحد من أسلم من عقلائهم . وقالوا : هذا يطلق عندهم على التشريف
والإكرام . كما نقل النصارى عن كتبهم أن عيسى قال لهم : إني ذاهب إلى

أبي وأبيكم ، يعنى : ربى وربكم . ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما أدعوا فى عيسى - عليه السلام - وإنما أرادوا بذلك معزتهم لديه ، وحظوتهم عنده ، ولهذا قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه (١) .

وعطف - سبحانه - قولهم : وأحباؤه ، على قولهم : نحن أبناء الله ، للإشارة إلى غلوهم فى الجمل والفرور ، حيث قصدوا أنهم أبناء محبوبون وليسوا مغضوبا عليهم من أبيهم ، بل هم محل رضاه وإكرامه . . .

وقد أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بما يكتبهم فقال : قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر من خلق . .

والفاء فى قوله : فلم يعذبكم ، الإفصاح ، لأنها تفصح عن جواب شرط مقدر أى : قل يا محمد هؤلاء المفرورين ، إن كان الأمر كما زعمتم من أنكم أبناء الله وأحباؤه ، فلاى شيء يعذبكم إذ الحبيب لا يعذب حبيبه .

وإن واقعكم يا أهل الكتاب يناقض دعواكم ، فقد عذبكم - سبحانه - فى الدنيا بسبب ذنوبكم بالقتل والأسر والمسح وتهيج العداوة واليغضاء بينكم إلى يوم القيامة .

أما فى الآخرة فإن كتبكم التى بين أيديكم تشهد بأنكم ستعذبون فى الآخرة على ما تقرفون من آثام فى دنياكم .

وقد أقر اليهود بأن العذاب سيقع بهم - فى زعمهم - أياما معدودات فى الآخرة وحكى القرآن عنهم ذلك فى قوله - تعالى - : وقالوا ان تمسنا النار إلا أياما معدودة ، :

وأقر النصارى بأن الله - تعالى - سيحاسب الناس يوم القيامة ، وسيجازى كل إنسان على حسب عمله إن خيرا إن خيرا ، وإن شرا فشر .

قال القرطبي : رد الله عليهم قولهم فقال : فلم يعذبكم بذنوبكم ، فلم يكونوا يخلون من أحد وجهين ، إما إن يقولوا هو يعذبنا ، فيقال لهم : فلستم

إذا أبنائه ولا أحياءه ، فإن الحبيب لا يعذب حبيبه ، وأتم تقرون بعذابه ،
فذلك دليل على كذبكم - وهذا هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف -
أو يقولوا : لا يعذبنا فيكذبوا ما في كتبهم ، وما جاءت به رسالهم ، ويبيحوا
المعاصي وهم معترفون بعذاب العصاة منهم ، ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم ،^(١)
وقوله : د بل أتم بشر ممن خلق ، رد على أصل دعواهم الباطلة ، وبيان لما
هو الحق من أمرهم ، وهو معطوف على كلام مقدر .

أى : ليس الأمر كما زعمتم يا معشر اليهود والنصارى من أنكم أبناء الله
وأحياءه ، بل الحق أنكم كسائر البشر من خلق الله ، فإنكم إن آمنتم
وأصلحتم أعمالكم فأنتم الثواب من الله ، وإن بقيتم على كفركم وغروركم
حق عليكم العقاب . وليس لأحد فضل على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح .

قال أبو حيان قوله : د بل أتم بشر ممن خلق ، لإضراب عن الاستدلال
من غير إبطال له إلى استدلال آخر من ثبوت كونهم بشرا من بعض خلقه ،
فهم مساوون لغيرهم في البشرية والحدوث ، وهما يمنعان النبوة ، فإن القديم
لا يلد بشرا ، والآب لا يخلق ابنه ، فامتنع بهذين الوجهين النبوة ، وامتنع
بتعديهم أن يكونوا أحياء لله ، فبطل الوصفان اللذان ادعوهما ،^(٢) .

وقوله - سبحانه - د يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، بيان لعموم
قدرته ، وشمول إرادته .

أى أنه - سبحانه - يغفر لمن يشاء أن يغفر له من خلقه ، وهم المؤمنون به
وبرسله ، ويعذب من يشاء أن يعذبه منهم ، وهم المنحرفون عن طريق الحق
والهدى ، لأراد لقضائه . ولا معقب لحكمه .

(١) تفسير المقرئ ج ٦ ص ١٢٠

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٢ ص ٤٥١ .

وقوله : والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ، تذييل
قصدي به تأكيد ما قبله من عموم قدرته . وشمول إرادته وهيمنته على ما خلقه .

أي : والله - تعالى - وحده ملك جميع الموجودات ، وهو صاحب التصرف
المطلق فيها ، لإيجاد وإعدام ، وإحياء وإماتة ، وإليه وحده مصير الخلق
يوم القيامة فيجازيهم على ما عملوا من خير أو شر .

قال - تعالى - : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة
شرا يره . . .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت حجة اليهود والنصارى الذين
زعموا أنهم : أبناء الله وأحباؤه ، وأثبتت بالمنطق الواضح أنهم كاذبون
فيما يدعون ؛ وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالإيمان والعمل الصالح .

وبعد أن بين - سبحانه - فساد أقوال أهل الكتاب ، وبطلان عقائدهم ،
ورد عليهم بما لا يدع للماقل متمسكا بتلك الضلالات . . . أتبع ذلك بتوجيه
فداء آخر إليهم تكريرا لوعظهم ، وتحريضا لهم على إتباع الحق فقال
- تعالى - :

« يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بينكم على فترة من
الرسل ، أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير
ونذير والله على كل شيء قدير (١٩) » .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : قال معاذ بن جبل ، وسعد بن هبادة
وعقبة بن وهب لليهود : يا معشر اليهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فوالله إنكم
لتعلمون أنه رسول الله . لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعة . وتصفونه لنا
بصفته فقال رافع بن حرملة ووهب بن يهودا : ما قلنا هذا لكم ، وما أنزل

الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده ، فأنزل الله في قولهما قوله : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بدين لكم على فترة من الرسل . الآية (١) ،

وقوله : على فترة من الرسل ، أى : على انقطاع من الرسل ، إذ الفترة هى الزمن بين زمنين ، ويكون فيها سكون عما يكون فى هذين الزمنين

قال الراغب : الفتور سكون بعد حدة ، ولين بعد شدة ، وضعف بعد قوة . قال - تعالى - يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بدين لكم على فترة من الرسل . أى : سكون خال عن مجى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقوله : يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، أى لا يسكنون عن نشاطهم فى العبادة ، (٢)

فأصل الفتور : السكون والانقطاع . يقال فتر عن عمله إذا انقطع عما كان عليه من الجد والنشاط

والمعنى : يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، يامن أنزل الله - تعالى - الكتب السماوية على أنبيائكم لهدايتكم وسعادتكم ، ها هو ذا رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - قد جاءكم لهدى بدين لكم شرائع الدين ، والطريق الحق الذى يوصلكم إلى السعادة الدينية والدنيوية ، وذلك بعد انقطاع من الرسل ، وطموس من السبل ، وضلال فى العقائد ، وفساد فى الأفكار والمعاملات . قال الإمام ابن كثير مامليخصه : قوله - تعالى - : على فترة من الرسل ، أى : بعد مدة متطاولة ما بين إرساله - صلى الله عليه وسلم - وبين عيسى ابن مريم . وقد اختلفوا فى مقدار هذه الفترة كم هى ؟ فعن قتادة نحو سبعمائة وستون سنة .

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ١٦٦

(٢) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٧١ للراغب الاصفهاني

(٩ - سورة المائدة)

وكانت هذه الفترة بين عيسى ابن مريم - آخر أنبياء بني إسرائيل - وبين محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم النبيين من بني آدم على الإطلاق ، كما ثبت في صحيح البخاري ، عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أنا أولى الناس بابن مريم ليس بيني وبينه نبي » وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبي يقال له خالد بن سنان .

والمقصود من هذه الآية ، أن الله - تعالى - بعث محمدا - صلى الله عليه وسلم - على فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وتغير الأديان ، وكثر عباد الأوثان والنيران والصلبان ، فكانت النعمة به أتم النعم (١) .

وفي ندائه - سبحانه - لليهود والنصارى بقوله : « يا أهل الكتاب تذكروه لهم إلى أن هم أصحابهم للكتاب » وكونهم أهل معرفة ، يوجبان عليهم المبادرة إلى اتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي بشرت بمبعث كتبهم التي بين أيديهم ، والذي يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم . . . وإلا فسيكون عقابهم أشد إذا ما استمروا في كفرهم وضلالهم .

وعبر - سبحانه - قوله : « قد جاءكم ، للإبذان بأنه - صلى الله عليه وسلم - قد أصبح بينهم ، بحيث يشاهدكم ويشاهدونه ، ويسمع منهم ويسمعون منه وأنه قد صار من اللازم عليهم اتباعه ، لأن الشواهد قد قامت على صدقه فإنه يبلغه عن ربه .

وأضاف - سبحانه - الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ذاته فقال « قد جاءكم رسولنا ، لتشریفه - صلى الله عليه وسلم - وتكريمه ، وللإشارة إلى قدسية هذه الرسالة وسمو منزلتها ، وأنها لا تسوغ مخالفة من أتى بها ، ويصح الخروج عن طاعته ، لأنه رسول من عند الله - تعالى - الذي الخلق والأمر

١. ومفعول « بين » محذوف . أى : بين لكم الشرائع والأحكام : وما أمرتم به ، وما نهيتهم عنه ، وحذف هذا المفعول اعتماداً على ظهوره ، إذ من المعلوم أن ما بينه الرسول هو الشرائع والأحكام .

وقوله : « على فترة » متعلق بقوله « جاءكم » على الظرفية ، وقوله : « من الرسل » متعلق بمحذوف صفة لفترة

أى : قد جاءكم رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - على حين فتور من الإرسال وانقطاع الوحي ، ومزيد الاحتياج إلى البيان

والتعير بقوله - تعالى - « على فترة » فيه معنى فوقيه الرسالة على الفترة ، وعلوها عليها ؛ كملو البيان على الجهل ، والنور على الظلمة ، فمن الواجب عليهم أن يسارعوا إلى اتباع الرسول الذى جاءهم بالحق ، وإلا كانوا ممن يرتضى لنفسه الانحدار من الأعلى إلى الأدنى ، ومن العلم إلى الجهل ، ومن الهدى إلى الضلال . وقوله - تعالى - : « أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » جملة تعليلية المقصود بها قطع معاذيرهم إذا ما احتجوا بالجهل وعدم معرفتهم لأوامر الله ونواهيه .

والمراد بالبشير : المبشر الذى يبشر أهل الحق والطاعة بالخير والسعادة . والمراد بالنذير : المنذر الذى ينذر أهل الباطل والضلال بسوء المصير . والمعنى : لقد جاءكم يا معشر أهل الكتاب رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بين لكم شرائع الله بعد فترة متطاولة من انقطاع الرسل ، لكي لا تقولوا على سبيل المَعذرة يوم الحساب ، ما جاءنا من بشير يبشرنا بالخير عند الطاعة ، ولا نذير ينذرنا بسوء العاقبة عند المنصية .

و « من » فى قوله « من بشير » لتأكيد نفى المجىء .

والتذكير فى قوله : « بشير ونذير » للتقليل ، أى : ما جاءنا أى بشير ولو كان صغيراً ، وما جاءنا أى نذير ولو كان ضئيلاً .

وهنا يسوق الله - تعالى - ما يبطل معاذيرهم ، بإثبات أن البشير والنذير قد جاءهم فقال - تعالى - : « فقد جاءكم بشير ونذير » .

والفاء هنا للافصاح عن كلام مقدر قبلها . والتقدير . لا تعتذروا بقولكم ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم رسولنا الذي يبشركم بالخير إن آمنتم وينذركم بسوء المصير إذا ما بقيتم على كفركم .

والتنكير هنا في قوله : « بشير ونذير » ، للتعظيم من شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي هو خاتم النبيين ، والذي أرسله الله - تعالى - رحمة للعالمين .

وقوله : « بشير ونذير » ، وإن كانا وصفين للرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا أن ثانيهما قد عطف على أولهما لتغايرهما في المعنى ، لأن التبشير عمل يختلف عن الإنذار ، وكلاهما من وظائف النبوة .

وقوله - تعالى - « والله على كل شيء قدير » ، تذييل قصده شمول قدرة الله وأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء .

أي : والله على كل شيء قدير ، فلا يعجزه أن يرسل رسوله تترى ، كما لا يعجزه أيضا أن يرسلهم على فترات متباعدة .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت سمو الرسالة المحمدية وعظمتها ، ولأنها جاءت والناس في أشد الحاجة إليها ، وأنه لا عذر لأهل الكتاب في عدم الاستجابة لها بعد أن بلغتهم ، وبشرتهم بالخير إن آمنوا وأطاعوا ، وبالعذاب الأليم إن استمروا على كفرهم وضلالهم .

وبعد أن بين - سبحانه - جانبنا من رذائل أهل الكتاب ، ومن أقوالهم الباطلة في حق الرسول الذي أرسله الله - تعالى - لهم أيهم وسعادتهم وإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان . .

بعد كل ذلك ساق - سبحانه - جانبنا مما حدث بين موسى - عليه السلام -

وبين قومه بنى إسرائيل ، واما لقبه منهم من سفاهة وجبن وتخاذل وعصيان ..
إذ في ذلك تسليمة للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما شاهده منهم من عناد
وجحود . استمع إلى القرآن وهو يحكى بعض قصص بنى إسرائيل مع نبيهم
موسى فيقول :

« وإذ قال موسى لقومه ، يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ
جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحد من
العالمين (٢٠) يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ،
ولا تردوا على أذباركم فتنتقلبوا خاسرين (٢١) قالوا يا موسى إن فيها قوما
جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا
داخلون (٢٢) قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلا
عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن
كنتم مؤمنين (٢٣) قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ،
فذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (٢٤) قال رب إني
لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين (٢٥)
قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على
القوم الفاسقين (٣٦) .

هذه الآيات الكريمة تصور لنا ما جبل عليه بنو إسرائيل من جبن شديد ،
وعزيمة خوارة ، وعصيان لرسولهم . وإبشار للذلة مع الراحة على العزة مع الجهاد
وهى تحكى بأسلوبها البليغ قصة تاريخية معروفة ، وملخص هذه القصة :

أن بنى إسرائيل بعد أن ساروا مع نبيهم موسى - عليه السلام - إلى بلاد

الشام ، عقب غرق فرعون أمام أعينهم . أوحى الله - تعالى - إلى موسى أن يختار من قومه اثني عشر نقيبا ، وأمره أن يرسلهم إلى الأرض المقدسة التي كان يسكنها الكنعانيون حينئذ . ليتحسسوا أحوال سكانها ، ويعرفوا من أخبارهم .

وقد أشار القرآن قبل ذلك إلى هذه القصة بقوله : « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا » (١) .

ولقد نفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به ربه - سبحانه - ، وكان قاله موسى للنقباء عند إرسالهم لمعرفة أحوال سكان الأرض المقدسة : « لا تحبوا أحدا سواي عما ترونه » .

فلما دخل النقباء الأرض المقدسة ، واطلعوا على أحوال سكانها . وجد منهم قوة عظيمة ، وأجساما ضخمة . . . فعاد النقباء إلى موسى وقالوا : « وهو في جماعة من بني إسرائيل : قد جئنا إلى الأرض التي بعثتنا إليها ، هي في الحقيقة تدر لبننا وعسلا ، وهذا شئ من ثمارها ، غير أن الساكنين أقوياء ، ومدينتهم حصينة . وأخذ كل نقيب منهم ينهى سبطه عن القتال . إثنين منهم ، فإنهما نصحا القوم بطاعة نبيهم موسى - عليه السلام - وببقاء الكنعانيين معه . . . ولكن بني إسرائيل عصوا أمر هذين النقيبين ، وأطاعوا أمر بقية النقباء العشرة ، وأصرروا على عدم الجهاد ، ورفضوا أصواتهم بالبرية . وقالوا : يا ليتنا متنا في مصر أو في هذه البرية .

وحاول موسى - عليه السلام - أن يصدحهم عما تردوا فيه من جبن وعصا وأن يحملهم على قتال الجبارين ؛ ولكنهم عصوا وصعدوا .

وأوحى الله - تعالى - إلى موسى أن الأرض المقدسة محرمة عليهم أربع سنين يتيهون في الأرض جزاء عصيانهم وجبنهم .

(١) راجع تفسيرنا الآية رقم ١٢ من هذه السورة .

هذا هو ملخص هذه القصة كما وردت في كتب التفسير والتاريخ . وقد حشا بعض المفسرين كتبهم بأوصاف للجبارين - الذين ورد ذكرهم في الآيات الكريمة - لا تقبلها العقول السليمة ، وليس لها أصل يعتمد عليه بل هي مما يستحى من ذكره كما قال ابن كثير (١) .

هذا ، وقوله - تعالى - . . وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، كلام مستأنف ساقه الله - تعالى - لبيان بعض ما فعله بنو إسرائيل من رذائل بعد أخذ الميثاق عليهم ، وتفصيل كيفية نقضهم لهذا الميثاق .

و ، إذ ، ظرف للزمن الماضي بمعنى وقت . وهو مفعول به لفعل ملاحظ في الكلام ، تقديره اذكروا . وقد خوطب بهذا الفعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بطريق قريبة الخطاب وصرفه عن أهل الكتاب ، يعدد عليهم ما سلف من بعضهم من جنائيات .

أى : واذا ذكر يا محمد لهؤلاء اليهود المعاصرين لك ، قول موسى لأبائهم على سبيل النصيحة والإرشاد : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم . أى : تذكروا إنعامه عليكم بالشكر والطاعة .

والمراد بذكر الوقت تذكر ما حدث فيه من وقائع وخطوب .

قال أبو السعود : وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت ، دون ما وقع فيه من حوادث ، - مع أنها هي المقصودة - ، لأن الوقت مشتمل على ما وقع فيه تفصيلاً فإذا استحضر كان ما وقع فيه بتفاصيله كأنه مشاهد عياناً ، (٢) .

وفي قول موسى لهم - كما حكى القرآن عنه - : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، تلمظ معهم في الخطاب ، وحمل لهم على شكر النعمة ، واستعمالها فيها

(١) من ذلك ما جاء في وصفهم من أن منهم عوج بن عنق الذى كان طوله ثلاثة آلاف ذراع . وأن سبعين رجلاً من قوم موسى استظلوا في ظل واحد منهم .

وقال الألوسي بعد أن حكى ما قبل فيهم من صفات . وهي عندى حديث خرفاء

(٢) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ١٧ - بتصرف وتاميز -

خلقت له ، لكي يزيدهم الله منها . وفيه كذلك تذكير لهم بما يربطهم به من رابطة الدم والقرابة التي تجعلهم منهم ، يهده ما يهدهم ، ويسعده ما يسعدهم ، فهو يوجه إليهم ما كان لهدايتهم وسعادتهم .

وقوله - تعالى - : إذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، بيان لنعم ثلاث أسبغها الله عليهم .

أما النعمة الأولى : فهي جعل كثير من الأنبياء فيهم . كرمي وهارون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وداود ، وسليمان - عليهم السلام - . وقد أرسل الله - تعالى - هؤلاء الأنبياء وغيرهم في بني إسرائيل ، لكي يخرجوهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان ، إلى نور الهداية والطاعة والإيمان .

والتذكير في قوله : أنبياء ، للتكثير والتعظيم . أي : تذكروا يا بني إسرائيل نعم الله عليكم ، وأحسنوا شكرها ، حيث جعل فيكم أنبياء كثيرين يهدونكم إلى الرشده .

قال صاحب الكشف : لم يبعث الله في أمة ما بعث في بني إسرائيل من الأنبياء ، (١) .

وأما النعمة الثانية فهي : جعلهم ملوكا . أي : جعلكم أحراراً - تملكوا - أمر أنفسكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعون وقومه ، الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب .

أي : جعلكم تملكون المساكن وتستعملون الخدم ، بعد أن كنتم لا تملكوا شيئا من ذلك وأنتم تحت سيطرة فرعون وقومه .

قال الألوسي : أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر وأنه سأل رجلا فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال عبد الله : ألك زوجة تأوى إليها قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فأنت من الأغنياء قال الرجل : فإن لي خادما . قال عبد الله : فأنت من الملوك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامراً كتب ملكاً ، (١) .

وهذه النعمة - أي : نعمة الحرية بعد الذل ، والسعة بعد الضيق - من النعم العظمى التي لا يقدرها ويحافظ عليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة ، التي تعاف الظلم ، وتأبى الضم ، وتحسن الشكر لله - تعالى - .

قال صاحب الانتصاف : فإن قلت : فلماذا لم يقل إذ جعلكم أنبياء ، قال : وجعلكم ملوكاً ، قلت : لأن النبوة مزية غير الملك . وآحاد الناس يشاروا الملك في كثير مما به صار للملك ملكاً ، ولا كذلك النبوة ، فإن درجتها أرفع من أن يشرك من لم تثبت له مع الثابتة نبوته في مزيته وخصوصيته ونعته ، فهذا هو سر تمييز الأنبياء وتعميم الملوك ، (٢) .

وأما النعمة الثالثة . فهي أنه - سبحانه - : آتاهم من ألوان الإكرام والمنازاة ما يؤت أحداً من عالمي زمانهم . فقد فلق لهم البحر فساروا في طريق يابسه حتى نجوا وغرق عددهم . وأنزل عليهم المن والسلوى لئلا يكلوا من الطيبات وفجر لهم من الحجر اثنتي عشرة عينا حتى يعلم كل أناس مشربهم . . . إلى غير ذلك من ألوان النعم التي حباها الله - تعالى - بها ، والتي كانت تستلزم منهم المبادرة إلى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .

قال الألوسي : و . آل ، في ، العالمين ، للعهد : والمراد عالمي زمانهم أو للاستغراق . والتفضيل من وجه لا يستلزم التفضيل مع جميع الوجوه فإنه قد يكون للمفضل ما ليس للفاضل . وعلى التقديرين لا يلزم تفضيل على هذه الأمة المحمدية ، لأن الخطابات السابقة واللاحقة لنبى إسرائيل فوجود خطاب في الأثناء لغيرهم مما يخل بالنظم الكريم . (٣) .

(١) تفسير الألوسي ج ٦ ص ١٠٥ .

(٢) حاشية الكشف ج ١ ص ٦١٩ .

(٣) تفسير الألوسي ج ٦ ص ١٠٦ .

وبعد هذا التذكير بالنعمة ، وجه إليهم نداء ثانياً طلب منهم فيه دخول الأرض المقدسة فقال - كما حكى القرآن عنه - : يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تتردوا على أدباركم فتقلبوا خاسرين ،

ومعنى المقدسة : المطهرة المباركة بسبب أنها كانت موطناً لكثير من الأنبياء . والمراد بها . بيت المقدس وقيل المراد بها : أريحا وقيل : الطور وما حوله قال ابن جرير : وهي لا تخرج عن أن تكون من الأرض التي ما بين الفرات وعربش مصر ، لإجماع أهل التأويل والسير والعلماء بالأخبار على ذلك ، .

ومعنى كتب الله لكم ، : قدر لكم سكنها ، ووعدكم إياها متى آمنتم به وأطعتم أنبياءه ، أو معناه : فرض عليكم دخولها وأمركم به كما أمركم بأداء الصلاة والزكاة . - وسنفصل القول في هذه المسألة بعد تفسيرنا الآيات . -

ومفعول د كتب ، محذوف . أي كتب لكم أن تدخلوها وفرض عليكم دخولها لإيقاظكم من الأهوال التي نزلت بكم في أرض مصر من فرعون وجنوده .

وقد تعدى فعل د كتب ، هنا باللام دون على ، الإشارة إلى أن ما فرضه عليهم إنما هو لمنفعتهم ولعزتهم ورفعة شأنهم .

وفي تكرير النداء من موسى لهم بقوله : د يا قوم ، مبالغة في حثهم على الامتثال لما يأمرهم به ، وتنبيهه إلى خطر ما يدعوم إليهم وعظيم شأنه .

وقوله : د كتب الله لكم ، فيه حض شديد لهم على الاستجابة لأمره ، وإغراء لهم بالنصر والفوز ، لأن الذي كتب لهم أن يدخلوها متى آمنوا وأطاعوا هو الله الذي لا معقب لحكمه .

قال الإمام الرازي : في قوله : د كتب الله لكم ، فائدة عظيمة . وهي أن القوم كانوا جبارين إلا أن الله - تعالى - لما وعد هؤلاء الضعفاء بأن تلك الأرض لهم ، فإن كانوا مؤمنين مقربين بصدق موسى - عليه السلام - علموا

قطعا أن الله ينصرهم عليهم ، فلا بد وأن يقدموا على قتالهم من غير جبر ولا خوف ولا هلع (١) .

وقوله - تعالى - : « ولا تتردوا على أديباركم فتتقلبوا خامسين » ، تحذ من الجبن والإحجام ، بعد نزغهم الشديد في الشجاعة والإقدام .

وقوله « تتردوا » من الارتداد وهو الرجوع إلى الخلف .

و « الأديبار » جمع دبر وهو الظهر .

وهذا التعبير استعارة تمثيلية فيها تشبيه حال من يرجع عن الجهاد

توافرت أسبابه ، بحال من يتراجع سائرا بظاهرة إلى الوراء ، بدل أن

يوجهه إلى الأمام . وهذا التعبير يصور قبح الجبن والتخاذل خسا ومعنو

وقوله « فتتقلبوا » من الانقلاب بمعنى الرجوع والإنصراف عن

وهو مجزوم عطفًا على فعل النهى وهو « ولا تتردوا » .

والمعنى : أمضوا أيها القوم لأمر الله ، وسيروا خلفي اقتال الآء

ودخول الأرض المقدسة التي أمركم - سبحانه - بدخولها ، ولا ترجعوا إلى

منصرفين عن القتال خوفا من أعدائكم ، ومبتعدين عن طاعتي وأمرى

ذلك يؤدي بكم إلى الخسران في الدنيا والآخرة ، وإلى الحرمان من

الأرض التي أوجب الله عليكم دخولها

قال ابن جرير : فإن قال قائل : وما كان وجه قبل موسى لقومه إذ

بدخول الأرض المقدسة : « ولا تتردوا على أديباركم فتتقلبوا خامسين »

أو يستوجب الخسارة من لم يدخل أرضا جعلت له ؟ قيل : إن الله -

كان أمره بقتال من فيها من أهل الكفر به ، وفرض عليهم دخولها ، فاست

القوم الخسارة بتركهم فرض الله عليهم من وجهين : أحدهما : تضییع

الجهاد الذي كان الله فرضه عليهم . والثاني : مخالفتهم أمر الله في تركهم

الأرض المقدسة ، (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١١ ص ١٩٨ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ١٧٣ .

هذا ، وقد جادت هذه الجملة الكريمة ، وهي قوله - تعالى - : « ولا تردوا على أديباركم فتتقلبوا خامسين » ، تحمل طابع التحذير الشديد ، وتنذرهم بالخسائر المبین إذا لم يستجيبوا لأمر الله بعد أن ساق لهم موسى ألوانا من المشجعات والمرغبات في الجهاد ، وذلك لأنه - عليه السلام - كان متوقفا منهم الإحجام عن القتال ، بعد أن جرب عنادهم وعصيانهم ونكوصهم على أعقابهم في مواطن كثيرة ، فهذه التجارب جعلته وهو يأمرهم بدخول الأرض المقدسة يذكر لهم أكبر النعم ويسوق لهم أكرم الذكريات ، وأقوى الضمانات ، وأشد التحذيرات لكي يقبلوا على الجهاد بعزيمة صادقة ،

ولكن بنى إسرائيل هم بنو إسرائيل ، مهما قيل لهم من ألوان الترغيب والترهيب فإنهم الساقطة ، وعزيمتهم الخائرة ، وطبيعتهم الممتكسة لم تركهم . فقد قالوا لنبيهم متذرعين بالمعاذير الكاذبة : « يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنما لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . وقوله : « جبارين » جمع جبار « والجبار صيغة مبالغة من جبر الثلاثي . ويطلق في اللغة على الطويل القوى العاتي الذي يجبر غيره على ما يريد . مأخوذ من قولهم : نخلة جبارة أي : طويلة لا ينال ثمرها بالأيدي .

أي : قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى - عليه السلام - إن الأرض التي وعدتنا بدخولها فيها قوم متغلبون على كل من يقاثلهم ، ولا قدرة لنا على لقائهم وإنما لن ندخل هذه الأرض المقدسة التي أمرتنا بدخولها مادام هؤلاء الجبارون فيها ، فإن يخرجوا منها لأي سبب من الأسباب التي لأشأن لنا بها ، فنحن على استعداد لدخولها في راحة ويسر ، وبلا أدنى تعب أو جهد .

ولا شك أن قولهم هذا الذي حكته الآية الكريمة عنهم ليدل على منتهى الجبن والضعف ، لأنهم لا يريدون أن ينالوا نصرا باستخدام حواسهم البدنية أو العقلية . وإنما يريدون أن ينالوا ما يبعثون بقوة الخوارق والآيات . وأمة هذا شأنها لا تستحق الحياة الكريمة ، لأنها لم تقدم العمل الذي يؤهلها لتلك الحياة :

وفي ندائهم لنبيهم باسمه مجردا (قالوا يا موسى . .) سوء أدب منهم ، حيث استهانوا بمقام النبوة فنادوه باسمه حتى يكف عن دعوتهم إلى الجهاد وفي قولهم (ولما ان تدخلها حتى يخرجوا منها . .) إمتناع عن القتال بإصر شديد ، حيث أكدوا عدم دخولهم بحرف النفي (لن) وجعلوا غاية النفي يخرج الجبارون منها ، مع أن أن خروجهم منها بدون قتال أمر مستبعد ، لا يريدون قتالا ، بل يريدون دخولا من غير معاناة ومجاهدة .

ثم بين القرآن بعد ذلك أن رجلاين مؤمنين منهم قد استنكروا لإحسان قومهم عن الجهاد ، وحرصاهم على طاعة نبيهم فقال : (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فأنكم غالبوا وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) .

والمراد بالرجلين : يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا ، وكانا من الألوية نقيبا .

وقد وصف الله - تعالى - هذين الرجلين بوصفين . أولهما قوله : (الذين يخافون) أى : من الذين يخافون الله وحده ويتقونه ولا يخافون سواه وفي وصفهم بذلك تعريض بأن من عداهما من القوم لا يخافونه - تعالى - يخافون العدو .

وقيل المعنى : من الذين يخافون الأعداء ويقدرّون قوتهم ، إلا أن الله - تعالى - ربط على قلبيهما بطاعته ، فجعلهما يقولان ما قاله أما الوصف الثاني فهو قوله : (أنعم الله عليهما) فهذه الجملة صفة ثانية للرجلين . أى : قال رجلان موصوفان بأنهما من الذين يخافون الله - تعالى - ولا يخافون سواه ، وبأنهما من الذين أنعم الله عليهما بالإيمان والتثبيت والثقة بوعده ، والطاعة لأمره قال لقومها . أدخلوا عليهم الباب

هذا ، وقد ذكر صاحب الكشاف وغيره وجهها ثالثا فقال : ويجوز أن تكون الواو وفي قوله : (يخافون) - لبي إسرائيل ، والراجع إلى الموصو

مخدوف . والتقدير : قال رجلان من الذين يخافون من بنى إسرائيل وهم الجبارون
وهما رجلان منهم : أنعم الله عليهما ، بالإيمان فأما ، قال لهم : إن العاقبة
أجسلم لأقلوب فيها فلا تخافوهم وازحفوا إليهم فإنكم غالبوهم ، يشجعانهم على
قتالهم . وقراءة من قرأ : يخافون ، - بهم الياء - شاهدة له . وكذلك . أنعم
الله عليهما (١) .

والذى نراه أن رأى الأول أرجح وهو أن الرجلين من بنى إسرائيل ،
وأن قوله - تعالى - من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، صفتان للرجلين وأن
مفعول يخافون مخدوف للعلم به وهو الله - تعالى - أى : يخافون الله ويخشونه
لأن هذا هو الظاهر من معنى الآية ، وهو الذى صدر به المفسرون تفسيرهم
للآية ، ولأنه لم يرد نص يعتمد عليه فى أن أحد الجبارين قد آمن وحرص
بنى إسرائيل على قتال قومه ، بينما وردت الآثار فى بيان اسمى الرجلين وأنها
كانا من الإثني عشر نقيبا - كما سبق أن ذكرنا - وقوله - تعالى - ادخلوا
عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، تشجيع من الرجلين لقومهما ليزيلا
عنهم الخوف من قتال الجبارين .

أى : قال الرجلان اللذان يخافان الله لقومهما : ادخلوا على أعدائكم باب
مدينتهم وهاجموهم بسيوفكم ، وهاجموهم بقتالكم لإيائهم ، فإذا فعلتم ذلك أحرزتم
النصر عليهم ، وأدركنم الفوز ، فإنه ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا .

قال صاحب الكشف : فان قلت : من أين علم أنهم غالبون ؟ قلت : من
جهة إخبار موسى بذلك . ومن جهة قوله - تعالى - كتب الله ليكم ، وقيل :
من جهة غلبة الظن وما تبينا من عادة الله فى نصرته رسوله ، وما عهدا من صنع
الله لموسى فى قهر أعدائه ، وما عرفا من حال الجبابرة ، (٢)

وقوله - تعالى - : وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، دعوة من الرجلين

١ (١) تفسير للكشاف ج ١ ص ٦٣٠ .

٢ (٢) تفسير للكشاف ج ١ ص ١٢٦ .

المؤمنين لقومهما ، بأن يكلوا أمورهم إلى خالقهم بعد مباشرة الأسباب ، وأن
يعقدوا عزيمتهم على دخول الباب على أعدائهم ، إن كانوا مؤمنين حقا ، فإن
النصر يحتاج إلى تأييد من الله - تعالى - لعياده ، وإلى توكل عليه وحده ، وإلى
عزيمة صادقة ، ومباشرة للأسباب التي توصل إليه .

ولكن هذه النصيحة الحكيمة من هذين الرجلين المؤمنين ، لم تصادف من
بنى إسرائيل قلوبا واعية ، ولا آذانا صاغية بل قابلوها بالنمرد والعناد ، وكرروا
لنبيهم موسى عليه السلام - نفيهم القاطع للإقدام على دخول الأرض المقدسة
ما دام الجبارون فيها فقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : يا موسى إنا لن
ندخلها أبدا ما داموا فيها . . .

أى : قالوا غير عابئين بالنصيحة ، بل يعلنين العصيان والمخالفة : يا موسى
إنا لن ندخل هذه الأرض التي أمرتنا بدخولها في أى وقت من الاوقات
ما دام أولئك الجبارون يقيمون فيها ، لأننا لا قدرة لنا على مواجهتهم .
وقد أكدوا إمتناعهم عن دخول هذه الأرض في هذه المرة بثلاث
مؤكدات ، هى : إن ، ولن ، وكلمة أبدا .

أى : لن ندخلها بأى حال من الأحوال ما دام الجبارون على قيد الحياة
ويسكنون فيها .

ثم أضافوا إلى هذا القول الذى يدل على جبنهم وخورهم ، سلاطة
اللسان ، وسوء أدب التعبير ، وتطاولوا على نبيهم فقالوا : فاذهب أنت و
فقاتلنا إنا ها هنا قاعدون ،

أى : إذا كان دخول هذه الأرض يهتك أمره ، فاذهب أنت وربك لفته
سكانها الجبابرة ، وأخرجهم منها ، لأنه - سبحانه - ليس ربا لهم - فى زعمهم
إن كانت ربوبيته تكلفهم قتال سكان تلك الأرض :

وقرلهم : إنا ها هنا قاعدون ، تأكيد منهم لعدم دخولهم لتلك الأرض
المقدسة .

أى : إنا هاهنا قاعدون فى مكاننا لن نبرحه ، ولن نتقدم خطوة إلى الامام لأن كل مجد وخير يأتينا عن طريق قتال الجبارين فنحن فى غنى عنه ، ولا رغبة لنا فيه .

وإن هذا الوصف الذى وصفوا به أنفسهم ، ليدل على الخسة وسقوط الهمة ، لأن القعود فى وقت وحوب النشاط للعمل الصالح يودى بصاحبه إلى المذمة والمذلة ، قال - تعالى - ذا ما لامناهم : دلو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدین ، (١) .

قال الألوسى ما ملخصه : وقوله - تعالى - حكاية عنهم : فاذهب أنت وربك فقاتلا ، قالوا ذلك استهانة واستهزاء به - سبحانه - وبرسوله موسى وعدم مبالاة . وقصدوا ذهابهما حقيقة كما ينبى عنه غاية جهلهم ، وقسوة قلوبهم والمقابلة : إنا هاهنا قاعدون ، ...

ولم يذكروا أخاه هارون ولا الرجلين اللذين قالوا ، كأنهم لم يجزموا بذهابهم ، أو يعباوا بقتالهم ، وأرادوا بالقعود عدم التقدم لعدم التأخير (٢) ثم قصت علينا السورة الكريمة أن موسى - عليه السلام - بعد أن رأى من قومه ما رأى من عناد وجبن ... ، لجأ إلى ربه يشكو إليه منهم ، ويلتمس منه أن يفرق بينه وبينهم ، فقال : رب إني لا أملك إلا نفسى وأخى ، فأفرق بيننا وبين القوم الفاسقين .

أى : قال موسى بآنا شكواه وحزنه إلى الله ، ومعتذرا إليه من فسوق قومه وسفاهتهم وجبنهم : رب إنك تعلم أنى لا أملك لنصرة دينك أمر أحد الزمه بطاعتك سوى أمر نفسى ، وأمر أخى هارون ، ولا ثقة لى فى غيرنا أن يطيعك فى العسر واليسر والمنشط والمكره .

ولم يذكر الرجلين اللذين قالوا لقومهما فيما سبق دأخلوا عليهم الباب ...

لعدم ثقتة الكاملة في دخولهما معه أرض الجبارين ، وفي وقوفهما بجانبه عند القتال إذا تخلى بقية القوم عنه ، فإن بعض الناس كثيرا ما يقدم على القتال مع الجيش الكبير ، ولكنه قد يحجم إذا رأى أن عدد المجاهدين قليل ، ومن هنا لم يذكر أنه يملك أمر هذين الرجلين كما يملك أمر نفسه وأمر أخيه .

وصرح موسى - عليه السلام - بأنه يملك أمر أخيه هارون كما يملك أمر نفسه ، لموازرتة التامة له في كفاحه ظلم فرعون ، ولوقوفه إلى جانبه بمعية صادقة في كل موطن من مواطن الشدة ، وليقينه بأنه مؤيد بروح من الله - تعالى . .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : أما كان معه الرجلان المذكوران ؟ قلت كأنه لم يثق بهما كل الوثوق ، ولم يطمئن إلى ثباتهما لما ذاق على طول الزمان وانصال الصحبة من أحوال قومه ، وتلونهم وقسوة قلوبهم ، فلم يذكر إلا النبي المعصوم الذي لا شبهة في أمره . ويجوز أن يكون قال ذلك لفرط ضجره عندما سمع منهم تقليلا لمن يوافقه . ويجوز أن يريد ومن يؤاخيني على ديني ، (١) .

هذا ، وقد ذكر النحويون وجوها من الإعراب لقوله : وأخى ، منها : أنه منصوب عطفا على قوله : نفسي ، أي : ولا أملك إلا أخى مع ملكي دون غيرهما .

وقوله - تعالى - : فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، بيان لما يرجوه موسى من ربه - عز وجل - بعد أن خرج بنو إسرائيل عن طاعته .
والفاء هنا لترتيب الفرق والدعاء به على ما قبله . والفرق معناه الفصل بين شيئين .

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٦٢٢

والمعنى : قال موسى مخاطباً ربه : لقد علمت يا إلهي أني لا أملك لنصري ديناً إلا أفسد نفسي وأمر أخى ، أما قرى فقد خرجوا عن طاعتي وفسقوا عن أمر وما دام هذا شأنهم فافصل بيننا وبينهم بقضائك العادل ، بأن تحكم لنا : نستحق ، وتحكم عليهم بما يستحقون ، فإنك أنت الحكم العدل بين العباد . وهذا الرجاء من موسى لربه في معنى الدعاء عليهم بسبب جبنهم وعصيانهم وقد أجاب الله - تعالى - دعاءه فيهم ، بأن أضلهم ظاهراً كما ضلوا باطناً ، وبالحكم الفاصل من يملكه فقال - تعالى - : « قال فإنها محرمة عليهم أربعين . يتيهون في الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ،

وقوله : « يتيهون » من التيه وهو الخيرة . يقال : تاه بتيه وبتوه إذا تاه وضل الطريق . ووقع فلان في التيه . أى : في مواضع الخيرة .
وقوله : « فلا تأس » أى : فلا تحزن عليهم من الأسى وهو الحزن : بقا أسى - كتهب - أى : حزن . فهو أسين مثل حزين . وأسا على مصيب - من باب عدا - أى : حزن . قال امرؤ القيس :

وقوفا بها صبحى على مطيم يقولون لا تهلك أسى وتجمل
أى : يقولون لا تهلك نفسك حزناً وتجمل بالصبر .

والمعنى : قال الله - تعالى - لنبيه موسى مجيباً لدعائه : يا موسى إن الأرض المقدسة محرمة على هؤلاء الجبناء العصاة مدة أربعين سنة ، يسرون خلا في الصحراء تائهين حيارى لا يستقيم لهم أمر ، ولا يستقر لهم قرار ، فلا تح عليهم بسبب هذه العقوبة ، فإننا ما عاقبناهم بهذه العقوبة إلا بسبب خروجهم عن طاعتنا . وتمردهم على أوامرنا ، وجبنهم عن قتال أعدائنا ، وسوء أدبهم مع أنبيائنا .

قال الألوسى . قوله : « محرمة عليهم » أى : لا يدخلونها ولا يملكونها والتحریم تحریم منع لا تحریم تعبد ، وجوز أن يكون تحریم تعبد والاول أحسن . وقوله « أربعين سنة » متعلق بقوله : « محرمة فيكون التحريم مؤقتاً لا مؤبداً »

فلا يكون مخالفا لظاهر قوله - تعالى - « ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » . والمراد بتحريمها عليهم أنه لا يدخلها أحد منهم هذه المدة ، لكن لا بمعنى أن كلهم يدخلونها بعدها ، بل بعضهم ممن بقي - يجوز له دخولها - فقد روى أن موسى سار بمن بقي من بني إسرائيل - بعد انقضاء هذه المدة - إلى الأرض المقدسة .

وقوله : « يتيمون في الأرض » ، استئناف لبيان كيفية حرمانهم . وقيل حال من ضمير « عليهم » . وقيل : الظرف متعلق بقوله : « يتيمون » ، فيكون التيميم مؤقتا والتحريم مطلقا يحتمل التأييد وعدمه (١) .

وقال الفخرى الرازى : « اختلف الناس في أن موسى وهارون - عليهم السلام - هل بقيا في التيه أولا ؟ فقال قوم : إنها ما كافا في التيه ؛ لأن موسى دعا الله أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين ، ودعوات الأنبياء مجابة ، لأن التيه كان عذابا والأنبياء لا يعذبون .

وقال آخرون : إنها كافا مع القوم في ذلك التيه ، إلا أن الله - تعالى - سهل عليهما ذلك العذاب كما سهل النار على إبراهيم فجعلها بردا وسلاما ... وإنهما قد ماتا في التيه وبقي يوشع بن نون - وكان ابن أخت موسى ووصيه بعد موته - وهو الذي فتح الأرض المقدسة - بعد انقضاء مدة التيه .

وقيل بل بقي موسى بعد ذلك وخرج من التيه وحارب الجبارين وقهرهم وأخذ الأرض المقدسة (٢) .

هذا ، ونرى من المناسب في هذا المقام أن نتعرض بشيء من التفصيل للمسائل الآتية :

أولا : الرد على اليهود في دعواهم أن الأرض المقدسة - فلسطين - ملك لهم

(١) تفسير الألوسى - بتصرف تلخيص - ج ٦ ص ١٠٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١١ ص ١٩٩ .

مستندين إلى قوله - تعالى - : « ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » .

ثانيا : الحكمة في كون عقابهم أربعين سنة يشهرون في الأرض .

ثالثا : ما يؤخذ من هذه الآيات من المعبر والعظات .

وللإجابة على المسألة الأولى نقول : للمفسرين أقوال في المراد من الكتابة

في قوله - تعالى - « ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » ، أشهرها قولان :

أولهما : أن معنى « كتب الله لكم » : أمركم بدخولها ، وفرضه عليكم

كما أمركم بالصلاة والزكاة . قال كتب هنا مثله في قوله - تعالى - « كتب عليكم

الصيام » ، أي : فرض عليكم . وهذا قول قتادة والسدي .

والثاني : أن معنى « كتب الله لكم » قدرها لكم وقضى أن تكون مساكن

لكم دون الجبارين ، وهذا القضاء مشروط بالإيمان ، وطاعة الأنبياء ، والجهاد

في سبيل نصره الحق ، فإذا لم يكونوا كذلك - وهم لم يكونوا كذلك فعلا -

لم يتحقق لهم التمكين في الأرض المقدسة . ولذا بعد أن أغرام نبيهم موسى

- عليه السلام - بدخولها ، حذرهم من الجبن والعصيان فقال لهم : « ولا

ترتدوا على أذيباركم فتقلبوا خامسين » .

قال الألوسي : « وترتيب الخيبة والخسران على الارتداد يدل على اشتراط

الكتب بالمجاهدة المترتبة على الإيمان قطعا (١) » .

وقال ابن عباس : كانت هبة من الله لهم ثم حرمها - سبحانه - عليهم

بشؤم تمردهم وعصيانهم .

وقال الفخرى الرازي : إن الوعد بقوله « كتب الله لكم » ، مشروط بقيد

الطاعة ، فلما لم يوجد الشرط لا جرم لم يوجد المشروط (٢) .

والخلاصة أن الكتابة في قوله - تعالى - « كتب الله لكم » : إما أن

(١) تفسير الألوسي ج ٦ ص ١٠٦

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١١ ص ١٩٧

تكون تكليفية على معنى : أن الله - تعالى - كتب عليكم وفرض أن تدخلوها مجاهدين مطيعين لنبيكم ، فإذا خالفتم ذلك حقت عليكم العقوبة .

ولما أن تكون كتابة قدرية . أى : قضى وقدر - سبحانه - أن تكون لكم مني آمنتم وأطعتم ... وبنو إسرائيل ما آمنوا وما أطاعوا ، بل كفروا وعصوا فحرمها - سبحانه - عليهم .

وبذلك ترى أن دعوى اليهود بأن الأرض المقدسة ملك لهم ، بدليل قوله - تعالى - : كتب الله لكم ، لا أساس لها من الصحة . ولا يشهد لها عقل أو نقل .

والإجابة على المسألة الثانية نقول : اقتضت حكمة الله - تعالى - أن يجعل عقوبته لآلوم مناسبة لما اجترحوا من ذنوب وآثام ، وبنو إسرائيل أطول ما ألّفوا من ذل وإستعباد ، هانت عليهم نعمة الحرية . وضعف عندهم الشعور بالعزة . وأصبحت حياة الذلة مع القمود ، أحب إليهم من حياة العزة مع الجهاد ولهذا عندما أمرهم نبيهم موسى - عليه السلام - بدخول الأرض المقدسة اعتذروا بشتى المآذير الواهية ، وأكدوا له عدم قترابهم منها مادام الجبارون فيها . وقالوا : إنا هاهنا قاعدون .

فاقتضت حكمة الله - تعالى - أن يحرمهم منها جزءا جبينهم وعصيانهم وأن يعاقبهم بما يشبه القمود ، بأن يحكم عليهم بالتيهان فى بقعة محدودة من الأرض ، يذهبون فيها ويجيشون وهم حيارى لا يعرفون لهم مقرا . وأن يستمروا على تلك الحالة أربعين سنة حتى ينشأ من بينهم جيل آخر سوى ذلك الجيل الذى استمرأ الذل والهوان .

قال ابن خلدون فى مقدمته ... ويظهر من مساق قوله - تعالى - وقال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ... ، ومن مفهومه : أن حكمة ذلك التيه مقصودة ، وهى فناء الجيل الذى خرجوا من قبضة الذل والقهر ، وأفسدوا من عصبيتهم ، حتى نشأ فى ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف القهر

ولا يسام بالمذلة . فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ، ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر . فسيحان الحكيم العالمين ... ، (١) .

هذا ، ولصاحب المنار كلام حسن في حكمة هذه العقوبة ، نرى من المناسب إثباته هنا ، فقد قال - رحمه الله - في ختام تفسيره لهذه الآيات :

« إن الشعوب التي تنشأ في عهد الاستبداد ، وتساس بالظلم والاضطهاد ، تفسد أخلاقها ، وتذل نفوسها .. وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثه ومكتسبة ، حتى تكون كالغرائز الفطرية ، والطبائع الخلقية ، وإذا أخرجت صاحبها من بيئتها ، ورفعت عن رقبتها نيرها ، ألفتها ينزع بطبعه إليها ويتفلس منك ليتقحم فيها ، وهذا شأن البشر في كل ما يالفونه ، ويجرون عليه من خير وشر ، وإيمان وكفر ... »

أفسد ظلم فرعون فطرة بني إسرائيل في مصر ، وطبع عليها بطابع المهانة والذل . وقد أراهم الله - تعالى - من الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته وصدق رسوله موسى - عليه السلام - ، وبين لهم أنه أخرجهم من مصر لينقذهم من الذل إلى الحرية ... وليكنهم كانوا مع هذا كله إذا أصابهم ضرر يتطيلون بموسى ، ويذكرون مصر ويحنون إليها ... »

وكان الله - تعالى - يعلم أنهم لا تطاوعهم أنفسهم المهيمنة على دخول أرض الجبارين ، وأن وعده - تعالى - لأجدادهم إنما يتم على وفق سنته في طبيعة الاجتماع البشرى ، إذا هلك ذلك الجيل الذي نشأ في الوثنية والعبودية ... ونشأ بعده جيل جديد في حرية البداوة ، وعدل الشريعة ، ونور الآيات الإلهية ، وما كان الله ليهلك قوماً بذنوبهم ، حتى يبين لهم حجته عليهم ، ليعلموا أنه لم يظلمهم وإنما يظلمون أنفسهم .

(١) مقدمة ابن خلدون . نقلا عن تفسير القاسمي ج ٦ ص ١٩٤٢ .

وعلى هذه السنة العادلة أمر الله - تعالى - بنى إسرائيل بدخول الأرض المقدسة ، فأبوا وإستكبروا ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأنشأ من بعدهم قوما آخرين ..

فعلينا أن نعتبر بهذه الأمثال التي ضربها الله لنا ، وأن نعلم أن إصلاح الأمم من بعد فسادها بالظلم والإستبداد وإنما يكون بإنشاء جيل جديد يجمع بين حرية البداوة وإستقلالها وعزتها ، وبين معرفة الشريعة والفضائل والعمل بها (١) والإجابة على المسألة الثالثة - وهي ما يؤخذ من هذه الآيات من عظات وعبر - نقول : إن هذه الآيات الكريمة قد إشتملت على لون حكيم في أسلوب الدعوة إلى الله - تعالى - ، فقد بدأت بتذكير بنى إسرائيل بأجسادهم ، وبعظم نعم الله عليهم ، اتفرد فيهم الشعور بالعزة ؛ ولتغريهم بالاستجابة لما أمر به - سبحانه - :

كما إشتملت على تحذيرهم من مغية الجبن والمخافة ، لأن ذلك يؤدي إلى الخسران .

وفرق ذلك فقد صورت تصويرا معجزا طبيعة بنى إسرائيل على حقيقةتها وكشفت عن خور عزيمتهم ، وسقوط هماتهم ، وسوء إختيارهم لأنفسهم .. عما جعلهم أهلا للعقوبات الرادعة وفي كل ذلك تسليمة للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لحقه من اليهود المعاصرين له من أذى ، وتحذير لهم من السير على طريقة آبائهم المعوجة ، حتى لا يعرضوا أنفسهم للعقوبات التي حلت بأسلافهم .

قال الإمام ابن جرير : عند تفسيره للآيات الكريمة - : وهذا - أيضا - من الله - تعالى - تعريف - لنبية - صلى الله عليه وسلم - بتنادى هؤلاء اليهود في النفي ، وبعدهم عن الحق ، وسوء إختيارهم لأنفسهم ، وشدة خلافهم لآبائهم وبطلان ثابتهم إلى الرشاد ، مع كثر نعم الله عندهم ، وتتابع آيانه وآلائه

(١) تفسير المنار - ج ٦ ص ٣٣٧ - بتعريف تلخيص -

عليهم ، مسلماً بذلك نبيه - صلى الله عليه وسلم - عما ينزل به من مجادلاتهم في ذات الله ، بقول الله - له : لاتأس على ما أصابك منهم ، فإن الذهاب عن الله ، والبعد عن الحق ، وما فيه لهم من الخطة في الدنيا والآخرة ، من عاداتهم وعادات أسلافهم ، وأوائلهم ، وتعز بما لاقى منهم أخوك موسى - عليه السلام . (١)

وقال الإمام ابن كثير : وهذه القصة تضمنت تقرير اليهود ، وبيان فضائلهم ، ومخالفتهم لله ولرسوله ، ونكولهم عن طاعتها فيما أمرهم به من الجهاد ، فضعت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجادلتهم ومقاتلتهم ، مع أن بين أظهرهم كليم الله وصفه من خلقه في ذلك الزمان . وهو يعدم بالنصر والظفر بأعدائهم . هذا ، مع ما شاهدوا من فعل الله بعدوهم فرعون من الفرق له ولجنوده في أليم وهم ينظرون ، لتقر به أعينهم - وما بالعدو من قدم - . ثم ينكرون عن مقاتلة أهل بلدهم بالنسبة إلى ديار مصر لاتوازن عشر المعشار في عدة أهلها وعددهم . وظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام وإفتضحوا فضيحة لا يخطبها الليل ، ولا يسترها الذيل .

وقال - رحمه الله - قبل ذلك : وما أحسن ما أجاب به الصجابة - رضى الله عنهم - يوم بدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين إستشارهم في قتال قريش . فقد قالوا فأحسنوا . . .

لقد قال المقداد : يا رسول الله ، إنا لاقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ، ولكن نقول لك : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ... ، (٢)

كذلك يؤخذ من هذه القصة أن معصية الله ورسوله تؤدي إلى الخسران ، فإن بنى إسرائيل لما جبنوا عن دخول الأرض المقدسة ، وعصوا أمر نبيهم ،

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ١٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٩ بتصرف وتلخيص .

عاقبهم الله بالتيه مدة أربعين سنة ، وصارت قصتهم عسيرة للمعتبرين ،
وموعظة للمتقين .

وبعد أن ساق - سبحانه - جوانب متعددة من أحوال أهل الكتاب ،
وما جبلوا عليه من أخلاق سيئة ... أتبع ذلك بقصة ابني آدم ، فقال
- تعالى - :

« وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا
وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ . قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ
لَأَقْتُلَنَّكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْيِي
وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ
لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَفَتَلَمَّهُ فَاَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا
يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِبُرِيَّةٍ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَى
أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ
النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ
نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ، وَمَنْ
أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ
إِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) . »

قال أبو حيان في البحر : مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هو أن الله لما ذكر
تمرد بني إسرائيل وعصيانهم أمره في النهوض لقتال الجبارين ، أتبع ذلك بذكر

قصة ابني آدم وعصيان قابيل أمر الله، وأنهم اقتفوا في العصيان أول عاصره .
وأنهم انتهوا في خور الطبيعة ، وهدم النفوس والجبن والفرع إلى غايه بحيث
قالوا لنبيهم الذي ظهرت على يديه خوارق عظيمة اذهب أنت وربك
فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، وانتهى قابيل إلى طرف تقيض منهم من الجسارة
والعتو بأن أقدم على أكبر المعاصي بعد الشرك وهو قتل النفس التي حرم الله
قتلها ، بحيث كان أول من سن القتل ، وكان عليه وزره ووزر من عمل به
إلى يوم القيامة . فاشتبهت القصةان من حيث الجبن عن القتل والإقدام عليه ،
ومن حيث المعصية بهما وأبضا فتقدم قوله في أوائل الآيات :

« إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم وتبين أن عدم اتباع بني
إسرائيل للنبي - صلى الله عليه وسلم - إنما سببه الحسد وقصة بني آدم
افطوت على الحسد : وأن سببه وقعت أول جريمة قتل على ظهر
الأرض (١) .

وقوله : « وائل ، من التلاوة . وأصل التلاوة القراءة المتتابعة الواضحة
في مخارج حروفها ، وفي النطق بها .

والمراد بابني آدم ولداه وهما قابيل وهايل .

قال القرطبي : واختلف في ابني آدم . فقال الحسن البصري : إيسا من صلبه
كانا رجلين من بني إسرائيل - ضرب الله بهما المثل في إبانة حسد اليهود -
وكان بينهما خصومة ، فتقربا بقربانين ، ولم تكن القرابين إلا في بني إسرائيل
قال ابن عطية : وهذا وهم ، وكيف يحمل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل
يقتدى بالغراب ؟ والصحيح أنهما ابناه لصلبة . هذا قول الجمهور من المفسرين
وهما قابيل وهايل (٢) .

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ص ٤٦٠ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٢٣ .

والضمير في قوله : « عليهم » يعود على بني إسرائيل الذين سبق لهم الحديث عنهم . أو على جميع الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهدايتهم ويدخل فيه بنو إسرائيل دخولا أولياً ، لإعلامهم بما هو في كتبهم ، حيث وردت هذه القصة في التوراة .

وقوله : « بالحق » متعلق بمحذوف وقع صفة لمصدر « اتل » أي : اتل عليهم تلاوة ملتبسة بالحق والصدق .

والقربان : اسم لما يتقرب به إلى الله - تعالى - من صدقة أو غيرها ، ويطلق في أكثر الأحوال على الذبائح التي يتقرب إلى الله - تعالى - بذبحها .

قال أبو حيان : وقد طول المفسرون في سبب تقرب هذا القربان - من قبيل وهابيل - وملخصه : أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى ، وكان آدم يزوج ذكر هذا البطن أنثى ذلك البطن الآخر ، ولا يحل الذكر نكاح توأمته : فولد مع قبيل أخت جميلة ، وولد مع هابيل أخت دون ذلك . فأبى قابيل إلا أن ينزع توأمته لا توامة هابيل ، وأن يخالف سنة النكاح ونازع قابيل . هابيل في ذلك ، فاتفقا على أن يقدما قربانا - فأيهما قبل قربانه تزوجها - ، والقربان الذي قرباه هو زرع لقابيل - وكان صاحب زرع - ، وكبش لهابيل - وكان صاحب غنم - ، فتقبل من أحدهما وهو هابيل ولم يتقبل من الآخر وهو قابيل . وكانت علامة التقبل أن تأكل نار تازلة من السماء القربان المتقبل ، وتترك غير المتقبل (١) .

والمعنى : واتل - يا محمد - على هؤلاء البغاة الحسدة من اليهود ، وعلى الناس جميعاً قصة قابيل وهابيل ، وقت أن قربا قربانا لله - تعالى - ، فتقبل الله - عز وجل - قربان أحدهما - وهو هابيل - ، لصدقه وإخلاصه ، ولم يتقبل من الآخر - وهو - قابيل - بسوء نيته وعدم تقواه .

ثم حكى - سبحانه - ما دار بين الأخوين من حوار فقال : « قال لأنتلذك أى قال قابيل متوعدا أخاه هابيل : لأقتلذك بسبب قبول قربانك ، دون قربانوى فانت ترى ، أن هذا الأخ الظالم قد توعد أخاه بالقتل - وهو من أكبر الكبائر - دون أن يقيم الأخوة التى بينهما وزنا ودون أن يهتم بحرمه الدماء وبحق غيره فى الحياة والذى حمله على ذلك الحسد له على مزيه لقبول .

وقد أكد تصميمه على قتله لأخيه بالقسم المطوى فى الكلام والذى ، تدل عليه اللام ، ونون التوكيد الثقيلة أى والله لأقتلذك بسبب قبول قربانك ، وهذا يحكى القرآن الكريم ما رد به الأخ البار التقى «هابيل على أخيه الظالم الحاسد قابيل : فيقول ، إنما يتقبل من الله المتقين ،

أى : قال هابيل لقابيل ناصحا ومرشدا : إنما يتقبل الله الأعمال والصدقات من عباده المتقين الذين يخشونه فى السر والعلن ؛ وليس من سواهم من الظالمين الحاسدين لغيرهم على ما آناههم الله من نعم ، فعليك أن تكون من المتقين لكى يقبل منك الله .

قال صاحب المكشاف : فإن قلت : كيف كان قوله : « إنما يتقبل الله من المتقين ، جوابا لقوله : « لأقتلذك ، ؟ قلت : لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعده بالقتل قال له ؟ إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى ، لامن قبلى ، فلم تقتلنى ؟ ومالك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التى هى السبب فى القبول ؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان . وفيه دليل على أن الله - تعالى - لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق ، (١) .

ثم انتقل الأخ التقى من وعظ أخيه بتطهير قلبه ، إلى تذكيره بحقوق الأخوة وما تقتضيه من برو تسامح فقال - كما حكى القرآن عنه - : لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك لئن أخاف الله رب العالمين ، وبسط اليد : مدها والمراد هنا : مدها بالإعتداء .

والمعنى : لئن مددت إلى - يا أخى - يدك لتقتلنى ظلماً وحسداً ، ما أنا بباسط
يدى إليك لأقتلك ، فإن القتل - وخصوصاً بين الأخوة - جريمة منكورة ،
تأبأها مرائع الله - تعالى - ، وتنفر منها العقول السليمة .

وإذا كان الأخ الظالم قابيل قد أكد تصميمه على قتل أخيه هابيل بحملة
قسية وهى « لأقتلك » ، فإن هابيل قد أكد عدم قتله له بحملة قسيمة - أيضاً
وهى ، لئن بسطت يدك إلى لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، .
فأنت ترى أن الجملة الكريمة تصور أكمل تصوير ما بين الأخيار
والأشرار من تضاد .

قال الألوسى : قيل : كان هابيل أقوى من قابيل . ولكنه تخرج عن قتله
واستسلم له خوفاً من الله - تعالى - ، لأن المدافعة لم تكن جائزة فى ذلك
الوقت ، وفى تلك الشريعة . . . أو تحريماً لما هو الأفضل والأكثر ثواباً وهو
كونه مقتولاً ، لا قاتلاً . . . (١)

وقوله : « إني أخاف الله رب العالمين » جملة تعليلية مسوقة لبيان سبب
إمتناع هابيل عن بسط يده إلى أخيه قابيل .

أى : إني أخاف الله رب العالمين أن يرانى باسطاً يدى إليك بالقتل .
وقد أكد خوفه من الله - تعالى - بأن المؤكدة للقول ، وبذكره له - سبحانه -
بلفظ الجلالة ، المشعر بأنه هو وحده صاحب السلطان ، وبوصفه له عز وجل
بأنه رب العالمين ، أى : منشئ الكون ومن وما فيه ، وصاحب النعم التى
لا تحصى على خلقه .

وفى هذه الجملة الكريمة إرشاد لقابيل لحشية الله على أتم وجه ، وتعريض
بأن القاتل لا يخاف الله .

ثم أنتقل هابيل من وعظه أخيه بتطهير قلبه ، وبتذكيره بما تقتضيه الأخوة

(١) تفسير الألوسى ج ٦ ص ١١٢ .

من بر وقسامح إلى تخويفه من عقاب الآخرة فقال : « إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين » :

وقوله : « أن تبوء بإثمي وإثمك » ، أي ترجع . وتقر : من البوء وهو الرجوع واللزوم ، يقال : بء إليه : أي : رجع ، وبؤت به إليه أي رجعت والآية المكرمة تعليل آخر لامتناعه عن بسط يده إلى أخيه ، ولم تعطف على ما قبلها ، للإيدان باستقلالها في العلية ، ولدفع توهم أن تكون جزء علة لا علة قائمة .

والمعنى : « إني أريد ، بامتناعي عن التعرض لك ببسط يدي ، أن تبوء بإثمي وإثمك » ،

أ : ترجع إلى الله بإثم قتلك لإثمي ، وإثمك الذي قد كان منك قبل قتل ، والذي بسببه لم يتقبل قربانك ، فتكون ، بسبب الإثمين ، من أصحاب النار ، في الآخرة ، وذلك ، أي : كينوتك من أصحاب النار ، جزاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم .

قال الإمام الرازي : فإن قيل : كما لا يجوز للإنسان أن يريد من نفسه أن يعصى الله ، فكذلك لا يجوز له أن يريد من غيره أن يعصى الله ، فلم قال : « إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك » ؟

ج : فالجواب : أن هذا الكلام إنما دار بينهما عندما غلب على ظن المقتول أنه يريد قتله ، وكان ذلك قبل إقدام القاتل على إيقاع القتل به ، وكأنه لما وعظه ونصحه قال له : وإن كنت لا تنزجر عن هذه الكبيرة بسبب هذه النصيحة فلا بد وأن ترصد قتلي في وقت أكون غافلاً عنك وعاجزاً عن دفعك ، فحينئذ لا يمكنني أن أدفعك عن قتلي إلا إذا قتلك ابتداء بمجرد الظن والحسبان . وهذا منى كبيرة ومعصية وإذا دار الأمر بين أن يكون فاعل هذه المعصية أنا ، وبين أن يكون أنت ، فأنا أحب أن تحصل هذه الكبيرة لك لا لي .

ومن المعلوم أن إرادة صدور الذنب من الغير في هذه الحالة ، وعلى هذا الشرط لا يكون حراماً . . .

ويحوز أن يكون المراد : إني أريد أن تبوء بعقوبة قتلى . ولا شك أنه يحوز للمظلوم أن يريد من الله عقاب ظالمه ، (١) .

وقال صاحب الاقتصاص : فأما إرادته - أي إرادته ها بيل - لإثم أخيه وعقوبته - في قوله - تعالى - إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك ، - فمعناه : إني لا أريد أن أقتلك فأعاقب . ولما لم يكن بد من إرادة أحد الأمرين إما لإثمه بتقدير أن يدفع عن نفسه فيقتل أخاه ، وإما لإثم أخيه بتقدير أن يستسلم ، وكان غير مرئ للأول ، اضطر إلى الثاني .

فهو لم يرد إذاً إثم أخيه لعينه ، وإنما أراد أن الإثم هو بالمدافعة المؤدية إلى القتل - ولم تكن حينئذ مشروعة - فلزم من ذلك إرادة إثم أخيه . وهذا كما يتمنى الإنسان الشهادة . ومعناه أن يبوء الكافر بقتله وبما عليه في ذلك من الإثم ، ولا يمكن لم يقصد هو إثم الكافر لعينه ، وإنما أراد أن يبذل نفسه في سبيل الله ، (٢) .

وإلى هنا نرى أن ها بيل قد استعمل في صرف أخيه عن جريمة القتل وسائل متنوعة ، فهو أولاً أرشده إلى أن الله - تعالى - إنما يتقبل الأعمال من المتقين ، فإذا أراد أن يتقبل قربانه فعليه أن يكون منهم ،

وأرشده ثانياً إلى حقوق الأخوة وما تقتضيه من محبة ومودة وتسامح . وأرشده ثالثاً إلى أنه لا يمنعه من بسط يده إليه إلا الخوف من الله رب العالمين .

وأرشده رابعاً إلى أن ارتكابه جريمة القتل سيؤدي به إلى عذاب النار يوم القيامة ، بسبب قتله لأخيه ظلماً وحسداً .

فماذا كان رَفْعُ هذا النصيح الحكيم ، والإرشاد القويم في نفس ذلك الإنسان الحاسد الظالم ؟

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١١ ص ٢٠٧ - بتصرف وتلخيص -

(٢) حاشية تفسير الكشاف ج ١ ص ٦٢٥

لقد بين الله ذلك بقوله : « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » .

قال القرطبي : قوله « فطوعت له نفسه » . أي : سولت وسهلت نفسه له الأمر . وشجعت وصورته له أن قتل أخيه طوع سهل . يقال : طاع الشيء يطوع أي : سهل وانقاد . « وطوعه فلان له أي سهله » (١) .

والمعنى : أن قابيل سهلت له نفسه وزينت له . بعد هذه المواعظ . « قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين » ، في دنياه وفي آخراه .

أصبح من الخاسرين في دنياه لأنه قتل أخاه ، والأخ سند لأخيه وعون له ، لما بينهما من رحم قوية ، ورابطة متينة .

وأصبح من الخاسرين في آخرته ، لأنه ارتكب جريمة من أكبر الجرائم وأشنعها ، وقد توعد الله مرتكبها بالغضب واللعنة والعذاب العظيم .

والتعبير بقوله - تعالى - « فطوعت » ، تعبير دقيق بليغ ، فإن هذه الصيغة - صيغة التفعيل - تشير إلى أنه كانت هناك بواعث متعددة تتجاذب نفسه ، كانت هناك بواعث الشر التي تدعوه إلى الأقدام على قتله وأخيرا تغلبت دوافع الشر على دوافع الخير فقتل أخاه .

وقد صور الإمام الرازي هذا المعنى تصويرا حسنا فقال :

قال المفسرون : فطوعت ، أي : سهلت له نفسه قتل أخيه ، وتحقيق الكلام أن الإنسان إذا تصور من القتل العمد العدوان وكونه من أعظم الكبائر ، فهذا الاعتقاد يصير صارفا له عن فعله ، فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي المتمرد عليه الذي لا يطيعه بوجه البتة . فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها ، صار هذا الفعل سهلا عليه ، فكان النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له ، بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه ، فهذا هو المراد بقوله : « فطوعت له نفسه قتل أخيه » (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٣٨ (٢) تفسير الفخر الرازي ج ٦٦ ص ٢٠٧

هذا ، والآية الكريمة بعد كل ذلك ، تشير إلى شناعة الجريمة في ذاتها من حيث الباعث عليها ، إذ الباعث عليها هو الحسد ، ومن حيث الصلة بين القتاتل والمقتول إذ هي صلة أخوة تقتضى المحبة والمودة والتراحم ، ومن حيث ذات الفعل ، فإنه أكبر جريمة بعد الإشرak بالله - تعالى -

قال الألوسى : أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تقتل نفس ظالما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل » . وأخرج ابن جرير والبيهقى في شعب الإيمان عن ابن عمر - رضى الله عنه - قال : « إنما لنجد ابن آدم القتاتل ، يقاسم أهل النار العذاب . عليه شطر عذابهم » (١) ثم حكى القرآن بعض ما حدث بعد قتل الأخ أخاه فقال : « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يرارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوازى سوءة أخى فأصبح من النادمين » وقوله : « فبعث » من البعث بمعنى الإرسال . وهو هنا مستعمل فى الإلهام بالطيران إلى ذلك المكان بحيث يراه قابيل .

والغراب : طائر معروف . قالوا : والحكمة فى كونه المبعوث دون غيره من الطيور أو الحيوان ، لأنه ينشام به فى الفراق والاغتراب . أو لأن من عادة الغراب دفن الأشياء .

وقوله : « يبحث فى الأرض » أى : ينش التراب بمنقاره ورجليه بحيث يستخرجه من الأرض ، ليعمل ما يشبه الحفرة .

والتعبير بالمضارع ، للإشارة إلى أن البحث قد مكث وقتا ، وكان مجال إستمرار .

وقوله : « ليريه » إما متعلق بقوله « بعث » فيكون الضمير فى الفعل لله - تعالى - أو متعلق بقوله : « يبحث » فيكون الضمير للغراب .

(١) تفسير الألوسى ج ٦ ص ١٠٥

قال القرطبي : قال مجاهد : بعث الله غرابين فاقتتلا حتى قتل أحدهما الآخر ثم حفر فدفنه - فتعلم قابيل ذلك من الغراب - وكان ابن آدم هذا أول من قتل : وقيل أن الغراب بحث الأرض على طعمه - أي : أكله - ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه ، لأنه عادة الغراب فعل ذلك ، فتنبه قابيل بذلك على مواراة أخيه ، (١)

« والسوأة » ما تسوء رؤيته من الجسد ، والمراد بها هنا : جميع جسده الميت وقيل : المراد بها : العورة ، لأنها تسوء ناظرها . وحصلت بالدكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها ، لأن سترها آكد .

وهذه الآية الكريمة مرتبطة بكلام يسبقها لم يذكره القرآن الكريم لفهمه من السياق .

والتقدير : أن القاتل بعد أن ارتكب جريمة ، ورأى جثته أخيه أمامه ملقاة في العراء . تخير ماذا يفعل فيها حتى لا يتركها عرضة لنهش السباع والطيور . فبعث الله غرابا يبحث ، أي : يحفر وينبش بمنقاره ورجليه متعمقا ، في الأرض ، ليريه ، أي : ليعلم ذلك القاتل ويعرفه ، كيف يوارى سوء أخيه ، أي : كيف يستر في القراب جسم أخيه بعد أن فارقت الحياة ، وأصبح عرضة للتغير والتعفن .

وقوله - تعالى - : (قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى) بيان لما اعترى هذا القاتل من تحسر وندم .

وكلمة (يا ويلتى) أصلها : يا ويلتى . وهى كلمة جزع وتحسر . تستعمل عند وقوع المصيبة العظيمة . كأن المتحسر ينادى ويلته ويطلب حضورها ، بعد تنزيلها منزلة من ينادى . ولا يكون ذلك إلا فى أشد الأحوال المأوولة كالويل : ومعناها الفضيحة والبلية والهلاك .

أى : قال القاتل لأخيه ظلماً وحسداً يجرع وحسرة - بعد أن أرى غراباً يحفر حفرة ليدفن فيها شيئاً - قال : يا وبلتى ، أى : يا فضحيتى وبلقتى أقبل فمذا وقتك ، لأنى قد نزلت بى أسبابك .

وقوله : « أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ، أى : أضعفت عن الحيلة التى تجعلنى مثل هذا الغراب فأستر جسدي أخى فى التراب كما دفن الغراب بمنقاره ورجليه فى الأرض ما أراد دفنه ١٤ والاستفهام فى « أعجزت ... » للتعجب من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب ، مع أنه إنسان فيه عقل ، والغراب طائر من أخس الطيور .

وقوله : « فأوارى ، معطوف على قوله : « أن أكون » .

وقوله : « فأصبح من النادمين » ، تذييل قصد به بيان ما أصاب قابيل بعد أن قتل أخاه عدواً وحسداً ، ولم يعرف كيف يستر جثته إلا من الغراب . والندم : أسف الفاعل على فعل صدر منه .

قال الراغب : الندم والندامة التحسر من تغير رأى فى أمر خائب . قال تعالى - : « فأصبح من النادمين » . وأصله من منادمة الحزن له وملازمته إياه - ، (١) .

والمعنى : فأصبح قابيل الذى قتل أخاه هابيل بغياً وحسداً من النادمين على ما أقترف من فواحش قد دل على جهله ، وبغيه ، وتمسك الحتمد من نفسه .

قال صاحب المنار : والندم الذى ندمه - قابيل - هو ما يعرض لكل إنسان عقب ما يصدر عنه من الخطأ فى فعل فعله إذا ظهر له أن فعله كان شراً لا خيراً . وقد يكون الندم توبة إذا كان سببه الخوف من الله ، والتألم من تعدى حدوده ، وهذا هو المراد بحديث « الندم توبة » - رواه أحمد والبخارى فى تاريخه والحاكم والبيهقى .

وأما الندم الطبيعي الذي أشرنا إليه فلا يعد وحده توبة . وفي حديث ابن مسعود في الصحيحين مرفوعا : لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم كفل - أي نصيب - من دمها ؛ لأنه أول من سن القتل ، (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد أن ساق ما جرى بين ابني آدم - ما شرعه من شرائع تردع المعتدي ، وتبشر المتقي فقال - تعالى - : (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا . . .)

وأصل معنى الأجل : الجناية التي يخشى منها أجلا . يقال : أجل الرجل على أهله شرا يأجله - بضم الجيم وكسر ها - أجلا إذا جناه أو أثاره وهيجه ، ثم استعمل في تعليل الجنايات كما في قولهم : من أجلك فعلت كذا . أي بسببك ، ثم انسع فيه فاستعمل في كل تعليل .

والجاء والمجرور (من أجل) متعلق بالفعل (كتبنا) واسم الإشارة (ذلك) يعود إلى ما ذكر في تضاعيف قصة ابن آدم من أنواع المفاسد المترتبة على هذا القتل الحرام .

والمعنى : بسبب قتل قبيل لأخيه هايل حسدا وظلما ، ومن أجل ما يترتب على القتل بغير حق من مفسد (كتبنا) أي فرضنا وأوجبنا (على بني إسرائيل) في التوراة ما يردع المعتدي وما يبشر المتقي .

قال الجمل : قال بعضهم : إن قوله : (من أجل ذلك) من تمام الكلام الذي قبله - أي أنه متعلق بقوله : (فأصبح من النادمين - والمعنى : فأصبح من النادمين من أجل ذلك . يعني من أجل أنه قتل أخاه هايل ولم يواره . و يروى عن نافع أنه كان يقف على قوله : من أجل ذلك فيجعله من تمام الكلام الأول ، ولكن جمهور المفسرين وأصحاب المعاني على أن قوله (من أجل ذلك) ابتداء كلام متعلق بقوله (كتبنا) فلا يوقف عليه (٢) .

(١) تفسير الناره ج ٦ ص ٣٤٧ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٤٨٥ - بتصرف وتلخيص .

و د من ، هنا للسببية . أى : بسبب هذه الجناية شرعنا ما شرعنا من أحكام لدفع الشر وإشاعة الخير .

وعبر - سبحانه - عن السببية . بمن لبيان الابتداء فى الحكم . وأنه اقترن بوقوع تلك الجريمة النكراء التى ستكون آثارها سيئة إذا لم تشرع الأحكام لمنعها . وقدم الجار والمجرور على ما تعلق به وهو : كتبنا ، لإفادة المحصر أى : من ذلك ابتدئ المكتوب ومنه نشأ لا من شئ آخر .

وعبر - سبحانه - بقوله : كتبنا ، للإشارة إلى أن الأحكام التى كتبها ، قد سجلت بحيث لا تقبل المحو أو التبدل ، بل من الواجب على الناس أن يلتزموا بها ، ولا يفرطوا فى شئ منها .

وخص بنو إسرائيل بالذكر مع أن الحكم عام - لأنهم أول أمة نزل الوعد عليهم فى قتل الأنفس مكتوبا ، وكان قبل ذلك قولا مطلقا ، ولأنهم أكثر الناس سفكا للدماء ، وقتلا للمصلحين ، فقد قتلوا كثيرا من الأنبياء ، كما قتلوا أكثر المرشدين والناصحين ، ولأن الأسباب التى أدت إلى قتل قاييل لهاييل من أهمها الحسد ، وهو رذيلة معروفة فيهم ، فقد حملهم حسدهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - على الكفر به أنهم يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم ، كما حملهم على محاولة قتله ولكن الله - تعالى - نجاه من شرورهم .

وما أشبههم فى قتلهم للذين يأمرونهم بالخير بقاييل الذى قتل أخاه هاييل ؛ لأنه أرشده إلى ما يصلحه .

وقوله - تعالى - : أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فسادا فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، بيان لما كتبه - سبحانه - من أحكام تسمد الناس متى اتبعوها .

والمانع : بسبب قتل قاييل لأخيه هاييل ظلما وعدوانا ، كتبنا فى التوراة على بنى إسرائيل (أنه) أى : الحال والشأن (من قتل نفسا) واحدة من النفوس الإنسانية (بغير نفس) .

أى : بغير قتل نفس يوجب الإقتصاص منه ، أو فساد فى الأرض ، أى .
 أو بغير فساد فى الأرض يوجب إهدار الدم - كالردة وزنا المحصن - فكأنما
 قتل للناس جميعا ، لأن الذى يقتل نفسا بغير حق ، يكون قد إستباح دما
 مصونا قد حماه الإسلام بشرائعه وأحكامه ، ومن إستباح هذا الدم فى نفس
 واحدة ، فكأنه قد إستباحه فى نفوس الناس جميعا ، إذ النفس الواحدة تمثل
 النوع الإنسانى كله . ومن أحياءها فكأنما أحيى الناس جميعا ، أى : ومن
 تسبب فى إحيائها وصيانتها من العدوان عليها ، كأن إستنقذها عما يؤدى بها إلى
 الهلاك والأذى الشديد ، أو مكن الحاكم من إقامة الحد على قاتلها بغير حق ،
 من فعل ذلك فكأنما تسبب فى إحياء الناس جميعا .

وفى هذه الجملة الكريمة أسمى ألوان الترغيب فى صيانة الدماء ، وحفظ
 النفوس من العدوان عليها ، حيث شبه - سبحانه - قتل النفس الواحدة بقتل
 الناس جميعا ، وإحياءها بإحياء الناس جميعا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف شبه الواحد بالجميع ، وجعل
 حكمه كحكمهم ؟ قلت : لأن كل إنسان يدلى به بما يدلى به الآخر من الكرامة
 على الله ، وثبوت الحرمة . فإذا قتل فقد أهين ما كرم على الله وهتكت حرمة
 وعلى العكس . فلا فرق إذاً بين الواحد والجميع فى ذلك .

فإن قلت : فما الفائدة فى ذكر ذلك ؟ قلت : تعظيم قتل النفس وإحيائها فى
 القلوب ، ليشتد الناس عن الجسارة عليها ، ويترغبوا فى المحاماة على حرمتها
 لأن المتعرض لقتل النفس إذا تصور قتلها بصورة قتل الناس جميعا ، عظم
 ذلك عليه فشطه - عن القتل - وكذلك الذى أراد إحياءها (١) .

وقال الإمام ابن كثير : قال الحسن وقتادة فى قوله - تعالى - : إنه من قة
 نفسا ... الخ . . هذا تعظيم لما طوى القتل . قال قتادة : عظيم والله وزرها
 وعظيم والله أجرها . وقيل للحسن : هذه الآية لناسكا كانت لبنى لميراثيل

فقال : إى والذى لا إله غيره - هى لنا - كما كانت لهم . وما جعل - سبحانه -
دماءهم أكرم من دماءنا (١) . .

وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون المراد بالنفس فى قوله : أنه
من قتل نفسا ، : العموم . أى : نفسا يحرم قتلها من بنى الإنسان .

وبعضهم يرى أن المراد نفس الامام العادل ، لأن القتل فى هذه الحالة يؤدى
إلى اضطراب أحوال الجماعة ، وإشاعة الفتنة فيها . قال القرطبي : روى عن
ابن عباس أنه قال : المعنى : من قتل نبيا أو إمام عدل فكأنما قتل الناس جميعا
ومن أحياء بأن شد عضده ونصره ، فكأنما أحياء الناس جميعا ، (٢) .

ويدور لنا أن تفسير النفس بالعموم أولى ، لأنه هو الذى عليه جمهور
العلماء ، ولأنه أدعى لحفظ الدماء الانسانية ، وإعطائها ما تستحقه من
صيانة واحترام .

وقوله : ، بغير نفس ، متعلق بالفعل قبله وهو قتل ، . وقوله : أوفساد ،
مجرور عطفا على نفس المجرورة بإضافته غير إليها . .

و د ما ، فى قوله : فكأنما ، كافة مهيئة لوقوع الفعل بعدها .
وقوله - تعالى - : ولقد جاءهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم فى
الأرض لمسرفون ، بيان لموقف بنى إسرائيل القبيح مما جاءهم من هدايات على
أيدي أنبيائهم ومرشديهم .

أى : ولقد جاءت رسلنا لبنى إسرائيل بالآيات البينات ، والمعجزات
الواضحات ، . ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك ، أى : بعد الذى كتبناه عليهم من
شرائع ، وبعد مجئ الرسل إليهم بالبينات ، فى الأرض لمسرفون ، أى :
لمجاوزون الحد فى ارتكاب المعاصى والآثام ، إذالامراف بمجاوزة حدود الحق

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٣٥١

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٤٦

والعدل بدون مبالاة أو اهتمام بهما . وأكّد - سبحانه - جملة ، ولقد جاءتهم
رسلنا ، بالقسم ، لسكّال العناية بمضمونها ، وليبيان أن الرسل - عليهم السلام -
ما قصرُوا في إرشاد بني إسرائيل إلى ما يسعدهم ويهديهم ، فقد جاء وهم بالشرائع
البيّنة الواضحة التي تحمل في نفسها دليل صلاحها . والتعبير ، بجاءتهم ، يشير
إلى أن الرسل - عليهم السلام - وصلوا إليهم ، وصاروا قريبين منهم ، بحيث
يروونهم ويخاطبونهم ولا يتركون أمراً يهمهم إلا يبينوه لهم .

وجملة ، ثم إن كثيراً منهم ، ... ، معطوفة على جملة ، ولقد جاءتهم ، . . .
وكان العطف ، ثم ، المفيدة هنا للتراحى في الرتبة ، الإشارة إلى الفرق
الشاسع بين ما جاءتهم به الرسل من بينات وهدايات ، وبين ما كان عليه بنو
إسرائيل من جحود وعناد وإفساد في الأرض .

وأمم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى المذكور من مجي الرسل إليهم بالبينات
ومن كتابه الشرائع عليهم .

وفي وصف الكثيرين من بني إسرائيل بالأسراف احتراص في الحكم ،
وإنصاف للقلة التي آمنّت منهم ، وهذا من عدالة القرآن الكريم في أحكامه ،
ودقته في تعبيراته .

وذكر - سبحانه - أن أسراف الكثيرين منهم ، في الأرض ، مع أنه
لا يكون إلا فيها ، للايذان بأن فسادهم وإسرافهم في القتل والمعاصي لم يكن
فيما بينهم فحسب ، بل اقتدر شره في الأرض ، وسرى إلى غيرهم من سكانها
المنتشرين فيها . وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكّت لنا ما دار بين
ابني آدم من محاورات أدت إلى قتل أحدهما للآخر ظلماً وحسداً ، إذ الحسد
يأكل القلوب ، ويشعلها بالشر كما تشتعل النار في الحطب ، وبسببه ارتكبت
أول جريمة قتل على ظهر الأرض ، وبسببه كانت أكثر الجرائم في كل زمان
ومكان . كما حكّت لنا أن بني إسرائيل - مع علمهم بشناعة جريمة القتل -
قد أسرفوا في قتل الأنبياء والمصلحين مما يدل على فسوة قلوبهم ، وفي كل ذلك

تسليّة للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه عما كانوا يلاقونه من اليهود المعاصرين لهم من عناد ومكر وأذى .

وبعد أن ذكر سبحانه - تغليظ الإثم في قتل النفس بغير حق ، وتعظيم الأجر لمن عمل على أحيائها ، أتبع ذلك ببيان الفساد المييع للقتل ، فقال - تعالى - :

« إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا ، أَوْ يُصَلَّبُوا ، أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ ، أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ . ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤) » .

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل فيمن نزلت هذه الآية ؟ فقال بعضهم : نزلت في قوم من أهل الكتاب كانوا أهل موادة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنقضوا العهد ، وأفسدوا في الأرض ، فعرف الله نبيه الحكم فيهم ...

وقال آخرون : نزلت في قوم من المشركين ..

وقال آخرون : بل نزلت في قوم من عربنة وعكل - بضم العين وسكون القاف - ارتدوا عن الإسلام ، وحاربوا الله ورسوله ، فعن أنس أن رجلاً من عكل وعربنة أتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا رسول الله إنا أهل ضرع ، ولم تكن أهل ريف ، وإنا استوخمنا المدينة - أي : وجدناها رديئة المناخ - فأمرهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بذود وراع - أي : بعدد من الإبل ومعهم راع - ، وأمرهم أن يخرجوا فيها ، فيشربوا من ألبانها وأبوالها ، فقتلوا الراعي ، واستاقوا الذود ، وكفروا بعد إسلامهم ، فأتى بهم

إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمل أعينهم ، وتركهم في الحرة حتى ماتوا ، فذكر لنا أن هذه الآية نزلت فيهم ...

ثم قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك عندي أن يقال : أنزل الله هذه الآية على نبيه - صلى الله عليه وسلم - لمعرفة حكمه على من حارب الله ورسوله ، وسعى في الأرض فسادا ، بعد الذي كان من فعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمرنيين ... (١) .

والذي يراه ابن جرير أولى هو الذي تطمئن إليه النفس ، فإن الآية الكريمة تبين عقاب قطاع الطرق الذين يحسارون النظام القائم للأمة ، ويرتكبون جرائم القتل والنهب والسلب والسرقة ... سواء أكانوا من المشركين أم من غيرهم ؟ إذا العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وقوله : سبحانه د يحاربون ، من المحاربة . والمحاربة : مفاعلة من الحرب وهي ضد السلم ، والأصل في معنى كلمة الحرب : الأخذ والسلب . يقال : حربه ، إذا سلبه ماله ، والمراد بالمحاربة هنا : قطع الطريق على الأمنين بالاعتداء عليهم بالقتل أو السلب أو ما يشبه ذلك من الجرائم التي حرّمها الله - تعالى - :

ومحاربة الناس لله - تعالى - على وجه الحقيقة غير ممكنة ، لتزعمه سبحانه . عن أن يكون من الجواهر والأجسام التي تُقتل أو تُقتال ؛ لأن المحاربة تستلزم أن يكون كل من المتحاربين في وجهة ومكان والله منزّه عن ذلك ، فيكون التعبير مجازاً عن المخالفة لشرع الله ، وإرتكاب ما يفضيه أو المانع : يحاربون أولياء الله وأولياء رسوله وهم المسلمون ؛ فيكون الكلام على تقدير حذف مضاف .

وصدر - سبحانه - الآية بلفظ « إنما » المفيد للقصر ، لتأكيد العقاب ،

ولبيان أنه عقاب لا هوادة فيه ، لأنه حد من حدود الله - تعالى - ، على تلك الجريمة التكراه التي تقوض بنيان الجماعة ، وتهدم أمنها ، وتزاول كيانتها ، وتبعث الرعب والخوف في نفوس أفرادها .

وعبر - سبحانه - عن يحارب أوليائه وشرعه بأنهم محاربون له ورسوله لزيادة التشنيع عليهم ، ولبيان أن كل من يهدد أمن المسلمين ويعتدي عليهم . يكون محارباً لله ورسوله ومستحقاً لعقوبته - سبحانه - وعقوبته .

وقوله : « ويسعون في الأرض فساداً » معطوف على قوله : « يحاربون »

وقوله : « ويسعون » من السعى وهو الحركة السريعة المستمرة . والفساد : ضد الإصلاح . فكل ما خرج عن وضعه الذي يكون به صالحاً نافماً ، يقال إنه قد فسد .

والسعى في الأرض بالفساد المراد به هنا : قطع الطريق على الناس ، وتهديد أمنهم ، والتعرض لهم بالأذى في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم . . .

وقوله : « فساداً » مفعول لأجله أي : يحاربون ويسعون لأجل الفساد . أو هو حال من فاعل « يسعون » بتأويله بمفسدين ، أو ذوى فساد :

وقوله : « أن يقتلوا أو يصلبوا » الخ ، خبر عن المبدأ الذي هو جزاء ، والمعنى : « إنما جزاء » أي : عقاب « الذين يحاربون الله ورسوله » أي : يخالفونهم ويعصون أمرهما ، ويعتدون على أوليائهما ويسعون في الأرض فساداً » أي : يعملون بسرعة ونشاط في الأرض لا من أجل الإصلاح وإنما من أجل الإفساد فيها عن طريق تهديد أمن الناس « والاعتداء على أموالهم وأنفسهم » . جزاء هؤلاء « أن يقتلوا » والتقتيل هو القتل ، إلا أنه ذكر بصيغة التضعيف لإفادة الشدة في القتل وعدم التهاون في إيقاعه عليهم . لكونه حق الشرع والإشارة إلى الاستمرار في قتلهم ما داموا مستمرين في الجريمة فكلما كان منهم قتل قتلوا .

« أو يصلبوا ، والتصليب : وضع الجاني الذي يراد قتله مشدودا على مكان يرتفع بحيث يرى بعد القتل ليكون عبرة لغيره ، ورد داله عن ارتكاب المعاصي والجرائم . قالوا : ويكون الصلب لمدة ثلاثة أيام . وقيل : لمدة يوم واحد . وجيء هنا أيضا بصيغة التضعيف لإفادة التشديد في تنفيذ هذه العقوبة إثبات أنه لا هوادة فيها .

« أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أي : تقطع مختلفا ، فقوله « من خلاف » ، حال من أيديهم وأرجلهم أي : لا تكون اليد والرجل المقطوعتان من جانب واحد بل تكونان من جانبيين مختلفين .

« أو ينفوا من الأرض ، أي ، يطردوا من الأرض التي إنفقوا فيها على الإجرام إلى أرض أخرى ليتشتت شملهم ، ويتفرق جمعهم ، مع مراقبتهم التضييق عليهم . وفسر بعضهم النفي بالحبس في السجون ، لأن فيه إبعادا لهم تفريقا لجمعهم .

وإسم الإشارة في قوله - تعالى - « ذلك لهم خزي في الدنيا ، يعود إلى عقاب المذكور في الآية من القتل والصلب .. الخ

والخزي : الذل والفضيحة أي ذلك العقاب المذكور لهم خزي في الدنيا ، ن : ذل وفضيحة وعار عليهم ، لأنه كشف أمرهم ، وهتك سترهم ، وجعلهم مرة لغيرهم .

هذا هو عقاب الدنيا ، أما عقاب الآخرة فقد بينه - سبحانه - بقوله : « لهم في الآخرة عذاب عظيم ، أي : لهم في الآخرة عذاب عظيم في شدته الآلامه جزاء ما أقترفوا من جرائم .

وقوله : « إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم » ، بيان لحكم هؤلاء المحاربين إذا ما تابوا قبل القدرة عليهم .

أي نفذوا - أيها المسلمون - هذه العقوبات على هؤلاء المحاربين لأولياء الله أولياء رسوله ، والساعين في الأرض بالفساد ، ماداموا مستمرين في غيهم

وعدوانهم إلا الذين تابوا ، منهم ، من قبل أن تقدروا عليهم ، أى : من قبل أن تتمكنوا من أخذهم ، بأن أقوم حائمين تادمين ، فأعلموا أن الله غفور رحيم ، أى واسع المغفرة والرحمة بعباده .

هذا وهناك مسائل تتعلق بهاتين الآيتين من أهمها ما يأتى :

١ - احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء فى أن المحاربة فى الأمصار وفى القرى وفى الصحراء على السواء ، فحيثما تحقق إخافة المسلمين ، كان الفاعلون لتلك الإخافة محاربين لله ولرسوله ، ويجب إنزال العقاب بهم ، لقوله - تعالى - : ويسعون فى الأرض فسادا ، كل هذه الأماكن من الأرض .

وعلى هذا رأى سائر الإمام مالك والشافعى وأحمد وغيرهم .

ويرى الإمام أبو حنيفة أن قطع الطريق لا يتصور فى داخل المصر ، إلا إذا يمكن الإغاثة عند الاستغاثة ويد السلطان مبسوطة فى داخل الأمصار والقرى وإنما يتصور قطع الطريق فى الصحراء وخارج المدن والقرى .

والذى نراه متفقاً مع الآية الكريمة أنه حيثما تحقق الوصف - وهو محاربة الأمنين ، واستلاب أموالهم ، والاعتداء على أرواحهم - كانت الحاربة ، ولزمت العقوبة التى تردع هؤلاء المعتدين على أموال الناس وأنفسهم .

قال القرطبي : واختلف العلماء فىمن يستحق اسم المحاربة . فقال مالك : المحارب عندنا من حمل على الناس فى مصر أو فى بريد وكابريهم على أنفسهم وأموالهم دون نائرة (١)

قال ابن المنذر : اختلف عن مالك فى هذه المسألة فأثبت المحاربة فى المصر مرة ونفى ذلك مرة . وقالت طائفة حكم ذلك فى المصر أو فى المنازل والطرق ، وديار أهل البادية والقرى سواء وحدودهم واحدة .

(١) نائرة : أى هاجمة يقال : نارت نائره فى الناس بمعنى : هاجت هائجة .

قال ابن المنذر : كذلك هو ، لأن كلا يقع عليه اسم المحاربة . والكتاب على العموم .

وليس لأحد أن يخرج من جملة الآية قوما بغير حجة . وقالت طائفة : لا تكون المحاربة في المصر إنما تكون خارجة عن المصر .. (١) .

وقال ابن العربي : والذي نختاره أن الحاربة عامة في المصر والفقير ، وإن كان بعضها أفحش من بعض . ولكن اسم الحاربة يتناولها ومعنى الحاربة موجود فيها . ولو خرج بعض من في المصر لقتل بالسيف ، وبؤخذ فيه بأشد ذلك لا بأسه ، فإنه سلب وغيلة ، وفعل الغيلة أقبح من فعل الظاهرة ، ولذلك دخل العفو في قتل المجاهرة فكان قصاصا ، ولم يدخل في قتل الغيلة وكان حداً (٢) .

٢ - إختلف النظماء في معنى التخيير في قوله - تعالى - : أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض . . .

فقال قوم من السلف : الآية تدل على التخيير بين هذه الأجزاء . فخرج المحاربون لقطع الطريق ، وقدر الإمام عليهم ، فهو يخير بين أن يوقع بهم أي نوع من العقاب من هذه الأنواع الأربعة : القتل ، الصلب ، التقطيع النقي ، حتى ولو يقتلوا ولم يأخذوا مبالا ، ماداموا قد اجتمعوا وقصدوا تهديد أمن الناس ، فالمسألة متروكة لتقدير الحاكم ، وعليه أن يوقع بهم ما يراه مناسبا لجرمهم وردعهم وجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا يستشري الشر في الأمة .

قال ابن كثير : قال ابن أبي صلحة عن ابن عباس في شهر السلاح في قبة الإسلام . وأخاف السبيل ثم ظفر به الإمام وقدر عليه ، فإمام المسلمين فيه بالخيار : إن شاء قتله ، وإن شاء صلبه ، وإن شاء قطع يده ورجله ، وكذا قال : سعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن البصري ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، كما رواه ابن جرير عن أنس - وهو مذهب المالكية - .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٥١

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ج ٢ ص ٥٩٥ .

ومستند هذا القول أن ظاهره ، أو ، للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن ، كما في قوله - تعالى - في كفارة الفدية : ، فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك . . . ، فأوهنا للتخيير ، وكذلك في الآية التي معنا ، (١) .

وقال قوم آخرون من السلف : الآية تدل على ترتيب الأحكام ونوزيها على ما يليق بها من الجنايات . أى : أن ، أو ، لتتويع العقوبات على حسب طبيعة الجرائم . فإذا قتل هؤلاء المحاربون غيرهم وأخذوا المال قتلوا وصلبوا وإذا قتلوا فقط قتلوا ، وإذا أخذوا المال فحسب قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف . وإذا تجمعوا واتفقوا على ارتكاب الجرائم من غير أن يرتكبوا بالفعل نفوا من الأرض .

وبهذا الرأي قال ابن عباس وقتادة والأوزاعي ، وهو مذهب الشافعية ، والأحناف ، والحنابلة .

قال ابن كثير : وقال الجمهور : بهذه الآية منزلة على أحوال . فعن ابن عباس أنه قال في قطاع الطريق : إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض . . .

ثم قال ابن كثير : ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذي رواه ابن جرير في تفسيره أن عبدا لله بن مروان كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه يخبره أنها نزلت في أولئك النفر العرفيين الذين ارتدوا عن الإسلام وقتلوا الراعي ، واستاقوا الإبل وأخافوا السبيل . . قال أنس : فسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جبريل عن القضاء فيمن حارب ، فقال جبريل : من سرق مالا وأخاف السبيل فاقطع يده بسرقة ورجله بإخافته ومن قتل فاقطعه . ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥١ - بتلخيص يسير -

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥١

وقال الفخر الرازي : والذي يدل على ضعف القول الأول وجهان :
الأول : أنه لو كان المراد من الآية التخيير لوجب أن يمكن الإمام من
الاقتصار على النفي ، ولما أجمعوا على أنه ليس له ذلك علمنا أنه ليس المراد
من الآية التخيير .

والثاني : أن هذا المحارب إذا لم يقتل ولم يأخذ المال فقدم بالمعصية ولم
يفعل ، وذلك لا يوجب القتل كالعزم على سائر المعاصي ، فثبت أنه لا يجوز
حمل الآية على التخيير ، فيجب أن يضمّر في كل فعل على حدة فعلا على حدة ،
فصار التقدير : أن يقتلوا إن قتلوا ، أو يصلبوا إن جمعوا بين أخذ المال
والقتل أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصروا على أخذ المال ،
أو ينفوا من الأرض أن أخافوا السبيل . . . (١) .

والخلاصة أن أصحاب هذا الرأي الثاني يستدلون بأدلة ثقلية - سبق بيانها -
كما يستدلون بأدلة عقلية منها ما ذكره الإمام الرازي ، ومنها أن العقل يقضي
أن يكون الجزاء مناسبا للجناية بحيث يزداد بإزديادها ، وينقص بنقصها ،
وليس من المعقول أن تكون جريمة الاتفاق على الإرهاب بدون تنفيذ ،
متساوية مع جريمة الإرهاب والقتل والسلب ... إذا فالعدالة توجب
تنويع العقوبة .

ومنها أن التخيير الوارد في الأحكام المختلفة بحرف التخيير إنما يجري
على ظاهره إذا كان سبب الوجوب واحدا كما في كفارة اليمين وكفارة
الفدية أما إذا كان السبب مختلفا فإنه يخرج التخيير عن ظاهره - كما هنا - ،
ويكون الغرض بيان الحكم لكل واحد في نفسه ، وذلك لأن قطع الطريق
متنوع ، وبين أنواعه تفاوت الجريمة ، فقد يكون باستلاب المال فقط ، وقد
يكون بالقتل فقط ، وقد يكون بهما ... ومادام الأمر كذلك وجب أن
يكون العقاب مختلفا ، ووجب أن يحمل ظاهر النص على غيره التخيير ، بأن
يحمل على بيان الحكم لكل نوع .

قالوا : ونظير ذلك قوله - تعالى - « قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ، فإنه ليس الغرض التخيير وإنما الغرض : إمّا أن تكون مع قومك تعذيب من جحد وظلم ، وإلا إحسان إلى من آمن وعمل صالحا . وإنا قلنا : ليس الغرض التخيير ، لأنه لا يمكن أن يكون له الحق في أى الأمرين من غير مرجح لأحدهما في الاعتبار ، إذ منطق العدالة يقتضى أن يكون العذاب لمن فسق وجحد ، وأن يكون الإحسان لمن آمن واستقام .

قال بعض العلماء : « وإن الفقه في التفرقة بين الرأيين أن رأى الثانى يحدد جرائم معينة ، ويعتبرها موضوع قطع بفعلها أو بالشروع فيها وهى القتل والسرقة . وأن الجرائم لا تخلو عن ذلك ، ولذلك كانت العقوبات مترددة بين القطع والقتل ، وأنه يكون ثمة تغليظ إذا ارتكبت الجريمتان معا .

« إن كان الشروع بالتجمع وإتخاذ الأسباب ، فإن العقوبة تكون بمنع الجريمة من الوقوع باتخاذ أسباب الوقاية بالنفى من الأرض ، ولذلك كان التنويع ، وكان تخريج حرف « أو ، على ذلك الأساس ، ليكون التكافؤ بين الجريمة والعقوبة ، وإن لم تكن جريمة كانت الوقاية .

أما رأى الأول فهو يتجه إلى أن عقوبة الخرابة لذات الخرابة والسعى فى الأرض بالفساد ، ومنع الناس من السير والاستمتاع بأموالهم وحرىاتهم الشخصية . وظاهر هذا رأى أنه لا ينظر إلا إلى ذات الخرابة التى هى التخويف والإرهاب ، ولا ينظر إلى الجرائم التى ارتكبوها فعلا ، ولذلك يعمم الجرائم ولا يقصرها على القتل والسرقة كالرأى الثانى .

ويرى أن العقوبات فى مجلتها هى علاج ذلك الشر ، وحسم مادته ، والقضاء على التفكك لمن بهم بمحاكاة من وقعوا فيه ، ولذلك يجب إطلاق يدولى الأمر واعتبار تلك العقوبات فى يده كالدواء بين يدي الطبيب ، يختار من أصنافه ما يراه أنجح فى علاج الآفة التى صابت الجسم الاجتماعى .

وإننا نرى رأى الثانى بالنسبة لتنويع العقاب ، ونرى رأى الأول بالنسبة

لتعميم الجرائم التي تفسد المجتمع . فإذا كانت عصابة تعمل لجمع الرجال على النساء وتحطف النساء لذلك الغرض ، أو كانت عصابة لتجميع المواد المخدرة المحرم ديناً وقانوناً تناولها ، فإنهم يكونون كقطاع الطريق ، ويدخلون في باب الحراقة (١) . . .

٣ - تل الآية بظاهرها على أن المحاربين يعاقبون في الدنيا والآخرة ، ولا يكون العقاب الدنيوي طهرة لهم ولو كانوا مسلمين لقوله - تعالى - : ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

قال القرطبي : لقوله : ذلك لهم خزي في الدنيا ... ، لشناعه المحاربة ، وعظم ضررها وإنما كانت المحاربة عظيمة الضرر ، لأن فيها سد سبيل الكسب على الناس ... لأنه إذا أخيف الطريق انقطع الناس عن السفر ، واحتاجوا إلى لزوم البيوت ، فانسد باب التجارة عليهم ، وانقطعت أكسابهم ، فشرع الله على قطاع الطريق الحدود المفاظ ، وذلك الخزي في الدنيا ردعا لهم عن سوء فعلهم ، وفتح باب التجارة التي أباحها لعباده . وتكون هذه المعصية خارجة عن المعاصي ومستثناة من حديث عبادة بن الصامت في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : من أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له . .

ويحتمل أن يكون الخزي لمن عوقب ، وعذاب الآخرة لمن سلم في الدنيا ، ويجرى هذا الذنب مجرى غيره . ولا خلود لمؤمن في النار على ما تقدم ، وإنما يعظم عقابه لعظم ذنبه ، ثم يخرج إما بالشفاعة وإما بالقبضة وهذا الوعيد كغيره مقيد بالمشيئة ، وله - تعالى - : أن يغفر هذا الذنب .. (٢) .

(١) تفسير الآية السكرية للفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . مجلة لواء الإسلام العدد السابع . السنة العشرين .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٥٧ .

٤ - دل قوله - تعالى - : «إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم» على أن توبة المحاربين قبل الظفر بهم ، تسقط عنهم حد المحاربين المذكور في الآية ، إلا أن كثيرا من الفقهاء قالوا إن الذي يسقط عنهم هو ما يتعلق بحقوق الله ، أما ما يتعلق بحقوق العباد فلا يسقط عنهم بالتوبة قبل القدرة عليهم .

قال القرطبي : قوله - تعالى - : «إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم» : استثنى - جل شأنه - التائبين قبل أن يقدر عليهم ، وأخير بسقوط حقه عنهم بقوله : «فاعلموا أن الله غفور رحيم» . أما القصاص وحقوق الأدميين فلا تسقط ، وظاهر الآية أن من تاب بعد القدرة عليه فتوبته لا تنفع ، وتقام الحدود عليه كما تقدم ... (١) .

وقال الألوسي : قوله : «إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم» : استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله - تعالى - كما ينبى عنه قوله «فاعلموا أن الله غفور رحيم» . وأما ما هو من حقوق العباد - كحقوق الأولياء من القصاص ونحوه - فيسقط بالتوبة وجوبه على الإمام من حيث كونه حدا ، ولا يسقط جوازه بالنظر إلى الأولياء من حيث كونه قصاصا ؛ فإنهم إن شاءوا عفوا ، وإن أحبوا استوفوا ، (٢) .

ويرى ابن جرير وابن كثير أن توبة المحاربين قبل القدرة عليهم تسقط عنهم جميع الحدود .

فقد قال ابن جرير - بعد أن ساق الأقوال في ذلك - : «وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي ، قول من قال : توبة المحارب الممتنع بنفسه ، أو بجماعته معه ، قبل القدرة عليه ، توضع عنه تبعات الدنيا التي كانت لازمة أيام حربه وحرابته ، من حدود الله ، وغرم لازم ، وقرود وقصاص ، إلا ما كان قائما في يده من

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٨٥ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٦ ص ١٢٠ .

أموال المسلمين والمعاهدين فيرد على أهله ، (١) .

وقال ابن كثير : وقوله - تعالى - : « إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم » . . . ، أما على قول من قال إنها في أهل الشرك ، فظاهر . - أى : فإنهم إذا آمنوا قبل القدرة عليهم سقطت عنهم جميع الحدود المذكورة . - وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم تحم القتل والصلب وقطع الرجل .

وهل يسقط قطع اليد ؟ فيه قولان للعلماء . وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة .

ثم ساق آثارا في هذا المعنى منها : ما رواه ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : كان حارثة بن بدر التميمي من أهل البصرة - وكان قد أفسد في الأرض محارب - فحكم رجالا من قریش فحكموا عليا فيه فلم يؤمنه . فأتى سعيد بن قيس الهمداني نخلفه في داره ثم أتى عليا فقال : يا أمير المؤمنين : رأيت من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فسادا ، فقرأ حتى بلغ « إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم » . . . ، فقال علي : اكتب له أمانا . . . ، (٢) .

وبعد ، فهذه بعض الأحكام التي تتعلق بقطاع الطريق الذين سماهم الله - تعالى - محاربين لله ولرسوله ، وسمى الفقهاء عملهم حراقة .

وقد رأينا أن الله - تعالى - قد عاقبهم بتلك العقوبات الرادعة في الدنيا . وأعد لهم العذاب العظيم في الآخرة ، ماداموا مستمرين في عدوانهم وتهديدهم لأمن الناس ، واستلابهم لأموالهم .

وإن المقصد من هذه العقوبات الشديدة ، أن يكف المعتدون عن عدوانهم ، وأن يحس الناس في حياتهم بالأمان والاطمئنان على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، فإن الأمة التي ترتكب فيها الجرائم بدون خوف أو وجل ،

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٢٢٥

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٢

ويفتقد أبنائها الأمان والاطمئنان، هذه الأمة التي هذا شأنها ، لا بد أن تضطرب كليتها ، ويهون أمرها ، وتتزعج الثقة بين الحاكمين والمحكومين فيها، لذا فقد أوجب الإسلام على أتباعه أن يتكاتفوا ويتعاونوا للقضاء على كل من يحاول إثارة الفتن والاضطراب بين صفوفهم ، حتى يعيشوا آمنين مطمئنين ، مؤدين لما يجب عليهم نحو دينهم وديارهم بدون خوف أو إزعاج .

وقد قال القرطبي في هذا المعنى : « وإذا أخاف المحاربون السبيل ، وقطعوا الطريق ، وجب على الإمام قتالهم من غير أن يدعوهم ، ووجب على المسلمين التعاون على قتالهم وكفهم عن أذى المسلمين ، فإن انهزموا لم يتبع منهم مدبراً إلا أن يكون قد قتل واخذ مالا ، فإن كان كذلك أتبع ليؤخذ ويقام عليه ماوجب لجنايته .. » (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - سوء عاقبة المحاربين له ورسوله - صلى الله عليه وسلم وأخرج منهم من تاب إليه - سبحانه - قبل القدرة عليه ... بعد كل ذلك وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بتقواه ، وبالتقرب إليه بالعمل الصالح فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٣٥) .

وقوله : « اتَّقُوا » من التقوى بمعنى صيانة النفس عن كل ما ييغضه الله - تعالى - .

وقوله : « وَابْتَغُوا » من الابتغاء وهو الاجتهاد في طلب الشيء ، و « الوسيلة » على وزن فعيلة بمعنى ما يتوصل به ويتقرب به إلى الله - تعالى - ، من فعل الطاعات ، واجتناب المعاصي ، مأخوذة من وصل إلى كذا ، أى . تقرب إليه بشيء . وقيل : الوسيلة الحاجة .

قال الراغب : الوسيلة : التوصل إلى الشيء برغبة ، وهى أخص من

الوسيلة ، لتضمنها معنى الرغبة ، وحقبة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله
بالعلم والعبادة وتحرى مكارم الشريعة ، وهي كالقربة . والواصل : الراغب
إلى الله - تعالى . (١) .

والمعنى : يأيتها الذين آمنوا بالحق الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم ،
« اتقوا الله ، أى : خافوه وصوفوا أنفسكم عن كل مالا يرضيه ، وابتغوا
إليه الوسيلة ، : أى : أطلبوا باجتهاد ونشاط الزئى والقربى إليه عن طريق
مداومتكم على فعل الطاعات ، والنزود من الأعمال الصالحات ، واجتنار
المعاصى والمنكرات .

« وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون ، أى : وجاهدوا أنفسكم بكفها
الآهواء ، وكذلك جاهدوا أعداءكم حتى تكون كلمة الله هى العليا ، رجا
أن تفوزوا بالفلاح والسعادة فى الدنيا والآخرة .

وقد ناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة فى قلوبهم
وتوجيه عقولهم إلى ما يستدعيه الإيمان من طاعة وإخلاص .

وقوله : « إليه ، متعلق بالفعل قبله وهو « ابتغوا » ، أو بلفظ « الوسيلة »
لأنها بمعنى المتوسل به ، وقدم الجار والمجرور لإفادة التخصيص .

أى . أطلبوا برغبة وشدة ما يقربكم إلى الله من الأعمال الصالحة
ولا تتقربوا إلى غيره إلا فى ظل طلب رضاه - سبحانه - .

أو : أطلبوا متوجهين إليه - سبحانه - حاجتكم ، فإن بيده مقادير
السموات والأرض ، ولا تطلبوها متوجهين إلى غيره .

وقد جاء لفظ الوسيلة فى الأحاديث النبوية على أنه اسم لأعلى الدرجات
فى الجنة ، وهذا المعنى متلاق مع أصل المعنى ، وهو التقرب إلى الله والتو
إليه وحده بالطاعات ، لأن من يفعل ذلك ينال من الله - تعالى
أسمى الدرجات .

وقد ساق الامام ابن كثير جملة من الأحاديث في هذا المعنى فقال ماملخصه
والوسيلة : القربة . كذا قال ابن عباس ومجاهد وأبو رائل والحسن وقتادة .
وغير واحد .

قال قتادة : أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .

والوسيلة أيضاً : علم على أعلى منزلة في الجنة وهي منزلة رسول الله صلى
الله عليه وسلم - وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش . وقد
ثبت في صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم - : من قال حين سمع النداء - أى الأذان - : اللهم رب هذه
الدعوة القائمة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا
الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة .

. وثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أنه سمع النبي - صلى الله
عليه وسلم - يقول : ، إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على ،
فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة
فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو . فمن سأل
الوسيلة حلت له شفاعتى ، (١) .

والتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها قد أرشدت المؤمنين إلى ما يسعدهم
بأن ذكرت لهم ثلاث وسائل وغاية ، أو ثلاث مقدمات ونتيجة .

أما الوسائل الثلاث أو المقدمات الثلاث فهي : تقوى الله ، والتقرب إليه
بما يرضيه ، والجهد فى سبيله .

وأما الغاية أو النتيجة لكل ذلك فهي الفلاح والفوز والنجاح .
ولو أن المسلمين تمسكوا بهذه الوسائل حق التمسك لو صلوا إلى ما يسعدهم
فى دنياهم وفى آخرتهم .

هذا ، وللعلماء كلام طويل في التوسل والوسيلة ، نرى أنه لا بأس من ذكر جانب منه .

قال الامام ابن تيمية : إن لفظ الوسيلة والتوسل ، فيه إجمال واشتباه ، يجب أن تعرف معانيه ويعطى كل ذي حق حقه . فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه : وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك . ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه فإن كثيرا من إضطراب الناس في هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك في الالفاظ ومعانيها ، حتى تجد أكرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب .

إن لفظ الوسيلة ورد في القرآن ومن ذلك قوله - تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة

والوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه . هي ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات .

فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها ، هو التوسل إليه باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك .

ولفظ الوسيلة ورد - أيضا - في الأحاديث الصحيحة كقوله - صلى الله عليه وسلم - : سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله . وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد .

ثم قال : والتوسل بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والتوجه به في كلام الصحابة ، يريدون به التوسل به وشفاعته . والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الأقسام به والسؤال به .

وحينئذ فلفظ التوسل به - صلى الله عليه وسلم - يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ، ويراد به معنى ثالث لم ترد به سنة .

أما المعنيان الصحيحان فأحدهما التوسل بالإيمان به وبطاعته ، والثاني :

دعاؤه وشفاعته ... ومن هذا قول عمر بن الخطاب : اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توصلنا إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوصل إليك بعم نبينا - العباس - فاسقنا أي بدعائه وشفاعته .

والتوصل بدعائه وشفاعته كما قال عمر - هو توصل بدعائه لا بذاته ، ولهذا عدلوا عن التوصل به إلى التوصل بعمه العباس .

فلما عدلوا عن التوصل به إلى التوصل بالعباس ، علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته .

وأما المعنى الثالث الذي لم ترد به سنة فهو التوصل به بمعنى الأقسام على الله بذاته والسؤال بذاته . فهذا لم يكن الصحابة يفعلونه لا في حياته ولا بعد مماته ولا عند قبره ولا غير قبره . ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة بينهم وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة . أو عن من ليس قوله حجة . (١)

قال الألوسي ما ملخصه : وإستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين ، وجعلهم وسيلة بين الله - تعالى - وبين العباد والقسم على الله - تعالى - بهم ، بأن يقال : اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا . ومنهم من يقول للغائب أو للبيت من عباد الله الصالحين : يا فلان أدع الله أن يرزقني كذا وكذا . ويؤمنون أن ذلك من إبتغاء الوسيلة ... وكل ذلك بعيد عن الحق بمراحل .

وتحقيق الكلام في هذا المقام أن الاستغاثة بمخلوق وجعله وسيلة بمعنى طلب الدعاء منه لا شك في جوازه إن كان المطلوب منه حيا ، ولا يتوقف على أفضليته من الطالب ، بل قد يطلب الفاضل من المفضول ، فقد صح أنه

(١) من كتاب الوسيلة للإمام ابن تيمية نقل عن تفسير القاسمي ج ٦ ص ١٩٦٨

صلى الله عليه وسلم - قال لعمر لما استأذنه في العمرة : لا تنسنا يا أخى من دعائك ..

ولم يرد عن أحد من الصحابة - وهم أحرص الناس على كل خير - أنه طلب من ميت شيئا .

وأما القسم على الله - تعالى - بأحد من خلقه مثل أن يقال : اللهم إني أقسم عليك أو أسألك بفلان إلا ما قضيت لى حاجتى ، فمن ابن عبد السلام جواز ذلك فى النبى - صلى الله عليه وسلم - لأنه سيد ولد آدم ، ولا يجوز أن يقسم على الله بغيره من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء ، لأنهم ليسوا فى درجته .

ومن الناس من منع التوسل بالذات ، والقسم على الله بأحد من خلقه مطلقا ، وهو الذى ترشح به كلام ابن تيمية ، ونقله عن أبى حنيفة وأبى يوسف ، وغيرهما من العلماء الأعلام . ثم قال بعد كلام طويل :

وبعد هذا كله وأنا لا أرى بأسا فى التوسل إلى الله - تعالى - بجاه النبى - صلى الله عليه وسلم - حيا وميتا ، ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته - تعالى - مثل أن يراد به المحبة التامة المستدعية عدم رده وقبول شفاعته فيكون معنى القائل : إلهى أتوسل بجاه نبيك - صلى الله عليه وسلم - أن تقضى لى حاجتى ، أى : إلهى أجعل محبتك له وسيلة فى قضاء حاجتى .. بل لا أرى بأسا - أيضا - فى الأقسام على الله - تعالى - بجاهه - صلى الله عليه وسلم - بهذا المعنى .

ثم قال : وأن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله - تعالى - من الأولياء ، الأحياء منهم والأموات وغيرهم . مثل يا سيدي فلان أغثنى . وابتدأ ذلك من التوسل المباح فى شيء . واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك ، وأن لا يحوم حول حماه ، وقد عده بعض العلماء شركا ، وإن لا يكفه فهو قريب منه .

فالحزم التجنب عن ذلك وعدم الطلب إلا من الله - تعالى - القوى الغنى
الفعال لما يريد (١) .

وبعد أن حض - سبحانه - عباده المؤمنين على تقواه والتقرب إليه بصالح
الأعمال لكي ينالوا الفلاح والنجاح . . عقب ذلك ببيان ما أعدّه للكافرين
من عذاب أليم فقال - تعالى - :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ
لَيُفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقَبَّلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ » (٣٦) يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها، ولهم
عذاب مقيم » (٣٧) .

والمعنى : « إن الذين كفروا ، بآياتنا ، وجحدوا الحق الذي جاءهم به
رسلنا ولو أن لهم ما في الأرض جميعاً ، أى : لو أن لهم جميع ما في الأرض من
أموال وخيرات ومنافع ، ومثله معه ، أى : وضعفه معه ، وقدموا كل ذلك
« ليفتدوا به ، أى : ليخلصوا به أنفسهم » من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ،
أى : ما قبله الله منهم ، لأن سنته قد اقتضت أن تكون نجات الإنسان من العذاب
يوم القيامة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح ، لا على الأموال وما يشبهها من
حطام الدنيا مهما عظم شأنها ، وأكثر عددها .. ولهم عذاب أليم أى : شديد
في آلامه وأوجاعه .

فالآية الكريمة تبين ما أعدّه الله - تعالى - يوم القيامة للكافرين بآياته من
عذاب أليم ، لن يصرفه عنهم صنارف مهما قدموا من ثمن ، أو بذلوا من أموال
وقوله « لو أن لهم .. الخ » هذه الجملة الشرطية وجوابها خبر إن في قوله :
« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... » .

وصدرت الآية السكينة بأداة التوكيد «إن»، للرد على ما ينكره الكافرون من وقوع عذاب عليهم يوم القيامة ، فقد حكى القرآن عنهم أنهم قالوا : «نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين» .

والمراد بقوله : «لو أن لهم» ، أى : لو أن لكل واحد منهم منفردا ، ما فى الأرض جميعا ومثله معه ، وقدمه يوم القيامة ليخاص نفسه من العذاب ، ما قبل منه ذلك الذى قدمه . وفى ذلك ما فيه من ثبوت العذاب عليهم . ووقوعه بهم لا محالة . وقوله : «جميعا» ، توكيد للموصول وهو «ما» ، فى قوله : «ما فى الأرض» ، أو حال منه . وقوله : «ومثله» ، معطوف على إسم أن وهو «ما» ، الموصولة .

وقوله : «معه» ، ظرف واقع موقع الحال من المعطوف ، والضمير يعود إلى الموصول . وجاء الضمير المجرور فى قوله «ايقتدوا به» ، بصيغة الإفراد ، مع أن الذى تقدمه شيطان وهما : ما فى الأرض جميعا ومثله . الإشارة إلى أنهما لتلازمهما قد صارا بمنزلة شيء واحد . أو لإجراء الضمير مجرى إسم الإشارة بأن يؤول المرجع المتعدد بالماذكور أى يقتدوا بذلك المذكور من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم .

ونفى - سبحانه - قبول الفدية منهم بقوله : «ما تقبل منهم» ، لإفادة تأكيد هذا النفى وإستبعاده ، إذ أن صيغة «التقبل» تدل على تكلف القبول . أى : أنه لا يمكن قبول الفداء منهم مهما قدموا من أموال ، ومهما بذلوا من محاولات فى سبيل الوصول لغرضهم .

قال الفخر الرازى : والمقصود من هذا الكلام التمثيل المزوم العذاب لهم ، فإنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه (١) .

رى البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقضى بالرجل من أهل النار فيقال له : يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع» . فيقال له : «أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت تفتدى به ؟

فَيَقُولُ : نَعَمْ . فَيُقَالُ لَهُ : قَدْ كُنْتَ سَلَّمْتَ مَا هُوَ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ : أَنْ لَا تَشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا . فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ (١) .

وقوله - تعالى - : « يَرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ » ، بيان لدوام نزول العذاب بهم بعد بيان شدة آلامه وأوجاعه أى : يريد هؤلاء الكافرون ، أن يخرجوا من النار ، بعد أن ذقوا عذابها وآلامها ، وما هم بخارجين منها ، أبداً ، بسبب ما ارتكبوه في الدنيا من قبائح ومنكرات : « وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ » ، أى : دائم ثابت لا ينقطع .

فإن ترى هاتين الآيتين قد بينتا سوء عاقبة الكافرين ، بعد أن رغب - سبحانه - المؤمنين في التقرب إليه بالإيمان والعمل الصالح ، وذلك لكي يزداد المؤمنون إيماناً ، ولكي ينصرف الناس عن الكفر والفسوق والعصيان ، إلى الإيمان والطاعة والاستجابة لتعاليم الله الواحد القهار .

وبعد أن بين - سبحانه - عقوبة الذين يحاربون الله ورسوله ، ودعا المؤمنين إلى التقرب إليه بالعمل الصالح . وبين سوء عاقبة الكافرين ... بعد أن بين كل ذلك ، أعقبه ببيان عقوبة السرقة فقال - تعالى - :

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٠) » .

قال الجمل ما ملخصه : قوله - تعالى - : « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ... إلخ » ، شروع في بيان حكم السرقة الصغرى بعد بيان أحكام الكبرى .

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي بَابِ « مَنْ نَوَقَشَ الْحِسَابَ عَذَبَ » ، وَمِنْ كِتَابِ الرِّقَاقِ »

وقرأ الجمهور : والسارق والسارقة بالرفع وفيها وجهان : أحدهما - وهو مذهب سيدييه والمشهور من أقوال البصريين - أن السارق مبتدأ محذوف الخبر . والتقدير : فيما يتلى عليكم أو فيما فرض عليكم السارق والسارقة . أى : حكم السارق ، ويكون قوله : فاقطعوا ، بيانا لذلك الحكم المقدر . فابعد الفاء مرتبط بما قبلها ، ولذلك أتى بها فيه لأنه هو المقصود . ولو لم يؤت بالفاء لتوهم أنه اجنبى ، والكلام على هذا جملتان : الأولى خبرية والثانية أمرية .

والثاني ، وهو مذهب الأخفش وجماعة كثيرة - أنه مبتدأ - أيضا - والخبر الجملة الأمرية من قوله : فاقطعوا . . . وإنما دخلت الفاء في الخبر ، لأنه يشبه الشرط ، إذ الألف واللام فيه موصولة بمعنى الذى والى والصفة صلتها ، فهى فى قوة قولك والذى يسرق والى تسرق فاقطعوا . (١)

والمعنى : والسارق ، أى : من الرجال ، والسارقة ، أى : من النساء . فاقطعوا ، أيديهما ، أى فاقطعوا بكل منهما الذكر إذا سرق قطعت يده . والأنثى إذا سرق قطعت يدها

والخطاب فى قوله : فاقطعوا ، لولاة الأمر الدين إليهم يرجع تنفيذ الحدود وجمع - سبحانه - اليد فقال : أيديهما ، ولم يقل يديهما بالتثنية ، لأن فصحاء العرب يستثقلون إضافة المثنى إلى ضمير التثنية .

وقوله : جزاء بما كسبا نكالا من الله ، بيان لسبب هذه العقوبة ، وللحكمة التى من أجلها شرعت

أى : اقطعوا أيديهما جزاء لما بسبب فعلهما الخبيث ، وكسبهما السيئ ، وخيانتهم القبيحة ، ولكى يكون هذا القطع لأيديهما ، نكالا ، أى : عبرة وزجرا من الله - تعالى - لغيرهما حتى يكف الناس عن ارتكاب هذه الجريمة .

يقال : نكل فلان بفلان تنكيلا أى : صنع به صنيعا يحذر غيره .

والإسم النكال وهو ما نكلت به غيرك . وأصله من النكل - بالكسر - وهو "قيد الشديد ، وحديدة اللجام ، لكونهما ما نعين وجمعه انكال .

وسميت هذه العقوبة نكالا ، لأنها تجعل غير من نزلت به يخاف من ارتكابها حتى لا ينزل به ما نزل بمرتكبها من قطع ليد ، وفضيحة لأمره .

وقوله : " والله عزيز حكيم ، أى : والله - تعالى - غالب على أمره ، حكيم فى شرائعه وتكاليفه .

قال صاحب المنار ما ملخصه . وقد كانت العرب بدوها وحضرها تفهم الكثير من وضع أسماء الله - تعالى - فى الآيات بحسب المناسبة .

ومن ذلك ما نقل الأصمغى أنه قال : كنت أقرأ سورة المائدة ، ومعى أعرابى ، فقرأت هذه الآية فقلت : " والله غفور رحيم ، سموا . فقال الأعرابى كلام من هذا ؟ فقلت : كلام الله . قال : أعد فأعدت " والله غفور رحيم ، ثم تنبئت فقلت : " والله عزيز حكيم " فقال : الآن أصبت . فقلت له . كيف عرفت ؟ فقال : يا هذا ، عزيز حكيم ، فأمر بالقطع ، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع .

فقد فهم الأعرابى الأسمى أن مقتضى العزة والحكمة ، غير مقتضى المغفرة والرحمة ، وأن الله - تعالى - يضع كل اسم موضعه من كتابه . (١)

ثم فتح - سبحانه - لعباده باب التوبة فقال - تعالى - : " فمن تاب من بعد ظله وأصلح فإن الله يتوب عليه ، .

أى : فمن تاب إلى الله - تعالى - توبة صادقة من بعد ظله لنفسه بسبب إيقاعها فى المعاصى التى من أكبرها السرقة ، وأصلح عمله بالطاعات التى تمحو السيئات ، فإن الله يتوب عليه ، أى : يقبل توبته ، ويغسل حوبته ، إن الله واسع المغفرة والرحمة ومن مظاهر ذلك أنه سبحانه - فتح لعباده باب التوبة والإنابة .

فآية الكريمة ترغب العصاة من السراق وغيرهم في التوبة إلى الله ، وفي الرجوع إلى طاعته حتى ينالوا مغفرته ورحمته .

ثم سابق - سبحانه - ما يدل على شمول قدرته ، ونفاذ إرادته ، بصيغة الاستفهام التقريرى فقال - تعالى - : ألم تعلم أن الله ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير ، أى : ألم تعلم أيها العاقل أن الله - تعالى - له ملك السموات والأرض ، بحيث يتصرف فيهما وفي غيرهما من خلقه تصرع الممالك في ملكه بدون مدافع أو منازع .

فلاستفهام هنا لتقرير العلم وتأكيده ، أى إنك تعلم أيها العاقل ذلك علما متيقنا ، فاعمل بمقتضى هذا العلم ، بأن تكون مطيعا لخالقك في كل ما أمر ونهى وبأن تدعو غيرك إلى هذه الطاعة .

وقوله : يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء ، تأكيد لشمول قدرته ونفاذ إرادته ، أى : هو - سبحانه - المالك لكل شيء ، والخالق لكل شيء وهو صاحب السلطان المطلق في خلقه ، فله - سبحانه - أن يعذب من يشاء تعذيبه وله أن يرحم من يشاء رحمته

قال الألوسى : . وكان الظاهر لحديث سبقت رحمتى غضبى ، تقديم المغفرة على التعذيب وإنما عكس هنا ، لأن التعذيب للمصر على السرقة ، والمغفرة للتائب منها . وقد قدمت السرقة في الآية أولا ثم ذكرت التوبة بعدها فجاء هذا اللاحق على ترتيب السابق .

أو لأن المراد بالتعذيب القطع ، وبالمغفرة التجاوز عن حق الله - تعالى - والأول في الدنيا والثانى في الآخرة ، فجاء به على ترتيب الوجود . أو لأن المقام مقام الوعيد .

أو لأن المقصود وصفه - سبحانه - بالقدرة ؛ في تعذيب من يشاء أظهر من القدرة في مغفرته . لأنه لا إباء في المغفرة من المفور ، وفي التعذيب إباء بين (١)

وقوله : « والله على كل شيء قدير » تذييل مؤكد لما قبله ، ومقرر لشمول قدرته - سبحانه - على كل شيء .

هذا ، وقد تكلم العلماء عن معنى السرقة ، وعن شروط إقامة حدها ، وعن طريقة إثباتها . . . وعن غير ذلك من المسائل المتعلقة بها ، تكلموا عن كل ذلك باستفاضة في كتب الفقه وفي بعض كتب التفسير .

ونرى أنه لا بأس من ذكر خلاصة لبعض المسائل التي تحدثوا عنها فقول :

١ - عرف الفقهاء السرقة شرعا بأنها أخذ العاقل البالغ مقداراً مخصوصاً من المال على طريق الاستخفاء من حرز يمكن أو حافظ وبدون شبهة .

٢ - وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به ، سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، لعموم هذه الآية .

ولكن جمهور الفقهاء يرون أنه لا تقطع يد السارق إلا إذا بلغ المسروق قدراً معيناً من المال ، وقد تفاوتت أنظارهم في هذا القدر .

فالأحناف يرون أنه لا قطع إلا في عشرة دراهم فصاعداً ، أو فيما قيمته عشرة دراهم . ومن حجبهم مارواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا قطع فيما دون عشرة دراهم » .

والمالكية والشافعية يرون أنه لا قطع إلا في ربع دينار أو قيمته ذلك .

ومن حجبهم ماروى عن عائشة أنها قالت : « تقطع يد السارق في ربع

دينار فصاعداً » .

قال القرطبي : وظاهر الآية العموم في كل سارق وليس كذلك لقوله - صلى

الله عليه وسلم - « لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً » ، فبين أنه إنما

أراد بقوله « والسارق والسارقة » بعض السراق دون بعض ، فلا تقطع يد

السارق في أقل من ربع دينار أو فيما قيمته ربع دينار أو في ثلاثة دراهم . . .

وقال أحمد : « إن سرق ذهباً فربع دينار ، وإن سرق غير الذهب والفضة

فالقيمة ربع دينار أو ثلاثة دراهم من الورق . . .

وقال أبو حنيفة وصاحباہ والثوري : لا تقطع يد السارق إلا في عشرة دراهم كيلا ، أو في دينار ذهبيا عينا أو وزنا . ولا يقطع حتى يخرج بالمتاع من ملك صاحبه .. ثم قال : وتقطع اليد من الرسغ ... ولا خلاف في أن اليمنى هي التي تقطع أولا ، (١) .

٢ - وقد اشترط الفقهاء في المال المسروق الذي تقطع فيه يد السارق أن يكون مالا محرزا ، أي مصونا محفوظا معنيا بحفظه لعناية اللاتفة بمثله :

قال القرطبي : الحرز هو ما نصب عادة لحفظه أموال الناس ، وهو يختلف في كل شيء . بحسب حاله . قال ابن المنذر : ليس في هذا الباب خبر ثابت لا مقال فيه لأهل العلم ، وإنما ذلك كالإجماع من أهل العلم . وحكى عن الحسن وأهل الظاهر أنهم لم يشترطوا الحرز . وفي الموطأ لما لك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لا تقطع في ثمر معلق - أي في ثمر على الأشجار - ولا حريسة جبل - أي ما يحرس بالجبل - فإذا أواه المراح أو الجرين فالقطع فيما بلغ ثمن المجن ، .

كذلك اشترطوا عدم الشبهة في المال المسروق . لقوله - صلى الله عليه وسلم - . ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم ، .

فلا يقطع من سرق مالا له فيه شركا ، أو سرق من مدينه مثل دينه ، ولا يقطع العبد إذا سرق من مال سيده . ولا الأب إذا سرق من مال ابنه وما أشبه ذلك لوجود الشبهة .

كذلك اشترطوا في المسروق الذي يجب فيه الحد أن يكون مالا متقوما ، أي ، مما يتموله الناس ، ويعدونه لمقاصدهم المختلفة ، فلا تقطع يد السارق إذا سرق شيئا نافعا ، أو سرق شيئا مما لا يتمول كالتراب والطين والماء وما يشبه ذلك .

كذلك إشتراطوا فيه ألا يكون بما يحرم تناوله أو استعماله . فإذا كان مما يحرم تناوله أو استعماله كالخمر أو الخنزير أو أدوات اللهو والمجون فإنه في تلك الأحوال لا تقطع يد السارق .

وهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية وإن كانت قد شرعت العقوبات الشديدة لزجر العصاة والمفسدين والخائنين ... إلا أنها لا تعاقب هذه العقوبات إلا على الذين يستحقونها ، وفي أضيق الحدود ، وبأدق الشروط ، عملاً بقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم » .

ولو أن المسلمين ساروا على هدى شريعة الله لخالوا الأمان والاطمئنان في دنياهم ، والفوز والرضا من الله - تعالى - في أخراهم .

٤ - كذلك أخذ أكثر الشافعية والحنابلة من قوله - تعالى - : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » ، أن التوبة تمنع إقامة الحد .

قالوا : لأن هذه الآية قد إقترنت بقوله - تعالى - : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ... » فكانت مخصصة للعموم في الأمر بالقطع ، وإلا لما إقترنت به ولأنه قد ورد في الأحاديث الصحيحة أن التوبة تجب ما قبلها ومن ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

ويرى الأحناف والمالكية أن التوبة لا تسقط الحد ، لأن الأمر بالقطع عام يشمل التائب وغير التائب ، والتوبة المنصوص عليها في هذه الآية هي ما يكون بعد إقامة الحد كما جاءت بذلك الأحاديث النبوية .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - « فمن تاب من بعد ظلمه .. إلخ » أي : من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه . فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو رد بدلها . وهذا عند الجمهور .

وقال أبو حنيفة : متى قطع وقف تلفت في يده فإنه لا يرد بدلها .

وقد روى الدارقطني عن أبي هريرة أن رسول الله أتى بسارق قد سرق شملة فقال : ما إخاله قد سرق . فقال السارق : بلى يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : : اذهبوا به فاقطعوه ثم احسوه ثم أئتوني به . فقطع فأتى به فقال : تب إلى الله ، فقال : تبت إلى الله . فقال : : تاب الله عليك . - أي : قبل توبتك .

وروى ابن ماجه عن ثلبة الأنصاري : أن عمر بن سمرة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : يا رسول الله ، إنني سرقت جملاً لبني فلان فطهرني . فأرسل اليهم النبي صلى الله عليه وسلم . فقالوا : إنا افقدنا جملاً لنا . فأمر به فقطعت يده وهو يقول الحمد لله الذي طهرني منك . أردت أن تدخلني جسد النار .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . لجأ بها الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله : إن هذه المرأة سرقتنا ، قال قومها : فنحن نفديها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : : اقطعوا يديها . فقطعت يدها اليمنى . فقالت المرأة : هل لي من توبة يا رسول الله ؟ قال : نعم . أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك ، فأزل الله - تعالى - : : فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه . الآية . . (١)

هذه خلاصة لبعض المسائل والأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات الكريمة ، ومن أراد المزيد من ذلك فليرجع إلى ما كتبه الفقهاء في كتبهم ، وإلى ما كتبه بعض المفسرين في تفاسيرهم (٢)

وبعد أن بين - سبحانه - ما بين من تكاليف قويمة ، وشرائع حكيمة ، تهدي من اتبعها إلى السعادة في الدنيا والآخرة . أتبع ذلك بالحديث عن بعض الوسائل الخبيثة التي اتبعها اليهود وأشباهم لكي يدعوا إلى - لامية ، فذكر

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٥٩ وما بعدها .

تلاعبهم بأحكامه - تعالى - ، ومحاولتهم فتنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند تقاضيتهم أمامه ، وحذر - سبحانه - رسوله من مكرهم وساق له ما يسليه ويشرح صدره ، فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاحِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ . وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ، سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ، يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ، يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ ، وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ ، لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ، ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) » .

وردت أحاديث متعددة في سبب نزول هذه الآيات الكريمة ، ومن ذلك : ما أخرجه البخاري عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن اليهود جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة قد زنيا . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : ما نجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها .

فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك . فرفع يده فإذا آية الرجم . فقالوا : صدق يا محمد ؛ فيها آية الرجم . فأمر بهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرجما

فقال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يميل نحو المرأة بقية الحجارة (١) . وروى مسلم في صحيحه عن البراء بن عازب قال : مر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يهودى محمم مجلود - أى قد وضع الفحم الأسود على وجهه للتشكيل به - .

فدعاهم فقال . هكذا نجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال : انشدك بالذى أنزل التوراة على موسى أهكذا نجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ فقال : لا والله . ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه . وإذا أخذنا الضعيف أقننا عليه الحد . فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئا نقيم على الشريف والوضيع . فاجتمعنا على التحميم والجلد - مكان الرجم - .

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : اللهم إني أول من أحيل أمرك إذا ما أتوه قال : فأمر به فرجم . قال : فأنزل الله - تعالى - : يا أيها الرسول لا يحزنك (٢) .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس قال : إن الله أنزل : ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وأولئك هم الظالمون . وأولئك هم الفاسقون ،

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الحدود ج ٨ ص ٢١٣ طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٤٥ هـ

(٢) صحيح مسلم - كتاب الحدود ج ٥ ص ١٢٢ طبعة مصطفى الحلبي سنة ١٣٨٠ هـ

قال ابن عباس : أنزلها الله في الطائفتين من اليهود . وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية ، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا . وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق . فكانوا على ذلك حتى قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - . فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلًا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق . فقالت الذليلة : وهل كان في حين دينهما واحد ، ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد ، دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا خوفاً منكم ، فأما إذ قدم محمد - صلى الله عليه وسلم - فلا نعطيكم . فكادت الحرب تهيج بينهما . ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حكماً بينهم . ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد يعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا . ما أعطونا هذا إلا خوفاً منا . فمدسوا إلى محمد من يخبركم رأيه . إن أعطاكم ما تريدون حكتموه ، وإن لم يعطيكم لا تحكموه . فمدسوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما جاءوه أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أرادوا . فأنزل الله - تعالى - : « يا أيها الرسول لا يحزك ... » ، إلى قوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (١)

قال ابن كثير - بعد أن ساق هذه الأحاديث وغيرها - فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حكم بما يوافق حكم التوراة . وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته ، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة ، ولكن هذا بوحى خاص من الله - تعالى - إليه بذلك وسؤالهم إياه عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطؤوا على كتمانهم وجحدده وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة . فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه ، ظهر زيفهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم ،

وعدو لهم إلى تحكيم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما كان عن هوى عنهم وشهوه لمرافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به ، ولهذا قالوا : « إن أوتيتهم هذا نخذره ، أى : إن حكم بالجلد والتحميم فاقبلوا حكمه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ، أى : وإن لم يحكم بذلك فاحذروا من قبوله وانبأه ، (١) » .

وبعضنا لهذا الأحاديث التي وردت في سبب نزول الآيات ، زاهيا جميعا قد وردت بأسانيد صحيحة وفي كتب السنة المعتمدة ، وأن بعضها قد حكى أن الآيات نزلت في شأن القضية التي تحاكم فيها اليهود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وبعضها قد حكى أنها نزلت في قضية دماء . ولا تعارض بين هذه الأحاديث ، فقد يكون هذان السببان قد حصلتا في وقت واحد ، أو متقارب ، فنزلت هذه الآيات فيهما معا . وقد قرر العلماء أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة من الآيات .

هذا ، وقد افتتحت هذه الآيات الكريمة بثناء من الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال - سبحانه - : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ، ، » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « لا يحزنك » قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاي . والحزن خلاف السرور . ويقال : حزن الرجل - بالكسر - فهو حزن وحزين ، (٢) .

والمعنى : يا أيها الرسول الكريم إن ربك يقول لك : لا تهتم ولا تنال بهؤلاء المنافقين ، وبأولئك اليهود الذين يقعون في الكفر بسرعة ورغبة ، ويقولون بأفواههم آمنا بك وصدقناك ، مع أن قلوبهم خالية من الإيمان ، ومليئة بالنفاق

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥١

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٨١

والفسوق والعصيان . . . لانهم - أيها الرسول الكريم - بهؤلاء جميعا ، فإني
ناصرك عليهم ، وكافيك شرهم .

وفي ندائه - صلى الله عليه وسلم - بعنوان الرسالة « يا أيها الرسول . . . »
تشریف له وتكريم ، وإشعار بأن وظيفته كرَسُول أن يبلغ رسالة الله دون
أن يصرفه عن ذلك عناد المعاندين ، أو كفر الكافرين ، فإن تكاليف الرسالة تحتم
عليه الصبر على أذى أعدائه حتى يحكم الله بينه وبينهم .

والنهي عن الحزن - وهو أمر نفسي لا اختيار للإنسان فيه - المراد به
هنا : النهي عن لوازمه ، كالأكثر من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم
أمرها ، وبذلك تتجدد الآلام ، وتعز السلوى .

وفي هذه الجملة الكريمة تسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وتأنيس
لقلبه ، وإرشاد له إلى ما سيقع له من أعدائه من شرور حتى لا يتأثر بها
عند وقوعها .

وفي التعبير بقوله : « يسارعون في الكفر » . . . ذم لهم على إنحدارهم في
حركات الكفر بسرعة من غير موافاة ولا تدبر ولا تفكر . فهم يتنقلون
بحركات سريعة في ثغايا الكفر ومداخله دون أن يزعمهم وازع من خلق
أودين .

قال صاحب الكشف : يقال : أسرع فيه الشيب ، وأسرع فيه الفساد
بمعنى : وقع فيه سريعا . فكذلك مسارعتهم في الكفر عبارة عن إلقاءهم
أنفسهم فيه على أسرع الوجوه ، بحيث إذا وجدوا فرصة لم يخطئوها ، (١)

وقال أبو السعود : والمسارة في الشيء : الوقوع فيه بسرعة ورغبة .
وإيثار كلمة ، في ، على كلمة إلى ، الإيحاء إلى أنهم مستقرون في الكفر لا يبرحونه

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٦٣٢ بتصريف يسير -

ولأنما ينتقلون بالمسارعة عن بعض فنونه وأحكامه إلى بعض آخر منها ،
كإظهار موالاة المشركين ، وإبراز آثار الكيد الإسلام ونحو ذلك . . (١)

وقوله : د من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، بيان لأولئك
المسارعين في الكفر ، والمتنقلين في دركاته من دركة إلى دركة .

وقوله د بأفواههم ، متعلق بقوله : د قالوا ، . وقوله : د ولم تؤمن قلوبهم ،
جملة حالية من ضمير د قالوا ، .

وقوله : د ومن الذين هادوا ، معطوف على قوله : د من الذين قالوا آمنا
بأفواههم . . . ، وعليه فيكون الذين هادوا داخلين في الذين يسارعون في
الكفر .

أى أن المسارعين في الكفر فريقان : فريق المنافقين الذين قالوا آمنا
بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وفريق اليهود الذين تميزوا بهذا الاسم واشتركوا
مع المنافقين في نفاقهم والمعنى : لأنهم يأمرون بأولئك الذين يسارعون في الكفر
من المنافقين واليهود الذين من صفاتهم أنهم يظهرون الإيمان على أطراف
السننهم والحال أن قلوبهم خالية منه .

وعلى هذا المعنى يكون الكلام قد تم عند قوله - تعالى - د ومن الذين
هادوا ، ويكون ما بعده وهو قوله : د سماعون للكذب .. الخ د من أوصاف
الفريقين معا ، لأنهم مشتركون في المسارعة في الكفر .

ومنهم من يرى أن قوله - تعالى - : د ومن الذين هادوا ، جملة مستأنفة
ليبين أحوال فريق آخر من الناس وهم اليهود ، وأن قوله - تعالى - بعد
ذلك سماعون للكذب .. الخ ، من أوصاف هؤلاء اليهود ، وأن الكلام
قد تم عند قوله - تعالى - د ولم تؤمن قلوبهم ، وأن البيان بقوله : د من
الذين قالوا آمنا بأفواههم . ، لفريق المنافقين .

قال الفخر الرازي : قوله : « ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك » ذكر الفراء والزجاج هاهنا وجهين :

الأول : أن الكلام إنما يتم عند قوله : « ومن الذين هادوا » ثم يبدأ الكلام من قوله « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين » وتقدير الكلام لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من المنافقين ومن اليهود . ثم بعد ذلك وصف الكل بكونهم سماعين للكذب .

الثاني : أن الكلام تم عند قوله - تعالى - : « ولم تؤمن قلوبهم » ثم ابتدأ من قوله : « ومن الذين هادوا سماعون للكذب » وعلى هذا التقدير فقوله « سماعون » صفة لمخذوف . والتقدير : « ومن الذين هادوا قوم سماعون » (١) قال الجمل : الأولى والأحسن أن يكون قوله : « ومن الذين هادوا » معطوفا على البيان وهو قوله : « من الذين قالوا آمنا » ، فيكون البيان بشيئين المنافقين واليهود . أما على القول الثاني فيكون البيان بشيء واحد وهو المنافقون ، (٢) .

وقوله : « سماعون للكذب » سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، صفتان أخريان لأولئك الذين يقيمون في الكفر بسرعة ورغبة .

وقوله : « سماعون » جمع سماع . وهو صيغة مبالغة جيء بها لإفادة أنهم كثير السماع للكذب ، وأنهم لفساد قلوبهم يجدون لذة في الاستماع إليه من رؤسائهم وأحبارهم ، ومن هم على شاكلتهم في العناد والضلال واللام في قوله : « للكذب » ، للتقرية أي : أنهم يسمعون الكذب كثيرا سماع قبول وتلذذ ، يأخذونه من يقوله من أعداء الإسلام على أنه حقائق ثابتة لا مجال للريب فيها

(١) تفسير الرازي ج ١١ ص ٣٣٢

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٤٠٠

وقيل إن اللام للتعليل أي أنهم كثيرو السماع لكلام الرسول - صلى عليه وسلم - ولاخباره من أجل الكذب عليه . عن طريق تغيير وة ما سمعوه على حسب ما تنووا نفوسهم المريضة

وقوله : « سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، بيان لمسلك آخر من مسالك الخبيثة بعد بيان إحتفالهم بالأخبار الكاذبة ، وتقبلها بفرح وسرور

أي : أن هؤلاء المسارعين في الكفر من المنافقين واليهود من صناديقهم كثيرو السماع للأكاذيب التي يروجها أعداء الدعوة الإسلامية ضد كثيرو السماع والقبول والاستجابة لما يقوله عنها قوم آخرون من أعدائهم يحضروا مجالس الرسول - صلى الله عليه وسلم - تكبرا وعتوا .

ويجوز أن يكون المعنى : أنهم كثيرو السماع للكذب عن محبة ورغبة ، وأنهم كثيرو السماع لما يقوله الرسول - صلى الله عليه وسلم - لينقلوه إلى آخرين - من أشباههم في الكفر والعتاد - ولم يحضروا مجالس الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنفة وبغضا فأنتم ترى أن القرآن قد وصفهم بأنهم بواطنة حيث استحبوا الكذب على الصدق ، كما وصفهم بضعف نفوسهم حيث صاروا مطايا لغيرهم بطيعون أمرهم ، ويبلغون أخبار المسلمين ، عيون على المسلمين ليبلغوا أخبارهم إلى زعماء الكفر والنفاق .

وإلى هذين المعنيين أشار صاحب الكشف بقوله : ومعنى « سماع للكذب » : قائلون لما يفتريه الأخبار ويفتعلونه من الكذب على الله وتحمير كتابه ، من قولك : الملك يسمع كلام فلان ، ومنه سمع الله لمن حمده

وقوله : « سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يعني اليهود الذين لم يصبوا إلى مجالس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونجاؤا عنه لما أفرط فيهم شدة البغضاء ، وتبالغ من العداوة ، أي : قائلون من الأخبار ومن أولئك الماكرين في العداوة الذين لا يقدر أن ينظروا إليك ، وقيل : سماعون إلى رسوا

- صلى الله عليه وسلم - لأجل أن يكذبوا عليه ، بأن يسخروا ما سمعوا منه بالزيادة والنقص - إن والتبديل والتغيير ، مسمعون من رسول الله لأجل قوم آخرين من اليهود وجهودهم عيونا ليلغوا ما سمعوا منه ، (١)

وقوله : « يحرفون الكلام من بعد مواضعه » ،

صفة أخرى للقوم الآخرين الذين لم يأتوا إلى مجالس الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنفة وبغضا . أو للمسارعين في الكفر من الفريقين

وقوله : « يحرفون » ، من التحريف وأصله من الجرف وهو طرف الشيء ومعناه إمالة الكلام عن معناه ، وإخراجه عن أطرافه وحدوده

والكلم : اسم جنس جمعى للفظ كلمة ومعناه الكلام

أى أن هؤلاء القوم الآخرين الذين لم يحضروا مجلسك نفورا منك ، أو هم والمسارعون في الكفر من المنافقين واليهود من صفاتهم ودأبهم تحريف جنس الكلم عن مواضعه . فهو يحرفون كلامك يا محمد ، ويحرفون التوراة ، ويحرفون معاني القرآن حسب أهوائهم وشهواتهم ، ويحرفون الحق الذى جئت به تارة تحريفا لفظيا ، وتارة تحريفا معنويا ، وتارة بغير ذلك من وجوه التحريف والتبديل .

وقوله : « من بعد مواضعه » ، أى : يحرفون الكلم من بعد إستقرار مواضعه وبيان حلالها وحرامها

وعبر هنا بقوله « من بعد مواضعه » ، وفي مواطن أخرى بقوله « عن مواضعه » ، لأن المقام هنا الحديث عن الأحكام المستقرة الثابتة التى حاول أولئك المسارعون في الكفر تغييرها وإحلال أحكام أخرى محلها تبعا لأهوائهم كما حدث في قضية الزنا وفي غيرها من القضايا التى تحاكموا فيها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فكان من المناسب هنا التعبير بقوله : « من بعد

مواضعه، أى : من بعد استقرار مواضعه وثبوتها ثبوتاً لا يقبل التحريف
التغيير أو الإهمال .

وقوله : « يقولون إن أوتيتهم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » ،
نطقت به أفواه أولئك الذين لم يحضروا مجالس رسول الله من مكر وخ
وضلال ..

أى : أن أولئك القوم الآخرين الذين لم يحضروا مجالس رسول
- صلى الله عليه وسلم - عناداً وتكبراً - لم يكتفوا بتحريف الكلم عن موا
م وأشياعهم ، بل كانوا إلى جانب ذلك يقولون لمطاياهم السامعين منهم أو السام
من أجلمهم : يقولون لهم عندما أرسلوهم إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -
ينهم : « إن أوتيتهم هذا فخذوه ، أى : إن أفتاكم محمد - صلى الله عليه وسلم -
يمثل هذا الذى نقتيكم به - كالجلد والتحميم بدل الرجم - فاقبلوا -
وخذوه واعملوا به » ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ، أى : وإن أفتاكم بغير ما أفت
به فاحذروا قبول حكمه ، وإياكم أن تستجيبيوا له ، أو نميلوا إلى ما قاله

واسم الإشارة هذا فى قوله : « يقولون إن أوتيتهم هذا » ، يعود إلى ال
المحرف الذى توضح أخبار اليهود على الإفتاء به تبعاً لأهوائهم ، كما حدث
فى قضية الزنا حيث غيروا حكم الرجم بحكم آخر هو الجلد والتحميم .

وفى ترتيب الأمر بالحذر على مجرد عدم إيتاء المحرف ، إشارة إلى نخ
الشديد من ميل أنباعهم إلى حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ،
يحذرونهم بشدة من الاستماع إلى ما يقوله لهم مما يخالف ما تواضعوا
من باطل .

وقوله : « إن أوتيتهم » مفعول لقوله ويقولون ، واسم الإشارة «
مفعول ثان لأوتيتهم . والاول نائب الماعل وقوله : « فخذوه » جواب الله
ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : « ومن يرد الله فتنة فلن تملك
- سبحانه -

من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي
ولهم في الآخرة عذاب عظيم .

أى : ومن يقض الله بكفره وظلاله ، فلن تملك له - أيها الرسول الكريم -
شيئاً من الهداية لتدفع بها ضلاله وكفره ، أولئك الموصوفون بما ذكر من
الصفات الذميمة لم يرد الله - تعالى - أن يطهر قلوبهم من النفاق والضلال ؛
لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، لهم في الدنيا خزي ، أى : فضيحة وهوان
بسبب ظهور كذبهم ، وفساد نفوسهم ، وانتشار تعاليم الإسلام التي يحاربونها
ويشبهون الأباطيل حولها وحول من جاء بها - صلى الله عليه وسلم - .

ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، وهو خلودهم في النار بسبب إجترأهم
السيئات ، ومحاربتهم لمن جاءهم بالحق والهدى والسعادة .

ثم كشف - سبحانه - عن رذيلة أخرى من رذائلهم المتعددة فقال
- تعالى - : « سماعون للكذب أكالون للسحت ، . . . » .

والسحت : هو كل ما خبيث كسبه وقبح مصدره ، كالتعامل بالربا
وأخذ الرشوة وما إلى ذلك من وجوه الكسب الحرام .

وقد بسط الإمام القرطبي هذا المعنى فقال : والسحت في اللغة أصله
الهلاك والشدة .

قال - تعالى - « فيسحتكم بعذاب ، أى : - فيهلككم ويستأصلكم
بعذاب - ويقال للجالق : أسحت أى استأصل . وقال الفراء : أصل السحت
كلب الجوع . يقال رجل مسحوت المعدة أى : أكل ، فكان بالمسترشى
وأكل الحرام من الشره إلى ما يعطى مثل الذى بالمسحوت المعدة من النهم :
وعن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « كل لحم نبت بالسحت
فالنار أولى به » قالوا يا رسول الله وما السحت ؟ قال : « الرشوة في الحكم ، .

وقال بعضهم : من السحت أن يأكل الرجل بجاهه . وذلك بأن يكون له جاد عند السلطان فيسأله إنسان حاجة فلا يقضيها إلا برشوة يأخذها ، (١) .

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين واليهود من صفاتهم - أيضا - أنهم كثيرون لسباع للكذب ، وكثيرون الأكل للمال الحرام بجميع صورته وألوانه . ومن كان هذا شأنه فلا تنتظر منه خيرا ، ولا تؤمل فيه رشدا .

وقوله : « سماعون . . » خبر لمبتدأ محذوف أى : هم سماعون . وكرر تأكيد لما قبله ، وتمهيدا لما بعده وهو قوله : « أكالون للسحت » .

وجاءت هاتان الصفتان - سماعون وأكالون - بصيغة المبالغة ، للإيدان بأنهم محبون حبا جما لما يأباه الدين والخلق الكريم . فهم يستمعون سماع لباطل من القول ، كما يستمعون أكل أموال الناس بالباطل :

إن اليهود بصفة خاصة قد اشتهروا في كل زمان بتقبل السحت ، وقد أُرشد الله - تعالى - نبيه إلى ما يجب عليه نحوهم إذا ما تحاكموا إليه فقال : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين » .

أى : فإن جاءك هؤلاء اليهود متحامين إليك - يا محمد - في قضاياهم ، فأنت مخير بين أن تحكم بما أراك الله ، وبين أن تتركهم وتهملمهم وتعرض عنهم . وإن تعرض عنهم ، فيما احتسكوا فيه إليك ، فاصدين مضرتك وإيذاءك فلا تبال بشيء من كيدهم . لأن الله حافظك وناصرك عليهم ، وإن اخترت الحكم في قضاياهم ، فليكن حكمك بالعدل الذى أمرت به ، لأن الله - تعالى - يحب العادلين في أحكامهم

والفاء في قوله : « فإن جاءوك ... » الإفصاح أى : إذا كان هذا حالهم

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٨٣ بتصرف وتلخيص

وتلك صفاتهم فإن جاءوك متحايين إليك فيما شجر بينهم من خصومات
، فاحكم بينهم أو اعرض عنهم .

وجاء التعبير بأن المفيدة للشك مع أنهم قد جاؤا إليه ، للايدان بأنهم كانوا
مترددين في التحاكم إليه - صلى الله عليه وسلم - وأنهم ما ذهبوا إليه إلا
ظنا منهم بأنه سيحكم فيهم بما يتفق مع أهوائهم ، فلما حكم فيهم بما هو الحق
كتبوا وندموا على بجيتهم إليه .

قال أبو السعود : وقوله : « وإن تعرض عنهم ، بيان لحال الأمرين إثر
تخييره - صلى الله عليه وسلم - بينهما . وتقديم حال الإعراض ، للمسارعة إلى
بيان أنه لا ضرر فيه ، حيث كان مظنة الضرر ، لما أنهم كانوا لا يتحاكمون
إليه إلا لطلب الأيسر والأهون عليهم ، فإذا عرض عنهم وأبى الحكومه
بينهم شق ذلك عليهم ؛ فاشتد عداوتهم ومضارتهم له ، فأمنه الله بقوله : « فلن
يقهروك شيئا ، من الضر » (١) .

وكان التعبير بأن أيضا في قوله « وإن حكمت فاحكم بينهم ، للإشارة
إلى أنه - صلى الله عليه وسلم - ليس حريصاً على الحكم بينهم بل هو زاهد فيه ،
لأنهم ليسوا طلاب حق وانصاف بل هم يريدون الحكم كما هم وون ويشتهون ،
والدليل على ذلك أن التوراة التي بين أيديهم فيها حكم الله ، إلا أنهم جاءوا إلى
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مؤملين أن يقضى بينهم بغير ما أنزل الله ،
فبطلوا ذلك بين الناس ، وعلنوا عدم صدقه في نبوته ، فلما حكم بما أنزل الله
خاب أملهم وانقلبوا صاغرين .

وقوله : « إن الله يحب المقسطين ، تذييل مقرر لما قبله من وجوب الحكم
بينهم بالعدل إذا ما اختار أن يقضى بينهم .

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٢٩

يقال : أقسط الحاكم في حكمه ، إذا عدل وقضى بالحق فهو مقسط أى عادل ومنه قوله - تعالى - ، إن الله يحب المقسطين .

روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر وقال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن . وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا ، (١) .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ما يأتى :
١ - أن أكل السحت حرام سواء أ كان عن طريق الرشوة أم عن أى طريق محرم سواها .

ولقد كان السابقون من السلف الصالح يتحرون الحلال . وينفرون من الحرام ، بل ومن الشبهات ، وكانوا يرون أن تأييد الحق ودفع الباطل واجب عليهم ، وأنه لا يصح أن يأخذوا عليه أجرا . . .

قال ابن جرير : شفع مسروق لرجل في حاجة فأهدى إليه جارية ، فغضب مسروق غضباً شديداً وقال : لو علمت أمك تفعل هذا ما كلمت في حاجتك ، ولا أكلمه فيما بقى من حاجتك . سمعت ابن مسعود يقول : من شفع شفاعة ليرد بها حقاً ، أو يرفع بها ظالماً ، فأهدى له ، فقبل ، فهو سحت . . .

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : كل لحم أنبته السحت فالنار أولى به . قيل يا رسول الله وما السحت ؟ قال : الرشوة في الحكم . . .
وعن الحكم بن عبد الله قال : قال لى أنس بن مالك : إذا انقلبت إلى أبيك فقل له : إياك والرشوة فإنها سحت . وكان أبوه على شرط المدينة ، (٢) .

قال بعض العلماء : والرشوة قد تكون في الحكم وهي محرمة على الراشئ والمرتنى . وقد روى أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لعن الراشئ والمرتنى والذي يمشى بينهما ، لأن الحاكم حينئذ إن حكم له بما هو حقه كان فاسقاً من جهة

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة ج ٦ ص ٧

(٢) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٢٤٠ - بتصرف يسير -

أنه قبل الرشوة على أن يحكم بما يعرض عليه الحكم به . وإن حكم بالباطل كان فاسقاً من جهة أنه أخذ الرشوة . ومن جهة أنه حكم بالباطل .

وقد تكون الرشوة في غير الحكم مثل أن يرشوا الحاكم ليدفع ظلمه عنه فمذه الرشوة محرمة على أخذها غير محرمة على معطيها ، فقد روى عن الحسن أنه قال : لا بأس أن يدفع الرجل من ماله ما يصون به عرضه ، . وروى عن جابر بن زيد والشعبي أنهما قالوا : لا بأس بأن يصانع الرجل عن نفسه وماله إذا خاف الظلم ، .

وقد ورد أنه - صلى الله عليه وسلم - حين قسم غنائم بعض الغزوات وأعطى العطايا الجزيلة ، أعطى العباس بن مرداس أقل من غيره ، فلم يرق ذلك العباس وقال شعرا يتضمن التعجب من هذا التصرف . فقال - صلى الله عليه وسلم - « أقطعوا لسانه » . فزادوه حتى رضى . فهذا نوع من الرشوة رخص فيه السلف لدفع الظلم عن نفسه يدفعه إلى من يريد ظلمه أو إنتهاك عرضه ، (١)

٢ - استدلل بعض العلماء بقوله - تعالى - : فإن جاءك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان مخيراً في الحكم بين أهل الكتاب أو الإعراض عنهم ، وأن حكم التخيير غير منسوخ ، لأن ظاهر الآية يفيد ذلك .

ويرى فريق من العلماء أن هذا التخيير قد نسخ بقوله - تعالى - بعد ذلك : وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، . قالوا : إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان أولاً مخيراً ثم أمر بعد ذلك بإجراء الأحكام عليهم .

وقد رد القائلون بثبوت التخيير على القائلين بالنسخ بأن التخيير ثابت بهذه الآية .

أما قوله : . وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ، فهو بيان لكيفية الحكم عند إختياره له .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ٢ ص ١٩٣ لفظة الأستاذ محمد علي السائس :

ويرى فريق ثالث من العلماء : أن التخيير ورد في المعاهدين الذين ليسوا من أهل الذمة كبنى النضير وبنى قريظة ، فهو لا . كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - بخيرا بين أن يحكم بينهم أو أن يعرض عنهم :

وقوله - تعالى - : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) ورد في أهل الذمة الذين لهم مالنا وعليهم ما علينا . وعلى هذا فلا نسخ في الآية .

قال الألوسي : قال أصحابنا : أهل الذمة محمولون على أحكام الإسلام في البيوع والموارث وسائر العقود ، إلا في بيع الخمر والخنزير ، فإنهم يقرروا عليه ، ويمنعون من الزنا كالمسلمين ، ولا يرجعون لأنهم غير محصنين . . وإختلف في مناهجتهم ، فقال أبو حنيفة : يقرون عليها وخالفه - في بعض ذلك - محمد وزفر . وليس لنا عليهم إعتراض قبل التراضي بأحكامنا ؛ فمن تراضوا بها وترافعوا إلينا وجب إجراء الأحكام عليهم . ونظام التفصيل في الفروع .

٢ - أخذ العلماء من هذه الآية - أيضا - أن الحاكم ينفذ حكمه فيها حكمة فيه لأن اليهود حكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم - في بعض قضاياهم ، فحكم فيهم بما أنزل الله ، ونفذ هذا الحكم عليهم .

قال بعضهم : إنه - صلى الله عليه وسلم - قد حكم بينهم بشريعة موسى عليه السلام - ولكن هذا الحكم كان قبل أن تنزل عليه الحدود . أما الآن وقد أكمل الله الدين ، وتقررت الشريعة ، فلا يجوز لأي حاكم أن يحكم بغير الأحكام الإسلامية لا فرق بين المسلمين وغيرهم (١) .

هذا ، وبعد أن وصف الله - تعالى - اليهود وأشباهم بجملة من الصفات القبيحة ، وخير رسوله - صلى الله عليه وسلم - بين أن يحكم فيهم بشرع الله

وبين أن يعرض عنهم ... بعد كل ذلك أنكر عليهم مسألكهم الخبيثة ، وعجب كل عاقل من حالهم فقال - تعالى - : وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ، ثم يتولون من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، .
 أى : أن أمر هؤلاء اليهود لمن أعجب العجب ، لأنهم يحكمونك - يا محمد - في قضاياهم مع أنهم لم يتبعوا شريعتك . ومع أن كتابهم التوراة قد ذكر حكم الله صريحا واضحا فيما يحكمونك فيه .

فلاستفهام في قوله : وكيف يحكمونك ... للتعجب من أحوالهم ، حيث حكموا من لا يؤمنون به في قضية حكمهم - بين أيديهم ، ظنا منهم أنه سيحكم بينهم بما لا تفقوا عليه مما يرضى أهواءهم وشهواتهم .

وقوله : وعندهم التوراة ، جملة حالية من الواو في : يحكمونك ، والعامل ما في الاستفهام من التعجب .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : فيها حكم الله ، ما وضعه من الإعراب ؟ قلت : إما أن ينتصب على الحال من التوراة ، وهى مبتدأ والخبر ، عندهم ، ، وإما أن يرتفع خبرا عنها كقولك : وعندهم التوراة ناطقة بحكم الله . وإما أن لا يكون له محل وتكون جملة مبينة ، لأن عندهم ما يغنيهم عن التحكيم كما تقول : عندك زبد ينصحك ويشير عليك بالصواب فما تصنع بغيره (١)

وقوله : ثم يتولون من بعد ذلك ، معطوف على : يحكمونك ، وجاء العطف بشم المفيدة للتراخي للإشارة إلى التفاوت الكبير بين ما في التوراة من حق وبين ما هم عليه من باطل ومخادعة

ولاسم الإشارة ذلك ، يعود إلى حكم الله الذي في التوراة والذي حكم به النبي - صلى الله عليه وسلم -

أى : كيف يحكمونك يا محمد في قضاياهم والحال أنهم عندهم التوراة فيها

حكم الله واضحاً فيما تحاكموا إليكم فيه ، ثم هم يعرضون من بعد تحكيمكم ،
حكمك الموافق لما قضى الله به في كتابهم التوراة .

وقوله : « وما أولئك بالمؤمنين » ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

ونفى الإيمان عنهم مع حذف متعلقه لقصد التعميم .

أى : « وما أولئك الذين جاءوا يتحاكمون إليكم من اليهود بالمؤمنين
لا بكتابهم التوراة . لأنهم لو كانوا مؤمنين به لنفذوا أحكامه ، ولا بك باء
لأنهم لو كانوا مؤمنين بك لا استجابوا لك فيما تأمرهم به وتنهاهم عنه .

قال الفخر الرازى : قوله - تعالى - : « وكيف يحكمونك ... الخ
هذا تعجيب من الله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - بتحكيم اليهود إياه ؛
عليهم بما في التوراة من حد الزانى ، ثم تركهم قبول ذلك الحكم ، فعدلوا
باعتقودنه حكماً حقاً إلى ما يعتقدونه باطلاً طلباً للرخصة . فلا جرم ظهر جهلهم
وعنادهم في هذه الواقعة من وجوه : أحدها : عدوهم عن حكم كتابهم . والثاني
رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل . والثالث : إعراضهم
حكمه بعد أن حكموه . فبين الله حال جهلهم وعنادهم لتلا يفتريهم مقرر أن
أهل كتاب الله ، ومن المحافظين على أمر الله ، (١) .

وبعد أن وصف الله - تعالى - اليهود وأشباههم بجملة من الصفات
القيحية ، كسارعهم في الكفر . وكثرة سماعهم للكذب ، وتحريفهم للحق
عن مواضعه ، وتهاقنهم على أكل السحت . وبعد أن خير رسوله - صلى
عليه وسلم - في أن يحكم بينهم أو أن يعرض عنهم إذا ما تحاكموا إليه ، و
أن عجب كل عاقل من أحوالهم ... بعد كل ذلك ، شرع - سبحانه - في بيان
منزلة التوراة وفي بيان بعض ما اشتملت عليه من أحكام فقال - تعالى - :

« إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا

لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَحْبَارَ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ، فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَاخْشَوْنِي ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي
ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا
عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ، وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ ، وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ ،
وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ، وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ . فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ
فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) .

فقوله - تعالى - : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ... » ، بيان لشرف
التوراة قبل أن تمتد إليها الأيدي الأثيمة بالتحريف والتبديل .
ويدل على شرفها وعلو مقامها أن الله - تعالى - هو الذي أنزلها لا غيره ،
وأنه - سبحانه - جعلها مشتملة على الهدى والنور .

والمراد بالهدى : ما اشتملت عليه من بيان للأحكام والتكاليف والشرائع
التي تهدي الناس إلى طريق السعادة .
والمراد بالنور : ما اشتملت عليه من بيان للعقائد السليمة ، والمواعظ
الحكيمة ، والأخلاق القويمة .

والمعنى إنا أنزلنا التوراة على نبيينا موسى - عليه السلام - مشتملة على
ما يهدي الناس إلى الحق من أحكام وتكاليف وعلى ما يضيء لهم حياتهم من
عقائد ومواعظ وأخلاق فاضلة .

ثم بين - سبحانه - بعض الوظائف التي جعلها للتوراة فقال : « يحكم
بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا
من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ... » .

والمراد بقوله : « النبيون » من بعثهم الله في بني إسرائيل من بعد موسى
لإقامة التوراة .

وقوله : « الذين أسلموا » صفة للناييين - أى : أسلموا أرجوهم لله و
له العبادة والطاعة .

وعن الحسن والزهرى وقتادة : يحمّل أن يكون المراد بالناييين
أسلموا محمداً - صلى الله عليه وسلم - ، وذلك لأنه حكم على اليهوديين الذ
بالرجم ، وكان هذا حكم التوراة . وإنما ذكر بلفظ الجمع تعظيماً له .

وقال ابن الأنبارى : هذا رد على اليهود والنصارى ، لأن بعضهم
يقولون : الأنبياء كلهم يهود أو نصارى . فقال - تعالى - « يحكم بها الناييين
الذين أسلموا » ، يعنى أن الأنبياء ما كانوا موصوفين باليهودية أو الن
بل كانوا مسلمين لله منقادين لتكاليفه ، (١)

وقوله : « للذين هادوا » أى : رجعوا عن الكفر . والمراد بهم
واللام للتعليل .

وقوله : « والربانين » معطوف على « الناييين » . وهو جمع ربان
- كما يقول ابن جرير - العلماء ، والحكام ، البصراء بسياسة الناس
أمورهم ، والقيام بمصالحهم (٢) .

وقوله : « الأحبار » معطوف أيضاً على « الناييين » .

قال القرطبى ما ملخصه : والأحبار : قال ابن عباس : هم الفقهاء
والخبر بالفتح والكسر - الرجل العالم وهو مأخوذ من التجبير بمعنى
والتزيين ، فهم يجهرون العلم . أى : يبينونه ، وهو مجرب فى صدورهم . .
والباء فى قوله : « بما استحفظوا من كتاب الله » متعلقة بقوله «
وقوله » استحفظوا ، من الاستحفاظ بمعنى طلب الحفظ بعناية
إذ أن السنين والتأ للطلب ، والضمير فى « استحفظوا » يعود على
والربانين والأحبار .

(١) ته-بر الفخر الرازى ج ٦ ص ٣ - طبعة عبد الرحمن محمد -

(٢) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٣٩ (٣) تفسير القرطبى ج ٦ ص

والمعنى : إنا أنزلنا التوراة فيها هداية للناس إلى الحق ، وضياء لهم من ظلمات الباطل ، وهذه التوراة يحكم بها بين اليهود أنبيأؤهم الذين أسلموا وجوههم لله ، وأخلصوا له العبادة والطاعة ، ويحكم بها أيضاً بينهم الربانيون والأحبار الذين هم خلفاء الأنبياء . وكان هذا الحكم منهم بالتوراة بين اليهود ، بسبب أنه - تعالى - حملهم أمانة حفظ كتابه ، وتنفيذ أحكامه وشرائعه وتعاليمه .

ويصح أن يكون قوله : بما است حفظوا ، متعلقاً بالربانيين والأحبار ، وأن يكون الضمير عائداً عليهم وحدهم . أى : على الربانيين والأحبار ، ويكون الاستحفاظ بمعنى أن الأنبياء قد طلبوا منهم حفظ وتطبيق أحكامه .

والمعنى : كذلك الربانيون والأحبار كانوا يحكمون بالتوراة بين اليهود ، بسبب أمر أنبيائهم إياهم بأن يحفظوا كتاب الله من التغيير والتبديل .

وقوله : ، وكانوا عليه شهداء ، معطوف على : است حفظوا ، .
أى : وكان الأنبياء والربانيون والأحبار شهداء على الكتاب الذى أنزله الله - وهو التوراة - بأنه حق ، وكانوا رقباء على تنفيذ حذره ، وتطبيق أحكامه حتى لا يهمل شئ منها .

قال الفخر الرازى . قوله : ، بما است حفظوا من كتاب الله ، : حفظ كتاب الله على وجهين :

الأول : أن يحفظ فلا ينسى . الثانى : أن يحفظ فلا يضيع .
وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين . أحدهما : أن يحفظوه فى صدورهم وبدرسه بالسنتهم .

والثانى : ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه .
وقوله : ، وكانوا عليه شهداء ، أى : هؤلاء النبيون والربانيون والأحبار كانوا شهداء على أن كل ما فى التوراة حق وصدق ومن عند الله . فلا جرم كانوا يمتثلون أحكام التوراة ويحفظونها من التحريف والتغيير ،^(١) .

ثم أمر الله - تعالى - اليهود - ولا سيما علماءهم وفقهائهم - أن يجعلوا خشيتهم منه وحده ، وألا يبيعوا دينهم بدنياهم فقال - تعالى - : « فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآتي ثمناً قليلاً . . . » .

والخشية - كما يقول الراغب - خوف يشوبه تعظيم ، وأكثر ما يكون ذلك على علم بما يخشى منه ، ولذلك خص العلماء بها في قوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء . . . » (١) .

وكان الراغب - رحمه الله - يريد أن يفرق بين الخوف والخشية : فهو يرى أن الخشية خوف يشوبه تعظيم ومحبة للمخشى ، بخلاف الخوف فهو أعم من أن يكون من مرهوب معظم محبوب أو مرهوب مبغوض مذموم .
والفاء في قوله « فلا تخشوا . . . » الإفصاح عن كلام مقدر .

والمعنى : إذا كان الأمر كما ذكر من أن الله - تعالى - قد أنزل التوراة لتنفيذ أحكامها ، وتطبيق تعاليمها . . . فمن الواجب عليكم يا معشر اليهود أن تقتدوا بأنبيائكم وصالحاؤكم في ذلك ، وأن تستجيبوا للحق الذي جاء به رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وأن تجعلوا خشيتكم مني وحدي لا من أحد من الناس ، فأنا الذي بيدي نفع العباد وضررهم .

وقوله : « ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، معطوف على قوله « فلا تخشوا الناس واخشون » ، والاشتراء هنا المراد به الاستبدال .

والمراد بالآيات : ما اشتملت عليه التوراة من أحكام وتشريعات وبشارات بالنبي - صلى الله عليه وسلم - .

والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياسة والمساواة والجاه وما إلى ذلك من متع الحياة الدنيا .

أي : ولا تستبدلوا بأحكام آياتي التي اشتملت عليها التوراة أحكاماً أخرى :

(١) المفردات في غريب القرآن ص ١٤٩ للراغب الأصفهاني .

تغيرها وتخالفها ، لكي تأخذوا في مقابل هذا الاستبدال ثمناً قليلاً من حظوظ الدنيا وشهواتها كالمال والجاء وما يشبه ذلك .

وليس وصف الثمن بالقلّة من الأوصاف المخصصة للنفكرات ، بل هو من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل في مقابل استبدال الآيات ؛ لأنه لا يكون إلا قليلاً - وإن بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا - بالنسبة لطاعة الله ، والرجاء في رحمته ورضاه .

وهذا النهي الذي اشتملت عليه هاتان الجملتان الكريمتان : « فلا تخشوا » ، « ولا تشتروا » ، وإن كان موجهاً في الأصل إلى رؤساء اليهود وأخبارهم . . . إلا أنه يتناول الناس جميعاً في كل زمان ومكان ، لأنه نهى عن ردائل يجب أن يتعد عنها كل إنسان يتأني له الخطاب .

وإلى هذا المعنى أشار الألوسي بقوله : « فلا تخشوا الناس . . . خطاب لرؤساء اليهود وعلمائهم بطريق الالتفات - إذ انتقل من الحديث عن الأخبار السابقين منهم إلى خطاب هؤلاء المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - . ويتناول غير أولئك المخاطبين بطريق الدلالة ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان سوء عاقبة من يفعل فعل اليهود ، فيحكم بغير شريعة الله فقال - تعالى - « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، .

أي : كل من رغب عن الحكم بما أنزل الله - وقضى بغيره من الأحكام ، فأولئك هم الكافرون بما أنزله - سبحانه - ، لأنهم كتموا الحق الذي كان من الواجب عليهم إظهاره والعمل به .

والجملّة الكريمة - كما يقول الألوسي - تدبيل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير ، وتحذير من الإخلال به أشد تحذير .
هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية ما يأتي :

١ - سمو منزلة التوراة التي أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام ، فقد أضاف - سبحانه - إنزالها إليه ، فكان لهذه الإضافة من الدلالة على علو مقامها ، كما بين - سبحانه - شرفها الذاتي بذكر ما اشته عليه من هداية إلى الحق ، ومن نور يكشف للناس ما اشته عليهم من أدبهم ودينهم .

وهذا السمو إنما هو للتوراة التي لم تمتد إليها أيدي اليهود بالتحريف والتبديل ، والزيادة والنقصان .

أما تلك التوراة التي بين أيديهم الآن ، والتي دخلها من التحريف ما د في عارية عن الثقة في كثير مما اشتملت عليه من قصص وأحكام . .

٢ - قال الفخر الرازي : دلت الآية على أنه يحكم بالتوراة النب والربانيون والأخبار ، وهذا يقتضي كون الربانيين أعلى حالا من الأخبار فثبت أن يكون الربانيون كالمجتهدين ، والأخبار كآحاد العلماء .

ثم قال : وقد احتج جماعة بأن شرع من قبلنا لازم علينا - إلا إذا قام الد على صيرورته منسوخا - بهذه الآية ، وتقريره أنه - تعالى - قال في التوراة ونورا ، والمراد كونها هدى ونورا في أصول الشرع وفروعه ، ولو ما فيها منسوخا غير معتبر بالحكم بالكلية لما كان فيها هدى ونور ، ولا يمد أن يحمل الهدى والنور على ما يتعلق بأصول الدين فقط ، لأنه ذكر الهدى والنور ولو كان المراد منهما معا هو ما يتعلق بأصول الدين للزم التكرار ، وإ فإن هذه الآية إنما نزلت في مسألة الرجم فلا بد وأن تكون الأحكام النبر داخلة فيها ، لا نا - وإن اختلفنا في أن غير سبب نزول الآية هل يدخل أم لا - لكننا توافقنا على أن سبب نزول الآية يجب أن يكون دا فيها (١) .

٣ - استدلل العلماء بهذه الآية على أن الحاكم من الواجب عليه أن

أحكام الله دون أن يخشى أحدا سواه ، وأن عليه كذلك أن يبتعد عن كل المحرم بكل صوره وأشكاله ، والا يغير حكم الله في نظير أى عرض من أعراض الدنيا ، لأن الله - تعالى - يقول : « فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، » .

وقد أشار إلى هذا المعنى صاحب الكشف بقوله : قوله : « فلا تخشوا الناس واخشون ، نهى للحكام عن خشيتهم غير الله في حكومتهم ، وإدهانهم فيها - أى ومصانعتهم فيها - وإمهضاتها على خلاف ما أمروا به من العدل ، الخشية سلطان ظالم ، أو خيفة أذية أحد من الأقرباء والأصدقاء » وقوله : « ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، وهو الرشوة وابتغاء الجاه ورضا الناس ، كما حرف أحبار اليهود كتاب الله وغيروا أحكامه رغبة في الدنيا وظلما للرياسة فهلكوا ، (١) » .

٤ - قال بعض العلماء : في قوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، تغليظ في الحكم بخلاف المنصوص عليه ، حيث علق عليه الكفر هنا ، والظلم والفسق بعد . . . وكفر الحاكم لحكمه بغير ما أنزل الله مقيد بقيد الاستهانة به . والجحود له ، وهذا ما سار عليه كثير من العلماء وأثروه عن عكرمة وابن عباس .

وعن عطاء : هو كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق . - أى أن كفر المسلم وظلمه وفسقه ليس مثل كفر الكافر وظلمه وفسقه . فإن كفر المسلم قد يحمل على جحود النعمة - . . . ، (٢) » .

وقال فضيلة الشيخ حسين محمد مخلوف : قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، » : اختلاف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية والآيات بعدها . فقبل في اليهود خاصة . وقيل : في الكفار عامة . وقيل : الأولى في هذه

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٦٧٣

(٢) تفسير القاسمي ج ١ ص ٢٠٠٠

الامة . والثانية في اليهود . والثالثة في النصارى . والكفر إذا نسب إلى المؤمن حمل على التشديد والتغليظ ، لا على الكفر الذي ينقل عن الملة . والآية إذ وصف بالفسق والظلم أريد منهما العتو والتزدد في الكفر . وعن ابن عباس : من لم يحكم بما أنزل الله جاحداً به فهو كافر . ومن أقربه ولم يحكم به فهو فاسق (١) .

وقال الألوسي ما ملخصه : واحتجت الخوارج بهذه الآية على أن الله كافر غير مؤمن . ووجه استدلالهم بها أن كلمة « من » في قوله : « من لم يحكم » ، عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله ، فيدخل الفاسق الملة أيضاً لأنه غير حاكم وغير عامل بما أنزل الله .

وأجيب عن شبهتهم بأن الآية متروكة الظاهر : فإن الحكم وإن كان : لفعل القلب والجوارح لكن المراد به هنا عمل القلب وهو التصديق ، ولا في كمر من لم يصدق بما أنزل الله - تعالى . . . (٢) .

والذي يبدو لنا أن هذه الجملة الكريمة عامة في اليهود وفي غيرهم ، فكل حكم بغير ما أنزل الله ، مستهيناً بحكمه - تعالى - أو منكراً له ، يعد كافراً لأن فعله هذا جحود وإنكار واستهزاء بحكم الله ، ومن فعل ذلك كان كافراً أما الذي يحكم بغير حكم الله مع إقراره بحكم الله واعترافه به ، فإنه لا في عصيانه وفسقه إلى درجة الكفر .

ثم بين سبحانه - بعض ما اشتملت عليه التوراة من أحكام « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص » . . .

فآية الكريمة معطوفة على ما سبقها وهو قوله - تعالى - : « إنا أنزلناه » . . .

(١) تفسير « صفوة البيان » ص ١٩٤ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٦ ص ١١٥ .

وقوله: (كتبنا) بمعنى فرضنا وأوجبنا وقررنا. والمراد بالنفس: الذات
 أى: أنزلنا التوراة على موسى لتكون هداية ونوراً لبني إسرائيل،
 وفرضنا عليهم (أن النفس بالنفس) أى: مقتولة أو مأخوذة بها إذا قتلها
 بغير حق. وأن (العين) مفقودة (بالعين) وأن (الأنف) مجدوع (بالأنف)
 وأن (الأذن) مقطوعة (بالأذن) وأن (السن) مقلوعة (بالسن) وأن
 (الجروح قصاص) أى: ذات قصاص، بأن يقتص فيها إذا أمكن ذلك وإلا
 فلا لا يمكن القصاص فيه - ككسر عظم وجرح لحم لا يمكن الوقوف على
 نهايته - ففيه حكومة عدل.

وعبر - سبحانه - عما فرض عليهم من عقوبات في التوراة بقوله:
 (كتبنا) للإشارة إلى أن هذه العقوبات والملك الأحكام لا يمكن جحدها أو
 محوها، لأنها مكتوبة والكتابة تزيد الكلام توثيقاً وقوة.

قال الفرطبي ما ملخصه: قوله - تعالى - : (والعين بالعين والأنف
 بالأنف .. الخ) قرأ نافع وعاصم والأعمش وحزرة بالنصب في جميعها على
 العطف.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر بنصب الكل إلا
 الجروح؛ فإنه بالرفع على القطع عما قبله والاستئناف به - أى أن الجروح
 مبتدأ وقصاص خبره.

وقرأ الكسائي وأبو عبيد: (والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن
 بالأذن والسن بالسن، والجروح ..) بالرفع فيها كلها.

قال أبو عبيد: حدثنا حجاج عن هارون عن عباد بن كثير، عن عقيل
 عن الزهري، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم - قرأ (وكتبنا عليهم فيها
 أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف، والأذن بالأذن والسن
 بالسن والجروح قصاص ..).

والرفع من ثلاث جهات، بالإبتداء والخبر. وعلى المعنى على موضع (أن

(س) ، لأن المعنى قلنا لهم : النفس بالنفس ، والوجه الثالث - قاله الزجاج -
ون عطفاً على الماضى فى النفس . لأن الضمير فى النفس فى موضع رفع ،
فالتقدير أن النفس هى مأخوذة بالنفس ، فالأسماء مطابقة على (.) (١)

وقوله : (فمن تصدق به فهو كفارة له) ترغيب فى العفو والصفح .
والضمير فى (به) يعود إلى القصاص . والتعبير عنه بالتصدق للبالغته
الحث عليه ، فإنه أدعى إلى صفاء النفوس ، وإلى فتح باب التسامح
للناس .

وقوله : (فهو) يعود إلى التصديق المدلول عليه بالفعل (تصدق) والضمير
قوله (له) يعود إلى العاقبة المتصدق وهو المجنى عليه أو من يقوم مقامه .
والمعنى : (فمن تصدق) بما ثبت له من حق القصاص ، بأن عفاه الجاني
فإن هذا التصديق يكون كفارة لذنب هذا المتصدق ، حيث قدم العفو مع
لأنه من القصاص .

وقيل إن الضمير فى (له) يعود على الجاني فيكون المعنى : فمن تصدق بما
ت له من حق القصاص ، بأن عفا الجاني ، فإن هذا التصديق يكون كفارة
، أى لذنب الجاني . بأن لا يؤاخذ الله بعد ذلك العفو . وأما المتصدق
جره على الله .

وقد رجح ابن جرير عودة الضمير إلى عاقبة المتصدق وهو المجنى عليه أو
، دمه فقال : (وأولى القولين فى ذلك عندى بالصواب : قول من قال :
، به : فمن تصدق به فهو كفارة له أى المجروح) لأنه لأن تكون الهاء فى
له (له) عائدة على (من) أولى من أن تكون عائدة على من لم يجر له ذكر
بالمعنى دون التصريح ، إذ الصدقة هى المكفرة ذنب صاحبها دون المتصدق
به فى سائر الصدقات ...) (٢) .

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٩٢ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٢٦٢ بتصريف وتلخيص .

وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ، تذييل قصد به التحذير من مخالفة حكم الله .

أى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون لأنفسهم » ، حيث تركوا الحكم العدل واتجهوا إلى الحكم اجترار الظالم .

قال الرازى : وفيه سؤال ، هو أنه - تعالى - . قال أولاً : « فأولئك هم الكافرون » ، وثانياً « هم الظالمون » ، والكفر أعظم من الظلم ، فلماذا ذكر أعظم التهديدات أولاً وأى فائدة في ذكر الأخف بعده ؟

وجوابه : أن الكفر من حيث إنه إنكار انعمة المولى وجوده لها فهو كفر ، ومن حيث إنه يقتضى إبقاء النفس فى العقاب الدائم الشديد فهو ظلم على النفس . ففى الآية الأولى ذكر الله ما يتعلق بتقصيره فى حق الخالق - سبحانه - وفى هذه الآية ذكر ما يتعلق بالتقصير فى حق نفسه ، (١) .

هذا ، وما أخذ العلماء من هذه الآية ما يأنى :

١ - أن الآية السكرية - ككثير غيرها - تنعى على بنى إسرائيل إهمالهم لأحكام الله - تعالى - وتهافتهم على ما يتفق مع أهوائهم .

قال ابن كثير : هذه الآية بما وبخت به اليهود أيضاً وقرعت عنيه ، فإن عديم فى نص التوراة أن النفس بالنفس . وقد خالفوا حكم ذلك عمداً وعناداً ، فأقادروا النضرى من القرظى ، ولم يقيدوا القرظى من النضرى . وعدلوا إلى الدية ، كما خالفوا حكم التوراة فى رجم الزانى المحصن ، وعدلوا إلى ما أطلحوه عليه من الجلد والتحميم والإشهار . ولهذا قال هناك « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ، لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً . وقال هنا فى تنمة الآية « فأولئك هم الظالمون » ، لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر الذى أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه ، تخافوا وظلموا وتعدى بعضهم على بعض ...

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٢ ص ١٢ .

ثم قال : واستدل كثير من ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن قبلنا شرع لنا بهذه الآية . وذلك إذا حكى مقررا ولم ينسخ . والحكمة على وفقها في الجنايات عند جميع الأئمة . وقال الحسن البصري : هي عامة الناس عامة ... (١) .

٢ - استدلل جمهور الفقهاء بعموم هذه الآية على أن الرجل يقتل ويؤبد ذلك ما رواه النسائي وغيره أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتاب عمرو بن حزم : أن الرجل يقتل بالمرأة ... وفي رواية للإمام أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها ، بل تجب دينها ... (٢) .

قال الألوسي : واستدل بعموم ، أن النفس بالنفس ، من قال : يا بالكافر ، والحر بالعبد ، والرجل بالمرأة . ومن خالف استدلل بقوله . والحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، وبقوله - صلى وسلم - : لا يقتل مؤمن بكافر .

وأجاب بعض أصحابنا بأن النص تخصيص بالذكر فلا يدل ما عداه . والمراد بما روى الحربي ... وقد روى أنه - صلى الله عليه وسلم - قتل مسلما بذمي ... (٣) .

٣ - استدلل العلماء ببيان القصاص في الأضراف لقوله - تعالى - بالعين ، والآفة بالآفة إلخ ... ، إلا أنهم قالوا بوجوب إسقيفاء ما الجاني بدون تعد أو ظلم ، فتؤخذ العين اليمنى باليمين عند وجودها ، اليسرى باليسرى ...

وقالوا : إنما تؤخذ العين بالعين إذا قتاها الجاني متعمدا . فإن أفضفها نصف الدية : فإن أصاب العينين معاً خطأ ففيهما الدية كاملة .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦١ بتصرف يسير .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦١ بتصرف يسير .

(٣) تفسير الألوسي ج ٦ ص ١٤٨ .

ويرى بعضهم أن في عين الأعرور الدية كاملة ، لأن منفعته بها كمنفعة ذي
هينين أو قريبة منها ... (١)

وقد توسع الإمام القرطبي في بسط هذه المسائل فارجع إليه إن شئت (٢)
٤ - أخذ العلماء من هذه الآية أن الله - تعالى - رغب في العفو ، و - ض
عليه ، وأجزل المثوبة لمن يقوم به فقد قال - تعالى - : فمن تصدق به فهو
كفارة له ، . أى : فمن تصدق بما ثبت له من حق القصاص ، فتصدقه كفارة
لذنوبه

وقد وردت في الحض على العفو نصوص كثيرة ، ومن ذلك قوله
- تعالى - : فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، (٣) وقوله - تعالى - : والساكظمين
الغيبظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، (٤) .

وروى الإمام أحمد عن الشعبي أن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ما من رجل يجرح في جسده جراحة
فيصدق بها إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به (٥) .

وروى ابن جرير عن أبي السفر قال : دفع رجل من قريش رجلاً من
الأنصار ، فاندقت ثيابه . فرفعه الأنصارى إلى معاوية . فلما ألح عليه الرجل
قال معاوية : شأنك وصاحبك . قال : وأبو الدرداء عند معاوية . فقال
أبو الدرداء : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : ما من مسلم
يصاب بشيء من جسده ، فيريه إلا رفته الله به درجة وحط عنه به خطيئة .
فقال الأنصارى : أنت سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ فقال :
سمعته أذنأى ووعاه قلبى . فحلى سبيل القرشى . فقال معاوية : دمروا له بمال (٥)

(١) راجع تفسير القرطبي الألوسى ج ٦ ص ١٩١ - ٢٠٩

(٢) سورة الشورى الآية ٤٠

(٣) سورة آل عمران الآية ١٣٤

(٤) تفسير كثير ج ٢ ص ١٦٤

(٥) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٢٦٠

ومن هذه الآية وغيرها نرى أن الإسلام قد جمع فيما شرع من عقوبات بين العدل والرحمة ، فقد شرع القصاص زجرا للمعتدى ، وإشعارا له بأسوط العقاب مسلط عليه إذا ما تجاوز حده ، وجبرا لحاظر المعتدى عليه وتمكيننا له من أخذ حقه من اعتدى عليه .

ومع هذا التمكن التام للمعنى عليه من الجاني ، فقد رغب الإسلام المحم عليه في العفو عن الجاني حتى تشجيع المحبة والمودة بين أفراد الأمة ، ووعده على ذلك بتكفير خطاياهم ، وإرتفاع درجاته عند الله - تعالى - .

وبعد أن بين - سبحانه - منزلة التوراة ، وما اشتملت عليه من هدايات وتشريعات ، أتبع ذلك ببيان منزلة الإنجيل وما اشتمل عليه من مواعف وأحكام .. فقال - تعالى - :

« وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ، وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلَيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ، وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) » .

وقوله : « وَقَفَّيْنَا .. » معطوف على قوله قبل ذلك « أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ ... » وأصل القفو اتباع الأثر : يقال : قفاه بقفوه أى : اتبع أثره . والتقفية الاتباع يقال : قفيته بكذا أى أتبعته . وإنما سميت قافية الشعر قافية ؛ لأنهم تتبع الوزن . والقفا مؤخر الرقبة . ويقال : قفا أثره إذا سار وراءه واتبعه قال صاحب الكشف : قفيته مثل عقبته ، إذا أتبعته . ثم يقال قفيتها وعقبته به ، فتعديه إلى الثانى بزيادة الباء .

فإن قلت فإين المفعول الأول فى الآية ؟ قلت هو محذوف . والظرف الذى هو « على آثارهم » كالساد مسده ، لأن إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه .

والضمير في قوله : د على آثارهم ، يعود على النبيين في قوله : د يحكم بها النبيون الذين أسلموا ... (١) .

وقوله : د آثارهم ، جمع أثر وهو العلم الذي يظهر للحس . وآثار القوم : ما أبقوا من أعمالهم .

وقوله . د لما بين يديه ، أى : لما تقدمه ، لأن ما بين يدي الإنسان كأنه حاضر أمامه .

والمعنى وأتبعنا على آثار أولئك النبيين الذين أسلموا وجوهمهم لله ، وأخلصوا له العبادة ، والذين كانوا يحكمون بالتوراة - كموسى وهارون وداود وسليمان وغيرهم - أتبعنا على آثارهم بعيسى ابن مريم ناهجاً نهجهم في الخضوع والطاعة والإخلاص لله رب العالمين ، ومصدقاً للتوراة التي تقدمته ، ومنفذاً لأحكامها إلا ما جاء نسخه في الإنجيل منها .

وفي التعبير بقوله دوقفينا على آثارهم ، إشارة إلى أن عيسى - عليه السلام - لم يكن بدعة من الرسل ، وإنما هو واحد منهم ، جاء على آثار من سبقوه ، سالكاً مسلكهم في الدعوة إلى عبادة الله وحده وإلى التحلى بمكارم الأخلاق .

وقوله : د على آثارهم ، تأكيد لمداول فعل دقفينا ، وإيماء إلى سرعة التقفية وفي التعبير بقوله دبعيسى ابن مريم ، إيذان بأنه حدث كجميع المحدثات ، وأنه قد ولد من أمه كما يولد سائر البشر من أمهاتهم ، وأنه لا نسب له إلا من جهتها ، فليس له أب ، وليس أبنا لله - تعالى - ، وإنما هو عبد من عباد الله أو جده بقدرته ، وأرسله - سبحانه - لدعوة الناس إلى توحيده وعبادته .

وقوله : د صدقاً ، حال من عيسى - عليه السلام - :

قال بعض العلماء : د ولو سائر ما الواقع عند النصارى في هذه الأيام ، لكان

لذكر كلمة التصديق في هذا المقام معنى أعمق من مجرد التصديق بأصل النزول بل بالتنفيذ ، لأن الإنجيل ليس فيه أحكام عملية كثيرة ، فأحكام الأمر كلها مأخوذة عند النصارى من التوراة ، وليس ثمة نص قاطع في الأناجيل التي بين أيدينا يغير ما جاء في التوراة من أحكام تتعلق بالأسرة ، ولا بأحكام العقوبات من حدود ونصاوص .

ولقد رويت عبارات عندهم منسوبة للمسيح - عليه السلام - تدل على العمل بأحكام التوراة ، مثل قوله - عليه السلام - : « ما جئت لأنقض التاموس أى التوراة .

وكلمة « بين يديه » ، تعبير قرآنى ، للدلالة على أن التوراة كانت حاضرة قائمة وقت مجىء عيسى - عليه السلام - وعلما عنده ، وهو علم خال من التحريف والتبديل ، أوحى الله به إليه .

ولفظ « بين يديه » في دلالة على الأمر المهيأ القائم من الاستعارات الرائعة ومضمونها أن الأمر معلوم علما يقينا لعيسى ابن مريم - عليه السلام - كم المحسوس يكون موضوعا بين يديه (١) .

وقوله : « وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور » ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين ، معطوف على « قفينا » .

وقد وصف الله - تعالى - الإنجيل الذى أعطاه لعيسى بخمس صفات : أولها : أنه فيه « هدى » ، أى : فيه هداية للناس إلى الحق الذى متى اتبعوا سعدوا في دنياهم وآخرتهم .

وثانيها : أنه فيه « نور » ، أى : ضياء يكشف لهم ما التبس عليهم من أمور دينية ودنيوية .

(١) تفسير الآية السكرية لفظة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام العدد الثالث من السنة ٢١ .

وثالثها : كونه د مصدقا لما بين يديه من التوراة ، أى أن الإنجيل مؤيد ومقرر لما جاءت به التوراة من أحكام وآداب وشرائع أنزلها الله فيها .
ورابعها كونه : د هدى ، أى : هو بذاته هدى فضلا على اشتماله عليه .
 وخامسها كونه : د موعظة للمتقين ، أى : تذكير لهم بما يرق له القلب ، وتصفو به النفس ، وتنزجر به القلوب عن غشيان المحرمات .
وقوله د فيه هدى ، جملة مكرونة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر . وقوله د ونور ، معطوف على قوله د هدى . والجملة كلها فى موضع نصب على أنها حال من الإنجيل .

أى : أعطينا عيسى الإنجيل حالة كونه مشتملا على الهدى والنور .
وقوله : د ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، حال أيضا من الإنجيل .
ولا تكرار بين د مصدقا ، الأول وبين د مصدقا ، الثانية ، لأن الأولى لبيان حال عيسى وأنه جاء يدعو الناس إلى التصديق بالتوراة وإلى تنفيذ أحكامها ، والثانية لبيان حال الإنجيل وأنه جاء مقررا لما اشتملت عليه التوراة من أحكام أنزلها الله ، وأن من الواجب على بنى إسرائيل أن يسيروا على هدى هذه الأحكام إلا ما نسخه الإنجيل منها فعليهم أن يتبعوا أحكام الإنجيل فيها .
قال ابن كثير : وقوله : د ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، أى : متبها لها غير مخالف لما فيها إلا فى القليل . مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه . كما قال - تعالى - إخبارا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل : د ولا حل لكم بعض الذى حرم عليكم ولهذا كان المشهور من قول العلماء : أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة ، (١) .

وقوله : د وهدى وموعظة للمتقين ، معطوف على ما تقدم ومنتظم معه فى سلك الحالية .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٤ .

وقال أولا ، فيه هدى ، وقال ثانيا ، هدى ، لزيادة المبالغة في الذ
بشأن الإنجيل ، فهو مشتمل على ما يهدى الناس إلى الحق والخير ، وه
ذاته هدى ، لأنه منزل من عند الله ، ولأنه بشارة بنبي يرسل من بعد
اسمه أحمد .

قال الفخر الرازى : ، وأما كونه هدى ، مرة أخرى ، فلأن
الإنجيل على البشارة بمجىء محمد - صلى الله عليه وسلم - سبب لاهتداء
إلى نبوته . ولما كان أشد وجوه الاختلاف والمنازعة بين المسلمين
اليهود ، والنصارى في ذلك ، لاجرم أعاد الله - تعالى - مرة أخرى تنبيه
أن الإنجيل يدل دلالة ظاهرة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - . ف
هدى في هذه المسألة التي هي أشد المسائل احتياجا إلى البيان والتقرير .

وأما كونه موعظه : فلا اشتغال الإنجيل على النصائح والمواعظ والز
البليغة المتأكدة . وإنما خصها بالمتقين ، لأنهم هم الذين ينتفعون بها ، (١)
وقوله - تعالى - : ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . . ، أم
الله - تعالى - لا تباع سيدنا عيسى - عليه السلام - الذين وجدوا قبل بعثة
- صلى الله عليه وسلم - بأن يحكموا فيما بينهم بمقتضى أحكام الإنجيل
تحريف أو تبديل . أما الذين وجدوا بعد بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم
الواجب عليهم أن يصدقوه ويتبعوا شريعته ، لأن الشريعة التي جاء
- صلى الله عليه وسلم - نسخت ما قبلها من شرائع .

قال الألوسى ماملخصه ، قوله : ، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله
أمر مبتدأ لهم بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التي من جملتها
رسالته - صلى الله عليه وسلم - وما قررته شريعته الشريفة من أح
وأما الأحكام المنسوخة فليس الحكم بها حكما بما أنزل الله ، بل هو

وتعطيل له إذ هو شاهد بنسخها وإنتهاء وقت العمل بها ، لأن شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة الأحمدية شاهدة بنسخها . واختار كونه أمراً مبتدأ الجبائي .

وقيل هو حكاية للأمر الوارد عليهم بتقدير فعل معطوف على قوله « وآتيناه » .

أى : - وآتيناه عيسى ابن مريم الإنجيل فيه هدى ونور - وقلنا ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه . وحذف القول - لدلالة ما قبله عليه - كثير في الكلام . ومنه - تعالى - : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم » .

واختار ذلك على ابن عيسى .

وقرأ حمزة « وليحكم » - بكسر اللام وفتح الميم - بأن مضمرة - بعد لام كي - والمصدر معطوف على « هدى وموعظة » على تقدير كونهما معللين .. أى : وآتيناه ليحكم (١) .

وقوله : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، تذييل مقرر ومؤكد لوجوب الامتثال لأحكام الله - تعالى - .

أى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله » ، فأولئك هم المتمردون الخارجون عن جادة الحق ، وعن السنن القويم ، والصراط المستقيم .

قال أبو حيان : قوله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، ناسب هنا ذكر الفسق ، لأنه خرج عن أمر الله - تعالى - . إذ تقدم قوله : « وليحكم » ، وهو أمر كما قال - تعالى - للملائكة « اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » .

أى : خرج عن طاعته (٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ٦ ص ١٥٠ .

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٣ ص ٥٠ .

وقال صاحب المنار مالمخصه: وأنت إذا تأملت الآيات السابقة ظهر لك كثرة التعبير بالكفر في الأولى، وبوصف الظلم في الثانية، وبوصف الفسوق الثالثة ...

ففي الآية الأولى كان الكلام في التشريع، وإنزال الكتاب مشتملاً على مدى والنور، والنزاهة الأنبياء وحكام العلماء بالعمل والحكم به... فكان المناسب أن يختم الكلام ببيان أن كل معرض عن الحكم به لعدم الإذعان له، ترا لغيره عليه... يكون كافراً به... وأما الآية الثانية فلم يكن الكلام في أصل الكتاب الذي هو ركن الإيمان، بل في عقاب المعتدين على الأنفس الأعضاء... فن لم يحكم بحكم الله في ذلك يكون ظالماً في حكمه.

وأما الآية الثالثة فهي في بيان هداية الإنجيل وأكثرها مواعظ وآداب رغيب في إقامة الشريعة على الوجه الذي يطابق مراد الشارع وحكمته... لم يحكم بهذه الهداية ممن خوطبوا فهم الفاسقون بالمعصية، والخروج محيط تأديب الشريعة (١).

وبعد أن نحدث - سبحانه - عن التوراة والإنجيل وأثنى عليهما، وأمر باع تعاليمهما... عقب ذلك بالحديث عن القرآن الكريم الذي أنزله على بوله - صلى الله عليه وسلم - فقال - تعالى - :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ نُهُيْمِنَا عَلَيْهِ، فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ، لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ يَجْعَلْكُمْ جُمُوعًا فَيُنْزِلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ

اللهُ إِلَيْكَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) .

قوله : ، وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه . . . ، معطوف على قوله قبل ذلك : إنا أنزلنا التوراة . . .

والمراد بالكتاب الأول : القرآن الكريم ، وأل فيه للعهد . والمراد بالكتاب الثاني : جنس الكتب السماوية المتقدمة فيشمل التوراة والإنجيل وأل فيه للجنس وقوله : ومهيئنا عليه ، أى : رقيباً على ما سبقه من الكتب السماوية المحفوظة من التغيير ، وأميناً وحاكماً عليها ؛ لأنه هو الذى يشهد لها بالصحة ويقرر أصول شرائعها .

قال ابن جرير : وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب . يقال : إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده : قد هيمن فلان عليه . فهو يهيمن هيمنة ، وهو عليه مهيمن ، (١) .

وقال صاحب الكشف : وقرئ : ومهيئنا عليه ، - بفتح الميم - أى هو من عليه بأن حفظ من التغيير والتبديل كما قال - تعالى - : لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه

والذى هيمن عليه هو الله - عز وجل . أى الحفاظ فى كل بلد ، لو حرف حرف منه أو حركة أو سكون لتنبه له كل أحد ، ولا اشمأزوا ، رادين ومنكرين (٢) .

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٢٦٦ .

(٢) تفسير الكشف ج ٦ ص ٦٤٠ .

والمعنى : لقد أنزلنا التوراة على موسى ، والإنجيل على عيسى ، وأنزلنا إليك يا محمد الكتاب الجامع لكل ما اشتملت عليه الكتب السماوية من هدايات وقد أنزلناه ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل ، وجعلنا مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، أى : مؤيدا لما فى تلك الكتب التى تقدمت من دعوة إلى عبادة الله وحده ، وإلى التمسك بمكارم الأخلاق ... وجعلنا كذلك مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، أى : آمينا ورقيبا وحاكما عليها .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أشار إلى سمو مكانة القرآن من بين الكتب السماوية بإشارات من أهمها :

أنه - سبحانه - لم يقل : وقفينا على آثارهم - أى على آثار الأنبياء السابقين - بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وآتيناه القرآن ... كما قال فى شأن عيسى ابن مريم : وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل الخ ،

لم يقل ذلك فى شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى شأن القرآن الكريم ، وإنما قال : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ... » ، الإشارة إلى معز استقلاله وعدم تبعيته لغيره من الكتب التى سبقته ، والإيذان بأن الشريعة التى هذا كتابها هى الشريعة الباقية الخالدة التى لا تقبل النسخ أو التغيير ...

وأنه - سبحانه - لم يزد فى تعريف الكتاب الذى أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - على تعريفه بلام العهد فقال : « وأنزلنا إليك الكتاب للإشارة إلى كماله وتفوقه على سائر الكتب .

أى : أنه الكتاب الذى هو جدير بهذا الإسم ، بحيث إذا أطلق اسم الكتاب لا ينصرف إلا إليه ، لأنه الفرد الكامل من بين الكتب هذا الوجود .

وأنه - سبحانه - قد وصفه بأنه قد أنزله ملتبسا بالحق والصدق ، ومؤيد ومقرر لما اشتملت عليه الكتب السماوية من الدعوة إلى الحق والخير

وأنه - فضلا عن كل ذلك - أمين على تلك الكتب ، وحاكم عليها ، فما أيده من أحكامها وأقوالها فهو حق ، وما لم يؤيده منها فهو باطل .

قال ابن كثير : جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر للكتب وخاتمها ، جعله أشملها وأعظمها وأكملها ، لأنه - سبحانه - جمع فيه محاسن ما قبله من الكتب ، وزاد فيه من الكمالات ما ليس في غيره ، فلم هذا جعله شاهداً وأمينا وحاكما عليها كلها ، وتكفلا - سبحانه - بحفظه بنفسه فقال : **«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»** (١) .

وقوله : **«فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق»** أمر من الله - تعالى - لنبينا - صلى الله عليه وسلم - بأن يلتزم في حكمه بين الناس الأحكام التي أنزلها - سبحانه - .

والفاء في قوله : **«فاحكم»** ، الإفصاح عن شرط مقدر .

أى : إذا كان شأن القرآن كما ذكرت لك يا محمد ، فاحكم بين هؤلاء اليهود وبين غيرهم من الناس بما أنزل الله من أحكام ، فإن ما أنزل الله هو الحق الذي لا باطل معه ، ولا تتبع في حكمك أهواء هؤلاء اليهود وأشباههم ، لأن اتباعك لأهوائهم يهلك منحرفا ومائلا عما جاءك من الحق الذي لا مزية فيه ولا ريب . ولم يقل - سبحانه - **«فاحكم بينهم»** ، بل ترك الضمير وعبر بالموصول فقال : **«فاحكم بينهم بما أنزل الله»** ، للتنبيه على أهمية ما في حيز الصلة للحكم ، لأن الموصول إذا كان في غنم حكم تكون الصلة هي علة الحكم .

أى : التزم في حكمك بينهم بما يؤيده القرآن لأنه الكتاب الذي أنزله الله عليك .

قال بعض العلماء : **«وهذا يفيد أن اليهود الذين عاصروا النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن جاءوا بعدهم مخاطبون بشريعة القرآن ، وأنه نسخ**

مأقبلة من الشرائع ، إل ما جاء النص بوجوب العمل به كالتقصاض ، أو ما
يثبت أنه نسخ والمعول عليه في الحاليين هو القرآن وما جاء به الرسول
- صلى الله عليه وسلم - . ولقد روى أنه - عليه السلام - ذكر أن موسى
لو كان حيا مارسه إلا الإيمان به - عليه السلام - (١) .

والضمير في قوله ، « أهواءهم » يعود إلى أولئك اليهود الذين كانوا
يتحاكمون إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يقصد الوصول إلى الحق ، وإنما يقصد
الوصول إلى ما يسهل عليهم احتماله من أحكام .

قال الآلوسی : والنهي يجوز أن يكون لمن لا يتصور منه وقوع المنه
عنه ، ولا يقال : كيف نهى - صلى الله عليه وسلم - عن اتباع أهوائهم
وهو - عليه الصلاة والسلام - معصوم عن ارتكاب ما دون ذلك . وفيه
الخطاب له - صلى الله عليه وسلم - والمراد سائر الأحكام (٢) .

وقوله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » استئناف جيء به لـ
أهل الكتاب على الاتقياد لحكمه - صلى الله عليه وسلم - بما أنزل الله إيا
من الحق .

والشرعة والشرعية بمعنى واحد . وهي في الأصل الطريق الظاهر الموص
للماء . والمراد بها هنا ما اشتمل عليه الدين من أحكام تكليفية يجب العمل
أمرأ ونهيا وفدبا وإباحة . وسمى ما اشتمل عليه الدين من أحكام شرعية
تشبيها بشرعية الماء . من حيث إن كلا سبب الحياة ، إذ أن الشرعة الدينية
سبب في حياة الأرواح حياة معنوية . كما أن الماء سبب في حياة الأروا
حياة مادية .

والمنهاج : الطريق الواضح في الدين ، من نهج الأمر بنهج إذا وضح
والعطف باعتبار جمع الأوصاف .

(١) تفسير الآية الكريمة لأفضية الشيخ الإسناد محمد أبو زهرة . مجلة لواء الإس

العدد الرابع لسنة ٢١

(٢) تفسير الآلوسی ج ٦ ص ١٥٢

قال بعضهم . هما كلمتان بمعنى واحد والتكرير للتأكيد .

وقيل : ليسنا بمعنى واحد . فالشرعة ابتداء الطريق . والمنهاج الطريق للمستقيم .

وقوله : « منكم » متعلق بمحذوف وقع صفة لما عوَض عنه تنوين كل .

أى : لكل أمة من الأمم الحاضرة والماضية وضعنا شرعة ومنهاجا خاصين بها . فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى - عليهما السلام - ، كانت شرعتها ما فى التوراة من أحكام . والأمة التى كانت من مبعث عيسى إلى مبعث محمد - عليهما الصلاة والسلام كانت شرعتها ما فى الإنجيل . وأما هذه الأمة الإسلامية فشريعتهما ما فى القرآن من أحكام ، لأنه مشتمل على ما جاء فى الكتب السابقة عليه من أصول الدين وكتلياته التى لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وزاد عليها ما يناسب العصر الذى نزل فيه ، والعصور التى تلت ذلك إلى يوم القيامة .

وأهل الكتاب إنما أمروا بأن يتحاكموا إلى كتبهم قبل نسخها بالقرآن الكريم ، أما بعد نزوله وبجى النبى - صلى الله عليه وسلم - خاتما للرسالات السماوية ، فقد أصبح من الواجب عليهم الدخول فى الإسلام ، وأتباع رسوله محمد - عليه الصلاة والسلام - فى كل ما أمر به أو نهى عنه ، وليس لأحد بعد بعثته - صلى الله عليه وسلم - إيمان مقبول إلا باتباعه وتصديقه فى جميع أقواله وأعماله .

والاختلاف فى الشرائع إنما يكون فيما يتعلق ببعض الأوامر والنواهي ، وببعض وجوه الحلال والحرام ، وبغير ذلك من فروع الشريعة . فقد يحرم الله شيئا على قوم عقوبة لهم ، ويجله لقوم آخرين تخفيفا عنهم ، كما قال - تعالى - : وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم

مننا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم
ك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ... (١).

وكما قال - تعالى - حكاية عن عيسى - عليه السلام - : « ولا حل
لهم بعض الذي حرم عليكم » (٢).

أما ما يتعلق بأصول الشريعة ، وجوهر الدين ، وأساس العقيدة كالامر
بدين الله وحده ، والتحلي بمكارم الأخلاق ، فلا يتعلق به اختلاف في أى
بيعة من الشرائع ، أو أى دين من الأديان .

وقد تكلم عن هذا المعنى الإمام ابن كثير فقال : قوله : « لكل جعلنا منكم
دعة ومنهاجاً » .. هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان باعتبار ما بعث الله به
له الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام ، المتفقة فى التوحيد . كما ثبت
صحیح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
« معاشر الأنبياء إخوة لعلات - أمهاتهم شتى - ودينهم واحد » . يعنى بذلك
وحيد الذى بعث الله به كل رسول أرسله ، وضمنه كل كتاب أنزله ، كما قال
بالبى - : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا
مدون » . وأما الشرائع المختلفة فى الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشئ فى هذه
بيعة حراماً ثم يحل فى الشريعة الأخرى . كما قال - تعالى - فى شأن شريعة
ي : « ولا حل لكم بعض الذى حرم عليكم » . وبالعكس ، قد يكون
« حلالاً فى هذه الشريعة ثم يحرم فى شريعة أخرى ، فيزاد فى الشدة
بذه دون هذه ، وذلك لما له - تعالى - فى ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة
مغة » (٣).

وقال الألومى مالمخصه : وقوله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » .
لماب فيه - كما قال جماعة من المفسرين - للناس كافة الموجودين والماضين

(١) - سورة الأنعام . ص ١٤٦

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٠ (٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٧

بطريق التغليب .. وإستدل بالآية من ذهب إلى أنا غير متعبدين بشرائع من قبلنا ، لأن الخطاب يعم الأمم ، واللام للاختصاص فيكون لكل أمة دين يخصها

والتحقيق في هذا المقام أننا متعبدون بأحكام الشرائع الباقية من حيث إنها أحكام شريعتنا لا من حيث إنها شريعة الأولين ، (١).

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته ، وبالعكس حكمته فقال :
« ولو شاء الله ل جعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيها آتاكم ... »

ومفعول المشيئة هنا محذوف لدلالة الجزاء عليه .

وقوله : « ولكن ليبلوكم .. » متعلق بمحذوف يستدعيه المقام .

والابتلاء : الاختبار والامتحان ليميز المطيع من العاصي .

والمعنى : لو شاء الله - تعالى - أن يجعل الأمم جميعاً أمة واحدة تدين بدين واحد وبشريعة واحدة ، لفعل ، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء .
ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، وإنما شاء أن يجعلكم أمماً متعددة ليختبركم فيها آتاكم من شرائع مختلفة في بعض فروعها ولكنها متحدة في جوهرها وأصولها فيجازي من أطاعه بما يستحقه من ثواب ، ويجازي من خالف أمره بما يستحقه من عذاب .

وقوله : « فاستبقوا الخيرات ، حض منه - سبحانه - لعباده على الاجتهاد في فعل الطاعات .

أي : إذا كان الأمر كما وصفت لكم . فسارعوا إلى القيام بالأعمال الصالحة التي تسعدكم في الدنيا والآخرة ، وتنافسوا في تحصيلها بكل عزيمة ونشاط لتقالوا رضا الله - تعالى - وجزيل مشوبته .

وقوله : « فاستبقوا » بمعنى فتسابقوا . ولتضمنه معنى السبق والابتدار

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٦٧

تعدى بنفسه من غير إلى كما في قوله - تعالى - « واستبقا الباب ، أى : حاول كل واحد منهما الابتدار والوصول إلى الباب قبل الآخر .

وقوله « إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » ، إستئناف مسوق مساق التعليل لاستباق الخيرات .

وقوله « فينبئكم » ، أى فيخبركم والمراد بالأنباء والإخبار هنا المجازاة على الأعمال ، وإنما عبر عنها بالأنباء لوقوعها موقع إزالة الاختلاف التى هى وظيفة الأنبياء .

أى : إلى الله وحده مصيركم ومرجعكم ، فيخبركم عند الحساب بما كنتم تختلفون فيه فى الدنيا ، ويجازيكم بما تستحقون : فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم منه - سبحانه - جزيل الثواب . وأما الذين طغوا وآثروا الحياة الدنيا فلهم منه شديد العقاب .

ثم كرر - سبحانه - الأمر لنبىه محمد - صلى الله عليه وسلم - بأن يحكم بين اليهود وغيرهم بما أنزله الله - تعالى - وحذره من مكرهم وكيدهم فقال : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ... »

أخرج ابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه . فأتوه فقالوا : يا محمد ، إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم ، وإما إن أتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفونا . وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدق فأبى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك . فأنزل الله فيهم : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ... » إلى قوله : « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (١) » .

وقوله : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله » ، في محل نصب عطفاً على الكتاب في قوله : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » ، . . .

وقوله : « أن يفتنوك » بدل إشتغال من المفعول في « وأحذرهم » ، كأنه قيل : « وأحذرهم فتنتهم كما تقول : أعجبني زيد علمه » .

والمراد بالفتنة هنا محاولة إضلاله وصرفه عن الحكم بما أنزل الله .

والمعنى : « وأنزلنا إليك الكتاب يا محمد فيه حكم الله » ، وأنزلنا إليك فيه أن أحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواء هؤلاء اليهود الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعباً ، وأحذرهم أن يضلوكم أو يصدوك عن بعض ما أنزلناه إليك ولو كان أقل قليل ؛ بأن يصوروا لك الباطل في صورة الحق ، أو بأن يحاولوا حملك على الحكم الذي يناسب شهواتهم :

وقد كرر - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وجوب التزامه في أحكامه بما أنزل الله ، لتأكيد هذا الأمر في مقام يستدعي التأكيد ، لأن اليهود كانوا لا يكفون عن محاولتهم فتنة - صلى الله عليه وسلم - وإغرائه بالميل إلى الأحكام التي تتفق مع أهوائهم ، ولأنه قد جاء في الآية السابقة ما قد يوم بأن لكل قوم شريعة خاصة بهم ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، وأن حكم القرآن ليس له صفة العموم فأراد - سبحانه - أن يبنى هذا اليوم نفيها واضحا وأن يؤكد أن شريعة القرآن هي الشريعة العامة الخالدة التي يجب أن يتحاكم إليها الناس في كل زمان ومكان ، لأنها فسخت ما سبقها من شرائع .

وقوله - تعالى - « وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » ، فيشير لأولئك اليهود الذين حاولوا إغراء الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يقضى لهم بما يرضيهم لكي يتبعوه ، ونهى له - صلى الله عليه وسلم - ولا يتبعه عن الاستجابة لأهواء هؤلاء اليهود ولو في أقل القليل عما يتنافى مع الحق الذي أمره الله - تعالى - بالسير عليه وإفضاء بين الناس .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة كل من يعرض عن حكم الله - تعالى -
ل : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم » .

أى : فإن تولوا عن حكمك ، وأعرضوا عنك بعد تحاكمهم إليك وأرادوا
كم بغير ما أنزل الله ... فاعلم أن حكمة الله قد إقتضت أن يعاقبهم بسبب
ن هذه الذنوب متى إقتروها بتوليهم عن حكم الله ، وإعراضهم عنك ،
صرافهم عن الهدى والرشاد إلى الفى والضلال ، لأن الأمة التى لا تخضع
لكام شرع الله ، وتسير وراء لذائذها ومتعها وشهواتها وأهوائها الباطلة ،
أن يصيبها العقاب الشديد بسبب ذلك .

وعبر - سبحانه - عما يصيبهم من عقاب بأنه بسبب إرتكابهم لبعض
وب ، للإشارة بأن لهم ذنوبا كثيرة بعضها كاف لإزالة العقوبة
- يده بهم .

قال صاحب الكشف : قوله « فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض
بهم » موضع ذلك ، وأراد أن لهم ذنوبا جمة كثيرة العدد . وأن هذا الذنب
مع عظمه - بعضها واحد منها . وهذا الإبهام لتعظيم التولى واستمرارهم
رتكابه . ونحوه لبعض ، فى هذا الكلام ما فى قول البيهقي : « أو يرتبط
ن النفوس حامها ، أراد نفسه ، وإنما قصد تعظيم شأنهم بهذا الإبهام كأنه
: نفسا كبيرة أى نفس . فكما أن التنكير يعطى معنى التنكير وهو معنى
نية ؛ فكذلك إذا صرح ببعض ، (١) .

وقوله : « وإن كثيرا من الناس لفاسقون » ، إعتراض تذييلي مقرر
يون ما قبله ، ومتضمن تسليية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما لقيه من
ببه ولا سيما اليهود .

أى : وإن كثيرا من الناس لخارجون عن طاعتنا ، ومتمردون على أحكامنا ، ومتبعون لخطوات الشيطان الذى استحوذ عليهم ، وإذا كان الامر كذلك فلا تبتئس يا محمد عما لقيته من أصحاب النفوس المريضة ، بل اصبر حتى يحكم الله بينك وبينهم .

تم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة بتوبيخ أولئك الذين يرغبون عن حكم الله إلى حكم غيره فقال : « أفحكم الجاهلية يبغون ، ... »

فالمهمة هنا للاستفهام الإنكارى التوبيخى . والفاء للعطف على مقدر يستدعيه المقام .

والمعنى : أينصرفون عن حكمك بما أنزل الله ويعرضون عنه فيبغون حكم الجاهلية مع أن ما أنزله الله إليك من قرآن فيه الأحكام العادلة التى ترضى كل ذى عقل سليم ، ومنطق قويم .

وقدم - سبحانه - المفعول - أفحكم - لإفادة التخصيص المفيد لتأكيد الإنكار والتعجب من أحوال أولئك اليهود الذين يريدون حكم الجاهلية .

إذ أن التولى عن حكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى حكم آخر منكر عجيب ، وطلب حكم الجاهلية أقبح وأعجب .

والمراد بالجاهلية : الملة الجاهلية التى هى إمتابعة الهوى ، والمداها فى الأحكام ، فيكون ذلك توبيخا لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب ؛ يبغون حكم الملة الجاهلية . وعدم الأخذ بشريعة المساواة . فيكون ذلك - أيضا - تعييرا لهم لاقتدائهم بأهل الجاهلية .

قال الألوسى : فقد روى أن بنى النضير لما اتحاكوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى خصومة قتيل وقعت بينهم وبين بنى قريظة ، طلب

منهم من رسول الله أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل ،
قال - صلى الله عليه وسلم - : « ائمتلى بوا - د - لى : متساوون - فقال
والتنصير : نحن لا نرضى بحكمك ، فنزلت هذه الآية ، (١) .

وقوله - تعالى - « ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ، إنكار
به - سبحانه - لأن يكون هناك حكم أحسن من حكمه أو مساو له .

أى : لا أحد أحسن حكما من حكم الله - تعالى - عند قوم يوقنون
سحة دينه ، وينصرون لتكاليف شريعته ، ويقرون بوحدايته ، ويتبعون
بيامه ورسله .

فاللام فى قوله : « لقوم » ، بمعنى عند ، وهى متعلقة بأحسن ، ومفعول
يوقنون ، محذوف أى لقوم يوقنون بحكمه وأنه أعدل الأحكام . والجملة
بألة متضمنة لمعنى الإنكار السابق .

وخص - سبحانه - الموقنين بالذكر ، لأنهم هم الذين يحسنون التدبر
بأشرعه الله من أحكام ، وينتفعون بما اشتملت عليه من عدل ومساواة .

هذا ، وقد شدد الإمام ابن كثير - رحمه الله - على الذين يرغبون عن حكم
إلى أحكام من عند البشر ، ووصف من يفعل ذلك بالكفر ، وأقضى
جوب مقاتلته حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله فقال - رحمه الله - :

« ينكر - تعالى - على من خرج عن حكم الله - المشتغل على كل
ير لانهى عن كل شر - وعدل عنه إلى ما سواه من الآراء والأهواء
الاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل
لجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات .

مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية
الماخوذة عن ملوكهم ، جنكزخان ، الذي وضع لهم « الياسق » ، وهو عبارة
عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ... فصارت في بنيه
شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم -
فن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ،
فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير .

قال - تعالى - : أحكم الجادلة يبيغون ومن أحسن من الله حكما لقوم
يوقنون ، أى : ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به
وأيقن . وعلم أنه - سبحانه - أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقهم من الوئلة
بولدها ؟ فإنه - تعالى - هو العالم بكل شيء ، والقادر على كل شيء ، والعدل
في كل شيء .

روى الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أبغض الناس إلى الله - تعالى - من يبتغي في الإسلام سنة الجاهلين ومن طلب
دم امرئ بغير حق ليريق دمه (١) .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد كشفت ، باستفاضة ، عز المسالك
الحبيثة التي سلكها اليهود وأشباههم لكيد الإسلام والمسلمين .

فأنت تراها في مطلعها قد نادى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذا النداء
وأمرته بعدم الميالة بما يصدر عن أولئك الذين يسارعون في الكفر من
مكر وخداع ووصفهم بجملة من الصفات القبيحة التي تجعل كل عاقل ينفر من
الاقتراب منهم ، وخيرت الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين الحكم بينهم أو
الإعراض عنهم إذا ما نجاكوا إليه .

ووبخت اليهود على أعراضهم عن الأحكام العادلة التي أنزلها الله - تعالى -
ووصفت المعرضين عن حكمه سبحانه بالكفر تارة والفسق تارة أخرى .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٧ - بتصرف والتخصيص -

وبعد أن مدحت التوراة والإنجيل ، وبينت بعض ما اشتملا عليه من هدايات . . . عقيبت ذلك ببيان منزلة القرآن الكريم وأنه الكتاب الجامع في هدايته وفضله ونشريعاته لكل ما جاء في الكتب السابقة .

ثم ختمت بتسكير الأمر للنبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يلتزم في أحكامه بما أنزله الله ، وبتهذيبه وتحذير أتباعه من خداع أعدائهم ومكرهم ، وتوعد كل من يرغب عن حكم الله إلى حكم غيره ، بسوء العاقبة ، وشديد العذاب .

وبعد هذا الحديث المستفيض عن الكتب السماوية : وعن وجوب الحكم بما أنزل الله ، وعن المسالك الخبيثة التي استعملها اليهود ومن على شاكلتهم لكيد الدعوة الإسلامية . . . بعد كل ذلك وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين حذرهم فيه من موالاة أعدائهم فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ، يَقُولُونَ نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ، فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات الكريمة روايات منها :

مارواه السدي من أنها نزلت في رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد واقعة أحد : أما أنا فأني ذاهب إلى ذلك اليهودي فأواليه وأنهود معه أهله ينفعني إذا وقع أمر أو حدث حادث . وقال الآخر : وأما أنا فأني ذاهب إلى فلان النصراني بالشام فأواليه واتنصر معه . فأنزل الله تعالى الآيات .

وقال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر ، حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إلى بني قريظة فهاألوه : ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار يده إلى حلقه ، أي : إنه الذبح .

وقيل نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول فقد أخرج بن جرير عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال يا رسول الله إن لي موالى من يهود كثير عددهم . ولاني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود وأتولى الله ورسوله . فقال عبد الله بن أبي : لاني رجل أخاف : الدوائر . لا أبرأ من ولاية موالى . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعبد الله بن أبي : يا أبا الحباب ، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو إليك دونه قال : قد قبلت . فأنزل الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء . . . إلى قوله : ناديين ، (١) .

والخطاب في قوله عز وجل : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، للمؤمنين جميعا في كل زمان ومكان ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

والأولياء جمع ولي ويطلق بمعنى النصير والصديق والحبيب . . . والمراد بالولاية هنا : مصافاة أعداء الإسلام والاستنصار بهم ، والتحالف معهم دون المسلمين .

أي : يا أيها الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، لا يتخذ أحد منكم أحدا من اليهود والنصارى وآباء ونصيرا ، أي : لا قصافوم مصافاة الأحياب ، ولا تستنصروا بهم ، فإنهم جميعا يد واحدة عليكم ، يبنونكم الغوائل ، ويترصون بكم الدوائر ، فكيف يتوهم بينهم موالاة ؟
وقد نادى - سبحانه - المؤمنين بصفة الإيمان ، لحلمهم من أول الأمر

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٢٥٧ وتفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٨

الانزجار عما نهوا عنه ، إذ أن وصفهم بما هو ضد صفات الفريقين اليهود والنصارى - من أقوى الزواجر عن موالاتهما :
وقوله : « بعضهم أولياء بعض » جملة مستأنفة بمثابة التعليل للنهي ، وتأكيده
دوب اجتناب النهي عنه .

أى لا تتخذوا أيها المؤمنون اليهود والنصارى أولياء ، لأن بعض اليهود
يألف بعض منهم ، وبعض النصارى أولياء لبعض منهم ، والكل يضمرون
م البغضاء والشر ، وهم وإن اختلفوا فيما بينهم ، لكنهم متفقون على كراهية
سلام والمسلمين .

وقوله : « ومن يتولهم فإِنَّه منهم » تنفير من موالات اليهود والنصارى
النهي عن ذلك .

والولاية لليهود والنصارى إن كانت على سبيل الرضا بدينهم ، والطعن
دين الاسلام ، كانت كفرا وخروجاً عن دين الاسلام .

والى هذا المعنى أشار ابن جرير بقوله : قوله : « ومن يتولهم فإِنَّه
م » أى : « ومن يتولى اليهود والنصارى دون المؤمنين فإِنَّه منهم » فإنه لا يتولى
لأحد إلا وهو به وبدينه راض . وإذا رضى دينه ، فقد عادى من خالفه
خطه . وصار حكمه حكمه

وإذا كانت الولاية لهم ليست على سبيل الرضا بدينهم ، وإنما على سبيل
مافاة والمصادقة كانت معصية تختلف درجتها بحسب قوة الموالات وبحسب
تلاف أحوال المسلمين وتأثرهم بهذه الموالات .

قال الفخر الرازى : قوله : « ومن يتولهم فإِنَّه منهم » قال ابن عباس :
« كأنه مثلهم » وهذا تخليط من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف
الدين .

روى عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : قلت لعمر بن الخطاب - رضى
عنه - إن لى كاتبا نصرانيا ، فقال : مالك قاتلك الله ، ألا اتخذت حنيفيا

أما سمعت قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . قلت : له دينه ولى كتابته . فقال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله . ولا أدنيهم إذ أبعدهم الله قلت لا يتم أمر البصرة إلا به . فقال : مات النصراني والسلام .

يعنى : هب أنه مات فما تصنع بعد ، فما تعمله بعد موته فاعمله الآن واستغن عنه بغيره ، (١) .

وقوله : إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، تعليل لكون من يؤايهم منهم وتأكيد للنهى عن موالاتهم .

أى : إن الله لا يهدي القوم الظالمين لأنفسهم إلى الطريق المستقيم ، وإنما يخليهم وشأنهم فيقعون في الكفر والضلال ، والفسوق والعصيان ، بسبب وضعهم الولاية في غير مواضعها الحق ، وسيرهم في طريق أعداء الله .

وبعد هذا النهى الشديد عن موالات أعداء الله ، صور القرآن حالة من حالات المنافقين بين فيها كيفية توليهم لأعداء الله ، وأشعر بسببه فقال : فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ...

والدائرة : من الصفات الغالية التى لا يذكر معناها وصوفها . وأصلها دأورة . لأنها من دار يدور . ومعناها لغة : ما أحاط بالشئ . والمراد بها هنا : المصيبة من مصائب الدهر التى تحيط بالناس كما تحيط الدائرة بما فى داخلها :

والمعنى : فترى - يا محمد أولئك المنافقين الذين ضعف لإيمانهم ، وذهب بقيمتهم ، يسارعون فى مناصرة أعداء الاسلام بمسارعة الداخل فى الشئ ، قائلين فى أنفسهم أو للمناصحين لهم بالثبات على الحق : اتركونا وشأننا فإننا نخشى أن تنزل بنا مصيبة من المصائب التى يدور بها الزمان كأن نمسنا أزمة مالية ، أو ضائقه اقتصادية ، أو أن يكون النصر فى النهاية لمؤلاى الذين يؤايهم فنحن نصادقهم ونصافيتهم لتتقى شرهم ، ولتنال عونهم عند الملأ والضوائق :

قال الجمل : والفاء في قوله « فترى » إما للسببية المحضة : أى : بسبب أن الله لا يهدي القوم الظالمين المتصفين بما ذكر « ترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ... » ، وإما للمعطف على قوله : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » من حيث المعنى .

والرؤية في قوله « ترى ... بصريّة » فتكون جملة يسارعون حال . وقيل عليّة فتكون جملة يسارعون مفعولا ثانيا . والاول أنسب بظهور تفاهيم .

وقوله : يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة . حال من ضمير يسارعون (١) والتعبير بقوله : « في قلوبهم مرض » تعبير قوى رائع ، وصف القرآن به المنافقين وأشباههم في الكفر والضلال في مواطن كثيرة ، لأنه لما كانت قوة القلب تضرب مثلا للثبات والتماسك .. كان ضعف القلب الذي عبر عنه بالمرض يضرب مثلا للخور ، والتردد والتزلزل ، وإنهيار النفس ... وهذه طبيعة المنافقين ومن على شاكلتهم في كل زمان ومكان ، إنهم لا يمكن أن يكونوا صرحاء في انحيازهم إلى ناحية معينة ... وإنما هم يترددون بين الناحيتين ، ويلتمسون الحظوة في الجانبين - فهم كما يقال : يصلون خلف على وياكلون على مائدة معاوية - وأبلغ من كل ذلك وصف الله لهم بقوله : « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ... » ،

والتعبير بقوله - سبحانه - ترى .. تصوير للحال الواقعة منهم بأنها كالمريئة المكشوفة التي لا تخفى على العقلاء البصراء .

وفي ذلك تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحذير له ولأصحابه من مكر أولئك الذين في قلوبهم مرض .

والتعبير بقوله : « يسارعون فيهم » يشير إلى أنهم لا يدخلون ابتداء

في صفوف الأعداء ، وإنما هم منغمرون فيهم دائماً ، ولا يخرجون عن دائرتهم بل ينتقلون في صفوفهم بسرعة ونشاط من دركة إلى دركة ، ومن إثم إلى آثام وقوله - تعالى - حكاية عنهم : « يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، بيان لما اعتذروا به من معاذير كاذبة يدل على سقوط همهم ، وقلة ثقتهم بما وعد الله به المؤمنين من حسن العاقبة .

ولذا فقد رد الله عليهم بما يكتبهم ، وبما يزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم فقال تعالى : « فغشى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين » .

وعسى : لفظ يدل على الرجاء والطمع في الحصول على المأمول ، وإذا صدر من الله - تعالى - كان متحقق الوقوع لأنه صادر من أكرم الأكرمين الذي لا يخلف وعده ، ولا يخيب من رجاءه .

والفتح يطلق بمعنى التوسعة بعد الضيق كما في قوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء ... » ، ويطلق بمعنى الفصل بين الحق والباطل . ومن ذلك قوله - تعالى - : « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، » ويطلق بمعنى الظفر والنصر كما في قوله - تعالى - « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .

ولفظ الفتح هنا يشمل هذه الأمور الثلاثة فهو سعة بعد ضيق ، وفصل بين حق وباطل ، ونصر بعد جهاد طويل .

والمعنى : لاتهتموا أيها المؤمنون بمسارعة هؤلاء الذين في قلوبهم مرض إلى صفوف أعدائكم وارتماهم في أحضانهم خشية أن تصيبهم دائرة ، فلعل الله - عز وجل - بفضلله وصدق وعده أن يأتي بالخير العميم والنصر المؤزر الذي يظهر دينه ، ويجعل كلمته هي العليا .. أو يأتي بأمر من عنده لا أثر لكم فيه فيزلزل قلوب أعدائكم ، وينصركم عليهم ، لأعدائكم ، وشكهم في أن تكون العاقبة الإسلام والمسلمين ...

ولقد صدق الله وعده ، ففضح المنافقين وأذلهم ، وأنزل الهزيمة باليهود ، وأورث المؤمنين أرضهم وديارهم وأموالهم ...

وقد جاء التعبير في قوله - تعالى - : « فعسى الله أن يأتي بالفتح ... » بصيغة الرجاء ، لتعليم المؤمنين عدم اليأس من رحمة الله ، ومن مجى نصره ، وتعويدهم على أن يتوجهوا إليه - سبحانه - في مطالبهم بالرجاء الصادق ، والأمل الخالص .

قال الفخر الرازي : فإن قيل : شرط صحة التقسيم أن يكون ذلك بين قسمين متنافيين .

وقوله : « عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده » ليس كذلك ، لأن الإتيان بالفتح داخل في قوله : « أو أمر من عنده » .

قلنا : قوله : « أو أمر من عنده » معناه : أو أمر من عنده لا يكون للناس قبـه فعل البتة ، كبنى النصير الذين طرح الله في قلوبهم الرعب فأعطوا بأيديهم من غير محاربة ولا عسكر (١) .

والضمير في قوله : « فيصبحوا ... » يعود على أولئك المنافقين الذين في قلوبهم مرض والجملة معطوفة على « أن يأتي ... » داخل معه في خبر خبر عسى

وعبر - سبحانه - عن ندمهم بالوصف « نادمين » لا بالفعل ، للإيدان بأنه ندم دائم تصحبه الحسرات والآلام المستعمرة ، بسبب ما وقعوا فيه من ظن فاسد ، وأمل خائب ...

ثم حكى - سبحانه - ما قاله المؤمنون الصادقون على سبيل الإنكار لمسالك المنافقين الخبيثة « وتوبيخهم على ضعف إيمانهم ، وهو أن نفوسهم فقال - تعالى : « ويقول الذين آمنوا أهولاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم لنهم لكم ... »

قال الالوسي : قوله : ، ويقول الذين آمنوا ، كلام مستأنف لبيان كمال سوء حال الطائفة المذكورة : - وهي قراة / عاصم وحمزه والكسائي بإثبات الواو مع الرفع ،

وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر بغير واو على أنه استئناف بياني ، كأنه قيل : فإذا يقول المؤمنون حينئذ ؟

وقرأ أبو عمرو ويعقوب : ويقول بالنصب عطفا على ، فيصبحوا ، (١) .. وقوله : ، جهد أيمانهم ، أى : أقوى أيمانهم وأغلظها . والجهد : الوسع والطاقة والمشقة . يقال جهد نفسه يجهدا في الأمر إذا بلغ بها أقصى وسعها وطاقتها فيه . والمراد : أنهم أكدوا الإيمان ووثقوها بكل ألفاظ التأكيد والتوثيق .

والمعنى : ويقول الذين آمنوا بعضهم لبعض مستفكرين ما صدر عن المنافقين من خداع وكذب ، ومتعجبين من ذببتهم وإلتوائهم : يقولون مشيرين إلى المنافقين : أهؤلاء الذين أقسموا بالله مؤكدين لأيمانهم بأقوى المؤكدات وأوثقها ، بأن يكونوا مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعنا في ولايتهم ونصرتهم ومعوقتهم ... ؟

فلاستفهام للإنكار والتعجب من أحوال هؤلاء المنافقين الذين مردوا على الخداع والكذب .

وقد ذكر صاحب الكشف وجه آخر في معنى ويقول الذين آمنوا فقال : فإن قلت : لمن يقولون هذا القول ؟ قلت : إما أن يقوله بعضهم لبعض تعجبا من حالهم ، واعتباطا بما من الله عليهم من التوفيق في الإخلاص ، أهؤلاء الذين أقسموا ، لكم بأغلظ الإيمان أنهم أولياؤكم ومعا ضدوكم على الكفار : وإما أن يقولوه لليهود ، لأنهم - أى المنافقون - حلفوا لهم بالمعاذة والنصرة كما حكي الله عنهم ، ولئن قوتلتم لننصركم ، - ثم خذلوهم (٢) :

(١) تفسير الالوسي ج ٦ ص ١٥٩ .

(٢) تفسير الكشف ج ١ ص ٦٢٤ .

وعلى كلا الوجهين فالجملة الكريمة تنهى على المنافقين كذبهم وجبنهم ،
يجب الناس من طباعهم الذميمة ، وأخلاقهم المرذولة .

وقوله : « حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ، أى : فسدت أعمالهم
فلما فصاروا خاسرين فى الدنيا والآخرة .

ويحتمل أن تكون هذه الجملة بما حكاه الله - تعالى - من قول المؤمنين
تعمل أنها من كلام الله - تعالى - وقد ساقها على سبيل الحكم عليهم بفساد
لهم ، وسوء مصيرهم .

هذا ، وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على ضروب من تأكيد النهى
مؤالاة أعداء الله - تعالى - بأساليب متعددة .

منها : النهى الصريح كما فى قوله - تعالى - : « لا تأخذوا اليهود والنصارى
بأية ، ... »

ومنها : بيان علة النهى كما فى قوله : « بعضهم أولياء بعض ، . »

ومنها : التصريح بأن من يؤايلهم فهو منهم وذلك فى قوله : « ومن يتوالم
كم فإنه منهم ، . »

ومنها : تسجيل الظلم على من يؤايلهم كما فى قوله : « إن الله لا يهدي
م الظالمين ، . »

ومنها : الإخبار بأن مؤاليتهم من طبيعة الذين فى قلوبهم مرض قال
الى - : « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فىهم ، ... »

ومنها : قطع أطماع الموالين لهم وتبشير المؤمنين بالفوز قال - تعالى - :
« سى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، .. »

ومنها : الإخبار عن حال الموالين لهم بقوله : « حبطت أعمالهم
بجوا خاسرين ، . »

وهنا قد يرد سؤال وهو : إن الآيات الكريمة وما يشبهها من الآيات
آنية تؤكد النهى عن مؤالاة غير المسلمين ومودتهم فهل هذا النهى على إطلاقه ؟

والجواب عن ذلك أن غير المسلمين أقسام ثلاثة :

القسم الأول وهم الذين يعيشون مع المسلمين ويسالمونهم ، ولا يعملون لحساب غيرهم ؛ ولم يبدر منهم ما يفضي إلى سوء الظن بهم ... وهؤلاء لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، ولا مانع من مودتهم والإحسان إليهم كما في قوله - تعالى - : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، (١) .

والقسم الثاني : وهم الذين يقاتلون المسلمين ، ويسبئون إليهم بشئ الطرق وهؤلاء لا تصح مصافاتهم ، ولا تجوز موالاتهم ، وهم الذين عناهم الله في الآيات التي معنا وفيما يشبهها من آيات كما في قوله - تعالى - : إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، (٢) .

والقسم الثالث : قوم لا يعملون العداوة لنا . ولكن القرائن تدل على أنهم لا يحبوننا بل يحبون أعداءنا ، وهؤلاء يأمرنا ديننا بأن نأخذ حذرنا منهم دون أن نعتدى ...

ومهما تكن أحوال غير المسلمين ؛ فإنه لا يجوز لولى الأمر المسلم أن يوكل إليهم ما يتعلق بأسرار الدولة الإسلامية . أو أن يتخذهم بطانة له بحيث يظلمون على الأمور التي يؤدي إفشاؤها إلى خسارة الأمة في السلم أو الحرب . وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين من ولاية اليهود والنصارى ، عقب ذلك بنداء آخر وجهه إليهم ، وبين لهم فيه أن موالات أعداء الله قد تجر إلى الارتداد عن الدين ، وأنهم إن ارتدوا فسوف يأتي الله بقوم آخرين لن يكونوا مثلهم ، وأن من الواجب عليهم أن يجعلوا ولايتهم لله ورسوله وللمؤمنين ... فقال - تعالى - :

(٢) سورة المتحنة آية ٩

(١) سورة المتحنة آية ٨

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ
يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ، يَجَاهِدُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَاثِمَةً ، ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) . »

قوله - تعالى - « مَنْ يَرْتَدَّ ، من الارتداد . ومغناه : الرجوع إلى الخلف
ومنه قوله - تعالى - « رُدُّوْهَا عَلَيَّ ، أى : أرجعوها علي . وقوله : « إِنَّ
الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، .

والمراد بالارتداد هنا : الرجوع عن دين الاسلام إلى الكفر والضلال،
والخروج من الحق الذي جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى غيره
من الأباطيل والأكاذيب ...

قالوا : وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن من الذين دخلوا في الاسلام
من سرتد عنه إلى غيره من الكفر والضلال، وقد كان الأمر كما أشارت الآية
الكريمة ؛ فقد ارتد عن الاسلام بعض القبائل كقبيلة بنى حنيفة - قوم مسيلة
الكذاب - وقبيلة بنى أسد ، وقبيلة بنى مدلج ... وغيرهم .

وقد تصدى سيدنا أبو بكر ومن معه من المؤمنين الصادقين للمرتدين
فكسروا شوكة الردة ، وأعادوا الكلمة الاسلام هيبته وقوتها ...

قال الألوسي مالم يخصه : هذه الآية من الكائنات التي أخبر عنها القرآن
قبل وقوعها - وقد وقع المخبر به على وفقها فيكون معجزاً - فقد روى أنه
ارتد عن الاسلام إحدى عشرة فرقة .

ثلاث في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وهم : « بنو مدلج ، ورئيسهم
الأسود العنسي ... و « بنو حنيفة ، قوم مسيلة الكذاب ... و « بنو أسد ،
قوم طليحة بن خويلد الأسدي ... وسبع في عهد أبي بكر وهم : فزارة ،
وغطفان ، وبنو سليم ، وبنو يربوع ، وبعض بني نعيم ، وكنده ، وبنو بكر
ابن وائل

وارتدت فرقة واحدة في عهد عمر وهي قبيلة غسان قوم جيلة بن الأيهم،^(١)

والمعنى: يا أيها الذين آمنوا لا يتخذ أحدكم أعداء الله وأبائهم نصيراً
لأن ولايتهم تفضي إلى مضرتهكم وخسارتكم ... بل وإلى ردكم عن
الحق الذي أنتم به ، ومن يرتدد منكم عن دينه الحق إلى غيره من الأديان
الباطلة فلن يضرك الله شيئاً ، لأنه - سبحانه - سوف يأتي بقوم آخرين
مخلصين له ، ومطيعين لأوامره ، ومستجيبين لتعاليمه ... بدل أولئك الذين
ارتدوا على أديارهم ، وكفروا بعد إيمانهم . قال - تعالى - : « وإن تولوا
يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »،^(٢)

ولفظ « فسوف » جىء به هنا لتأكيد وقوع الأمر في المستقبل ، إذا
ما ارتد بعض الناس على أديارهم .

وقد وصف الله - تعالى - أولئك القوم الذين يأتي بهم بدل الذين كفروا بعد
إيمانهم ، وصفهم بعدد من الصفات الحميدة ، والسجايا المكرمة .
وصفهم - أولاً - بقوله : « يحبهم ويحبونه » :

وحبة الله - تعالى - للمؤمنين هي أسنى نعمة يتعشقونها ويتطلعون إليها ،
ويرجون حصولها ودوامها ... وهي - كما يقول الألوسي - حبة تليق بشأنه
على المعنى الذي أراده ...

(١) تفسير الألوسي ج ٦ ص ١٦٠

(٢) سورة محمد . الآية الأخيرة

ومن علامتها : أن يوقفهم - سبحانه - لطاعته ، وأن يبسر لهم الخير في كل شئوهم .

ومحبة المؤمنين لله - تعالى - معناها : التوجه إليه وحده بالعبادة ، واتباع نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - في كل ما جاء به ، والاستجابة لتعاليمه برغبة وشوق

وقوله : د يحبهم ، جملة في محل جر صفة لقوم . وقوله ، ويحبونه ، معطوف على د يحبهم . . .

وقدم - سبحانه - محبته لهم على محبتهم له ، لشرفها وسبقها ، إذ لو لا محبته لهم لما وصلوا إلى طاعته .

د وصفهم ثانياً - بقوله : أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، . وقوله : ، أذلة ، جمع ذليل ، من تذل إذا تواضع وحنأ على غيره ، ليس المراد بكونهم أذلة أنهم مهانون ، بل المراد المبالغة في وصفهم بالرفق لين الجانب للمؤمنين .

وقوله : ، أعزة ، جمع عزيز وهو المتصف بالعزة بمعنى القوة والامتناع بن أن يغلب أو يقهر ومنه قوله - تعالى - د وعزني في الخطاب ، أي : لمبني في الخطاب . . .

والمعنى : إن من صفات هؤلاء القوم الذين يأتي الله بهم بدل الذين كفرا مد لإيمانهم ، أنهم أرقاء على المؤمنين ، عاطفين عليهم متواضعين لهم ، تفيض وبهم حنوا وشفقة بهم . . . وأنهم في الوقت نفسه أشداء على الكافرين ، نظرون إليهم نظرة العزيز الغالب ، لا نظرة الضعيف الخانع .

وهذه - كما يقول ابن كثير - صفات المؤمنين الكامل . أن يكون أحدم نواضحا لأخيه ووليه ، متمزراً على خصمه وعدوه كما قال - تعالى - : د محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . . ومن صفات

الرسول صلى الله عليه وسلم - : « أنه الضحوك القتال ، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه » (١) .

وقال صاحب الكشف : فإن قلت : هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ؟ قلت : فيه وجهان : أحدهما : أن يضمن الذل معنى الخنو والعطف كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع . والثاني : أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين - خافضون لهم أجنتهم » (٢) .

وقال الطيبي : إن قوله - تعالى - « أعزة على الكافرين » ، جرى به التكميل ، لأنه لما وصفهم قبل ذلك بالتذلل ، ربما يتوهم أحد أنهم أذلاء محضون في أنفسهم فدفع ذلك الوهم بأنهم مع ذلتهم على المؤمنين أعزة على الكافرين على حد قول القائل :

جلوس في مجالسهم رزان وإن ضيف ألم بهم خفاف

ثم وصفهم - ثالثا - بقوله : « يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ، وقوله : « يجاهدون » ، من المجاهدة وهي بذل الجهد ونهاية الطاقة من أجل الوصول إلى المقصد الذي يسمى إليه الساعى .

وقوله : « في سبيل الله » ، أى في سبيل إعلاء دين الله ، وإعزاز كلمته وليس في سبيل الهوى أو الشيطان .

واللومة : هي المرة الواحدة من اللوم . وهو بمعنى اعتراض المعترضين ، ومخالفة المخالفين وعدم رضاهم عن هؤلاء القوم .

والمعنى : أن من صفات هؤلاء القوم - أيضا - أنهم يبذلون أقصى جهدهم في سبيل إعلاء كلمة الله والعمل على مرضاته ، وأنهم في جهادهم وجهرهم بكلمة الحق ، وحرصهم على ما يرضيه - سبحانه - لا يخافون لوما قط من أى لائم كائنا من كان . لأن خشيتهم ليست إلا من الله وحده .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) تفسير الكشف ج ٦١ ص ٦٤٨ .

وعبر - سبحانه - بلومة - بصيغة الإفراد والتذكير ، المبالغة في نفي الخوف عنهم سواء أصدر اللوم لهم من كبير أم من صغير . وسواء أكانت اللومة شديدة أم رفيقة

فهم - كما يقول الزمخشري - : صلاب في دينهم ، إذا شرعوا في أمر من أمور الدين لإنكار منكر أو أمر بمعروف - مضوا فيه كالمسامير المحمأة ، لا برعبهم قول قاتل ، ولا اعتراض معترض ، ولا لومة لائم والجملة على هذا معطوفة على ، يجاهدون في سبيل الله . ويحتمل أن تكون الواو للحال . أي أنهم يجاهدون وحالهم في المجاهدة خلاف حال المنافقين الذين كانوا إذا خرجوا في جيش المؤمنين خافوا أوليائهم اليهود ، فلا يعملون شيئاً مما يعلمون أنه يلحقهم فيه لوم جهتهم ، وأما المؤمنون فكانوا يجاهدون لوجه الله لا يخافون لومة لائم ، (١) .

وقد ذكر المفسرون أقوالاً متعددة في المراد بهم هؤلاء القوم الذين وصفهم الله - تعالى - بتلك الصفات السكرية ، والذين يأتي بهم بدل أولئك الذين يرتدون على أعقابهم .

قال بعضهم : المراد بهم أبو بكر ومن معه من المؤمنين الذين قاتلوا المرتدين وقال آخرون : المراد بهم الأنصار الذين نصروا النبي - صلى الله عليه وسلم - وأيدوه .

وقال مجاهد : المراد بهم أهل اليمن . . . وقيل غير ذلك . والذي نراه أنهم قوم ليسوا بخصوصين بزمان معين أو بلد معين ، أو أشخاص معينين ، وإنما هم كل من تنطبق عليهم هذه الصفات الجلية . فكل من أحب الله ولحبه الله ، وتواضع للمؤمنين وأغاظ على الكافرين . وجاهد في سبيل الله دون أن يخشى أحداً سواه فهو منهم ، أما ذواتهم فيعلمها الله وحده ، لأنه لم يرد نص صحيح يعتمد عليه في بيان المراد بهم هؤلاء القوم .

وأسم الإشارة في قوله : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم يعود على ما تقدم ذكره من أوصاف القوم .

أى : ذلك الذى أعطيناه لهم من صفات كريمة فضل الله وإحسانه ، يؤتيه من يشاء لإبتائه من عباده ، والله - تعالى - واسع الفضل والجود والطاء ، عليم بأحوال خلقه ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : وجوب المجاهدة في سبيل إعلاء كلمة الله عن طريق قتال أعدائه - سبحانه - أو عن طريق الجهر بكلمة الحق ، أو عن طريق إحقاق الحق وإبطال الباطل - دون أن يخاف المجاهد لومة لائم .

ولقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث في هذا المعنى ومن ذلك :

ما رواه الإمام أحمد عن أبى ذر : أمرنى خليل - صلى الله عليه وسلم - بسبع : أمرنى بحب المساكين والذين منهم ، وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى ولا أنظر إلى من هو فوقه ، وأمرنى أن أصل الرحم وأن أدبرت ، وأمرنى أن لا أسأل أحدا شيئا ، وأمرنى أن أقول الحق وإن كان مرأ ، وأمرنى أن لا أخاف فى الله لومة لائم ، وأمرنى أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإن من كنز تحت العرش ، .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألا يا نفعن أخدمكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده . فإنه لا يقرب من أجل ولا يبعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم .

وعنه - أيضا - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يحقرن أحدكم نفسه قالوا : وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : أن يرى أمرا لله فيه مقال فلا يقول فيه . فيقال له يوم القيامة . ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا ؟ فيقول مخافة الناس . فيقول : إياي أحق أن تخاف (١) .

وهناك أحاديث أخرى في هذا المعنى سوى التي ذكرها الإمام ابن كثير ومن ذلك ما أخرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة في المنشط والمكروه . وأن لا نتنازع الأمر أهله . وأن نقول بالحق حينما كنا . لا نخاف في الله لومة لائم ، (١) .

ثم بين - سبحانه - من يجب موالاتهم ، بعد انتهى عن تولى من يجب معاداتهم فقال : **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ رَاكِعُونَ .**

أى : **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ، الْمَفِيضُ عَلَيْكُمْ كُلَّ خَيْرٍ ، وَالْمَرْجُو وَحْدَهُ فِي الشَّدَائِدِ وَالْكَرُوبِ وَرَسُولُهُ ، الَّذِي أَخْرَجَكُمْ - بِإِذْنِهِ تَعَالَى - مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ . وَالَّذِينَ آمَنُوا ، الَّذِينَ هُمْ مِنْكُمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ رَاكِعُونَ ، فِي مَوَاقِعِهَا بِخُشُوعٍ وَإِخْلَاصٍ . وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، لِمُسْتَحِقِّهَا بِسَمَاحَةٍ وَطَيْبِ نَفْسٍ ، وَهُمْ رَاكِعُونَ ، أَيْ : خَاشِعُونَ مُتَوَاضِعُونَ لِلَّهِ ، وَلَيْسُوا بِمَرَاتِبٍ أَوْ مَنَازِلٍ .**

وقوله : **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ، جُمْلَةٌ مِنْ مَبْتَدَأٍ وَخَيْرٍ .** وقوله : **وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ،** معطوف على الخبر .

قال صاحب الكشاف : ومعنى **إِنَّمَا ،** وجوب اختصاصهم بالموالاة . فإن قلت قد ذكرت - الآية - جماعة فها قليل **إِنَّمَا** أولياؤكم ؟ قلت : أصل الكلام **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ،** فجعلت الولاية لله على طريق الإحصالة ، ثم نظم في سلك إثباتها له ، إثباتها لرسوله وللمؤمنين على سبيل التبع . ولو قيل : **إِنَّمَا** أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا ، لم يكن في الكلام أصل وتبع . . . (٢)

والمراد بالذين آمنوا عامة المؤمنين وليس فردا معينا منهم .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٦٤٨ .

(٢) أخرجه البخاري في باب كيف يبايع الإمام الناس من كتاب الأحكام ج ٩ ص ٩٦ .

قال - تعالى - : والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ،^(١)

وما ورد من آثار تفيد أن المراد بالذين آمنوا شخصا معينا وهو على ابن أبي طالب - رضى الله عنه - لا يعتمد عليها ، لأنها كما يقول ابن كثير - « لم يصح شيء منها بالكفاية لضعف أسانيدنا وجهالة رجالها » ،

وقد توسع الإمام الرازى فى الرد على الشيعة الذين وضعوا هذه الآثار فارجع إليه إن شئت^(٢) .

وقوله : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » بدل من الذين آمنوا . وهما وصفان لهم ساقهما - سبحانه - على سبيل الثناء عليهم والمدح لهم . وقوله : « وهم راكعون » ، حال من فاعل الفعلين - يقيمون ويؤتون - أى : يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم خاشعون خاضعون لله - تعالى - ؛ إذ الركوع قد يطلق بمعنى الخضوع لله - تعالى - :

قال الراغب : الركوع : الانحناء وتارة يستعمل فى الهيئة المخصوصة فى الصلاة ، وتارة يستعمل فى التذلل والتواضع إما فى العبادة وإما فى غيرها ...^(٣)

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة الذين يؤولون الله ورسوله والمؤمنين فقال : « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » . والحزب معناه الجمع من الناس يجتمعون على رأى واحد من أجل أمر حزبهم أى أهمهم وشغلهم .

والمعنى : « ومن يتول الله » - تعالى - بأن بطيعه ويتوكل عليه ، ويتول

(١) - سورة التوبة الآية ٧١

(٢) راجع تفسير الفخر الرازى ج ١٢ ص ٢٦ وما بعدها

(٣) المنردات فى غريب القرآن ص ٢٢

رسوله ، بأن يتبعه ويتأسي به ، ويتولد الذين آمنوا ، بأن يناصرهم ويشد
زرهم ويتعاون معهم على البر والتقوى ، من يفعل ذلك لاشك في حسن عاقبته
ظفروه بالفلاح والنصر ، فإن حزب الله هم الغالبون ، لغيرهم من الأحزاب
لأخرى التي استحوذ عليها الشيطان .

و د من ، في قوله د ومن يتول الله . . . ، شرطية ، وقوله : د فإن حزب
الله هم الغالبون ، دليل على جواب الشرط .
أى : ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا يمكن من حزب الله المختصر
للقوى ، فإن حزب الله هم الغالبون .

وقال - سبحانه - فإن حزب الله ، ولم يقل حزب الله ورسوله ، الإشارة
إلى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يعمل إلا بأمر من الله - تعالى -
لأنه - صلى الله عليه وسلم - لا يستمد العون والنصرة إلا منه - سبحانه - .

قال بعض العلماء : وقوله - تعالى - د فإن حزب الله هم الغالبون ، معناه :
فإنهم الغالبون .

فوضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى د من ، دلالة على علة الغلبة .
وهو أنهم حزب الله . فكأنه قيل : ومن يتول هؤلاء فهم حزب الله .
وحزب الله هم الغالبون . تنويها بذكرهم ، وتعظيما لشأنهم ، وتشريفا
لهم بهذا الاسم ، وأمر يضا لمن يوالى غير هؤلاء بأنه حزب الشيطان ، (١) .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المؤمنين نهيا شديدا عن
موالاة أعداء الله ، لأن موالاتهم قد تجر إلى الارتداد عن الدين الحق ، ومن
يرتد عن الدين الحق فلن يضر الله شيئا ، لأنه - سبحانه - قادر على أن
يأتى بقوم آخرين صادقين في إيمانهم بدل أولئك الذين ارتدوا على أعقابهم .

كما نراها قد أرشدت المؤمنين إلى من يجب موالاتهم ، وبشرتهم بالفلاح والنصر متى جعلوا ولايتهم لله ولرسوله ولإخوانهم في العقيدة والدين .

ثم كرر - سبحانه - نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه وأعدائهم الذين استخفوا بتعاليم الاسلام ، وشعائر دينه فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا ،
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ،
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) » .

قال الألوسي : أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال : كان رفاعة
ابن زيد ابن التابوت ، ومويد بن الحارث قد أظهر الإسلام وناققا ، وكان
رجال من المسلمين يوادونهما . فأنزل الله - تعالى - : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا ... الآية ، (١) » .

والدين : هو ما عليه المرء من عقائد وأعمال ناشئة عن العقيدة . فهو
عنوان عقل المتدين ، ورائد آماله ، وباعث أعماله . والذي يتخذ دين امرئ
هزوا ولعبا ، فقد اتخذ ذلك المتدين بهذا الدين هزوا ولعبا .

وقوله : « هزوا ، أى سخريه » يقال : فلان هزى . من فلان إذا سخر
منه ، واستخف به . وأصله هزأ ، فأبدلت الهمزة واوا لضم ما قبلها .

وقوله : « لعبا ، أى ملهاة وعبثا . وأصله من لعب الطفل . يقال عن
الطفل لعب - بفتح العين - إذا سال لعبا به .

والمعنى : يا أيها الذين اتصفوا بالإيمان « لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم ،

الذى هو سر سماتكم وعزتكم د هزوا واعبا ، أى : اتخذوه مادة لسخرينهم
وتهكمهم ، وموضعا لعبثهم وطوهم .

ود من ، فى قوله : د من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار
أولياء ، بياينة .

أى : مبينة لأولئك الذين يستهزئون بدين الله ويجعلونه موضع عبثهم .
والمراد بالذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى .

وسموا بذلك ؛ لأن أصل شرعهم ينتمى إلى كتاب منزل هو التوراة
والإنجيل .

وفى صفهم بذلك هنا ، توبيخ لهم ، حيث إنهم استهزؤا بالدين الحق ،
مع أن كتابهم ينههم عن ذلك .

والمراد بالكفار هنا المشركون الذين لا كتاب لهم .

وقرأ الجمهور د الكفار ، بالنصب عطفا عن د الذين اتخذوا دينكم ،
المبين بقوله : د من الذين أوتوا الكتاب

وقرأ أبو عمرو والكسائى د الكفار ، بالجر عطفا على الذين أوتوا
الكتاب

وقوله : د أولياء ، أى : نصراء وأصفياء . وهو المفعول الثانى لقوله
د لا تتخذوا ، والآية الكريمة تنهى المؤمنين عن ولاية كل عدو لله - تعالى -
ولهم سواء أكان هذا العدو من أهل الكتاب أم من المشركين ؛ لأن الجميع
يشتركون فى الاستهزاء بتعاليم الاسلام ، وفى العبث بشعائره .

وقوله : د واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، تذييل قصد به استنهاض همهم
لامتثال أمر الله - تعالى - ، وإلهاب نفوسهم حتى يتركوا موالاة أعدائهم
بسرعة ونشاط .

أى : واتقوا الله فى سائر ما أمركم به ومانهاكم عنه ، فلا تضيعوا موالاةكم

في غير موضعها ، ولا تخالفوا الله أمراً . إن كنتم مؤمنين حقاً ، بممثلين صدقاً ، فإن وصفكم بالإيمان يحتم عليكم الطاعة التامة لله رب العالمين .

ثم ذكر سبحانه بعض مظاهر استهزاء أولئك الضالين بالدين وشعائره ، فقال - تعالى - : وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً ، .

والمراد بالنداء للصلاة : الإعلام بها عن طريق الأذان .

قال القرطبي : كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود : قاموا لا قاموا ، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا . وقالوا في حق الأذان : لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم . فن أبن لك صياح مثل صياح العير ؟ فما أقبحه من صوت ، وما أسيجه من أمر . . . (١) .

وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في قوله : وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعباً . . . ، قال : كان رجل من النصارى بالمدينة ، إذا سمع المنادي ينادي : أشهد أن محمداً رسول الله . قال : حرق الكاذب . فدخل خادمه ليلاً من اللبالي بنار ، وهو نائم وأهله نيام ، فسقطت شرارة فأحرقت البيت . فاحترق هو وأهله ، (٢) .

وقيل : كان المنافقون يتضاحكون عند القيام إلى الصلاة تنفيراً للناس منها .

أي : وإذا ناديتهم - أيها المؤمنون - بعضكم بعضاً إلى الصلاة عن طريق الأذان ، اتخذ هؤلاء الضالون الصلاة والمناداة بها موضعاً لسخريتهم وعشيم وتهمكهم .

واسم الإشارة في قوله : ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ، يعود إلى ما كان منهم من استهزاء وسخرية .

أي : ذلك الذي صدر عنهم من استهزاء وعيب سببه أنهم قوم سفهاء

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٢٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٩١ .

جملاء ، لا يدركون الأمور على وجهها الصحيح ؛ ولا يستجيبون للحق الذي ظهر لهم بسبب عنادهم وأحقادهم .

قال ابن كثير : هذا تنفير من موالاة أعداء الاسلام من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون وهي شرائع الاسلام المطهرة المحركة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي ، يتخذونها هزوا يستهينون بها ، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، كما قال القائل :

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم (١)

وبعد أن حذر - سبحانه - المؤمنين تحذيرا شديدا من موالاة أعدائه .. عقب ذلك بتوبيخ أهل الكتاب على عنادهم وحسدهم ، بوصفهم بجملة من الصفات القبيحة التي بنى عنها العقلاء وأصحاب المروءة فقال - تعالى - :

« قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون (٥٩) قل هل أنبئكم بشرًا من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل (٦٠) وإذا جاءكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون (٦١) وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكليم الشخث لبيس ما كانوا

يعملون (٦٢) لولا إنها هم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم
السحت لبئس ما كانوا يصنعون (٦٣) .

قال القرطبي : قال ابن عباس : جاء نفر من اليهود إلى رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - فسألوه عن يؤمن به من الرسل - عليهم السلام - فقال :
يؤمن بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله :
ونحن له مسلمون ، فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته ، وقالوا : والله ما نعلم
أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ، ولا دينا شرا من دينكم .
فزلت هذه الآية وما بعدها .

وتنقبون معناه : تسخطون . وقيل تكثرهون . وقيل تشكرون . والمعنى
متقارب يقال : تقم من كذا ينقم وينقم ينقم والاول أكثر . . . وفي التنزيل
: وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . . . وانتقم الله منه أى :
عاقبه : والاسم النعمة والجمع نعمة (١) .

والاستفهام : للانكار والتعجب من حالهم حيث يعيبون على المؤمنين
ما هو المدح والثناء والتكريم :

والمعنى : قل يا محمد على سبيل التوبيخ لأهل الكفاب ، والتعجب من أحوالهم
قل لهم : يا أهل الكتاب ، يا من كتابكم عرفكم مواطن الذم ، هل تنقمون
منا ، أى : ما تعيبون وتشكرون وتكثرهون منا ، إلا أن آمنا بالله ، الذى
يجب الإيمان به ، والخضوع له ، لأنه الخالق لكل شئ ، وآمنا بما أنزل
إلينا ، من القرآن الكريم وآمنا بما أنزل من قبل من كتب سماوية كالتوراة
والإنجيل والزبور وغير ذلك من الكتب التى أنزلها الله على أنبيائه قبل إنزال
القرآن الكريم .

ولا شك أن إيماننا بذلك لا يعاب ولا ينكر ، بل يمدح ويشكر ، ولكن
لأن أكثركم فاسقون - أى : خارجون عن دائرة هذا الإيمان الحق -

كرهتم ما بذلك ، وأفكر نعموه علينا ، وحسدتمونا على توفيق الله لإيماننا بحبه ويرضاه .

وقال الجمل ما ملخصه : وقوله : « إلا أن آمنا » مفعول لقوله « تنقمون » بمعنى تكرهون .

وهو استثناء مفرغ . وقوله : « منا » متعلق به . أى : ما تكرهون من جهتنا إلا الإيمان بالله وبما أنزل إلينا . . . وأصل نقم أن يتعدى بعل . تقول : نقمت عليه بكذا . وإنما عدى هنا بمن ، لتضمنه معنى تكرهون وتنكرون . وقوله : « وإن أكثركم فاسقون » ، يحتمل أن يكون فى محل رفع أو نصب أو جر فالرفع على أن يكون مبتدأ والخبر محذوف أى : وفسقكم ثابت عندهم ، لأنكم علمتم أنما على الحق وأنكم على الباطل إلا أن حب الرياسة وجمع الأموال جعلكم على العناد .

والنصب على أن يكون معطوفاً على قوله « أن آمنا . . . » ولكن الكلام مضاف محذوف لفهم المعنى .

والتقدير : واعتقاد أن أكثركم فاسقون . وهو معنى واضح فإن الكفار ينقمون اعتقاد المؤمنين أنهم - أى الكفار - فاسقون . . . أى : مانعيوننا إلا لإيماننا بالله وبما أنزل إلينا . . . واعتقادنا أن أكثركم فاسقون .

وأما الجر فعلى أن يكون معطوفاً على علة محذوفة . والتقدير : ما تنقموننا إلا لإيماننا بالله وبما أنزل . . . لقلة إنصافكم وفسقكم واتباعكم شهواتكم ، (١) :

هذا ، ومن بلاغة القرآن الكريم ، وإنصافه فى الأحكام ، واحتراسه ، التعبير ، أنه لم يعمم الحكم بالفسق على جميعهم ، بل جعل الحكم بالفسق نصيباً على الأكثرين منهم ، حتى يخرج عن هذا الحكم القلة المؤمنة من أهل الكتاب .

وشبيه بهذا قوله في آية أخرى : « منهم أمة مقتصدّة وكثير منهم ساء ما يعملون » .

قال بعض العلماء : في الآية تسجيل على أهل الكتاب بكمال المكابرة والتعكيس ، حيث جعلوا الإيمان بما ذكر ، موجبا للنقمة ، مع كونه في نفسه موجبا للمقبول والرضا ... وهذا مما تقصد العرب في مثله ، تأكيدياً والتفني والمبالغة فيه بإثبات شيء ، وذلك الشيء لا يقتضي إثباته ، فهو منتفأ أبداً . وبسمى مثل ذلك عند علماء البيان تأكيدي المدح بما يشبه الذم وبالعكس . فن الأول قول القائل :

ولا عيب فيهم غير أن سيرهم
بهن فلول من قراع الكتاب
وقول الآخر :

ففي كملت أخلاقه غير أنه جواد ، فما يبقى من المال باقياً
ومن الثاني هذه الآية وما يشبهها . أي : ما ينبغي لهم أن ينقموا شيئاً إلا
هذا ، وهذا لا يوجب لهم أن ينقموا شيئاً ، إذا فليس هناك شيء ينقمونه ،
وما دام الأمر كذلك ، فينبغي لهم أن يؤمنوا به ولا يكفروا . وفيه أيضاً
تقريع لهم حيث قابلوا الإحسان بسوء الصنيع^(١) .

ثم تابع - سبحانه - التهم بهم ، وتعجيب الناس من أفن رأيهم ، مع
تذكيرهم بسوء مصيرهم فقال : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة
عند الله ... ؟ »

والمشار إليه بقوله : ذلك ، يعود إلى ما نقمه اليهود على المؤمنين من إيمانهم
بالله وبالكتب السماوية . . . وقيل يعود إلى الكثرة الفاسقة من أهل الكتاب
المعبر عنها بقوله : « وأن أكثركم فاسقون » . وتوحيد اسم الإشارة لكونه
يشار به إلى الواحد وغيره . أو لتأويله بالمذكور ونحوه .

(١) تفسير القاسمي ج ٦ ص ٢٥١ يسير وما بعده .

والخطاب لأهل الكتاب المتقدم ذكرهم وقيل للكفار مطلقا ، وقيل للمؤمنين .

والثوبة : مصدر ميمي بمعنى الثواب الثابت على العمل ، وأكثر استعمالها في الخير .

وقد استعملت هنا بمعنى العقوبة على طريقة التهكم بهم كما في قوله - تعالى : - فشرم بعذاب أليم ، وهي منصوبة على أنها تمييز لقوله ، بشر ، .
وقوله : - من لعنه الله ، خبر لمبتدأ محذوف أي : هو من لعنه الله والمراد اليهود لأن الصفات التي ذكرت في الآية لا تنطبق إلا عليهم .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين عابوا على المؤمنين إيمانهم بالله وبما أنزله من كتب سماوية والذين قالوا لكم : ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ، ولا ديننا شرا من دينكم . . . قل لهم على سبيل التبسكيت والتنبيه على ضلالهم : هل أخبركم بشر من أهل ذلك الدين عقوبة عند الله يوم القيامة ؟ هو من لعنه الله ، أي أبعد من رحمته ، وغضب عليه ، بأن منع عنه رضاه ، وجعل منهم القردة والخنازير ، بأن مسح بعضهم قردة وبعضهم خنازير وجعل منهم من عبد الطاغوت ، أي : من عبد كل معبود باطل من دون الله كالأصنام والأوثان وغير ذلك من المعبودات الباطلة التي أتبعوها بسبب طغيانهم وفساد نفوسهم .

فإن قيل : إن قوله - قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة . . . ، يفيد أن ما عابه اليهود على المؤمنين من إيمانهم بالله فيه شر . إلا أن ما عليه اليهود أشد شرا ، مع أن إيمان المؤمنين لا شر فيه ألبتة بل هو عين الخير فكيف ذلك ؟

فالجواب ، أن الكلام مسوق على سبيل المشاكلة ، والمجازاة لتفكير اليهود الفاسد ، وزعمهم الباطل ، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه - صلى الله عليه وسلم -

إن هؤلاء اليهود - يا محمد - ينكرون عليكم إيمانكم بالله وبالكتب السماوية ويعتبرون ذلك شراً - مع أنه عين الخير - قل لهم على سبيل التبكيث والزامهم الحجة :

لئن كنتم تعيرون علينا إيماننا وتعتبرونه شراً لا خير فيه - في زعمكم فشر منه عاقبة وما لا ما أتم عليه من لعن وطرده من رحمة الله ، وما أصاب أسلافكم من مسح بعضهم قردة ، وبعضهم خنازير ، وما عرف عنكم من عبادة لغير الله ... وشبيه هذه الآية في مجازاة الخصم في زعمه قوله - تعالى - « ولنا أو لإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » (١) .

وقوله . « أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل » بيان لسوء عاقبتهم وفتح مكانهم . . .

أى : أولئك المتصفون بما ذكر من الفسوق واللعن والطرده من رحمة الله أولئك المتصفون بذلك « شر مكاناً » من غيرهم وأكثر ضللاً عن طريق الحق المستقيم من سواهم ، فهم فى الدنيا يشركون بالله « ويبتكئون محارمه وفى الآخرة مأواهم النار وبئس القرار » .

وقوله « أولئك » مبتدأ وقوله « شر » خبره ، وقوله « مكاناً » تمييز محلول من الفاعل .

وأثبت - سبحانه - الشرارة لمكانهم ليسكون أبلغ فى الدلالة على كثرة ضرورهم ، إذ أن إثبات الشرارة لمكان الشيء كناية عن إثباتها للشيء نفسه . فكان شرم قد أثر فى مكانهم ، أو عظم وضخم حتى صار متجسماً .
وقوله : « وأضل » معطوف على « شر » مقرر له . والمقصود من صيغتي التفضيل فى قوله : « أولئك شر مكاناً وأضل » ... الزيادة مطلقاً من غير نظر إلى مشاركة غيرهم فى ذلك . أو بالنسبة إلى غيرهم من الكفار الذين لم يفجروا فجورهم ، ولم يحقدوا على المؤمنين حقدهم .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض مظاهر نفاقهم وخداعهم فقال :
« وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ... »

قال الألوسي : نزلت كما قال قتادة والسدي - في فاس من اليهود كانوا يدخلون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيظهرون له الإيمان والرضا بما جاء به نفاقا .

والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه . والضمير في « جاءوكم » يعود على اليهود المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

أى : وإذا جاء إليكم - أيها المؤمنون - أولئك اليهود أظهروا أمامكم الإسلام ، وقالوا لكم آمنا بأنكم على حق ، وحالهم وحقبة أنهم قد دخلوا إليكم وهم متلبسون بالكفر ، وخرجوا من عندهم وهم متلبسون به - أيضا - فهم يدخلون عليكم ويخرجون من عندهم وقلوبهم كما هي لا تتأثر بالمواعظ التي يلقيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لأنهم قد نسوا قلوبهم ، وفسدت نفوسهم .

وقوله : « وقد دخلوا بالكفر ، وهم قد خرجوا به » ، جملتان في موضع الحال من ضمير الجمع في « قالوا » .

والباء في قوله : « بالكفر » ، وقوله : « به » ، للملابسة . أى : دخلوا وخرجوا وهم متلبسون بالكفر من غير نقصان منه ولا تغيير فيه البتة .

قال الفخر الرازي : وذكر عند الدخول كلمة « قد » ، وذكر عند الخروج كلمة « هم » ، لأن الفائدة من ذكر كلمة « قد » تقرب الماضي من الحال . والفائدة من ذكر كلمة « هم » ، التأكيد في إضافة الكفر إليهم ، ونفى أن يكون للنبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك فعل ، أى : لم يسمعوا منك يا محمد عند جلوسهم معك ما يوجب كفرا ، فتكون أنت الذي ألقيتهم في الكفر ، بل هم الذين خرجوا بالكفر باختيار أنفسهم ، (١) .

ويبدو لنا أنه عبر عن دخولهم بقوله : « وقد دخلوا بالكفر ، وعبر عن خروجهم بقوله : « وهم قد خرجوا به ، بإضافة ضميرهم مع قد ، الإشارة إلى أنهم عند خروجهم كانوا أشد كفراً ، وأقسى قلوباً منهم عند دخولهم ، .

وهذا شأن الجاحدين المنافقين ، لا تؤثر فيهم العظات مهما كانت بليغة ، ولا النذر مهما كانت قوية ، بخلاف قلوب المؤمنين فإن المواقف تزيدها يقيناً على يقينها ، وإيماناً على إيمانها . ألا ترى إلى قوله - تعالى - : .

« وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيسم زادته هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ، (١) .

وقوله - تعالى - « والله أعلم بما كانوا يكتمون ، وعيد شديد لهم على كفرهم وتفاقهم .

أى : والله - تعالى - أعلم بما كانوا يخفونه من تفاق وخداع عند دخولهم وعند خروجهم ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه خافية من أحوالهم .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من رذائلهم فقال : « وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلمهم السحت ... ، والرؤية في قوله : « وترى ، بصرية .

والإثم : هو كل قول أو عمل لا يرضاه الله - تعالى - .

والعدوان : مجاوزة الحد في الظلم والتعدي . والسحت : هو المال الحرام كالرشوة وغيرها .

أى : وترى - أيها الرسول الكريم أو أيها السامع - كثيراً من هؤلاء اليهود ، يسارعون في ارتكاب الآثام وفي التعدي والظلم وأكل المال الحرام بدون تردد أو تريب . والتعبير بقوله : « وترى ، يفيد أن ارتكابهم لهذه

المنكرات لم يكن خافيا أو مستورا ، وإنما هم يركبونها مجاهرة وعلانية ، لأن فضيلة الحياء قد نضبت من وجوههم .

والمسارعة في الشيء : المبادرة إليه بسرعة وخفة ونشاط ، وأكثر استعمالها في الخير كما قال - تعالى - « أولئك يسارعون في الخيرات »^(١) . يسارع لهم في الخيرات ،^(٢) وقد استعملت هنا في مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت ، الإشارة إلى أنهم كانوا يقصدون على هذه المنكرات وكانهم يحقون فيها .

والتعدية بحرف د في ، تؤذن بأنهم مغمورون في الآثام ؛ وأنهم يتنقلون فيها من حال إلى حال أخرى شر منها ، حتى لا كان السير في طريق الحق والصدق والفضيلة صار غير مألوف عندهم .

وقوله : ، لبئس ما كانوا يعملون ، تذييل قصد به تقييح أعمالهم التي ياباها الدين والخلق الكريم .

أى : لبئس شيئا كانوا يعملونه هذه المنكرات التي منها مسارعتهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت .

وهذه الجملة هي حكم من الله - تعالى - عليهم بدم أعمالهم . وقد جمع - سبحانه - في حكمه بين صيغة الماضي « كانوا » وصيغة المضارع « يعملون » ، للإشارة إلى أن هذا العمل القبيح كان منهم في الماضي ، وأنهم قد استمروا عليه في حاضرم ومستقبلهم بدون توبة أو ندم .

وقد أكد - سبحانه - هذا الحكم بالقسم ، وباللام الموطئة للقسم ، وبكلمة لبئس الدالة على شدة الذم . أى : أقسم لبئس العمل الذي كان هؤلاء يعملونه من مسارعهم في الإثم والعدوان وأكلهم السحت .

(١) سورة المؤمنون . الآية ٦١

(٢) سورة المؤمنون الآية ٥٦

ثم وبخ - سبحانه - رؤساء هؤلاء اليهود على سكوتهم على المنكر فقال :
 « لولا ينهائم الربانيون والاحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، ...
 و ، لولا ، هنا للحض على الفعل في المستقبل ، وللتوبيخ على تركه في الماضي
 فهي لتوبيخ علماء اليهود على تركهم فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
 في الماضي ، ولحضهم على مباشرتها في المستقبل ، وهي هنا بمعنى هلا .

والربانيون : كما يقول ابن جرير - جمع رباني . وهم العلماء الحكماء
 البصراء بسياسة الناس ، وقد ير أمورهم ، والقيام بمصالحهم .
 والاحبار - جمع حبر - وهم علماء اليهود وفتاؤهم المفسرون لما ورد
 في التوراة من أقوال وأحكام .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود دأبهم المسارعة إلى انتراف الآثام وإلى أكل
 المال الحرام ، فهلا ينهائم علماءهم عن هذه الأقوال الكاذبة الباطلة ، وعن
 تلك المسأ كل الخبيثة التي أكلوها عن طريق السحت .

والسحت - كما سبق أن بينا - هو المال الحرام كالربا والرشوة . سمى سحتاً
 من سحته إذا استأصله . لأنه مسحوت البركة أي مقطوعها . أولاً أنه يذهب فضيلة
 الإنسان ويستأصلها . واليهود أرغب الناس في المال الحرام وأحرصهم عليه .
 وقد وبخ الله - تعالى - علماء اليهود وفقهائهم على عدم نهيمهم لهم عن
 قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لأن هاتين الرذيلتين هما جماع الرذائل ، إذ القول
 الباطل الكاذب إذا ما تعود عليه الإنسان هانت عليه الفضائل ، وقال في الناس
 ما ليس فيهم بدون تخرج أو حياء .. وأكل السحت يقتل في آكله المرومة
 والشرف ، ويجعله يستهين بحقوق الناس وأموالهم .

ولقد ألف علماء اليهود أكل أموال الناس بالباطل بدعوى أن هذا الأكل
 سيغفره الله لهم ، ألا ترى قول الله - تعالى - : « فخاف من بعدهم خاف
 ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا ، (١) ... »

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٨ وراجع تفسيرنا لها في كتابنا تفسير سورة

قال بعض العلماء : واقتصر - سبحانه - في توبيخ الربانيين على ترك نهيهم عن قول الإثم وأكل السحت ، ولم يذكر العدوان - الذي ورد في الآية السابقة لإيماء إل أن العدوان يزجرهم عنه المسلمون ولا يلتجئون في زجرهم إلى غيرهم لأن الاعتماد في النصرة على غير المجنى عليه ضئف ، (١) .

وقوله : دلبس ما كانوا يصنعون ، تذييل قصد به ذم علماء اليهود بسبب تركهم لفضيحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقوله : ، يصنعون ، من الصنع وهو العمل بدقة ومهارة وإحكام . .
أى : والله لبس الصنع صنعم حيث تركوا نهى عامتهم عن قول الإثم وأكل السحت .

وقد تكلم المفسرون عن السر في أن الله - تعالى - ذم اليهود بقوله : دلبس ما كانوا يعملون ، وذم علماءهم وفقهاءهم بقوله : دلبس ما كانوا يصنعون . . .

وقد أجاد الكلام عن ذلك الإمام الرازي فقال والمعنى ، أن الله - تعالى - استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم ما نوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصي ، وذلك يدل على أن تارك النهي عن المنكر بمنزلة مرتكبه ، لأنه - تعالى - ذم الفريقين . . بل نقول : إن ذم تارك النهي عن المنكر أقوى ، لأنه - سبحانه - قال في المقدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت دلبس ما كانوا يعملون ، وقال في العلماء التاركين للنهي عن المنكر دلبس ما كانوا يصنعون ، والصنع أقوى من العمل ، لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار راسخا متمكنا ، فجعل جرم العاملين ذنبا غير راسخ . وذنبت التاركين للنهي عن المنكر ذنبا راسخا . والأمر في الحقيقة كذلك ، لأن المعصية مرض الروح ، وعلاجه العلم بالله وبصفاته وبأحكامه ، فإذا حصل هذا العلم وما زالت المعصية كان كمثل المرض الذي شرب ضاحبه الدواء إلا أن المرض بقى كما هو (٢)

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ٦ ص ٢٤٨ .

(٢) تفسير النضر الرازي ج ١٢ ص ٣٩

وقال ابن جرير : كان العلماء يقولون : ما في القرآن آية أشد توبيخا للعلماء من هذه الآية ، ولا أخوف عليهم منها (١) .

وقال ابن كثير : روى الإمام أحمد عن جرير قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مامن قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي ، هم أعز منه وأمنع ، ولم يغيروا ، إلا أصابهم الله منه بعداب .

وروى ابن أبي حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب علي بن أبي طالب ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس !! إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار . فلما تملأوا أخذتهم العقوبات . فمروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم . واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقا ، ولا يقرب أجلا (٢) .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد وبخت اليهود على حسدكم للمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، ووصفتهم بجملة من الصفات الذميمة حتى يحذرهم المؤمنون ، ويجعلوا ولاهم لله ولرسوله ولإخوانهم في العقيدة والدين . ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك لونا آخر من سوء معتقد اليهود ، وخبث

طوبتهم ، وسوء أدبهم مع الله - تعالى - فقال :

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ . كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) » .

قال ابن عباس : قال رجل من اليهود يقال له شاس بن قيس : يا محمد إن ربك بخيل لا ينفق . فأنزل الله هذه الآية (٣) .

(١) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٢٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٤ . (٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٥ .

وقد أضاف - سبحانه - المقالة إلى اليهود جميعا ، لأنهم لم يشكروا على القائل ما قاله ورضوا به .

وقال عكرمة : إنما قال هذا فنحاص بن غزوراء وأصحابه . فقد كانت لهم أموال فلما كفروا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - قل ما لهم ، فقالوا ما قالوا . وقيل : إنهم لما رأوا النبي - صلى الله عليه وسلم - في فقر وقلة مال وسمعوا من من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ، و . . . قالوا : إن إله محمد بخيل (١) . وقوله - تعالى - حكاية عنهم : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » ، إخبار من الله عن جراءة اليهود عليه - سبحانه - وسوء أدبهم . « » ، وتوبيخ لهم على جحودهم نعمه التي لا تحصى .

وأرادوا بقولهم : « يد الله مغلولة » : أنه - سبحانه - بخيل عليهم ، بحسب خيره عنهم ، مانع فضله عن أن يهل إليهم ، حابس عطاءه عن الاتساع لهم ، كالمغلولة يده الذي لا يقدر أن يبسطها بعطاء ولا بذل معروف .

وأصل الغل - كما يقول الراغب - تدرع الشيء وتوسطه ، ومنه الغلل للماء الجاري بين الشجر . . . والغل يختص بما يقيد به الشخص فيجعل الأعضاء وسطه ، وجمعه أغلال . . . (٢)

وليس المراد باليد هنا الجارحة المعروفة بهذا الاسم ، لأن الله - تعالى - منزّه عن مشابهة الحوادث . . . وإنما غل اليد وبسطها مجاز مشهور عن التقدير والعطاء .

والسبب فيه أن اليد آلة لأكثر الأعمال ، لا سيما في دفع المال وإنفاقه . فأطلقوا اسم السبب على المسبب ، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد والكشف . فقيل للجواد فيأض اليد ، مبسوط الكف ، وقيل للبخل : مقبوض اليد ، كز الكف . . .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٣٨ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٢٦٣

وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشف بقوله : « غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود ، ومنه قوله - تعالى - « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط . ولا فرق عنده بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازا عنه ، لأنهما كلامان معتقان على حقيقة واحدة ، حتى إنه يستعمله في ملك لا يعطى عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وقبضها وبسطها . ولو أعطى الأقطع إلى المذنب عطاء جزيل لقالوا : ما أبسط يده بالفوال ، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان معاكبتين البخل والجود . وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد كقول القائل :

جاء الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداءه تلاءه ووهاده

ويقال : بسط اليأس كفيه في صدرى ، فجملت لليأس الذى هو من المعانى لا من الإعيان كفان .. ، ..

وقد علق صاحب الانتصاف على قول صاحب الكشف « غل اليد وبسطها مجاز .. » فقال : والنسبة في استعمال هذا المجاز تصوير الحقيقة المعنوية بصورة حسية تلزمها غالبا ، ولا شيء أثبت من الصور الحسية في الذهن ، فلما كان الجود والبخل معنيين لا يدر كان بالحس وهو بسط اليد للجود وقبضها للبخل ، عبر عنهما بلازمهما لفائدة الإيضاح والانتقال من المعنويات إلى المحسوسات^(١) .

وقوله : « غلت أيديهم واعتنوا بما قالوا ، دعاء عليهم بالشح المرير والبخل الشنيع بأن يخلق - سبحانه - فيهم الشح الذى يجعلهم منبوذين من الناس ومن ثم كان اليهود أبخل خلق الله ، وحكم عليهم بالطرد من رحمة الله - تعالى - بسبب سوء أديهم معه - سبحانه - وجحودهم لنعنه .

(١) تفسير الكشف وحاشيته ج ١ ص ٦٥٥ .

وهذه الجملة تعليم من الله لنا بأن ندعو على من فسدت قلوبهم ، وأساءوا
الآداب مع خالقهم ورازقهم ، فقالوا في شأنه ما هو منزله عنه - تعالى الله عما
يقولون علوا كبيرا .

قال الألوسي ما ملخصه : ويجوز أن يكون المراد بغل الأيدي الحقيقة ،
بأن يغفلوا في الدنيا أسارى - وفي الآخرة معذبين في أغلال جهنم . ومناسبة
هذا لما قبله حيثئذ من حيث اللفظ فقط فيكون تجنيسا . وقيل من حيث
اللفظ وملاحظة أصل المجاز كما نقوله : سبب الله دابره أى قطعه ، لأن
السبب أصله القطع ... (١) .

وقوله : د بل يدها مبسوطتان ، معطوف على مقدر يقتضيه المقام ،
وتكذيب لهم فيما قالوه من باطل .

والمعنى : كلا - أيها اليهود - ليس الأمر كما زعمتم من قول باطل ، بل
هو - سبحانه - الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذي ما من شيء إلا
عنده خزائنه .

فبسط اليدها كناية عن الجود والفضل والأنعام منه - سبحانه -
على خلقه .

وعبر بالمشي فقال : د بل يدها .. ، للإشارة إلى كثرة الفيض والأنعام ،
لأن الجواد السخي إذا أراد أن يبالغ في العطاء أعطى بكليتي يديه .

قال ابن كثير قوله : د بل يدها مبسوطتان ... ، أى : بل هو الواسع
الفضل ... النبي ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ... كما قال :
« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ، والآيات في
هذا كثيرة .

وقد روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - : إن يمين الله ملأى لا يغيثها نفقة - أى لا ينقصها

الإتفاق - . سبحانه - أى بملئته - الليل والنهار . أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يفيض ما فى يمينه . وكان عرشه على الماء ، وفى يده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض وقال : يقول الله - تعالى - : أنفق أنفق عليك ، (١) .

وقوله : « ينفق كيف يشاء » جملة مستأنفة واردة لتأكيده كمال جوده ، والدلالة على أنه ينفق على مقتضى حكمته ومشيبته ، فهو - سبحانه - يبسط الرزق لمن يشاء أن يبسطه له ويقبضه عن يشاء أن يقبضه عنه ، وقبضه الرزق عن من يشاء من خلقه لا ينافى سعة كرمه ، لأنه يعطى ويمنع على حسب مشيئته التى أقام بها نظام خلقه .

ثم بين - سبحانه - موقفهم الجحودى بما أنزله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا » .. أى : إن ما أنزلنا عليك يا محمد من قرآن كريم ، وما أطلعناك عليه من خفى أمور هؤلاء اليهود ، ومن أحوال سلفهم .. كل ذلك ليزيدن الكثيرين منهم كفرا على كفرهم ، وطغيانا على طغيانهم ، وذلك لأنهم قوم أكل الحقد قلوبهم ، واستولى الحسد على نفوسهم . وإذا كان ما أنزلناه إليك يا محمد فيه الشفاء لنفوس المؤمنين ، فإنه بالنسبة لهؤلاء اليهود يزيدهم بغيا وظلما كفرا .

قال - تعالى - : « ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » ، (٢) .

فالجملة السكرية بيان لموقف اليهود الجحودى من الآيات التى أنزلها الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وهى فى الوقت ذاته تسلية له - صلى الله عليه وسلم - عما يلقاه منهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٥

(٢) سورة الإسراء . الآية ٨٢

وقد أكد - سبحانه - هذه الجملة بالقسم المطوى ، وباللام الموحدة له ،
وبنون التوكيد الثقيلة لكي ينتفي الرجاء في إيمانهم ، وليعاملهم النبي - صلى
الله عليه وسلم - وأتباعه على أساس ممكنون نفوسهم الخبيثة ، وقلوبهم
المريضة بالحسد والخداع .

وقوله ، كثيرا ، هو المفعول الأول لقوله « وليزيدن » ، وقاعله ما الموصولة
في قوله « ما أنزل » ، وقوله « طغيانا » هو المفعول الثاني .

ثم زاد - سبحانه - في تسلية رسوله - صلى الله عليه وسلم - فأصدر
حكمه فيهم بدوام العداوة والبغضاء بين طوائفهم وفرقهم فقال : « وألقينا
بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » ، فالضمير في قوله « بينهم » يعود إلى
فرق اليهود المختلفة من فريسيين ، وصديقين وقرائين ، وكتبه ... وغير
ذلك من فرقهم المتعددة .

وقيل : الضمير يعود إلى طائفتي اليهود والنصارى .
والأول أرجح لأن الحديث في هذه الآية عن اليهود الذين وصفوا الله
- تعالى - بما هو منزه عنه .

والعداوة والبغضاء يرى بعضهم أنهما اسمان لمعنى واحد .
ويرى آخرون أن معنهما مختلف . فالعداوة معناها المناوأة الظاهرة ،
والبغضاء هي الكراهية التي تكون في القلب . فهما معنيان متغايران وإن كانا
متلازمين أحيانا . فلا عداوة من غير بغضاء ، ولكن قد يفترقان فتوجد
البغضاء من غير إعلان للعداوة .

قال أبو حيان : والعداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو مبغض وقد
يبغض من ليس بعدو . وقال ابن عطية . وكأن العداوة شيء يشهد يكون عنه
عمل وحرب ، والبغضاء لا تتجاوز النفوس (١) .

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ٢ ص ٥٢٤ .

والمعنى : وألقينا بين طوائف اليهود المتعددة العداوة الدائمة ، والبغضاء المستمرة ، فأنت تراهم كلمتهم مختلفة ، وقلوبهم شتى وكل فرقة منهم تلصق النقائص بالآخرى ، وهم على هذه الحال إلى يوم القيامة .

وما أظهره اليهود في هذا العصر من تعاون وتساند جعلهم ينشئون دولة لهم بفلسطين ، هو أمر مؤقت ، فإن هذه الدولة لن تستمر طويلا ، بل ستعود إلى أهلها المسلمين متى صدقوا في جهادهم ، ولاتبعوا تعاليم دينهم ...

قال الفخر الرازي : واعلم أن لإتصال هذه الآية بما قبلها ، هو أنه - تعالى - بين أن هؤلاء اليهود إنما يذكرون نبوته - صلى الله عليه وسلم - بعد ظهور الدلائل على صحتها ، لأجل الحسد . ولأجل حب الجاه والمال ... ثم إنه - تعالى - بين أنهم لما رجحوا الدنيا على الآخرة ، لاجرم أنه - تعالى - كما حرمهم سعادة الدين ، فكذلك حرمهم سعادة الدنيا . لأن كل فريق منهم بقى مصرا على مذهبه ومقاتلته .. فصار ذلك سببا لوقوع الخصومة الشديدة بين فرقهم وطوائفهم . ولانتهى الأمر فيه إلى أن بعضهم يكفر بعضا ، ويحارب بعضهم بعضا ...

فإن قلت : فهذا المعنى حاصل أيضا بين فرق المسلمين ، فكيف يمكن جعله عيبا على المكتائبيين حتى يذموا عليه ؟

قلنا : بدعة التفرق التي حصلت في المسلمين إنما حدثت بعد عصر النبوة وعصر الصحابة والتابعين . أما في الصدر الأول فلم يكن شيء من ذلك حاصلًا بينهم لحسن جعل ذلك عيبا على المكتائبيين في ذلك العصر الذي نزل فيه القرآن ، (١) .

وقوله : دكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، أى : كلما أرادوا حرب الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، وهيموا الأسباب لذلك ، وحاولوا

تفريق كلمتهم ، وإثارة العداوة بينهم كلما فعلوا ذلك أفسد الله عليهم خطتهم ، وأحيط مكرهم ، وألقى الرعب في قلوبهم .

والتعبير بهذه الجملة الكريمة جرى عليه العرب من أنهم كانوا إذا أرادوا حرباً بالإغارة على غيرهم أوقدوا ناراً يسمونها نار الحرب .

والتعبير هنا لذلك على سبيل المجاز ، إذ عبر - سبحانه - عن إثارة الحروب بإيقاد نارها ، باعتبار أن الحروب في ذاتها وبما تشتمل عليه من مذابح بشرية تشبه النار المستعرة في أخطارها ومصائبها .

وقوله : « ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » تذييل مقرر لما قبله من الصفات الذميمة التي دمع الله - تعالى - بها اليهود .

أى : أن حال هؤلاء اليهود أنهم يجتهدون في الكيد للإسلام وأهله ، وأنهم يسعون سعياً حثيثاً للافساد في الأرض عن طريق إثارة الفتن ، وإيقاظ الأحقاد بين الناس . . . والله - تعالى - لا يحب المفسدين بل يبغضهم ويمقتهم ، لا يشارهم الضلالة على الهدى ، والشر على الخير .

وبهذا نرى الآية الكريمة قد ردت على اليهود في نسبتهم البخل إلى الله - تعالى - ، وبينت أنه - سبحانه - هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء وكشفت عن جوانب من رذائلهم وعنادهم وأوضحت أنه - سبحانه - يبغضهم لأنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون .

واقعد بسطنا القول في مظاهر فسادهم في الأرض في غير هذا الموضع فارجع إليه إن شئت (١) .

وبعد أن حكى - سبحانه - ما حكى من رذائل أهل الكتاب وخصوصاً اليهود ، عقب ذلك بفتح باب الخير لهم مني آمنوا واتقوا فقال - تعالى - :

« ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم

(١) راجع كتابنا « بنو إسرائيل في القرآن » سنة ١٤٢٥ ج ٢ من ص ٢٨٨ إلى ص ٣٢٠ .

ولأدخلناهم جنات النعيم (٦٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون (٦٦) .

والمعنى : ولو أن أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، آمنوا ، برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء به من حق ونور ، واتقوا ، الله - تعالى - بأن صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضاه ، لو أنهم فعلوا ذلك ، لكفرنا عنهم سيئاتهم ، بأن رفعنا عنهم العقاب ، وسترنا عليهم معاصيهم فلم نحاسبهم عليها ، ولأدخلناهم جنات النعيم : في الآخرة .

قال الفخر الرازي : واعلم أنه - سبحانه - لما بالغ في ذمهم وفي تهجين طريقةهم عقب ذلك ببيان أنهم لو آمنوا واتقوا لوجدوا سعادات الآخرة والدنيا . أما سعادات الآخرة فهي عصورة في نوعين : أحدهما رفع العقاب ، والثاني : إيصال الثواب .

أما رفع العقاب فهو المراد بقوله : « لكفرنا عنهم سيئاتهم » . وأما إيصال الثواب فهو المراد بقوله : « ولأدخلناهم جنات النعيم » .

وأما سعادات الدنيا فقد ذكرها في قوله بعد ذلك : « ولو أنهم أقاموا التوراة ... » (١) .

وكرر - سبحانه - اللام في قوله : « لكفرنا ... » ولأدخلناهم ، لتأكيد الوعد . وفيه تنبيه إلى كثرة ذنوبهم ومعاصيهم ، وإلى أن الإسلام يجب ما قبله من ذنوب مهما كثرت .

وفي إضافة الجنات إلى النعيم إشارة إلى ما يستحقونه من العذاب لو لم يؤمنوا ويتقوا .

(١) راجع تفسير الفخر الرازي ج ١٢ ص ٤٦ - بتصرف وتاخير -

(١٩ - سورة المائدة)

وجمع - سبحانه - بين الإيمان والتقوى ، الإيذان بأن الإيمان الذي ينجي صاحبه ، ويرفع درجاته ، هو ما كان نابعا عن يقين وإخلاص وخشية من الله ، لا إيمان المنافقين الذين يدعون الإيمان وهو منهم برى .

والضمير في قوله : د ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل .. ، يعود إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين فتح الله لهم باب الإيمان ليدخلوا فيه كي ينالوا رضاه .

والمراد بإقامة التوراة والإنجيل : العمل بما فيهما من بشارات بصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - وحضهم على الإيمان به عند ظهوره ، وتنفيذ ما اشتملا عليه من أحكام أيديتها تعاليم الإسلام ، وأصل الإقامة الثبات في المكان . ثم استعير إقامة الشيء لتوفية حقه .

والمراد بما أنزل إليهم من ربهم القرآن الكريم ، لأنهم مخاطبون به وليسوا خارجين عن دائرة التكليف التي دعا إليها .

قال - تعالى - : د وأوحى إلى هذا القرآن لا تذكركم به ومن بلغ ،^(١) أي : لا تذكركم به يا أهل مكة ، ولا تذكروا به أيضا جميع من بلغه هذا الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهم .

وقيل : المراد بما أنزل إليهم من ربهم . كتب أنبيائهم السابقين من كتاب شعيا ، وكتاب حزقيل ، وكتاب دانيال ... فإنها مشتملة أيضا على البشارة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - .

والمراد بقوله : د لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، المبالغة شرح ما ينعم الله به عليهم من خيرات وأرزاق تعمهم من كل جهة . الجهات لا أن هناك فوقا وتحتا .

أي : لاكلوا أكلا متصلا وفيرا ، ولعمهم الخير والرزق من كل جهة

بأن تعطيهم السماء مطرها وبركتها ، وتعطيهم الأرض نباتها وخيرها ، فيعيشوا
في رغد من العيش ؛ وفي بسطة من الرزق

وفي ذلك دلالة على أن الاستقامة على شرع الله ، تأتي بالرزق الرغيد، ولقد
أشار القرآن إلى هذا المعنى في آيات كثيرة ومن ذلك قوله - تعالى - :
« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ، (١) » .

وقال - تعالى - حكاية عن هود أنه قال لقومه : « ويا قوم استغفروا ربكم
ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ، (٢) » .

والمعنى : « ولو أنهم ، أي اليهود والنصارى ، أقاموا التوراة والإنجيل ،
بأن عملوا بما فيهما من أقوال تدعوهم إلى الإيمان بالدين الحق الذي جاء به محمد
- صلى الله عليه وسلم - وتركوا تحريف الكلم عن مواضعه .

ولو أنهم - أيضاً - آمنوا بما أنزل إليهم من ربهم ، من قرآن مجيد
فيه هدايتهم وسعادتهم لو أنهم فعلوا ذلك لأنهم الرزق الواسع من كل ناحية ،
ولعمهم الخير من كل جهة ، ولعاشوا آمنين مطمئنين

والمراد بالأكل الانتفاع مطلقاً . وعبر عن ذلك به لكونه أعظم
الانتفاعات ويستتبع سائرها .

ومفعول « أكلوا » محذوف لقصد التعميم . أو القصد إلى نفس الفعل كما
في قولهم : فلان يمطى ويمنع ،

وقوله : « منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون » مدح للقلة التي
تستحق المدح من أهل الكتاب ، وذم للكثيرين منهم الذين قبح عملهم ،
وفسدت نفوسهم .

والأمة : الجماعة من الناس الذين يجمعهم دين واحد ، أو جنس واحد ،

(١) - سورة الجن الآية ١٦

(٢) - سورة هود الآية ٥٢

أو مكان واحد . . ومقتصده من الافتصاد وهو الاعتدال في كل شيء .
والمراد به هنا : السير على الطريق المستقيم الذي يوصل إلى الحق والخير ، وهو
طريق الإسلام .

والمعنى : من أهل المكتاب جماعة مستقيمة على طريق الحق ، وهم قلة
آمنت بالنبى - صلى الله عليه وسلم - وإلى جوار هذه الجماعة القليلة المستقيمة
عدد كبير من أهل المكتاب ساء عملهم ، وأعوج سلوكهم . وكان من حالهم
ما يشير العجب والدهشة .

والمراد بهذه الأمة المقتصدة من أهل المكتاب من دخل منهم في الإسلام
واتبع ما جاء به النبى - عليه الصلاة والسلام -

وبذلك نرى هاتين الآيتين قد بشرت أهل المكتاب بالسعادة الدنيوية
والآخروية متى آمنوا بالله - تعالى - واتبعوا ما جاء به رسوله محمد
- صلى الله عليه وسلم - .

وبعد أن حكى الله - تعالى - في الآيات السابقة ما كان عليه أعداء
الإسلام - وخصوصا اليهود - من محاولات لفتنة الرسول - صلى الله عليه
وسلم - ، ومن دسائس حاكوها لعرقلة سير الدعوة الإسلامية ، ومن استهزاء
بتعاليم الإسلام ، ومن حقد على المؤمنين لإيمانهم برسول الله وكتبه ، ومن سوء
أدب مع خالقهم ورازقهم بعد أن حكى - سبحانه - كل ذلك ، أتبعه
بتوجيه نداء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمره فيه بأن يمضى في تبليغ
رسالته إلى الناس دون أن يلتفت إلى مكر المكربين ، أو حقد الحاقدين .
فإنه - سبحانه - قد حماه وعصمه منهم فقال :

« يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ
رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) » .

يروى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : لما غزا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بني أنمار ، نزل ذات الرقاع بأعلى نخل ، فبينما هو جالس على رأس برقد دل رجله ، فقال الحارث من بني النجار : لاقتلن محمدا فقال له أصحابه : كيف تقتله ؟ قال : أقول له أعطني سيفك ، فإذا أعطانيه قتلت به . قال : فأتاه ، فقال يا محمد . أعطني سيفك أشيمه - أي أراه - فأعطاه إياه . فرعدت يده حتى سقط السيف من يده : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حال الله بينك وبين ما تريد .

فأنزل الله - تعالى - يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك .. الآية ، (١)

قال الفخر الرازي - بعد أن ذكر عشرة أقوال في سبب نزولها - واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى حمل الآية على أن الله - تعالى - آمنه من مكر اليهود والنصارى ، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم ، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلامهم مع اليهود والنصارى ، امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها ، ... ، (٢) .

وهذا الذي قاله الإمام الرازي هو الذي تسكن إليه النفس ، أي أن الآية الكريمة ساقها الله - تعالى - لتثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وتقوية قلبه وأمره بالمضي في تبليغ رسالته بدون خوف من أعدائه الذين حدثه عن مكرم به وكرهتهم له ... حديثا مستفيضا ، وقد بشره - سبحانه - في هذه الآية بأنه حافظه من مكرم ، وعاصمه من كيدهم .

وقوله : ، بلغ ، من التبليغ بمعنى إيصاله الشيء إلى المطلوب إيصاله إليه .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٩ .

(٢) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ٧٩ .

والمعنى : « يا أيها الرسول ، الكريم المرسل إلى الناس جميعا ، بلغ ، أى : أوصل إليهم ، ما أنزل إليك من ربك ، أى : كل ما أنزل إليك من ربك من الأوامر والنواهي والأحكام والآداب والأخبار ... دون أن تخشى أحدا إلا الله . » وإن لم تفعل ، ما أمرت به من إيصال وتبليغ جميع ما أنزل إليك من ربك إلى الناس ، فما بلغت رسالته ، أى : وإن لم تبليغ كل ما أنزل إليك من ربك كنت كمن لم يبلغ شيئا مما أوحاه الله إليه ، لأن ترك بعض الرسالة يعتبر تركا لها كلها .

وقد عر عن هذا المعنى صاحب الكشف بقوله : قوله : « وإن لم تفعل ، أى : وإن لم تبليغ جميعه كما أمرتك ، فما بلغت رسالته ، أى : فلم تبليغ إذا ما كلفت به من أداء الرسالة ، ولم تؤد منها شيئا قط ، وذلك أن بعضها ليس بأولى بالأداء من بعض ، وإن لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداءها جميعا ، كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها ، لإدلاء كل منها بما يدلى به غيرها ، وكونها لذلك في حكم شئ واحد . والشئ الواحد لا يكون مبلغا خير مبلغ ؛ مؤمنا به غير مؤمن به ... » (١) .

وفى ندائه - صلى الله عليه وسلم - بوصف الرسالة تشریف له وتكريم وتمهيد لما يأمره به الله من وجوب تبليغ ما كلف بتبليغه إلى الناس دون أن يخشى أحدا سواه .

لأن الله - تعالى - هو الذى خلقه ورباه وتمهده بالرعاية والحماية ، وهو الذى اختاره لحل هذه الرسالة دون غيره ، فن الواجب عليه - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغ جميع ما أنزل إليه منه - سبحانه - .

قال الجمل : وقوله : « وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، ظاهر هذا التركيب

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٩٥٦ .

اتخاذ الشرط والجزاء ، لأنه يؤول ظاهراً إلى وإن لم تفعل فما فعلت ، مع أنه لا بد وأن يكون الجواب مغايراً للشرط لتحصل الفائدة ، ومتى اتحدا اختل الكلام .

وقد أجاب عن ذلك ابن عطية بقوله أى : وإن تركت شيئاً فقد تركت الكل ، وصار ما بلغتته غير معتد به فصار المعنى : وإن لم تستوف فما أمرت بتبليغه فحكمك في العصيان وعدم الامتثال حكم من لم يبلغ شيئاً أصلاً ، ، ، (١)

وقال صاحب الانتصاف ما ملخصه : ولما كان عدم تبليغ الرسالة أمراً معلوماً عند الناس أنه عظيم شنيع ، ينقم على مرتكبه بل إن عدم نشر العلم من العالم أمر فظيع ، فضلاً عن كتمان الرسالة من الرسول : لما كان الأمر كذلك استثنى عن ذكر الزيادات التي يتفاوت بها الشرط والجزاء ، للصوقها بالجزاء في الأفهام وإن كان من سمع عدم تبليغ الرسالة فهم ما وراؤه من الوعيد والتهديد . وحسن هذا الأسلوب في الكتاب العزيز يذكر الشرط عاماً بقوله : د وإن لم تفعل ، ولم يقل : فإن لم تبلغ الرسالة فما بلغت الرسالة ، حتى يكون اللفظ متغائراً ، وهذه المغايرة اللفظية - وإن كان المعنى واحداً - أحسن رونقاً ، وأظهر طلاوة من تكرار اللفظ الواحد في الشرط والجزاء ، وهذا الفصل كاللباب من علم البيان ، (٢) .

هذا ، ومن المعلوم الذي لا خفاء فيه عند كل مسلم ، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد بلغ ما أمره به ربه البلاغ التام ، وقام به أتم القيام دون أن يزيد شيئاً على ما كلفه به ربه أو ينقص شيئاً .

وقد ساق ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من النصوص التي تشهد بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أمثل أمر الله في تبليغ رسالته ، ومن

(١) حاشية الجليل على الجلالين ج ١ ص ٥١٠ .

(٢) حاشية الكشاف ج ١ ص ٦٥٨ .

ذلك ما رواه الشيخان عن عائشة أنها قالت لمسروق : من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم - كنتم شيئا عما أنزل الله عليه فقد كذب .

والله يقول : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ... الآية . .

ثم قال ابن كثير : وقد شهدت له - صلى الله عليه وسلم - أمته بإبلاغ الرسالة ، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل في خطبته يوم حجة الوداع ... فقد قال في خطبته يومئذ : أيها الناس ، إنكم مسئولون عني فإذا أنتم قائلون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ... (١) .

وقوله : ذوالله يعصمك من الناس ، وعد منه - سبحانه - بحفظ نبيه كيد أعدائه .

وقوله : يعصمك ، من العصم بمعنى الإمساك والمنع . وأصله - كما يقول ابن جرير - من عصام القرية ، وهو ما تربط به من سير وخيط . ومنه قول الشاعر :
وقلت عليكم مالك إن مالكا سيعصمكم إن كان في الناس عاصم
أي : سيعصمكم (٢)

والمعنى : عليك يا محمد أن تبلغ رسالة الله دون أن تخشى أحدا سواه ، والله - تعالى - يحفظك من كيد أعدائك ، ويمنعك من أن تعلق نفسك بشيء من شهواتهم واعتراضاتهم ، ويصون حياتك عن أن يعتدى عليها أحد بالقتل أو الإهلاك .

فالمراد بالعصمة هنا : عصمة نفسه وجسمه - صلى الله عليه وسلم - من القتل أو الإهلاك ، وعصمة دعوته من أن يحول دون نجاحها حائل ... وهذا لا ينافي ما تعرض له - صلى الله عليه وسلم - من بأساء وضراء وأذى بدني ، فقد رماه المشركون بالحجارة حتى سالبت دماؤه ، وشج وجهه وكسرت رباعيته في غزوة أحد .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٦ ص ٣٩ .

والمراد بالناس هنا : المشركون والمنافقون واليهود ومن على شاكلتهم في الكفر والضلال والعناد ، إذ ليس في المؤمنين الصادقين إلا كل محب لله ورسوله .

ولقد تضمنت هذه الجملة الكريمة معجزة كبرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فقد عصم الله - تعالى - حياة رسوله عن أن يصيبها قتل أو إهلاك على أيدي الناس مهما دبروا له من مكرو وكيد

لقد نجاه من كيدهم عندما اجتمعوا لقتله في دار الندوة ليلة هجرته إلى المدينة ...

ونجاه من كيد اليهود عندما هموا بإلقاء حجر عليه وهو جالس تحت دار من دورم ..

ونجاه من مكرمهم عندما وضعت إحدى نسايم السم في طعام قدم إليه - صلى الله عليه وسلم - ...

إلى غير ذلك من الأحداث التي تعرض لها النبي - صلى الله عليه وسلم - من أعدائه ، وإمكن الله - تعالى - نجاه منهم (١) ...

وهناك آثار تشهد بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يحرس من بعض أصحابه ، فلما نزلت هذه الآية صرفهم عن حراسته

فقد أخرج الترمذي والحاكم وابن أبي حاتم وابن جرير عن عائشة قالت : كان رسول الله يحرس ليلا حتى نزلت ، والله يعصمك من الناس ، فأخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأسه من القبة فقال لهم : أيها الناس ، انصرفوا لقد عصمني الله ، (٢) .

وقوله : إن الله لا يهدي القوم الكافرين ، تذييل قصده تعليل عصمته - صلى الله عليه وسلم - وتثبيت قلبه أي : إن الله - تعالى - لا يهدي القوم

(١) إذا أردت المزيد من ذلك فارجع إلى كتاب « أعلام النبوة » للماوردي .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧٨ .

الكافرين إلى طريق الحق بسبب عنادهم وإيثارهم المعنى على الرشد . . . ولا يوصلهم إلى ما يريدونه من قتلك ومن القضاء على دعوتك ، بل سينصرك عليهم ويجعل العاقبة لك .

وبعد هذا التثبيت والتكريم لنبيه . أمره - سبحانه - أن يصارح أهل الكتاب بما هم عليه من باطل ، وأن يدعوهم إلى اتباع الحق الذي جاء به فقال - تعالى - :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ اسْتَمِ عَلَى شَيْءٍ حَقٍّ تَقِيَهُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِيُزَيِّنَ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) » .

قال الألوسي : أخرج ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : يا محمد ألسنتك على ملة إبراهيم ودينه ، وثؤمن بما عندنا من التوراة ، وتشهد أنها من الله حق ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : بلى ، ولكنكم أحدثتم وحدثتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق وكنتم منها ما أمركم أن تبينوه للناس فبرئت من أحداثكم . قالوا : فإننا نأخذ بما في أيدينا ، فإننا على الحق والهدى ولا تؤمن بك ولا تتبعك . فأنزل الله : قل يا أهل الكتاب استم على شيء . . . الآية ، (١) .

والمعنى : قل يا محمد هؤلاء اليهود والنصارى الذين امتدت أيديهم إلى كتبهم بالتغيير والتبديل . . . قل لهم يا أهل الكتاب استم على شيء ، يعتد به من الدين أو العلم أو المروءة ، حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم . .

أى : لستم على شيء بquam له وزن من أمر الدين حتى تعملوا بما جاء في التوراة والإنجيل ، من أقوال تبشر برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وحتى تؤمنوا بما أنزل إليكم من ربكم من قرآن كريم يهدي إلى الرشd : لأنكم مخاطبون به ، ومطالبون بتنفيذ أوامره ونواهيه ، ومحاسبون حساباً عسيراً على الكفر به ، وعدم الإذعان لما اشتمل عليه .

والتعبير بقوله - تعالى - ، لستم على شيء ، فيه ما فيه من الاستخفاف بهم ، والتهوين من شأنهم ، أى : لستم على شيء يعتد به ألبتة من أمر الدين . وذلك كما يقول القائل عن أمر من الأمور : هذا الأمر ليس بشيء يريد تحقيره وتصغير شأنه . وفي الأمثال ، أقل من لا شيء .

فالجملة الكريمة تنفى عنهم أن يكون في أيديهم شيء من الحق والصواب ماداموا لم يؤمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - الذى بشرت به التوراة والإنجيل وأنزل الله القرآن وهو الكتاب المهيمن على الكتب السماوية السابقة .

وقوله : ، وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ، جملة مستأنفة . مبينة لغوهم في العناد والجحود ، وناعية عليهم عدم انتفاعهم بما يشفى النفوس ، ويصلح القلوب . . . والضمير في قوله ، منهم ، يعود إلى أهل الكتاب .

أى : وإن ما أنزلناه إليك يا محمد من هدايات وخيرات ليزيدن هؤلاء الضالين من أهل الكتاب طغياناً على طغيانهم ، وكفراً على كفرهم ، لأن نفوسهم لا تميل إلى الحق والخير وإنما تنحدر نحو الباطل والشر .

وقوله : ، فلاتأس على القوم الكافرين ، تذييل قصد به تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - والفاء للإفصاح . والآسى . الحزن . يقال : أسى فلان على كذا بآسى أى إذا حزن .

أى : إذا كان شأن الكثيرين كذلك فلا تحزن عليهم ، ولا تتأسف على

القوم الكافرين ؛ فإنهم هم الذين استحبوا العمى على الهدى ، وفي المؤمنين غنى لك عنهم .

وليس المراد نهيهِ - صلى الله عليه وسلم - عن الحزن والأسى ، لأنها أمران طبيعيتان لا قدرة للإنسان عن صرفهما ، وإنما المراد نهيهِ على لوازمهما ، كالأيشار من محاولة تجديد شأن المصائب ، وتعظيم أمرها . وبذلك تتجدد الآلام ، ويحزن القلب ...

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أن الناس أمامه سواء ، وأنه لا تفاضل بينهم إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان الحق يقطع ما قبله من عقائد زائفة ، وأفعال سيئة فقال - تعالى - :

إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والصابئون والنصارى ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (٦٩) .

فالآية الكريمة تبين أن أساس النجاة يوم القيامة هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وما يستتبع ذلك من أفعال طيبة ، وأعمال صالحة ...

وقد ذكر - سبحانه - في هذه الآية أربع فرق من الناس :

أما الفرقة الأولى فهي فرقة المؤمنين ، وهم الذين عبر عنهم - سبحانه - بقوله : « إن الذين آمنوا .. » أي : آمنوا إيماناً صادقاً ، بأن أذعنوا للحق الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وأتبعوه في كل ما جاء به .

وقد ابتدأ القرآن بهم لشرفهم وعلو منزلتهم ، والإشعار بأن دين الإسلام دين قائم على أساس أن الفوز برضا الله لا ينال إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح ، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك .

والفرقة الثانية فرقة الذين هادوا . أي اليهود . يقال : هادوتهم إذا دخلوا في اليهودية . وسموا يهودا نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب - عليه السلام -

وقد قلبت الدال في كلمة يهوذا دالا في التعريب . أو سموا يهودا حين تابوا من عبادة العجل ، من هاد يهود هوذا بمعنى تاب ومنه قوله - تعالى - «إنا هدانا إليك ، أي : تبنا ورجعنا إليك .

والفرقة الثالثة فرقة الصابئين جمع صابى . وهو الخارج من دين إلى دين . يقال صبا الظلف والنباب والنجم - كمنع وكرم - إذا ضلح .

والمراد بهم قوم يعبدون الملائكة ، أو الكواكب ويزعمون أنهم على دين صابى بن شيث بن آدم ، ولا تزال بقية منهم تعيش في تخوم العراق ، ومن السير الجزم بحقيقة معتقدهم ، لأنهم أكتم الناس لعقائدهم ،

وأما الفرقة الرابعة فهي فرقة النصارى جمع نصران بمعنى نصراني قيل سموا بذلك لأنهم ادعوا أنهم أنصار عيسى - عليه السلام - وقيل سموا بذلك نسبة إلى قرية الناصرة التي ظهر بها عيسى - عليه السلام - واتبعه بعض أهلها

والإيمان المشار إليه في قوله : «من آمن بالله واليوم الآخر . . . » يفسره بعض العلماء بالنسبة لليهود والنصارى والصابئين بمعنى صدور الإيمان منهم على النحو الذي قدره الإسلام ، فن لم تبلغه منهم دعوة الإسلام ، وكان ينتمى إلى دين صحيح في أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر ويقوم بالعمل الصالح على الوجه الذي يرشده إليه دينه ، فله أجره على ذلك عند ربه .

أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق ولستهم لم يقبلوها ، فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا أنهم يؤمنون بغيرها ؛ لأن شريعة الإسلام قد نسخت ما قبلها ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - قال : «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا أتباعي . . . »

ويفسرونه - أي الإيمان المشار إليه سابقا - بالنسبة للمؤمنين الذين عبر الله عنهم بقوله : «إن الذين آمنوا . . . » ، على أنه بمعنى الثبات والدوام والاذعان ، وبذلك ينتظم عطف قوله - تعالى - «وعلى صالحا ، على قوله

« آمن ، مع مشار كته هؤلاء المؤمنين لتلك الفرق الثلاث فيما يترتب على العمل الصالح من ثواب جزيل وعاقبة حميدة .

وبعض العلماء يرى أن معنى « من آمن » . . . ، أى : من أحدث عن هذه الفرق إيماناً بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء به من عنده .

قالو : لأن مقتضى المقام هو الترغيب في دين الإسلام ، وأما بيان من مضى على دين آخر قبل نسخه فلا ملائمة له بالمقام ، فضلاً عن أن الصابئين ليس لهم دين يجوز رعايته في وقت من الأوقات .

وقوله : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، بيان لحسن عاقبتهم ، وجزيل ثوابهم .

أى . فلا خوف عليهم من أهوال يوم القيامة بل هم في مأمن منها ، ولا هم يحزنون على ما مضى من أعمارهم لأنهم أنفقوها في العمل الصالح .

هذا وقد قرأ جمهور القراء ، والصابئون ، بالرفع . وقرأ ابن كثير بالنصب . وقد ذكر النحويون وجوها من الإعراب لتخريج قراءة الرفع التي قرأها الأكثرون ، ولعل خير هذه الوجوه ما ذكره الشيخ الجمل في قوله : « وقوله : إن الذين آمنوا ... »

أى : إيماناً حقاً لا تفافاً . وخبر إن محذوف تقديره : « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

دل عليه المذكور . وقوله : « والذين هادوا ، مبتدأ . قالوا لعطف الجمل أو للاستئناف وقوله « والصابئون والنصارى » عطف على هذا المبتدأ . وقوله « فلا خوف عليهم » ..

خبر عن هذه المبتدآت الثلاثة . وقوله : « من آمن بالله واليوم الآخر » بدل من كل منها بدل بعض من كل فهو مخصص . فكأنه قال : الذين آمنوا من اليهود ومن النصارى ومن الصابئين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فالإخبار عن اليهود ومن بعدهم بما ذكره شروط بالإيمان لا مطلقاً . . . (١) .

وقد ذكر صاحب الكشف وجه آخر فقال : قوله : « والصائبون » رفع على الابتداء . وخبره محذوف . والنية به التأخير عما في حيزه إن ، من اسمها وخبرها . كأنه قيل : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا . والصائبون كذلك ...

ثم قال : فإن قلت ما التأخير والتقديم إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصائبين يتاب عليهم إن صح ، منهم الإيمان والعمل الصالح فما الظر بغيرهم ؟ وذلك لأن الصائبين أئيين هؤلاء المعدودين ضللا وأشدم غيا ، وما سموا صائبين إلا لأنهم صباوا عن الأديان كلها . أى : خرجوا ... (١)

والخلاصة ، أن الآية الكريمة مسوقة للترغيب في الإيمان والعمل الصالح ببيان أن كل من آمن بالله واليوم الآخر ، وإتبع ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - واستمر على هذا الإيمان وهذا الاتباع إلى أن فارق هذه الحياة ، فإن الله - تعالى - يرضى عنه ويثيبه ثوابا حسنا ، ويتجاوز عما فرط منه من ذنوب ، لأن الإيمان الصادق يجب ما قبله ، من عقائد زائفة ، وأعمال باطلة ، وأقوال فاسدة ...

وبعد أن فتح - سبحانه - باب الإيمان أمام أهل الكتاب وغيرهم لكي يدخلوه فيلوا رضاه ومشوبته ... عقب ذلك باستئناف الحديث عن أنواع أخرى من الرذائل التي عرفت عن بني إسرائيل فقال - تعالى - :

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ ، فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَنْ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُّوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُّوا وَصَمُّوا ، كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) » .

والمراد بالميثاق في قوله : « لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل » : العهد الموثق الذي أخذه الله عليهم بواسطة أنبيائهم بأن يؤدوا ما كلفهم به من تكاليف ، وأن يتبعوا النبي - صلى الله عليه وسلم - عند ظهوره .

وقد أكد الله هذا الميثاق الذي أخذه عليهم بلام القسم وبقد المفيدة للتحقيق أى : بالله لقد أخذنا الميثاق على بني إسرائيل بأن يعبدوني ولا يشركوا بي شيئاً ، وبأن ينفذوا ما كلفتهم به من المأمورات والمنهيات والشرائع والأحكام ..

وقوله : « وأرسلنا إليهم رسلاً ، معطوف على « أخذنا » ، والتنكير في قوله : « رسلاً » ، للتكثير والتعظيم .

أى : أخذنا العهد المؤكد عليهم بأن يسيروا على الطريق المستقيم ، وأرسلنا إليهم رسلاً ذوى عدد كثير ، وأولى شأن خطير ، لكي يتعهدوهم بالتبشير والانهذار ، ولكي يرشدوهم إلى ما يأتون وما يذرون من أمور دينهم .

فأنت ترى أن الله - تعالى - مع أخذه الميثاق عليهم لم يتركهم هملاً ، بل أرسل إليهم الرسل ليعينوهم على تنفيذ ما جاء به .

ولم يذكر - سبحانه - هنا موضوع هذا الميثاق ، إكتفاء بذكره في مواطن أخرى كثيرة . ومن ذلك قوله - تعالى - قبل ذلك في هذه السورة :

« ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ، وقال الله لاني معكم ، لئن أقمت الصلاة وآتيت الزكاة . وآمنتم برسلي ، وعزرنعومي ، وأقرضتم الله قرضاً حسناً ... الآية » (١) .

وقوله - تعالى - في سورة البقرة : « ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذو القربى واليتامى والمساكين ... الآية » (٢) .

(١) سورة المائدة الآية ١٢

(٢) سورة البقرة الآية ٨٣ .

وقوله : « كلباء جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » بيان لموقفهم الذميمة من الميثاق الذي أخذ عليهم ومن الرسل الكرام الذين أرسلهم الله لهدايتهم وسعادتهم .

أى : أخذنا الميثاق المؤكد عليهم ، وأرسلنا إليهم رسلا كثيرين لهدايتهم وليكنهم تقضوا الميثاق ، وعصوا الرسل ، فكأنوا « كلباء جاءهم رسول ، بما لا تشتهي نفوسهم الشقية ، وبما لا تمتل إليه قلوبهم الرديئة ، ناصبوه العداة ؛ فكذبوا بعض الرسل ، ولم يكتفوا مع البعض الآخر بالتكذيب بل أضافوا إليه القتل .

ولقد كذب اليهود جميع الرسل الذين جاؤا لهدايتهم ولم يؤمن بهم إلا قلة منهم ، وقتلوا من بين من قتلوا من الرسل بعد أن كذبوهم : زكريا ويحيى ، وحاولوا قتل عيسى - عليه السلام - كما حاولوا قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أن الله - تعالى - نجاهما من مكرم وكيدهم .

قال صاحب الكشف : وقوله : « كلباء جاءهم رسول » جملة شرطية وقعت صفة لقوله : « رسلا » . والراجع محذوف : أى : رسول منهم « بما لا تهوى أنفسهم » أى بما يخالف هواهم وبضاد شهواتهم . . .

فإن قلت : أين جواب الشرط . . . قلت : هو محذوف يدل عليه « فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » فكانه قيل . كلباء جاءهم رسول منهم ناصبوه ، (١) .

والتعبير بقوله : « كلباء جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » يدل على أن حال بنى إسرائيل بالنسبة للرسل يدور بين أمرين إما التكذيب لهم ، والاستهانة بتعاليمهم . . . وإما أن يجمعوا مع التكذيب قتلهم وإزهاق أرواحهم الشريفة . فكان التكذيب والقتل قد صارا سجيئين

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ٦٦٢

لهم لا تتخلفان في أى زمان ومع أى رسول ، وذلك لأن لفظ « كل يدل على العموم . » وما ، مصدرية ظرفية دالة على الزمان ، مكانه - سبحانه - يقول : في كل أوقات مجىء الرسل إليهم كذبوا ويقتلون ، دون أن يفرقوا بين رسول ورسول أو بين زمان وزمان . . .

وقال - سبحانه - « بما لا تهوى أنفسهم ، للبالغة في ذمهم ، إذ هوى النفس ميلها في الغالب إلى الشهوات التي لا ينبغي ، والرسول ما أرسلهم الله - تعالى - إلا لهداية الأنفس ، وكفها عن شهواتها التي يؤدي الوقوع فيها إلى المفاسد . . .

وبنو إسرائيل لا يكذبون الرسل ، ويقتلونهم إلا لأنهم جاءوهم بما يخالف هوامهم ، ويتعارض مع أرائهم وشرهم ومطامعهم الباطلة . . .

وهكذا الأمم عندما تفسد عقولها ؛ وتسيطر عليها الأطماع والشهوات ، ترى الحسن قبيحا ، وتحارب من يهديها إلى الرشاد حتى لسكانه عدوها .

وقدم - سبحانه - المفعول به في قوله « فريقا كذبوا وفريقا يقتلون ، للاهتمام بتفصيل أحوال بني إسرائيل السيئة ، وبيان ما لقيه الرسل الكرام منهم .

وعبر عن التكذيب بالفعل الماضى فقال : « فريقا كذبوا ، وعن القتل بالفعل المضارع فقال : « وفريقا يقتلون ، لحكاية الحال الماضية التي صدرت من أسلافهم ، بتصوير ما حصل في الماضى كأنه حاصل وقت التكلم ، ولاستحضار جريمتهم البشعة في النفوس حتى لسكانها واقعة في الحال ، وفي ذلك ما فيه من الذمى عليهم . والتوبيخ لهم والتعجيب من أحوالهم التي بلغت نهاية الشناعة والقبح . . .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك أنهم مع ما فعلوه مع رسلهم من التكذيب والقتل لم ينزجروا ، ولم يندموا . . . بلغ بهم الغرور والسفاهة أنهم ظنوا أن ما فعلوه شيئا هينا وأنه لن يكون له أثر مسمى في حياتهم . فقال - تعالى - : « وحسبوا أن

لَا تَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ
اللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْلَمُونَ .

وقوله : « وَحَسِبُوا ... » معطوف على قوله « كَذَبُوا ... » وهو من
الحسبان بمعنى الظن وقوله : « فِتْنَةً » من الفتن وهو إدخال الذهب في النار لتظهر
جودته . . والمراد بها هنا : الشدائد والمحن والمصائب التي تنزل بالناس .

وقوله : « فَعَمُوا وَصَمُوا » من العمى الذي هو ضد الأبصار ، ومن الصمم
الذي هو ضد السمع . وقد استعير هنا للأعراض عن دلائل الهدى والرشاد
التي جاء بها الرسل .

والمعنى إن بني إسرائيل قد أخذوا عليهم العهد المؤكد ، وأرسلنا إليهم الرسل
لهدائهم ، فكان حالهم أنهم كذبوا بعض الرسل ، وقتلوا البعض الآخر ...
ولم يكتفوا بهذا . بل ظنوا - لسوء أعمالهم وفساد قلوبهم واستيلاء الغرور
والتكبر على نفوسهم - أنهم لن يصيبهم بلاء ولا عقاب بتكذيبهم للرسل
وقتلهم لهم ، فأمنوا عقاب الله ، وتنادوا في فنون البغي والفساد ، وعموا وصموا
عن دلائل الهدى والرشاد التي جاء بها الرسل ، واشتملت عليها الكتب السماوية
« ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، أَيْ : قبل توبتهم بعد أن رجعوا عما كانوا عليه من فساد
« ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا ، أَيْ : ثم فكسوا على رؤوسهم مرة أخرى فعادوا إلى فسادهم
وحملاتهم وعدوانهم على هدايتهم ، إلا عددا قليلا منهم بقي على إيمانه وتوبته
فأنت ترى أن الآية الكريمة متوقفة لبيان فساد معتقدات بني إسرائيل وما جبلت
عليه نفوسهم من جحود وغرور ... حيث ارتكبوا ما ارتكبوا من جرائم
ومنكرات تقشعر لها الأبدان ... ومع كل ذلك حسبوا أن الله - تعالى -
لا يعاقبهم عليها ، لأنهم - كما يزعمون - أبناء الله وأحباؤه ... وأنهم بعد أن
تاب الله عليهم تقضوا عهودهم معه وعادوا إلى عمام عن الدين الذي نجاههم به
رسلهم وإلى صممهم عن الاستماع إلى الحق الذي ألقوه إليهم .

وقوله : « لَا تَكُونُ » قراءة أبو عمر والكسائي وحمزة بضم النون على

اعتبار د أن ، هي المخففة من الثقولة ، وأصله أنه لا تكون فتنة . تخففت د أن ، وحذف ضمير الشأن - وهو اسمها - . وحسبوا على هذه القراءة بمعنى علموا . وتعلق فعل الحسبان بها وهي للتحقيق ، لتزيله منزلة العلم لتمكنه في قلوبهم . وقرأه الباقر بفتح الثون على اعتبار أن د أن ، فاصبة لتكون : وحسب على هذه القراءة على بابها من الشك والظن .

وسد مسد مفعولي حسب على القراءتين ما اشتمل عليه الكلام من المسند والمسند إليه وهو د أن ، وما في حينها . وقوله دفعموا ، معطوف على د حسبوا ، وجىء بالفاء التي للسببية للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها .

أى ان عمهم عن الطريق القويم ، وصممهم عن سماع الحق كان سببه ظنهم الفاسد ، واعتقادهم الباطل أن ما ارتكبوه من قبائح لن يعاقبوا عليه في الدنيا . ومن بديع إيجاز القرآن الكريم أن أو ما إلى عدم اهتمامهم بمصيرهم في الآخرة ببيان أن ظنهم أنهم لن تنزل بهم مصائب في الدنيا يسبب مفاسدهم ، هذا الظن هو الذى جعلهم يرتكبون ما يرتكبون من قبائح . أما الآخرة فلا مكان لها في تفكيرهم ، لأنهم قوم نساء يحرصون على الدنيا حرصا شديدا ، دون أن يعيروا الآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب أى اهتمام .

وهذا شأن الأمم إذا ما استحوذ عليها الشيطان ، وتغلب عليها حب الشهوات وضعف الوازع الدينى فى نفوس أفرادها لهم فى هذه الحالة يصير همهم مقصورا على تدبير شئون دنياهم ، فإذا ما وجدوا فيها ما كلهم وشربهم وملذاتهم اغمضوا أعينهم عن آخرتهم ، بل وربما استهانوا وتهكموا بمن يذكرهم بها فتكون نتيجة إثمارهم الدنيا على الآخرة الشقاء والتعاسة .

وجىء بحرف العطف د ثم ، المفيد للتراخى فى قوله د ثم تاب الله عليهم للإشارة إلى أن قبول توبتهم كان بعد مفاسد عظيمة وقعت منهم أى : ثم تاب الله عليهم بعد أن كان منهم ما كان من منكرات وجرائم وإعراض عن الرشد والهدى .

وقوله : ثم عموا وصمموا ، بيان لنقضهم لعهودهم مع الله ، وارتكاسهم في الذنوب والخطايا والمنكرات . . . ارتكاسا شديدا بحيث صاروا ليسوا أهلا لقبول التوبة منهم بعد ذلك .

أى : بعد أن قبل الله توبتهم من جرائمهم المنكرة .. عادوا إلى الانتكاس مرة أخرى فوقعوا في الذنوب والجرائم بإصرار وعناد ، فأصابهم ما أصابهم من عقوبات لم يقب الله عليهم بعدها .

وقوله : كثير منهم ، يدل من الضمير في قوله : عموا وصمموا ، وهذا الإبدال في غاية الحسن ، لأنه لو قال : عموا وصمموا ، بدون هذا البديل لأوهم ذلك أنهم جميعا صاروا كذلك . فلما قال : كثير منهم ، دل على أن العمى والصمم قد حدث لكثيرين منهم ، وهناك قلة منهم لم تنقض عهودها مع الله - تعالى - بل بقيت على إيمانها وصدق توبتها .

وهذا - كما قلنا مرارا - من إنصاف القرآن للناس في أحكامه ، ودقته في ألفاظه ، واحتراسه فيما يصدر من أحكامه .

وقوله : والله بصير بما يعملون ، تذييل قصده بطلان حساباتهم المذكور . والبصر مبالغة في المبصر وهو هنا بمعنى العليم بذكر ما يكون منهم من أعمال سواء أبصرها الناس أم لم يبصروها .

والمقصود من هذا الخبر لازم معناه ، وهو الإنذار والتذكير بأن الله لا يخفى عليه شيء . . . وسيجاءهم على أعمالهم .

أى : والله - تعالى - عليم بما يعملونه علم من يبصر كل شيء دون أن تخفى عليه خافية ، وسيجازيهم على أعمالهم بما يستحقونه من عذاب أليم .

هذا ، وقد تكلم المفسرون عن وقد التوبة التي كانت بعد عمائم وصممهم وعن العمى والصمم الذي أصابهم بعد ذلك ، وقد أجمل الإمام الرازي كلامهم فقال :

والآية تدل على أن عماد وصممهم عن الهداية إلى الحق حصل مرتين .
واختلف المفسرون في المراد بهاتين المرتين على وجوه :

لأول : المراد أنهم عموا وصموا في زمان زكريا ويحيى وعيسى - عليهم السلام - ثم تاب الله على بعضهم حيث وفق بعضهم الإيمان : ثم عموا وصموا كثير منهم في زمان محمد - صلى الله عليه وسلم - بأن أنكروا نبوته وقلة منهم هي التي آمنت به .

الثاني : المراد أنهم عموا وصموا حين عبدوا العجل ، ثم تابوا عنه فتاب الله عليهم ، ثم عموا وصموا كثير منهم بالتعنت وهو طابعهم رؤية الله جهرة .

الثالث : قال القفال : ذكر الله - تعالى - في سورة الإسراء ما يجوز أن يكون تفسيراً لهذه الآية فقال : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلمن علواً كبيراً » (١) .

والذي نراه أن تحديد عماد وصممهم وتوبتهم بزمان معين أو بجرمة أو جرائم معينة تابوا بعدها ، هذا التحديد غير مقنع .

ولعل أحسن منه أن نقول : إن القرآن الكريم يصور ما عليه بنو إسرائيل من صفات ذميمة ، وطبائع معوجة ، ومن نقض للعمود والمواثيق فبه أخذ الله عليهم العمود فنقضوها ، وأرسل إليهم الرسل فاعتدوا عليهم ، وظنوا أن عدوانهم هذا شيء هين ولن يصيبهم بسببه عقاب دنيوي ، فلما أصابهم العقاب الدنيوي كالحط والوباء والهرائم . . . بسبب مفاسدهم ، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ورفع عنهم عقابه ، فعادوا إلى عماد وصممهم - إلا قليلاً منهم - وارتكبوا ما ارتكبوا من منكرات بتصميم وتكرار فأصابهم - سبحانه - بفتن لم يتب عليهم منها . وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، (٢)

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٢ ص ٥٧

(٢) سورة المنكيات الآية ٤٠

وبعد أن بين - سبحانه - أنماطاً من قبائح اليهود ومن صفاتهم الذميمة...
شرع في بيان قبائح النصارى وضلالانهم... وأرشدهم إلى طريق الحق
والصواب، وحذرهم من السير في طريق الغواية والعناد فقال - تعالى - :

«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح
يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم، إنه من يشرك بالله فقد حرم
الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار (٧٢) لقد كفر
الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد، وإن لم
ينتهوا عما يقولون لمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم (٧٣) أفلا
يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم (٧٤) ما المسيح ابن مريم
إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمة صديقة كانوا يأكلون الطعام
انظر كيف نبين لهم الآيات، ثم انظر أنى يؤفكون (٧٥)» .

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما استقصى الكلام مع اليهود،
شرع ههنا في الكلام مع النصارى، فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا : إن الله
هو المسيح ابن مريم .

وهذا هو قول اليعقوبية ؛ لأنهم يقولون : إن مريم ولدت لإلهاً . ولعل
معنى هذا المذهب أنهم يقولون : إن الله - تعالى - جل في ذات عيسى وانحد
بذات عيسى... (١) .

واللام في قوله : «لقد كفر...» ، واقعة جواباً لقسم مقدر .
والمراد بالكفر : ستر الحق وإنكاره ، والافتقار في الباطل والضلال .
أى : أقسم لقد كفر أولئك النصارى الذين قالوا كذباً وزوراً : إن الله
المستحق للعبادة والخضوع هو المسيح ابن مريم .

وقد أكد - سبحانه - كفرهم بالقسم المقدس ؛ لأنهم غالوا في إطراء عيسى وفي وضعه في غير موضعه ، كما غالت اليهود في الكفر به وفي وصفه بالأوصاف التي هو بريء منها .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى في الرد على من جعلوه إلهًا فقال :
« وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم . . . »

٦ أى : وقال المسيح مكذبًا لمن وصفه بالالهوية : يا بني إسرائيل اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا ، فهو ربي الذي خلقتني وتعمدني بالتربية والرعاية ، وهو ربي - أيضا - الذي أنشأكم وأوجدكم ورزقكم من الطيبات .

والواو في قوله : « وقال المسيح . . . » للحال . والجملة حالية من الواو التي هي فاعل ، قالوا . . .

أى : قولوا ما قالوا ، والحال أن عيسى قد تبرأ مما قالوه . وقال لبني إسرائيل حين إرساله إليهم : اعبدوا الله ربي وربكم .

وقوله : « ربي وربكم » تنبيه إلى ما هو الحجة القاطعة على فساد قولهم المذكور ؛ لأن عيسى لم يفرق بينه وبين غيره في العبودية لله - تعالى - لأنه - سبحانه - هو الخالق له ولهم ولكل شيء .

ثم حكى - سبحانه - ما قاله عيسى محذرا من الإشراك فقال : « إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » .
وهذه الجملة تعليل للأمر بعبادة الله وحده . والضمير المقترن بإن ضمير الشأن والمراد بتحريم الجنة على المشرك : منعه من دخولها ، لإشراكه مع الله آلهة أخرى .

والماوى : المسكان الذي يأوى إليه الإنسان . أى يرجع إليه ويستقر فيه .
أى : قال المسيح لبني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، لأنه أى الحال والشأن « من يشرك بالله » شيئًا في عبادته - سبحانه - « فقد حرم الله عليه الجنة » أى : منعه من دخولها ، بسبب شركه وكفره ، وجعل « مأواه النار »

أى : جعل مستقره ومكانه النار بدل الجنة ، وما للظالمين من أنصار وينصرونهم بأن ينقذوهم مما فيه من بلاء وشقاء وعذاب مقيم .

فالجملة السكرية تحذير شديد من الإشرak بالله ، وبيان لما سيثول إليه حال المشركين من تعاسة وشقاء .

وجمع - سبحانه - بين العقوبة السالبة للمشركين وهى حرمانهم من الجنة وبين العقوبة الإيجابية وهى استقرارهم فى النار ، الإشارة إلى عظيم جرمهم حيث أشركوا بالله ، وتقولوا عليه الأقاويل الباطلة التى تدل على جهلهم وسفاهتهم .

والمراد بالظالمين : المشركون الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم فتكون آل للمهد .

وبجوز أن يراد بهم كل ظالم بسبب إشرake وكفره ويدخل فيه هؤلاء دخولا أوليا فتكون آل للجنس .

وقال - سبحانه - ، وما للظالمين من أنصار ، بصيغة الجمع لأنصار ، وبالتأكيد بمن المفيدة للاستغراق ، للإيدان بأنه إذا كان الظالمون لن يستطيع الأنصار مجتمعين أن ينصروهم فمن باب أولى لن يستطيع واحد أن ينصرهم .

أى : ما لهم من أحد كائنا من كان أن ينقذهم من عقاب الله بأى طريقة من الطرق .

وهذه الجملة السكرية يحتمل أن تكون من كلام عيسى الذى حكاه الله عنه - كما سبق أن ذكرنا - ويحتمل أن تكون من كلام الله - تعالى - وقد ساقها - سبحانه - لتأكيد ما قاله المسيح من أمره لقومه بعبادة الله وحده ، ولتقرير مضمونه المفيد للتحذير من الإشرak .

وقوله - تعالى - ، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة . . . ، بيان لما قالته طائفة أخرى من طوائف النصارى الذين يتفرقون فى العقائد والنحل ، ويتجمعون على الكفر والضلال ، فهم شيع شتى ، وفرق متنافذة ، كل شعبة منهم يكفر الأخرى وتعارضها فى معتقداتها .

قال الفخر الرازي مامليخصه : في تفسير قول النصارى : إن الله ثالث ثلاثة ، طريقان : الأول أنهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة . والذي يؤكد ذلك قوله - تعالى - للمسيح ، أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، فقوله : ، ثالث ثلاثة ، أى : أحد ثلاثة آلهة . أو واحد من ثلاثة آلهة

والطريق الثانى . أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون : جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم : أب ، وابن ، وروح القدس . وهذه الثلاثة إله واحد ، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة ، وعنوا بالآب الذات . وبالأبن الكلمة .

وبالروح الحياة . وأنبتوا الذات والكلمة والحياة ، وقالوا : إن الكلمة التى هى كلام الله اختلعت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخر أو اللبن . فزعموا أن الآب إله ، والأبن إله ، والروح إله ، والكل إله واحد .

ثم قال الإمام الرازى : واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل ، فإن الثلاثة لا تكون واحدا ، والواحد لا يكون ثلاثة ، ولا يرى فى الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى ، (١) :

وقد ذكر بعض المفسرين أن الذين قالوا من النصارى إن الله ثالث ثلاثة هم النسطورية والمرقسية (٢) .

ومعنى ثالث ثلاثة : واحد من ثلاثة . أى : أحد هذه الأعداد مطلقا وليس الوصف بالثالث ، فقد ذكر النحاة أن اسم الفعل المصوغ من لفظ اثنين وعشرة وما بينهما لك أن تستعمله على وجوه منها : أن تستعمله مع أصله الذى صيغ هو منه ، لينبذ أن الموصوف به بعض تلك العدة المعينة لا غير . فتقول : رابع أربعة أى : واحد من أربعة وليس زائدا عليها ، ويجب حينئذ إضافته إلى أصله .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٢ ص ٦٠

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٥١٣

وقوله : « وما من إله إلا إله واحد » ، بيان للاعتقاد الحق بعد ذكر الاعتقاد الباطل .

وقد جاءت هذه الجملة بأقوى أساليب القصر وهو اشتغالها على « ما » و « إلا » ، مع تأكيد النفي بمن المفيدة لاستغراق النفي .

والمعنى : لقد كفر الذين قالوا كذبا وزورا إن الله واحد من آلهة ثلاثة ، والحق أنه ليس في هذا الوجود إله مستحق للعبادة والخضوع سوى إله واحد وهو الله رب العالمين ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وربهم بنعمته . وإليه وحده مرجعهم وإليابهم .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة هؤلاء الضالين الذين قالوا ما قالوا من ضلال وكذب فقال - تعالى - : « وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » .

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على قوله : « لقد كفر » ، والمراد بانتهائهم : رجوعهم عما هم عليه من ضلال وكفر .

والمراد بقوله : « عما يقولون » : أى عما يعتقدون وينطقون به من زور وبهتان .

أى : لقد كفر أولئك الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة كفرا شديدا بينا ، والحق أنه ليس في الوجود سوى إله واحد مستحق للعبادة ، وإن لم يرجع هؤلاء الذين قالوا بالتثليث عن عقائدهم الزائفة وأقوالهم الفاسدة ويعتصموا بعروة التوحيد « ليمسن الذين كفروا منهم » أى « لبصين الذين استمروا على الكفر منهم عذاب أليم » .

فالجملة الكريمة تحذير من الله - تعالى - لهم عن الاستمرار في هذا القول الكاذب . والاعتقاد الفاسد الذى يتنافى مع العقول السليمة ، والأفكار القويمة .

وقوله : « ليمسن » ، جواب لقسم محذوف ، وهو ساد مسد جواب

الشرط المحذوف في قوله : «لأن لم ينتهوا...» ، والتقدير : والله إن لم ينتهوا... ليمسن ..

وأكد - سبحانه - وعيدهم بلام القسم في قوله : «ليمسن...» ، ردأعلى اعتقادهم أنهم لا تمسهم النار ، لأن صلب عيسى - في زعمهم - كان كفارة عن خطايا البشر .

وعبر بالمس للإشارة إلى شدة ما يصيبهم من آلام : لأن المراد أن هذا العذاب الآليم يصيب جلدهم وهو موضع الإحساس فيهم لإصابة مستمرة ، كما قال - تعالى - في آية أخرى : «كلما فضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليعذروا العذاب...» (١) .

وقال - سبحانه - «ليمسن الذين كفروا...» ، بالتعبير بالظاهر دون الضمير للإشارة إلى سبب العذاب وهو كفرهم ؛ لأن التعبير بالموصول يشير إلى أن الصلة هي سبب الحكم .

ومن في قوله «منهم» ، يصح أن تكون تبيينية أي : ليمسن الذين استمروا على الكفر من هؤلاء النصاري عذاب أليم ، لأن كثيراً منهم لم يستمروا على الكفر ، بل رجعوا عنه ودخلوا في دين الإسلام .

ويصح أن تكون بيانية . وقد وضع ذلك صاحب الكشف بقوله : ومن في قوله : «ليمسن الذين كفروا منهم...» للبيان كالتى في قوله «فاجتنبوا الرجس من الأوثان...» .

والمعنى : ليمسن الذين كفروا من النصاري خاصة ، عذاب أليم ، أى نوع شديد الألم من العذاب .. كما تقول : أعطى عشرين من الثياب . تريد من الثياب خاصة لا من غيرها من الأجناس التى يجوز أن يتناولها عشرون... (٢) . وبعد هذا الترهيب الشديد للكافرين من العذاب الآليم ، فتح لهم - سبحانه -

(١) سورة النساء : الآية ٥٦ .

(٢) تفسير الكشف ج ١ ص ٦٦٤ .

باب رحمة ، حيث رغبتهم في الإيمان ، وأنكر عليهم تقاعسهم عنه بعد أن ثبت بطلان ما هم عليه من عقائد فقال - تعالى - : « أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » .

والاستفهام هنا يتضمن حضمهم على التوبة والرجوع إلى الحق وتوبيخهم على ما كان منهم من ضلال . والتعجب من استمرارهم على كفرهم وعقائدهم الفاسدة التي لا يقبلها عقل سليم ، ولا تصور قويم .
والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلام . أي : أسمعون ما يسمعون من الحق الذي يزدق باطلهم ، ومن النذر التي ترقق القلوب... فلا يحملهم ذلك على التوبة والرجوع إلى الله وطالب مغفرته ، والحال أنه - سبحانه - عظيم المغفرة واسع الرحمة لمن آمن وعمل صالحا .

إن إصرارهم على كفرهم بعد تفنيده وإبطاله ، وبعد تحذيرهم من سوء عاقبة الكافرين... ليدل على أنهم قوم ضالون خاسرون يستحقون أن يكونوا محل عجب الناس وإهمالهم...

قال أبو السعود : وقوله ، والله غفور رحيم ، جملة حالية من فاعل « يستغفرونه » مؤكدة الإنكار والتعجب من إصرارهم على الكفر وعدم مصارعتهم إلى الاستغفار .

أي : والحال أن الله - تعالى - ، بالغ في المغفرة . فيغفر لهم عند استغفارهم ويمنحهم من فضله ، (١) .

وقال ابن كثير : هذا من كرمه - تعالى - وجوده ولطفه ورحمته بخلقه . مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب والإفك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة . فكل من تاب إليه تاب عليه . كما قال ، والله غفور رحيم ، فيغفر لهؤلاء إن تابوا ولغيرهم (٢) .

ثم بين - سبحانه - حقيقة عيسى عليه السلام - وحقيقة أمه مريم حتى

(١) تفسير أبو المحلة ج ٧ ص ٥٠ .

(٢) المفردات في غريب القرآن للسكري ص ٢٧٧ .

ينزل عن ساحتهما ما افتراه عليهما المفترون فقال - تعالى - : ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمة صديقة كأننا بآكلان الطعام ... ، وقوله ، صديقة ، صيغة مبالغة في التمسك بفضيلة الصدق مثل شرب ومسيك مبالغة في الشرب والمسك .

قال الراغب : والصديق من كثر منه الصدق ، وقيل : بل يقال لمن لم يكذب قط ، وقيل : بل لمن لا يأتي منه المكذب لتعوده الصدق ، وقيل ، لمن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله ... قال تعالى - : أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ... ، فالصديقون هم قوم دون الأنبياء في الفضيلة ... (١) .

والمعنى : إن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، قد قالوا منكرا وزورا ، إذ ليس الألوهية إلا لله وحده ... وليس المسيح عيسى ابن مريم سوى بشر من البشر ورسول مثل الرسل الذين سبقوه كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم من الرسل الذين مضوا دون أن يدعى واحد منهم الألوهية ... وأما أم عيسى مريم فما هي إلا أمة من إماء الله كسائر النساء ديدنها الصدق مع خالقها - عز وجل - أو التصديق له في سائر أمورها ... وهما - أي عيسى وأمه مريم - عبدان من عباد الله كأننا بآكلان الطعام ، ويشربان الشراب ... ويتصرفان كما يتصرف سائر البشر فكيف ساغ لكم - يا معشر النصارى - أن تصفوها بأنهما إلهين مع أن طبيعتهما الظاهرة أمامكم تتنافى تنافيا تاما مع صفات الألوهية : إن وصفكم لهما بالألوهية لدليل واضح على فساد عقولكم ، وضلال تفكيركم ، وعظيم جهلكم ...

وقوله ، ما المسيح ابن مريم إلا رسول ، جملة مشتملة على قصر موصوف على صفة ، وهو قصر إضافي ، أي أن المسيح مقصور على صفة الرسالة لا يتجاوزها إلى غيرها وهي الألوهية . فالقصر قصر قلب لرد اعتقاد النصارى في عيسى أنه الله ، أو أنه جزء من الله ، أو أنه أحد أحد آلهة ثلاثة .

وقوله : « قد خلت من قبله الرسل ، صفة للرسول وهو عيسى أريد بها بيان أنه مساو للرسل الكرام الذين سبقوه في تبليغ رسالة الله إلى الناس ، وأنه ليس بديعاً في هذا الوصف وإذا فلاشبهة للذين زعموا أنه إله ، لأنه لم يجيء بشيء زائد على ما جاء به الرسل .

وقوله . . « وأمه صديقة ، معطوف على قوله : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول ، والقصد من وصف مريم بذلك مدحها والثناء عليها ، ونفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك ، فهي ليست إلهاً ، كما أنها ليست رسولاً ،

ولذا قال ابن كثير : دلت الآية على أن مريم ليست بنبيه - كما زعمه ابن حزم وغيره - من ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم عيسى ونبوة أم موسى - استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم وبقوله : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، . والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال - قال تعالى - « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى (١) » .

وقوله : « كانا يأكلان الطعام ، جملة مستأنفة لبيان خواصهما الآدمية بعد بيان منزلتهما السامية عند الله - تعالى -

وقد اختيرت هذه الصفة لهما من بين صفات كثيرة كالمشرب والملبس . . . لأنها صفة واضحة ظاهرة للناس ، ودالة على احتياجهما لغيرهما في مطالب حياتهما ، ومن يحتاج إلى غيره لا يكون إلهاً . . .

وقال صاحب الكشف : لأن من احتاج إلى الاغذاء بالطعام ، وما يتبعه من الهضم والنفص ، لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم وعروق وأعصاب وأخلاط وأمزجة مع شهوة . . . وغير ذلك مما يدل على أنه مصنوع مؤلف كغيره من الأجسام وحاشا للإله أن يكون كذلك (٢)

ففي هذه الجمل الكريمة رد على ما زعمه النصارى في شأن عيسى وأمه

(١) تفسير ابن كثير ج ٨١٢ (٢) تفسير الكشف ج : ٦٦٥

بأبلغ وجه وأحكمه ، ولذا عجب الله - تعالى - رسوله وكل من يصلح
للخطاب من جهلهم وبعدهم عن الحق مع وضوحه وظهوره فقال : « أنظر كيف
فبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفلون ، أى : ينصرفون . يقال أفكك يافكك
إذا صرفه عن الشيء . »

أى : انظر - يا محمد - كيف بين لهم الأدلة الممنوعة على حقيقة عيسى
وأمه بيانا واضحا ظاهرا ، ثم انظر بعد ذلك كيف ينصرفون عن الإصاخة
إليها والتأمل فيها لسوء تفكيرهم ، وإستيلاء الجهل والوهم والعناد على عقولهم .
فالملتان الكريمتان تعجيب لكل عاقل من أحوال النصارى الذين زعموا
أن الله هو المسيح ابن مريم ، أو أن الله ثالث ثلاثة . . . مع أنه - سبحانه -
أقام لهم الأدلة المتعددة على بطلان ذلك .

وكرر الله - سبحانه - الأمر بالنظر المبالغة فى التعجيب من أحوالهم
الغريبة وجيء بهم المفيدة للتراخى فى قوله « ثم انظر أنى يؤفكون ، لإظهار
ما بين وضوح الآيات وإنصرافهم عنها من تفاوت شديد أى : أن بيانا الآيات
أمر بديع فى بابه بحيث يجعل كل عاقل يستجيب لها ، ويخضع لما تدعو إليه
من هدايات وخيرات . . . وإنصراف هؤلاء الضالين عنها - مع وضوحها
وتعاضد ما يوجب قبولها - أمر يدعو إلى العجب الشديد من جهلهم وضلالهم
وسوء تفكيرهم . »

ثم تابع - سبحانه - حديثه عن ضلال أهل الكتاب وجهالتهم فامر
رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يوبخهم على عنادهم وغفلتهم وأن
يواصل دعوتهم إلى الدين الحق فقال - تعالى - :

« قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ
الْحَقِّ . وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ،
وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) . »

والاستغهام في قوله « أتعبدون » ، لإنكار واقعهم والتعجيب عما وقع منهم ،
وتوبيخهم على جهلهم وغفلتهم .
و « ما » في قوله « مالا يملك » ، يجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي وأن تكون
منكرة موصوفة . والجملة بعدها صلة فلا محل لها من صلة فعلها النصب .
وقوله « يملك » ، من المملك بمعنى حيازة الشيء . والتمكن من التصرف فيه
بدون عجز .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء الضالين من النصارى وأشباههم في الكفر
والشرك . قل لهم : أتعبدون معبودات غير الله - تعالى - هذه المعبودات لا يملك
أن تصيدكم شيء . من الضرر كالمرض والفقر ، ولا يملك أيضا أن تنفعكم بشيء
من النفع كبسط الرزق ودفع الضرر وغير ذلك عما أنتم في حاجة إليه .
فالمراد بما لا يملك : كل ما عبد من دون الله من حجر أو وثن أو غيرها
فتسكون . ما ، للعموم وليست كناية عن عيسى وأمه فحسب .
وقد سار على هذا المعنى ابن كثير فقال : يقول - تعالى - منكراً على من
عبد غيره من الأصنام والأوثان والأنداد ، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من
الالوهية فقال - تعالى - « قل ، أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر
فرق بني آدم ، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ، أتعبدون من دون الله مالا
يملك لكم ضرراً ولا نفعاً ... » (١) .

ويرى كثير من المفسرين أن المراد بقوله : « مالا يملك » ، عيسى - عليه
السلام - أو هو وأمه لأن الكلام مع النصارى الذين قال بعضهم : إن الله هو
المسيح ابن مريم . وقال آخرون منهم : إن الله ثالث ثلاثة ، فتسكون الآية
دليلاً آخر - بعد الأدلة السابقة - على فساد أقوال النصارى في عيسى وأمه
مريم .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء النصارى أتعبدون من دون الله عيسى وأمه

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٨٢ .

وهما لا يستطيعان أن يضركما بشيء من الضرر في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكما بشيء من النفع كما يجاد الصحة والخصب والسبعة، لأن الضر والنفع من الله وحده وكل ما يستطيعه البشر من المضار أو المنافع هو بتمكين الله لهم وليس بقدرتهم الذاتية .

وأثرت دما ، على د من ، لتحقيق ما هو المراد من كونهما بمعزل من الألوهية رأساً ببيان انتظامها في مسلك الأشياء التي لا قدرة لها على شيء أصلاً ولا شك أن من صفات الرب أن يكون قادراً على كل شيء ، فقول النصارى بأن الله هو المسيح ابن مريم أو هو ثالث ثلاثة ، قول ظاهر البطلان واضح الفساد .

وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تنفي أن يكون هناك إله سوى الله - تعالى - يستحق العبادة والخضوع ، لأنه - سبحانه - هو المالك لكل شيء ، والخالق لكل شيء ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

وقدم - سبحانه - الضر على النفع فقال : د ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعا ، لأن النفوس أشد تطلعا إلى دفعه من تطلعا إلى جلب الخير ، ولأنهم كانوا يعبدون غير الله - تعالى - وهمم الأكبر أن هذا المعبود يستطيع أن يقربهم إلى الله زلفى ، وأن يمنع عنهم المصائب والأضرار .

وقوله : د والله هو السميع العليم ، في محل نصب على الحال . من فاعل د تعبدون ، أى أتعبدون آلهة سوى الله لا تملك ضرركم أو نفعكم وتتركون عبادة الله والحال أن الله وحده هو السميع لكل ما تنطقون به ، العليم بجميع أحوالكم وأعمالكم ، وسيحاسبكم على ذلك ، وسيجازيكم على أقوالكم الباطلة وعقائدكم الزائفة ، بما تستحقون من عذاب اليم .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى طريق الحق ، ونهاهم عن الغلو الباطل فقال : د قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم . . . والغلو مصدر غلا في الأمر : إذا تجاوز الحد . وهو نقيض التقصير .

وقد نهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الغلو حتى في الدين ، فقد روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين ، (١).

وروى البخاري عن عمر بن الخطاب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ إنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله ، (٢).

وروى مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : هلك المنتطون . قالها ثلاثة ، (٣) والمتطعون هم المتشددون المتجاوزون للحدود التي جاءت بها تعاليم الإسلام .

وقد غالى أهل الكتاب في شأن عيسى - عليه السلام - . أما اليهود فقد كفروا به ونسبوه إلى الزنا وافتروا عليه وعلى أمه افتراء شديداً . . . وأما النصارى فقد وصفوه بالالوهية فوضعوه في غير موضعه الذي وضعه الله فيه وهو منصب الرسالة . . . وكما غالوا في شأن عيسى - عليه السلام - فقد غالوا أيضاً في تمسكهم بمعتقدهم الزائفة ، مع أن الدلائل الواضحة قد دلت على بطلانها وفسادها . وقوله : غير الحق ، منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف . أى : لا تغلوا في دينكم غلوا غير الحق . أى : غلوا باطلا .

وقوله : . . . ولا تتبعوا أهواء قوم . . . ، معطوف على قوله : . . . ولا تغلوا . . . قال الفخر الرازي : الأهواء - ههنا - المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة .

قال الشعبي : ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه . قال : . . . ولا تتبع

(١) مسند الإمام أحمد ج ٢ حديث رقم ٢٢٥ طبعة الحلبي .

(٢) صحيح البخاري باب وإذا كرفي الكتاب مريم من كتاب الأنبياء ج ٤ ص ٢٠٤

(٣) صحيح مسلم كتاب العلم ج ٨ ص ٥٨ .

الهُوى فيضلك عن سبيل الله ، وقال : « واتبع هواه فتردى ، وقال : « وما ينطق
من الهوى ، وقال : « أرايت من اتخذ إلهه هواه . »

وقال أبو عبيدة : لم نجد الهوى يوضع إلا في الشر لا يقال : فلان يهوى
الخير . إنما يقال : يريد الخير ويحببه .

وقيل : سمي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه في النار . وأشد في ذم
الهوى :

إن الهوى هو الهوان بعينه فإذا هويت فقد لقيت هواناً

وقال رجل لابن عباس : الحمد لله الذي جعل هواي على هواك . فقال
ابن عباس : كل هوى ضلالة، (١).

والمعنى : قل يا محمد لأهل الكتاب الذين تجاوزوا الحدود التي تقرأها
الشرائع والعقول السليمة : قل لهم يا أهل الكتاب : « لا تغلوا في دينكم غير
الحق ، أي : لا تتجاوزوا حدود الله تجاوزاً باطلاً ، كأن تعبدوا سواه مع
أنه هو الذي خلقكم ورزقكم ، وكان تصفوا عيسى بأوصاف هو برى منها .

وقل لهم أيضاً : « ولا تتبعوا أهواء قوم ، أي : ولا تتبعوا شهوات
وأفوال قوم من أسلافكم وعلماؤكم ورؤسائكم ، قد ضلوا من قبل ، أي :
قد ضلوا من قبل بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - بتحريفهم للكتب السماوية
وتركهم لتعاليمها جرياً وراء شهواتهم وأهوائهم ، وأضلوا كثيراً ، أي أنهم لم
يكتفوا بضلال أنفسهم بل أضلوا أناساً كثيرين سواهم ممن قلدهم ووافقهم على
أكاذيبهم وقوله : « وضلوا عن سواء السبيل ، معطوف على قوله : قد ضلوا
من قبل . »

أي أنهم قد ضلوا من البعثة النبوية الشريفة ، وضلوا من بعدها عن سواء
السبيل ، أي : عن الطريق الواضح الذي أتى به النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) تفسير المنذر الرازي ج ١٢ ص ٦٣ .

وهو طريق الإسلام، وذلك لأنهم لم يتبعوه - صلى الله عليه وسلم - مع معرفتهم
بصدقه ؛ بل كفروا به حسدا له على ما آتاه الله من فضله .

فأنت ترى أنه - تعالى - قد وصفهم - كما يقول الإمام الرازي - بثلاث
درجات في الضلال : فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ، ثم ذكر أنهم كانوا
مضلين لغيرهم ، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى أنهم الآن ضالون
كما كانوا ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقابه من هذه
الحالة . ويحتمل أنهم ضلوا وأضلوا ثم ضلوا بسبب اعتقادهم في ذلك الإضلال
أنه إرشاد إلى الحق (١) .

هذا ، وما أخذه العلماء من هذه الآية الكريمة أن الغلو في الدين لا يجوز
وهو مجاوزة الحق إلى الباطل . وقد سبقنا من الآثار ما يشهد بذلك عند تفسيرنا
لصدر الآية الكريمة .

قال صاحب الكشف ما ملخصه دلت الآية على أن الغلو في الدين غلو وان
غلو حق ، وهو أن يفحص عن حقائقه ، ويفتش عن أبعاد معانيه ، ويجتهد
في تحصيل حججه كما يفعل المتكلمون . . . وغلو باطل ، وهو أن يتجاوز الحق
ويتخطاه بالإعراض عن الأدلة واتباع الشبه . كما يفعل أهل الأهواء والبدع
والضلال (٢) .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك بعض الرذائل التي شاعت في بني إسرائيل ،
والتي بسببها استحقوا اللعن والطرده من رحمة الله فقال - تعالى - :

«لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ
مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ
مَنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ترى كثيرا منهم يتولون

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٢ ص ٦٤ .

(٢) تفسير الكشف ج ١ ص ٦٦٦ .

الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي المذابيم خالدون (٨٠) ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوا أولياء ، ولكن كثيرا منهم فاسقون (٨١) .

وقوله : لعن ، من اللعن بمعنى الطرد من رحمة الله . قاللمعون هو المحروم من رحمته - سبحانه - ولطفه وعنايته .

والمعنى : لعن الله - تعالى - الذين كفروا من بني إسرائيل بأن طردهم من رحمته ، على لسان نبيين كريمين هما داود وعيسى - عليهما السلام -

وقد جاء الفعل : لعن ، بالبناء للمجهول ، لأن الفاعل معلوم وهو الله - تعالى - ، ولأن الأنبياء ومنهم داود وعيسى لا يلعنون أحدا إلا بإذن الله - سبحانه - .

وقوله : من بني إسرائيل ، في محل نصب على الحال من الذي كفروا ، أو من فاعل كفروا ، وهو واو الجماعة .

وقوله : على لسان داود وعيسى ابن مريم ، متعلق بلعن . أى : لعنهم - سبحانه - في الزبور والإنجيل على لسان هذين النبيين الكريمين اللذين كان أولهما - بحسب منصب الرسالة - قائدا مظفرا نادم إلى النصر بعد الهزيمة ... وكان ثانيهما وهو عيسى - عليه السلام - رسولا مسالما جاءهم ليحل لهم بعض الذين حرم عليهم

قال الألوسي : لعنهم الله - تعالى - في الزبور والإنجيل على لسان داود وعيسى ابن مريم بأن أنزل في هذين الكتابين : ملعون من يكفر من بني إسرائيل بالله أو بأحد من رسله .

وقيل : إن أهل أيلة لما اعتدوا في السبت قال داود : اللهم ألبسهم اللعن مثل الرداء ومثل المنطقة على الحقوين . فسخمهم الله قردة .

وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى قال : اللهم عذب من كفر من المائدة هذا بما لم تعذبه أحدا من العالمين ، وألعنهم كما لعنت أصحاب السبت ^(١) .
وقوله : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ، بيان لسبب لعنهم وطردهم من رحمة الله .

واسم الإشارة « ذلك » يعود إلى اللعن المذكور .
أى : ذلك اللعن للكافرين من بنى إسرائيل سببه عصيانهم لله ولرسوله ، وعدوانهم على الذين يأمرونهم بالقسط من الناس .
أى أن لعنهم لم يكن اعتباطا أو جزافا ، وإنما كان بسبب أقوالهم القبيحة وأفعالهم المنكرة ، وسلوكهم السيء

وقوله : « ذلك بما عصوا » جملة من مبتدأ وخبر . وقوله : « وكانوا يعتدون » معطوف على صلة ما وهو « عصوا » ، فيكون داخلا في حيز السبب الذى أدى إلى لعنهم والجملة المكونة من اسم الإشارة « ذلك » وما بعدها مستأنفة واقعة موقع الجواب لسؤال تقديره ، لماذا لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل . . . ؟

وقد أفاد اسم الإشارة مع باء السببية ومع وقوع الجملة في جواب سؤال مقدر ، أفاد مجموع ذلك ما يشبه القصر .
وقد أشار صاحب الكشف إلى هذا المعنى بقوله : قوله « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

أى : لم يكن ذلك اللعن الشنيع إلا لأجل المعصية والاعتداء لا لشيء آخر ^(٢) ،
وعبر - سبحانه - عن عصيانهم بالماضى فقال « ذلك بما عصوا » ، الإشارة إلى استقرار العصيان في طبائعهم ، وثباته في نفوسهم وجوارحهم .
وعبر عن عدوانهم بالمضارع ، الإيذان بأنه مستمر قائم ، فلم يتركوا

(١) تفسير الألوسى ج ٦ ص ٢١١ .

(٢) تفسير الكشف ج ١ ص ٦٦٧ .

نبيا إلا وآذره ، ولم يتركوا مصلحا إلا واعتدرا عليه فاعتدواهم على المصلحين مستر كل زمان ومكان .

ثم فسّر - سبحانه - عصيانهم وعدوانهم بقوله : كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ، .
وقوله : يتناهون ، من التناهى .

قال الفخر الرازى : وللتناهى ههنا معنيان :
أحدهما - وهو الذى عليه الجمهور - أنه تفاعل من النهى . أى : كانوا لا ينهى بعضهم بعضا .

روى ابن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : من رضى عمل قوم فهو منهم . ومن كثر سواد قوم فهو منهم ،
والمعنى الثانى فى التناهى أنه بمعنى الانتهاء عن الأمر ، وتناهى عنه إذا كف عنه ، (١)

والمنكر : هو كل ما تذكره الشرائع والعقول من الأقوال والأفعال .
أى أن من ، ظاهر عصيان الكافرين من بنى إسرائيل وتعميدهم مما أدى إلى لعنهم وطردهم من رحمة الله ، أنهم كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن اعتراف المنكرات . واجترأح السيئات ، بل كانوا يرون المنكرات ترتكب فيسكتون عليها بدون استنكار مع قدرتهم على منعها قبل وقوعها

وهذا أثر ما تصاب به الأمم فى حاضرها ومستقبلها : أن تفشو فيها المنكرات والسيئات والذائل ، فلا يجد من يستطيع تغييرها وإزالتها . . .
وقوله : لبئس ما كانوا يفعلون ، ذم لهم على كثرة ولوغهم فى المعاصى والمنكرات ، وتعجب من سوء فعلهم .

واللام فى قوله : لبئس ، لام القسم ، فكأنه - سبحانه - قال : أقسم لبئس ما كانوا يفعلون ، وهو ارتكاب المعاصى والعدوان وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قال صاحب الكشف : قوله : « ابئس ما كانوا يفعلون » ، للتعجيب من سوء فعلهم مؤكداً لذلك بالقسم . فيا حيرة على المسلمين في إعراضهم عن باب التناهي عن المنكر ، وقلة عيبتهم به ، كأنه ليس من ملة الإسلام في شيء مع ما يتلون من كلام الله وما فيه من المبالغات في هذا الباب .

فإن قلت ما معنى وحف المنكر بفعلوه ، ولا يكون المنهى بعد الفعل ؟ قلت : معناه لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله كما ترى أمارات الخوض في الفسق وآلاته تسوى وتهمياً فتتذكر ... (١) .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنهما قوام الأمم ، وسياج الدين ، ولا صلاح لأمة من الأمم إلا بالقيام بحقهما .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية عدداً من الأحاديث في هذا المعنى .

ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي سـ عبيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده . فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان .

وروى الإمام أحمد في معنى الآية عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نههم علماءهم فلم ينتهوا ، فجالسهم في مجالسهم أو في أسواقهم وواكلهم وشاربهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

قال ابن مسعود : وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متكئاً في مجلس فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أضراً - أي تحملوهم على التزام الحق وتعطفوهم عليه .

وروى الترمذى عن حذيفة بن اليمان : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
لذى نفس بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أوليوشكن الله أن
يثبت عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم :

وروى الامام أحمد عن عدى بن عميرة - رضى الله عنه - قال : سمعت
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله لا يهذب العامة بعمل الخاصة حتى
يألف المنكر بين ظهرائهم وهم قادرون على أن ينكروه . فإذا فعلوا ذلك
العامة والخاصة .

وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك قال يا رسول الله ، متى فترك الأمر
مأروف والنهي عن المنكر ؟ قال : إذ ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم قلنا :
رسول الله ، وما الذى ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال الملك في صغاركم ، والفا حشة
كباركم ، والعلم في رذالتكم (١) أى في فساقكم .

هذا جانب من الأحاديث التى وردت في وجوب الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر . فعلى الأمة الاسلامية أن تقوم بحقوقها حتى تكون مستحقة لمداح
- تعالى - لها بقوله : وكنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف
تنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ... (٢) .

ثم حكى - سبحانه - ما كان يقوم به اليهود في العهد النبوى من تحالف
المشركين ضد المسلمين فقال : و ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا .
أى : ترى - أيها الرسول الكريم - كثيراً من بنى إسرائيل المعاصرين لك
الذين الكافرين وبخالفونهم عليك ؛ بسبب حسدهم لك على ما آذاك الله
فضله وبسبب كراهتهم للإسلام والمسلمين .

والذى يقرأ تاريخ الدعوة الاسلامية يرى أن اليهود كانوا دائماً يضعون
إفيل في طريقها ، ويناصرون كل محارب لها ، ففي غزوة الأحزاب انضم

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) - سورة آل عمران الآية ١١٠

بنو قريظة إلى المشركين ولم يقيموا وزنا لليهود والمواثيق التي كانت بينهم وبين المسلمين^(١).

وفي كل زمان ومكان ترى أن اليهود يحاربون الإسلام والمسلمين ،
ويؤيدون كل من يريد لهما الشرور والأضرار .

وقوله : « لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون » ، ذم لهم على موالاتهم للمشركين ، وبيان لما حاق بهم من سوء المصير بسبب مناصرتهم لأعداء الله ، ومحاربتهم لأوليائه .

أي : لبئس ما قدمت لهم أنفسهم من أقوال كاذبة وأعمال قبيحة ، وأفعال منكرة استحقوا بسببها سخط الله عليهم ، ولعنه إياهم ، كما استحقوا أيضا بسببها الخلود الدائم في العذاب المهيمن ،

قال الجمل : و « ما » ، في قوله لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ، هي الفاعل ،
وقوله : « أن سخط الله عليهم » ، هو المخصوص بالذم على حذف مضاف . أي
موجب سخطه - سبحانه - عليهم . والموجب هو عملهم السيء المعبر عنه -
في قوله « لبئس ما » ، . ، فما كناية عن عملهم . فالمخصوص بالذم والفاعل
في المعنى شيء واحد .

وقوله : « وفي العذاب هم خالدون » ، هذه الجملة معطوفة على ما قبلها فهي
من جملة المخصوص بالذم . فالتقدير : سخط الله عليهم وخلدهم في العذاب^(٢) .

ثم بين - سبحانه - الدوافع التي حملت هؤلاء الفاسقين من أهل الكتاب
على ولاية الكافرين ومصادقتهم ومعاونتهم على حرب المسلمين فقال :

ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما أخذوهم أولياء ، ولكن
كثيرا منهم فاسقون . .

(١) راجع كتابنا بنو إسرائيل في القرآن والسنة ٤ ج ٢ ص ٣٠٧ مبحث مخالفهم
مع المنافقين ضد المسلمين .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٦ ص ٦٤١

فأضمير في قوله ، كانوا ، يعود إلى أولئك الكثيرين من أهل الكتاب
ن حملهم حقدهم وبغضهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأتباعه على
لادة الكافرين .

والمراد بالنبي : موسى - عليه السلام - وبما أنزل إليه التوراة ، لأن
يث مع الكافرين من بني إسرائيل الذين يزعمون أنهم أتباع موسى .
رقيل المراد به النبي : - صلى الله عليه وسلم - والمراد بما أنزل إليه : القرآن
أى : ولو كان هؤلاء اليهود يؤمنون بالله لإيماناً حقا ، ويؤمنون بنبيهم موسى
صدقا ، ويؤمنون بالتوراة التي أنزلها الله عليه إيمانا سليما ، ولو كانوا
ين هذا الايمان الصادق ، لكفوا عن اتخاذ الكافرين أولياء واصفياء ،
تحريم موالاة المشركين متأكدة في التوراة وفي كل شريعة أنزلها الله على
من أنبيائه .

وقوله : ولكن كثيرا منهم فاسقون ، استدراك لبيان حالهم ، وليبيان
موالاتهم للكافرين وعداوتهم للمسلمين .

أى : ولكن كثيرا من هؤلاء اليهود فاسقون ، أى : خارجون عن الدين
إلى الأديان مباطلة ، فدفعهم هذا الفسق وما صاحبه من حقد وعناد على
لادة الكافرين ومعاداة المؤمنين .

وقد كرر - سبحانه - وصف الكثيرين منهم بالصفات الذميمة ، إنصافا
التي آمنت ، وتمييزا لها عن تلك السكرة الكافرة الفاسقة .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد بينت ما عليه الكافرون من بني إسرائيل
صفات ذميمة ، أفضت إلى لعنهم وطردهم من رحمة الله ، حتى يحذروهم
مؤن ، ويحتنبوا سلوكهم السيئ ، وخلقهم القبيح .

وبعد هذا الحديث الطويل الذى طوفا فيه سورة المائدة مع أهل الكتاب
ة عامة ومع اليهود بصفة خاصة ، والذي تحدثت خلاله عن علاقة المؤمنين
عن اليهود التي أخذها الله عليهم وموقفهم منها ، وعن دعاوهم الباطلة

وكيف رد القرآن عليها ، وعن أخلاقهم السيئة ، وعن مسالكهم الخبيثة لكي يد الإسلام والمسلمين ، وعن المصير السيء الذى ينتظرهم إذا ما استمروا على كفرهم وضلالهم ، وعن المنهاج القويم الذى استعمله القرآن معهم فى دعوتهم إلى الدين الحق ... بعد هذا الحديث الطويل معهم فى تلك الموضوعات وفى غيرها ... نرى سورة الكريمة فى نهاية المطاف تحدثنا عن أشد الناس عداوة للؤمنين ، وعن أقربهم مودة لهم فتقول :

« لتجدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ، ولتجدنَّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلكَ بأنَّ منهم قسيسينَ ورهباناً وأنهم لا يستكبرونَ (٨٢) وإذا سمعُوا ما أنزلَ إلى الرسولِ رَأَوْا عَيْنُهُمْ تَقِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وما لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ جَزَاءُ الْحَسَنِينَ (٨٥) والذين كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) » .

أخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير قال : بعث النجاشى وفدا إلى رسول - صلى الله عليه وسلم - فأسلموا ، قال : فأنزل الله فيهم : « لتجدنَّ أشدَّ الناسِ عداوةً للذين آمنوا اليهود ... إلى آخر الآية ، قال : فرجعوا إلى النجاشى فأخبروه فأسلم النجاشى ، فلم يزل مسلماً حتى مات . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن أخاكم النجاشى قد مات فصلوا عليه ، فصلى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة والنجاشى بالحبشة .

ثم قال ابن جرير بعد أن ساق روايات أخرى فى سبب نزول هذه الآيات

صواب في ذلك من القول عندي ، أن الله - تعالى - وصف صفة قوم
١ : إنا نصارى ، أن نبي الله - صلى الله عليه وسلم - يخدم أقرب الناس
دلة لأهل الإيمان بالله ورسوله ، ولم يسم لنا أسماءهم ، وقد يجوز أن يكون
يد بذلك أصحاب النجاشي ، ويجوز أن يكون أريد به قوم كانوا على شريعة
نبي فادركهم الإسلام فأسلموا ، لما سمعوا القرآن ، وعرفوا أنه الحق ، ولم
تتكبروا عنه ... (١) .

ف قوله - تعالى - لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين
ركوا ... جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من آيات سجلت على اليهود كثيرا
الصفات القبيحة ، والمسالك الخبيثة .

وقد أكد - سبحانه - هذه الجملة بلام القسم ، اعتناء ببيان تحقق مضمونها .
والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - ويصح أن يكون لكل من
لمح للخطاب ، الإيدان بأن حالهم لا يخفى على أحد من الناس .

والمعنى : أقسم لك يا محمد بأنك عند مخالطتك للناس ودعوتهم إلى الدين
ق ، ستجد أشد عداوة لك ولأتباعك فريقين منهم : وهما اليهود والذين
ركوا ، لأن عداوتهم منشؤها الحقد والحسد والعناد والغرور ... وهذه
ذائل متى تمكنت في النفس حالت بينها وبين الهداية والإيمان بالحق .

وقوله : أشد الناس ، مفعول أول لقوله : لتجدن ، ومفعوله الثاني
اليهود ، وقوله : عداوة ، تمييز .

قال الألوسي : والظاهر أن المراد من اليهود العموم ، أي من كان منهم
فمرة الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من يهود المدينة وغيرهم ، ويؤيده
أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى
عليه وسلم - : ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله ، وقيل المراد بهم يهود
مدينة وفيه بعد ، وكما اختلف في عموم اليهود اختلف في عموم الذين أشركوا

والمراد من الناس - كما قال أبو حيان - الكفار : أى لتجدن أشد الكفار
عداوة هؤلاء .

ووصفهم - سبحانه - بذلك لشدة كفرهم ، وأنهما كهم فى إتباع الهوى ،
وقرهم إلى التقليد ، وبعدهم عن التحقيق ، وتمرنهم على التمرد والاستعصاء
على الأنبياء ، وقد قبل : إن من مذهب اليهود أنه يجب عليهم لبسال الشر إلى
من يخالفهم فى الدين بأى طريق كان وفى تقديم اليهود على المشركين إشعار
بتقدمهم عليهم فى العداوة ... (١) .

وقوله : ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ... ،
معطوف على ما قبله لزيادة التوضيح والبيان .

أى : لتجدن يا محمد أشد الناس عداوة لك ولأتباعك - اليهود - والذين
أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة ومحبة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا نصارى .
قال ابن كثير : أى الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى
منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله فى الجملة : وما ذاك إلا فى قلوبهم - من
لبن عريكة - إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة ، كما قال - تعالى -
« وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ... » ، وفى كتابهم :
« من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر . وليس القتال مشروعاً
فى ملتهم ... » (٢) .

وقال الجمل : فإن قلت : كفر النصارى أشد من كفر اليهود لأن النصارى
ينازعون فى الألوهية فيدعون أن الله ولداً ، واليهود ينازعون فى النبوة
فينكرون نبوة بعض الأنبياء فلم ذم اليهود ومدح النصارى ؟
قلت : هذا مدح فى مقابلة ذم وليس مدحاً على إطلاقه ، وأبنا

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥١٧ .

(١) تفسير الألوسى ج ٧ ص ١

كلام في عبادة المسلمين وقرب مودتهم لا في شدة الكفر وضعفه (١).

وقوله : « ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » ، تعليل
ب مودة النصارى للمؤمنين .

والقسيسين ، جمع قسيس . وأصله من قس إذا تتبع الشيء فطلبه ، وهم
النصارى والمرشدون لهم .

والرهبان : جمع راهب كركبان جمع راكب . وتطلق كلمة رهبان على
رد كما تطلق على الجمع . والراهب هو الرجل العابد الزاهد المنصرف عن
يأ ، مأخوذ من الرهبة بمعنى الخوف . يقال : رهب فلان ربه رهبه ،
: خافه .

والمعنى : ولتجدن يا محمد أقرب الناس مودة لك ولأتباعك الذين قالوا إنا
رى ، وذلك لأن منهم للقسيسين الذين يرغبون في طلب العلم ويرشدون
هم إليه ، ومنهم الرهبان الذين تفرغوا لعبادة الله وانصرفوا عن ملاذ
يا وشهواتها وأيضاً فلأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى من صفاتهم أنهم
متكبرون عن إتباع الحق والالتقياد له إذا فهموه . أو أنهم متواضعون
موا مغرورين أو متكبرين .

وفي ذلك تعريض باليهود والمشركين ، لأن غرورهم واستكبارهم جعلهم
رفون عن الحق . فاليهود يرون أنفسهم شعب الله المختار ، وأن النبوة
، أن تكون فيهم ، والمشركون يرون أن النبوة يجب أن تكون في أغنيائهم
مائهم ، وقد حملهم هذا الغرور على الكفر بالنبي - صلى الله عليه وسلم -
م وجدوا أكثر أتباعه من الفقراء .

قال الألوسي : وفي الآية دليل على أن صفات التواضع والإقبال على العلم
مل والإعراض عن الشهوات محمودا أينما كانت .

ثم حكى - سبحانه - ما كان منهم عند سماعهم لما أنزل الله - تعالى - على رسوله من هدايات فقال : ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . . . والمراد بالرسول : محمد - صلى الله عليه وسلم - وبما أنزل إياه : القرآن الكريم .

والجملـة الـكـريـمة معطوفة على قوله : ، وأنهم لا يستكبرون ، . والضمير في قوله : سمعوا ، يعود على الذين قالوا إنا نصارى بعد أن عرفوا الحق وآمنوا به . أى ، أن من صفات هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى زيادة على ما تقدم ، أنهم إذا سمعوا ما أنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قرآن تأثرت قلوبهم ، وخشعت نفوسهم . وسالت الدموع من أعينهم بفزارة وكثرة . من أجل ما عرفوه من الحق الذى بينه لهم القرآن الكريم بعد أن كانوا غافلين عنه . وفى التعبير عنهم بقوله : ، ترى ، الدالة على الرؤية البصرية التى هى أقوى أسباب العلم الحسى ، مبالغة فى مدحهم ، حيث يراهم الرأتى وهم على تلك الصورة من رقة القلب ، وشدة التأثر عند سماع الحق .

فلقد كانوا يحسون أنهم فى ظلام وضلال . . . فلما سمعوا الحق أشرق له نفوسهم ودخلوا فى نوره وهدايته ، وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به . وحجبهم له .

وقوله ، : تفيض ، من الفيض وهو انصباب عن امتلاء : يقال فاض الإناء إذا امتلأ حين سأل من جوابه :

وقد أجاد صاحب الكشف فى تصوير هذا المعنى فقال : فإن قلت : ما معنى قوله : ، تفيض من الدمع ، قلت : معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض . لأن الفيض أن يمتلئ الإناء أو غيره حتى يطلع ما فيه من جوابه . فوضع الفيض الذى هو من الإمتلاء موضع الإمتلاء ، وهو من إقامة المسبب مقام السبب . أو قصدت المبالغة فى وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها . أى : تسيل من الدمع من أجل البكاء . من قولك : دمعت عينه دمعاً .

فإن قلت : أى فرق بين من ومن في قوله : « ما عرفوا من الحق » قلت : الأولى لا ابتداء الغاية على أن فيض الدمع ابتداء ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه ، والثانية لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا ونحوه معنى التعميض على أنهم عرفوا بعض الحق ، فأبكام وبلغ منهم ، فكيف إذا عرفوه كله وقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنة ؟ (١)

ثم حكى - سبحانه - ما قالوه بعد سماعهم للحق فقال : يقولون ربنا آمنا فآتينا مع الشاهدين ،

أى : يقولون بعد أن سمعوا الحق : يا ربنا إننا آمنا بما سمعنا إيماناً صادقاً فآتينا مع أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - التى آمنت به وشهدت بصدق رسولك محمد - صلى الله عليه وسلم - وبصدق كل رسول أرسلته إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك عنهم ما علمه منهم من إصرارهم على الدخول فى الدين الحق ، فقال : ومالنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ،

فآية الكريمة من تنمة قولهم .

والاستفهام هنا لإنكار انتقاء الإيمان منهم مع قيام موجباته ، وظهور أماراته ، ووضوح أدلته وشواهد .

والمعنى : وأى مانع يمنعنا من الإيمان بالله الواحد الأحد الفرد الصمد ، وبما جاءنا على لسان رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - من قرآن يهدي إلى الرشـد ، ومن توجيهات توصل إلى السعادة ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا - بسبب إيماننا - مع القوم الذين صلبت أنفسهم بالعقيدة السليمة ، وبالعبادات الصحيحة ، وبالأخلاق الفاضلة ، وهم أتباع هذا النبي الأسمى محمد - صلى الله عليه وسلم - . فأنت تراهم بعد أن استمعوا إلى القرآن تأثرت

نفوسهم به تأثراً شديداً فاضت معه أعينهم بالدمع . . . ثم بعد ذلك التمسوا
 من الله - تعالى - أن يكتبهم مع الأمة الإسلامية التي تشهد على غيرها يوم
 القيامة . . . ثم بعد ذلك استذكروا واستبعدوا أن يعوقهم معوق عن الإيمان
 الصحيح مع قيام موجباته . . . وهذا كله يدل على صفاء نفوسهم ، وطهارة
 قلوبهم ومساارعتهم إلى قبول الحق عند ظهوره بدون تردد أو نقاعس :

وقولهم - كما حكى القرآن عنهم - ، ونطمع أن يدخلنا . . . يدل على
 قوة إيمانهم ، وصدق يقينهم . لأنهم مع هذا الإقبال الشديد على الدين الحق ،
 والمسارة إلى العمل الصالح ، لم يحزموا بحسن عاقبتهم ، بل التمسوا من الله
 - تعالى - الطمع في مغفرته ، وفي أن يجعلهم مع القوم الصالحين من أمة محمد
 - صلى الله عليه وسلم - .

وهكذا المؤمن الصادق يستصغر عمله بجانب فضل الله ونعمه ، ويقف من
 جزائه وثوابه - سبحانه - موقف الخوف والرجاء .

ولقد كان ما أعدّه الله - تعالى - لهؤلاء الأصفياء من ثواب شيئاً عظيماً ،
 عبر عنه - سبحانه - بقوله : « فأنابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها
 الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين » .

أى : فكافأهم الله - تعالى - بسبب أقوالهم الطيبة الدالة على إيمانهم
 وإخلاصهم ، جنات تجري من تحت بساكنها وأشجارها الأنهار ، خالدين
 فيها ، أى : باقين في تلك الجنات بقاء لا موت معه ، وذلك العطاء الجزيل الذى
 منحه الله لهم جزاء المحسنين ، أى : المؤمنين المخلصين في أقوالهم وأعمالهم .

والمراد بقوله « بما قالوا » : ما سبق أن حكاه عنهم - سبحانه - من
 أقوالهم : « ربنا آمنا فكتبنا مع الشاهدين . . . » ورتب الثواب المذكور على
 القول : لأنه قد سبق وصفهم بما يدل على إخلاصهم ، على صدق يقينهم ، والقول
 إذا اقترن بذلك فهو الإيمان .

قال الألوسي : قوله . . فأنابهم الله بما قالوا . . أي بسبب قولهم أو
بالذي قالوه عن إعتقاد، فإن القول إذا لم يقيد بالخلو عن الإعتقاد يكون
المراد به المقارن له ، كما إذا قول : هذا قول فلان ، لأن القول إنما يصدر عن
صاحبه لإفادة الاعتقاد .

وقيل : إن القول هنا مجاز عن الرأي والاعتقاد والمذهب كما يقال : هذا
قول الامام الأعظم أي : هذا مذهبه وإعتقاده . . وذهب كثير من المفسرين
إلى أن المراد بهذا القول قولهم : ربنا آمنا . . وقولهم . وما لنا لا نؤمن . . (١)
وقد بينت هذه الآية الكريمة أنه - سبحانه - قد أجابهم إلى ما طلبوا ،
بل أكرم مما طلبوا ، فقد كانوا يطمعون في أن يكونوا مع القوم الصالحين ،
وأن يكتبهم مع الشاهدين . . فأعظام - سبحانه - جنات تجري من تحتها
الأنهار . . . وسماهم محسنين . والإحسان أعلى درجات الإيثار ، وأكرم
أوصاف المتقين .

هذا جزاء الذين سمعوا ما أنزل إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -
فأمّنوا به ، وقالوا ما قالوا مما يشهد بصفاة نفوسهم . . أما الذين سمعوا فأعرضوا
وجحدوا فقد بين - سبحانه - مصيرهم السيء بقوله : . والذين كفروا وكذبوا
بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم . .

أي : والذين كفروا وجحدوا الحق الذي جاءهم ، وكذبوا بآياتنا الدالة
على وحدانيتنا وصدق رسلنا ، فأولئك أصحاب الجحيم ، أي : النار الشديدة
الإتقاد . يقال : جحمت فلان النار إذا شدد إيقادهما .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد مدحت أولئك الذين قالوا إنا نصارى .
لأنهم تأثروا بالقرآن عند سماعه ، فدخلوا في الدين الحق بسرعة ورغبة ،
فأكرمهم الله غاية الإكرام ، وهذا ينطبق على كل نصراني ينهج نهجهم ،
ويسلك مسلكهم ، فيدخل في الدين الحق كما دخل هؤلاء المحسنون . .

أما الذين كفروا وكذبوا بآيات الله وحججه فأولئك أصحاب النار خالدون فيها وبئس المصير .

ثم وجه - سبحانه - نداه إلى المؤمنين نهام فيه عن تحريم الطيبات التي أحلها الله لهم ، وأمرهم أن يتمتعوا بما رزقهم من رزق طيب حلال فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، وَلَا تَمْتَدُّوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٨٨) »

قال صاحب المار . بدأ الله - تعالى - هذه السورة بآيات من أحكام الحلال والحرام والنسك . . .

ثم جاء بهذا السياق الطويل في بيان أحوال أهل الكتاب ومحاجتهم ، فكان أوفى وأتم ماورد في القرآن من ذلك ، ولم يتخلله إلا قليل من الأحكام . . . وهاتان الآيتان وما بعدهما عود إلى أحكام الحلال والحرام والنسك التي بدئت بها السورة . . .

ولنما لم تجعل آيات الأحكام كلها في أول السورة ، وتجعل الآيات في أهل الكتاب مفصلاً بعضها ببعض في باقيها . لما بيناه غير مرة من حكمة مزج المسائل والموضوعات في القرآن من حيث هو مثاني تتلى دائماً للاهتداء بها ، لا كتاباً فنياً ولا قانوناً يتخذ لأجل مراجعة كل مسألة من كل طائفة من المعاني في باب معين :

على أن نظمه وترتيب آياته يدهش أصحاب الأفهام لدقيقة بحسنه وتنسيقه كما ترى في مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما مباشرة . . .

ذلك أنه - تعالى - ذكر أن النصارى أقرب الناس مودة للذين آمنوا ، وذكر من سبب ذلك أن منهم قسيسين ورهبانا ، فكان من مقتضى هذا أن يرغب المؤمنون في الرهبانية ويظن الميالون للتششف والزهد أنها مرتبة كمال تقربهم

إلى الله - تعالى - ، وهي إنما تتحقق بتحريم التمتع بالطيبات ... وقد
أزال الله - تعالى - هذا الظن ، وقطع طريق تلك الرغبة بقوله : يا أيها
الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم .. (١) .

هذا ، وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين راويات متعددة
منها ما أخرجه الترمذي وابن جرير عن ابن عباس : أن رجلا أتى النبي -
صلى الله عليه وسلم - فقال : إني إذا أكلت انتشرت للنساء ، وأخذتني شهوتي
فحرمت علي اللحم . فأنزل الله - تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا ...
الآية (٢) .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة قال ، كان : أناس من أصحاب النبي -
صلى الله عليه وسلم - هموا بالخصاء وترك اللحم والنساء ، فنزلت هذه الآية ، يا أيها
الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم .. ، وعن أبي فلابة قال : أراد
أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفضوا الدنيا ، ويتركوا
النساء ويترهبوا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحافظ فيهم المقالة ، ثم
قال إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ،
فأولئك بقاياهم في الديار والصوامع . أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وحجوا
واعتصموا ، وإستقيموا . قال : ونزلت فيهم : يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا ..
الآية ، وعن أبي طلحة عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في رهط من
أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : فقطع هذا كيرنا ، ونترك شهوات
الدنيا ، ونسبح في الأرض كما تفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم
فأرسل إليهم ، فذكر لهم ذلك فقالوا : نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأنام ، وأنكح النساء ، فنأخذ بسنتي فهو مني ،
ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني .

(١) تفسير المنار ج ٧ ص ١٨ بتصريف وبتلخيص

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٨٧

وقد وجه سبحانه النداء للمؤمنين بوصف الإيمان : لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم حتى يمتثلوا أوامر الله وفواهيه .

والمراد بقوله : « لا تحرموا .. » : لا تعتقدوا تحريم ما أحل الله لكم من طيبات ، بأن تأخذوا على أنفسكم عهداً بعدم تناولها أو الانتفاع بها . . .
فاللهي عن التحريم هنا ليس منصبا على الترك المجرد ، فقد يترك الإنسان بعض الطيبات لأسباب تتعلق بالمرض أو غيره . . . وإنما هو منصب على اعتقاد أن هذه الطيبات يجب تركها ويأخذ الشخص على نفسه عهداً بذلك .

والمراد بالطيبات : الأشياء المستلذة المستطابة المحللة التي تقوى بدن الإنسان وتعينه على الجهاد في سبيل الله ، من طعام شهى ، وشراب ساقع . وملبس جميل

والأمر : يأها الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً ، لا تحرموا على أنفسكم شيئاً من الطيبات التي أحلها الله لكم ، فإنه - سبحانه - ما أحلها لكم إلا لما فيها من منافع وفوائد تعينكم على شئون دينكم ودنياكم .

وقوله : « ولا تعتدوا » تأكيد للنهي السابق . والتعدى معناه : تجاوز الحدود التي شرعها الله - تعالى - عن طريق الإصراف أو عن طريق التقدير ، أو عن طريق الاعتداء على حق الغير ، أو عن أى طريق يخالف ما شرعه الله - تعالى - .

وقوله : « إن الله لا يحب المعتدين » ، في موضع التعليل لما قبله .
أى : لا تحرموا - أيها المؤمنون - على أنفسكم ما أحله الله لكم من طيبات ولا تتجاوزوا حدوده بالإصراف ، أو بالتقدير ، أو بتناول ما حرمه عليكم فإنه - سبحانه - لا يحب الذين يتجاوزون حدود شريعته ، وسنن فطرته ، وهدى نبيه - صلى الله عليه وسلم - .

وبعد أن نهى - سبحانه - عن تحريم الطيبات ، أمر بتناولها والتمتع بها فقال : « وكلاهما رزقكم الله حلالاً طيباً ، وانقروا الله الذي أنتم به مؤمنون ، .
والأمر في قوله « وكلاهما » للإباحة . وقيل إنه للندب . ويرى بعضهم أنه

الوجوب لأن من الواجب على المؤمن ألا يترك أمراً أباحه الله تعالى - تركاً مطلقاً ، لأن هذا الترك يكون من باب تحريم ما أحله الله .

أى : وكلوا - أيها المؤمنون - من الرزق الحلال الطيب الذى رزقكم الله إياه ، وتفضل عليكم به . . . واثقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما يفضيه ، وتلتزموا فى ما كلكم ومشربكم وملبسكم وسائر شئونكم حدود شريعته ، وتوجيهات رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

والمراد بالأكل هنا التمتع بألوان الطيبات التى أحلها الله ، فيدخل فيه الشرب مما كان حلالاً ، وكذلك يدخل فيه كل ما أباحه - سبحانه - من متعة طيبة تميل إليها الشهوس وتشتهيها .

وعبر عن مطلق التمتع بما أحله الله بالأكل ، لأنه أعظم أنواع المتع ، وأهم ألوان منافع الإنسان التى عليها قوام حياته .

وقد زكى - سبحانه - طلب التمتع بعطائه وخيره بأمور منها : أنه جعلها رزقهم إياه ، وأنه وصفه بكونه حلالاً وليس محرماً ، وبكونه طيباً وليس خبيثاً . . .

والما كول أو المشروب أو غيرهما متى كان كذلك اتجهت نفس المؤمن إليه بارتياح وطمانينة . واجتهدت فى الشكر لو اهب النعم على ما أنعم وأعطى . قال الألوسى : قوله : وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، أى : كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله - تعالى - . فحلالاً مفعول به لاكلوا . و ما رزقكم ، حال منه وقد كان فى الأصل صفه له ، إلا أن صفة المنكرة إذا قدمت صارت حالاً . . . والآية دليل لنا فى شمول الرزق للحلال والحرام إذ لو لم يقع الرزق على الحرام لم يكن لذكر الحلال فائدة سوى التأكيد . وهو خلاف الظاهر فى مثل ذلك .

وقوله : واثقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ، استدعاء إلى التقوى وامتنال الوصية بوجه حسن .

والآية ظاهرة في أن أكل اللذائذ لا ينافي التقوى : وقد أكل النبي - صلى الله عليه وسلم - ثريد اللحم ومدحه ، وكان يحب الحلوى^(١) .

وقال القرطبي : قال علماءنا : في هذه الآية وما شابهها ، والأحاديث الواردة في معناها ، رد على غلاة المتزهدين ، وعلى كل أهل البطالة من المتصوفين ، إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقة ، وحاد عن تحقيقه .

قال الطبري : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء على نفسه مما أحل الله لعباده المؤمنين من طيبات المطاعم والملابس والمناكح ولذلك رد النبي - صلى الله عليه وسلم - التبتل على ابن مظعون ، فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده ، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه وعمل به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وسنة لأمته ، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون

وقد جاء رجل إلى الحسن البصري فقال له : إن لي جاراً لا يأكل الفالودج فقال له ولم ؟ قال : يقول ، لا يؤدي شكره . فقال الحسن : أفيشرب الماء البارد ؟ قال : نعم . فقال الحسن : إن جارك جاهل ، فإن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالودج^(٢) .

والخلاصة أن هاتين الآيتين تنهيان المؤمنين عن تحريم الطيبات التي أحلها الله لهم ، ونأمرانهم بالتمتع بها بدون إسراف أو تقتير ، مع خشيتهم لله - تعالى - وشكره على ما وهبهم من نعم .

وذلك لأن ترك هذه الطيبات يؤدي إلى ضعف العقول والأجسام ، والإسلام يريد من أتباعه أن يكونوا أقوياء في عقولهم وفي أجسامهم وفي سائر شئونهم ، لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف - كما جاء في الحديث الشريف .

ولأن دين الإسلام ليس دين رهبانية ، وفي الحديث الشريف : إن الله

(١) تفسير الألوسي ج ٧ ص ٩

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٦٢ بتصرف وتلخيصه .

يبعثني بالرهبانية،^(١) وإنما دين الإسلام دين عبادة وعمل ، فهو لا يقطع ما بد عن الحياة ، ولكنه يأمره أن يعيش عاملاً فيها غير منقطع عنها . وإن التفاضل بين المؤمنين يكون باستقامة النفس ، وسلامة العبادة وكثرة إصال النفع للناس ... ولا يكون بالانقطاع عن الدنيا ، وتحريم طيباتها في أحلها الله - تعالى - .

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تؤيد معنى هاتين الآيتين الكريمتين . أما الآيات فمنها قوله - تعالى - يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ،^(٢) ومنها قوله - تعالى - يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم أشكروا لله إن كنتم لإياه تعبدون ،^(٣) .

وأما الأحاديث فمنها ما أخرجه الشيخان عن أنس بن مالك قال : جاء لثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبی - صلى الله عليه وسلم - يسألون عن عبادته لما أخبروا كأنهم تقالوها - أي عدوها قليلة - فقالوا : وأين نحن من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال أحدهم : أما أنا فإنني أصلي الليل أبدا . وقال آخر : أنا أصوم الدهر لا أفطر . وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبدا .

فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أتم الذين قلتم كذا وكذا؟ ما والله إنني لأخشاكم لله وأنفكم له . لكفي أصوم وأفطر وأصلي وأرقد ، أتزوج النساء ، فمن رغب عن سنن فليس مني ،^(٤) .

(١) تفسير الألوسي ج ٧ ص ٩

(٢) سورة الاعراف الآية ٣١

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٢

(٤) أخرجه البخاري في باب الترغيب في النكاح من كتاب النكاح ج ٧ ص ٢ ،

وأخرجه مسلم في كتاب النكاح ج ٤ ص ١٢٩

ورحم الله الحسن البصري فقد قال : إن الله - تعالى - أدب عباده فأحسن أديهم فقال - تعالى - ، لينفق ذو سعة من سعته ، ما عاب قوما وسع عليهم الدنيا فينعموا وأطاعوا ، ولا عذر قوما زواها عنهم فمعضوه ، (١) .

فعل المؤمن أن يحتنب تحريم الطيبات التي أحلها الله له ، وأن يتمتع بها بدون إسراف أو تقتير ، وأن يداوم على شكر الله على نعمه وآلائه ، وأن يجعل جافيا من هذه النعم الاحسان إلى الفقراء والمحتاجين .

قال الفخر الرازي : لم يقل - سبحانه - : ، وكلوا ما رزقكم الله ، ولكن قال : وكلوا مما رزقكم الله . . . وكلمة « من » ، للتبويض . فكأنه قال : اقتصروا في الأكل على البعض واصرخوا البقية إلى الصدقات والخيرات ، لأنه إرشاد إلى ترك الإسراف كما قال : ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - كفارة اليمين ، وأمر المؤمنين بحفظ أيمانهم فلا يكثروا منها ، فقال - تعالى - .

« لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ، وَاسْكِنُوا خِذَكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ، فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ، وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ، كَذَلِكَ يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (١٩) » .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم . . . » في القوم الذين كانوا حرموا على أنفسهم النساء واللحم : قالوا : يا رسول الله . كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها ؟ فانزل الله - تعالى - قوله : « لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤخذكم

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٦٧٢

(٢) تفسير «فخر الرازي» ج ٤ ص ٧٢

بما عقدتم الإيمان ... الآية (١) واللغو من الكلام - كما يقول الراغب: ما لا يعتد به منه ، وهو الذي يورد لا عن رؤية وذكر فيجري مجرى اللغا وهو صوت العصافير وبحوها من الطيور ... وقد يسمى كل قبيح لغوا . قال - تعالى -
 وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، ، (٢) .

اللغو
سري

ولغو اليمين : أن يخلف الخائف على شيء يرى أنه صادق فيه ثم يتبين له خلاف ذلك .

ويرى بعضهم أن لغو اليمين هو الذي يجري على اللسان بدون قصد ، كقولك لا والله ، وبلى والله .

وقد رجح هذا القول ابن كثير فقال ما ملخصه . واللغو في اليمين هو قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله وبلى والله . وهو مذهب الشافعي . وقيل هو في الهزل . وقيل في المعصية : وقيل على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد ... والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ولاكن يؤخذكم بما عقدتم الإيمان ، (٣) .

وقوله : د عقدتم ، من العقد وهو الجمع بين أطراف الشيء لتوثيقه وهو تقيض الحل : وقرأ حمزة والكسائي د عقدتم ، بالتخفيف . وقرأ ابن عامر د عاقدتم ، .

لقد

والمراد بعقد الإيمان توكيدها وتوثيقها قصدا ونية ،

لقد

والمعنى : لا يؤخذكم الله - أيها المؤمنون - فضلا منه وكرما على اللغو في اليمين ، وهو ما يجري على ألسنتكم بدون قصد . ولكن يؤخذكم بالعقوبة في الآخرة أو بوجوب الكفارة بتعقيدكم الإيمان وتوثيقها بالقصد والنية ، إذا حنثتم فيها ، بأن تعمدتم الكذب في أيمانكم .

(١) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ١٣ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٤٥١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٨٩ .

فالمراد بعدم المؤاخذه في قوله ، لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ، : عدم المعاقبة في الدنيا بالكفارة ولا في الآخرة بالعقوبة .

والمراد بالمؤاخذه في قوله : ، ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ، : العقوبة الآخروية عند جمهور الفقهاء . ويرى الشافعي أن المراد بها الكفارة التي تجب على الخائن .

وقوله : في أيمانكم ، متعلق باللغو . وما في قوله : بما عقدتم ، مصدرية أي : ولكن يؤاخذكم بتعقيدكم الأيمان وتوثيقها . وبمحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف . أي ولكن يؤاخذكم بالذي عقدتم الأيمان عليه وأتم كاذبون في أيمانكم .

وقوله : ، فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، بيان لكيفية الكفارة والضمير في قوله : فكفارته يعود على الحنث الدال عليه سياق الكلام وإن لم يجر له ذكر .

أي : فكفارة الحنث . ولا مانع من عودته إلى الخائف إذا حنث في يمينه فيكون المعنى : فكفارة الخائف إذا حنث في يمينه إطعام عشرة مساكين ... لأن الشخص الخائن في يمينه هو الذي يجب عليه التكفير عن حنثه .

والكفارة من الكفر بمعنى الستر ، وهي اسم للفعل التي من شأنها أن أن تكفر الخطيئة ، أي تسترها وتمحوها ، لأن الشيء المحجى يكون كالشيء المستور الذي لا يرى ولا يشاهد .

وكلمة : أوسط ، يرى بعضهم أنها بمعنى الأمتل والأحسن ، لأن لفظ الأوسط كثيراً ما يستعمل بهذا المعنى ومنه قوله - تعالى - : قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، (١) أي : قال أحسنهم عقلاً وأمتلهم فكراً ونظراً . ويرى آخرون أن الأوسط هنا بمعنى المتوسط ، لأن هذا هو الغالب في استعمال هذه الكلمة ، أي يطعمهم لا من أفخر أنواع الطعام ولا من أردته ولكن من الطعام الذي يطعم منه أهله في الغالب .

والمعنى : لقد تفضل الله عليكم - أيها المؤمنون - بأن رفع عنكم العقوبة والكفارة في الإيمان اللغو ، وإن كنه - سبحانه - يؤخذكم بتعقيدكم الإيمان وتوثيقها إذا ما حنثتم فيها ومتى حنث أحدكم في يمينه ، فن الواجب عليه لتكفير هذا اليمين ومحو إنم أن يطعم عشرة مساكين طعاما يكون من متوسط ما يطعم منه أهله في الجودة والمقدار ، أو أن يكسو هؤلاء المساكين العشرة كساء مناسبا ساترا للبدن أو أن يحرر رقبة بأن يعتق عبدا من الرق فيجمله حراً .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله : فكفارته إطعام ، مبتدأ وخبر . . . وقوله : إطعام مصدر مضاف لمفعوله ، وهو مقدر بحرف وفعل مبني للفاعل أي فكفارته أن يطعم الحائث عشرة ، وفاعل المصدر محذوف كثيراً .

وقوله : من أوسط ، في محل نصب مفعول ثان لإطعام ؛ ومفعوله الأول عشرة أي : فكفارته أن تطعموا عشرة مساكين طعاما من أوسط ما تطعمون أهليكم . . . وقوله : ما تطعمون مفعول أول ومفعوله الثاني محذوف أي : تطعمونه أهليكم . . . (١) .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد خير الحائث في يمينه بين أمور ثلاثة يختار إحداها ، فإذا لم يستطع إحداها ، فقد بين سبحانه له حكماً آخر فقال : فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، .

أي : فمن لم يجد ما يكفر حنثه في يمينه من إطعام أو كساء أو تحرير رقبة فعليه حينئذ أن يصوم ثلاثة أيام ، تطهيراً لنفسه ، وتكفيراً عن ذنبه ، وتقوية لإرادته وعزمته .

ولاسم الإشارة في قوله : ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ويعود إلى المذكور من الإطعام والكساء وتحرير الرقبة والصوم .

أي : ذلك الذي شرعناه لكم كفارة لأيمانكم إذا حلفتم وحنثتم فيها ، وخالفتم طريق الحق الذي أمركم الله تعالى بإتباعه .

وقوله : « واحفظوا أيمانكم » أمر من الله تعالى لعباده بأن يصونوا أنفسهم عن الخنث في أيمانهم ، وعن الإكثار منها لغير ضرورة ، فإن الإكثار من الحلف بغير ضرورة يؤدي إلى قلة الحياء من الله تعالى ، كما أن الحلف بالكاذب يؤدي إلى سخطه سبحانه على الخالف وبغضه له .

وقوله : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » ، تذييل قصد به التذكير بنعم الله حتى يداوم الناس على شكرها وطاعة واهبها عز وجل .
 أى : مثل هذا البيان البديع الجامع لوجوه الخير والفلاح ، يبين الله لكم آياته المشتملة على الأحكام الميسرة ، والتشريعات الحكيمة ، والهدايات الجليلة لعلكم بذلك تستمروا على شكر الله وطاعته ، وتواظبوا على خشيته ومراقبته فتنالون ما وعدكم من فلاح وسعادة .

هذا ، ومن الأحكام التي أخذها الملماد من هذه الآية ما يأتي :
 ١ - أن اليمين اللغو لا مؤاخذه فيها . أى : لا عقوبة عليها في الآخرة ولا كفارة لها في الدنيا لقوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » .
 ونعني بها - كما سبق أن أشرنا - أن يقول الرجل من غير قصد الحلف لا والله وبلى والله .

ومع هذا فمن الأفضل للدؤم ألا يلجأ إلى الحلف إلا إذا كانت هناك ضرورة تدعو لذلك ؛ لأن الإكثار من الحلف يسقط مهابة الإنسان ، وقد يفرض به إلى الاستهانة بالآداب الحميدة التي شرعها الله .

قال تعالى : « ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله » .

٢ - أن اليمين التي يحلفها الخالف بالقصد والنية وهو كاذب فيها ، يستحق صاحبها العذاب الشديد من الله - تعالى - ، وهي التي يسميها الفقهاء باليمين الغموس ، أى التي تغمس صاحبها في النار - قال - تعالى - « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » .

أى : بما صممتم عليه منها وفصدتموه وأتمم حاثثون فيها .

قال القرطبي ما ملخصه : خرج البخارى عن عبد الله بن عمرو قال : جاء أعرابي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ما الكبائر ؟ قال : الإشراف بالله . قال : ثم ماذا ؟ قال : عقوق الوالدين . قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس قلت وما اليمين الغموس ؟ قال التى يقطع بها مال امرئ مسلم وهو كاذب فيها .

وخرج مسلم عن أبي أمامة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . فقال رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك .

وقد اختلف في اليمين الغموس فالذى عليه الجمهور أنها يمين مكر وخديعة وكذب فلا تنعقد ولا كفارة فيها . . . لأن هذا الحالف قد جمع بين الكذب ، واستحلال مال الغير ، والاستخفاف باليمين بالله . فإهان ما عظمه الله ، وعظم ما حقره الله ، ولهذا قيل : إنما سميت اليمين الغموس غموساً ، لأنها تغمس صاحبها في النار .

وقال الشافعى : هي يمين منعقدة ، لأنها مكنسبة بالقلب ، معقودة بخبر ، مفارقة باسم الله - تعالى - ، وفيها الكفارة .

والصحيح الأول : وهو قول مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة ، وبه قال الأوزاعي والثوري وأهل العراق وأحمد وإسحاق وأصحاب الحديث وأصحاب الرأي من أهل الكوفة (١) :

٣ - أن دأر ، فى قوله - تعالى - : فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة . . ، للتخيير .

أى : أن الحالف إذا حنث في يمينه فهو مخير بين واحد من أمور ثلاثة ليكفر عن يمينه التي حنث فيها . وهذه الثلاثة هي الإطعام أو الكسوة ، أو عتق الرقبة . فإذا لم يجد إحدى هذه الكفارات الثلاث إنتقل إلى الصوم . قال الفخر الرازى : وأعلم أن الآية دالة على أن الواجب في كفارة اليمين أحد الأمور الثلاثة على التخيير ، فإن عجز عنها جميعا فالواجب شيء آخر وهو الصوم .

ومعنى الواجب المخير أنه لا يجب عليه الإتيان بكل واحد من هذه الثلاثة ولا يجوز له تركها جميعا . ومتى أتى بأى واحد شاء من هذه الثلاثة فإنه يخرج عن العهدة . فإذا اجتمعت هذه القيود الثلاثة فذاك هو الواجب المخير . . . (١) وللعلماء أقوال متعددة في الإطعام المطلوب لكفارة اليمين .

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم . . . » لا بد عندنا - أى المالكية - وعند الشافعى من تملك المساكين ما يخرج لهم . ودفعه إليهم حتى يتملكوه ويتصرفوا فيه . وقال أبو حنيفة : لو غداهم وعشام جاز . والأوسط هنا منزلة بين منزلتين ونصفا بين طرفين - أى يطعمهم من غالب الطعام الذى يطعم منه أهله لآمن أدناه حتى لا يبخس المساكين حقهم ولآمن أعلاه حتى لا يتكلف ما يشق عليه - والإطعام عند مالك : « لكل واحد من المساكين عشرة . . . » . وبه قال الشافعى . . . وقال أبو حنيفة : يخرج من البر نصف صاع ، ومن التمر والشعير صاعا . . . أى يخرج ما يجب في صدقة الفطر .

ولا يجوز عندنا دفع الكفارة إلى مسكين واحد وبه قال الشافعى ، لأن الله - تعالى - نص على العشرة فلا يجوز العدول عنهم ، وأيضا فإن فيه إحياء جماعة من المسلمين وكفايتهم يوما واحدا ، فيتفرغون فيه لعبادة الله ولدعائه ، ففكر للكفر بسبب ذلك .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٢ ص ٧٤ :

وقال أبو حنيفة : يجزئه - أى : إذا أطعم واحدا عشر مرات أغنى عن إطعام العشرة - لأن المقصود من الآية التعريف بقدر ما يطعم ، فلو دفع ذلك القدر لواحد أجزأه ... ، (١) .

والكسوة التى تصلح لكفارة اليمين بلا حظ فيها أن تكون سائغة فى الجملة وهى تختلف باختلاف الأزمان والأحوال .

قال الشافعى : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة - من قيم أو سراويل - أجزأه ذلك .

وقال مالك وأحمد : لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصلح أن يصل فيه ، إن كان رجلا أو امرأة كل بحسبه .

وقال أبو حنيفة : الكسوة فى كفارة اليمين لكل مسكين ثوب وإزار ، ولا تجزى القيمة عن الطعام والكسوة عند الشافعى .

وقال أبو حنيفة : تجزى القيمة ، لأن الغرض سد حاجة المحتاج ، وقد تكون القيمة أنفع له .

والنوع الثالث الذى به تكون كفارة اليمين : تحرير رقبة أى : إعتاقها من الرق ، والمراد بالرقبة جملة الإنسان .

قال الرازى : المراد بالرقبة : الجملة قيل : الأصل فى هذا المجاز أن الأسير فى العرب كانت تجمع يداه إلى رقبتيه بحبل . فإذا أطلق حل ذلك الحبل .

فسمى الإطلاق من الرقبة فك الرقبة . ثم جرى ذلك على العتق . وقد أخذ بإطلاقها أبو حنيفة فقال : تجزى الكافرة كما تجزى المؤمنة . وقال الشافعى وآخرون : لا بد أن تكون مؤمنة .

فإن قيل : أى فائدة فى تقديم الإطعام على العتق مع أن العتق أفضل لأحاله ؟ قلنا له وجوه ، أحدها : أن المقصود منه التنبيه على أن هذه الكفارة وجبت على التأخير لا على الترتيب . لأنها لو وجبت على الترتيب لوجب البداءة

بإحاله وجوه ، أحدها : أن المقصود منه التنبيه على أن هذه الكفارة وجبت على التأخير لا على الترتيب . لأنها لو وجبت على الترتيب لوجب البداءة

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٧٦ .

دفع القيمة
أو سراويل
أو ثوب وإزار
أو غيرها

فمن الرقبة
أو من الرقبة
أو من الرقبة
أو من الرقبة

صراط
تسليم
مطعام
مأكل

(٢)

بالأغلب . وثانيها : قدم الإطعام لأنه أسهل ، ليكون الطعام أعم وجودا ،
والمقصود منه التنبيه على أنه - تعالى - يراعى التخفيف والتسهيل في التكليف .
ثالثها : أن الإطعام أفضل ، لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام ، ولا يكون
هناك من يعطيه الطعام فيقع في الضرر . أما العبد فإنه يجب على مولاه إطعامه
وكسوته (١) .

٤ - يرى مالك والشافعي أن قوله : تعالى : د فصيام ثلاثة أيام ، يصدق
على الصيام المتتابع والمتفرق ، فلو صام الحالف ثلاثة أيام متفرقة أجزأه ذلك ،
لأن التتابع صفة لا تجب إلا بنص أو قياس على منصوص وقد عدما .

ويرى أبو حنيفة وأحمد صوم الثلاثة أيام متتابعة ، فقد قرأ أبي بن كعب
وعبد الله بن مسعود د فصيام ثلاثة أيام متتابعات ، وقراءتهما لا تختلف
عن روايتهما .

وقال ابن كثير : واختلف العلماء هل يجب فيها التتابع أو يستحب ولا يجب
ويجزي . التفريق ؟ قولان : أحدهما لا يجب وهذا منصوص الشافعي في كتاب
الإيمان . وهو قول مالك ، لإطلاق قوله : د فصيام ثلاثة أيام ، وهو صادق
على المجموعة والمفرقة كما في قضاء رمضان لقوله : دفعة من أيام آخر ، ونص
الشافعي في موضع آخر في الأم على وجوب التتابع كما هو مذهب الحنفية
والحنابلة لأنه قد روى عن أبي بن كعب وغيره أنه كان يقرأ د فصيام ثلاثة
أيام متتابعات ، وحكاها مجاهد والشعبي وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود .
وهذه ، إذ لم يثبت كونها قرآنا متواترا فلا أقل من أن يكون خبر واحد
أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع .

وروى ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت آية الكفارات قال
جذيفة يا رسول الله نحن بالخيار ؟ قال : أنت بالخيار . إن شئت اعتقت .

وإن شئت كسوت . وإن شئت أطعمت . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات (١) ...

ويبدو لنا أن الصيام المتتابع أفضل ، لأن قراءة أبي وحديث حذيفة يذكّيان ، ولأنه رأى عدد كبير من الصحابة منهم عبدالله بن مسعود .

• - أخذ بعض العلماء من قوله - تعالى : « كفارته إطعام عشرة مساكين ... الخ » ، أن الكفارة لا تكون إلا بعد الحنث ؛ لأن السبب في الكفارة هو الحنث ، وما دام لم يتحقق فإنه لا كفارة .

وقال آخرون يجوز أن تتقدم الكفارة عند نية الحنث ، وتقوم النية مقام الحنث بالفعل .

وقد تكلم عن هذه المسألة الإمام القرطبي فقال ما ملخصه : اختلف العلماء في تقديم الكفارة على الحنث أنجزى أم لا على ثلاثة أقوال .

أحدها : يحزى . مطلقا وهو مذهب أربعة وعشرين من الصحابة ، وجمهور الفقهاء ، وهو مشهور مذهب مالك ، فقد قال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « وإنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمين وأتيت الذى هو خير » - رواه وأخرجه أبو داود .

ومن جهة المعنى أن اليمين سبب الكفارة ، لقوله - تعالى - ذلكم كفارة ليمانكم إذا حلفتم ، فأضاف الكفارة إلى اليمين والمعاني تضاف إلى أسبابها . وأيضا فإن الكفارة بدل عن البر فيجوز تقديمها قبل الحنث .

وثانيها : قال أبو حنيفة وأصحابه لا يحزى . بوجه لما رواه مسلم عن عدى بن حاتم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من حلف على

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٩١ بتلخيص يسير .

يمين ثم رأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير - زاد النسائي - وإيـكفر
عن يمينه .

ومن جهة المعنى أن الكفارة إنما هي لرفع الإثم ، وما لم يحنث لم يكن
هناك ما يرفع فلا معنى لفعلها . . وأيضاً فإن كل عبادة فعلت قبل وجوبها لم تصح
اعتباراً بالصلوات وسائر العبادات .

وثالثها : قال الشافعي : تجزئ بالإطعام والعتق والكسوة ولا تجزئ
بالصوم ؛ لأن عمل البدن لا يقدم قبل وقته . ويجزئ في غير ذلك تقديم
الكفارة ، (١)

٦ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - وأحفظوا أيمانكم ، أن من الواجب
على المؤمن أن يقلل من الإيمان فلا يلجأ إليها إلا عند الضرورة ، وأن
يحرص على أن يكون صادقاً فيها حتى لا يحتاج إلى التفكير عنها ؛ وأن يبادر
إلى التفكير عنها إذا كانت المصلحة تستدعي الحنث فيها ، لما سبق أن ذكره
القرطبي من حديث أبي موسى الأشعري وحديث عدي بن حاتم .

ولما رواه الشيخان عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم
يا عبد الرحمن بن سمرة ، لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت
إليها ، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها . وإذا حلفت على يمين فرأيت
غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير . .

هذا وقد ساق صاحب المنار في نهاية تفسيره لهذه الآية بحوثاً تتعلق

بالإيمان فقال ما ملخصه :

(١) لا يجوز في الإسلام الحلف بغير الله تعالى - وأسمائه وصفاته ، لما
رواه الشيخان من حديث ابن عمر : من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله ،
وروي عنه أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يحلف بآبيه فقال : إن
الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت .

روى أحمد والبخاري وأصحاب السنن عن ابن عمر أيضا قال : كان أكثر ما يحلف به النبي صلى الله عليه وسلم يحلف : لا ومقلب القلوب ...

وهذه الأحاديث الصحيحة صريحة في حظر الحلف بغير الله تعالى ويدخل النبي صلى الله عليه وسلم في عموم غير الله وكذلك الكعبة وسائر ما هو معظم شرعا تعظيها يليق به ...

(ب) ثم قال ويجوز الحنث للمصلحة الراجحة فقد روى الشيخان وأحمد عن عبد الرحمن بن سمرة قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : إذا حلفت على يمين ورأيت غير ما خيرا منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك - وفي رواية فكفر على يمينك وآت الذي هو خير ،

وينقسم الحلف باعتبار المحلوف عليه إلى أقسام .

١ - أن يحلف على فعل واجب وترك حرام ، فهذا تأكيد لما كلفه الله لإياه فيحرم الحنث ويكون لإثمه مضاعفا .

٢ - أن يحلف على ترك واجب أو فعل محرم ، فهذا يجب عليه الحنث ، لأنه يمين معصية على ترك فريضة من الفرائض ، أو حق من الحقوق الواجبة عليه .

٣ - أن يحلف على فعل مندوب أو ترك مكروه ، فهذا طاعة فيندب له الوفاء ويكره الحنث كذا قال بعضهم . والظاهر وجوب الوفاء كما قالوا في النذر .

٤ - أن يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه ، فيستحب له الحنث ويكره التماذي كذا قالوا . وظاهر الحديث وجوب الكفارة والحنث مطلقا .

٥ - أن يحلف على ترك مباح وقد اختلفوا فيه : فقال ابن الصباغ : أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال .

أى أن الحالف يوازن بين مقدار الضرر الذى سيقرب على الاستمرار فى الترك ، والخير الذى يجلبه الحنث ، فإن رجح أحدهما مضى فيه ...

(ج) ثم قال : وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : الإيمان - بحسب صيغتها وأحكامها - ثلاثة أقسام :

أحدها : ما ليس من إيمان المسلمين وهو الحلف بالمخلوقات كالمكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء ونحو ذلك ، فهذه يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها باتفاق العلماء بل هى منهى عنها باتفاق أهل العلم والنهى نهى تحريم فى أصح الأقوال ... فى الحديث : ، إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم ، ومن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ، :

الثانى : اليمين بالله كقول القائل : والله لأفعلن كذا ، فهذه يمين منعقدة فيها الكفارة إذا حنث فيها باتفاق المسلمين .

والثالث : إيمان المسلمين التى هى فى معنى الحلف بالله ، ومقصود الحالف بها تعظيم الخالق لا الحلف بالمخلوقات كالحلف بالنذر والطلاق والعناق كقوله إن فعلت كذا فعلى صيام شهر أو الحج إلى بيت الله ...

فهذه الإيمان للعلماء فيها أقوال أظهرها أنه إذا حنث فيها لزمت كفارة يمين كما قال - تعالى - ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ، . وقال تعالى : قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ...

(د) ثم ختم صاحب المنار مباحثه بقوله : واليمين الغموس التى يهضم بها الحق أو يقصد بها الغش والخيانة ، أن يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لابد من التوبة وأداء الحقوق والاستقامة . قال - تعالى - ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتلذثوا به ثم تكذبونها ، وتذوقوا سوء بما صددتكم عن سبيل الله وألصقتم عذاب عظيم ، (١) .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد بينت للمؤمنين ما يجب عليهم إذا ما احتشوا في أيمانهم ، وحضتهم على حفظ أيمـانهم ، لكي ينالوا من الله - تعالى - الرضا والفلاح .

وبعد أن نهى الله المؤمنين عن تحريم ما أحله لهم ، وأمرهم بأن يتمتعوا بما رزقهم من خير بدون إسراف أو تقتير ، وبين لهم حكم ما عقده من أيمان ... بعد كل ذلك وجه - سبحانه - نداء ثانياً إليهم بين لهم فيه مضار الخمر وأشباهاها من الرذائل ، وأمرهم باجتنابها ، فقال تعالى :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٩٢) » .

قال الفخر الرازي : أعلم أن هذا النوع الثالث من الأحكام المذكورة في هذا الموضع - فقد أمر الله المؤمنين بعد تحريم الطيبات . . . ثم بين حكم الأيمان المعقدة .

ووجه اتصال هذه الآيات بما قبلها أنه - تعالى - قال فيها تقدم : ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، إلى قوله : « وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً » . ثم لما كان من جملة الأمور المستطابة الخمر والميسر ، لا جرم أنه - تعالى - بين أهما غير داخلين في المحلات بل في المحرمات (١) .

والخمر - بمعنى المصدر - هو الستر ، ولذلك يقال لما يستر به الرأس عند النساء خمار . والخمر - بمعنى الاسم - ما يخمر العقل ويستره ، ويمنعه من التقدير السليم :

قال القرطبي : والخمر مأخوذة من خمر ، إذا ستر ، ومنه خمار المرأة لأنه يستر وجهها . وكل شيء غطي شيئا فقد خمره . ومنه : خمروا آئيتكم أي : غطوها ...

وقيل : إنما سميت الخمر خمرأ ، لأنها تركت حتى أدركت كما يقال : قد اختمر العجين أي : بالغ إدراكه . وخمر الرأي ، أي ترك حتى يتبين فيه الوجه .

وقيل : إنما سميت الخمر خمرأ ، لأنها تخالط العقل . من المخامرة وهي المخالطة . ومنه قولهم : دخلت في خمار الناس - يفتح الحاء وضمها - أي : اختلطت بهم : فالمعاني الثلاثة متقاربة ، فالخمر تركت حتى أدركت ، ثم خالطت العقل ، ثم خمرته والأصل الستر ^(١) .

والميسر : القمار - بكسر القاف - وهو في الأصل مصدر ميمى من يسر كالموعد من وعد . وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة ، لأن المال يجرى . للسكاسب من غير جهد . أو هو مشتق من يسر بمعنى جزأ ، ثم أصبح علما على كل ما يتقارن عليها كالجزور ونحوه .

قال القرطبي : الميسر : الجزور الذي كانوا يتقارون عليه ، سمي ميسرا لأنه يجزأ أجزاء . فكأنه موضوع التجزئة . وكل شيء جزأته فقد يسرته . والياسر : الجازر ، لأنه يجرى . لحم الجزور ... ويقال للضاربين بالقداخ والمتقارمين على الجزور : ياسرون ، لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك ^(٢) . والمراد بالميسر ما يشمل كل كسب يجرى بطريق الحظ المبني على المصادفة فاللعب بالنرد على مال يسمى قارا ، واللعب بالشطرنج على مال يسمى قارا وهكذا ما يشبه ذلك من ألوان تملك المال بالمخاطرة وبطريق الحظ المبني على المصادفة .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٥١

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٥٣

ونحریم المیسر نحریم لذات الفعل . فالفعل فی ذاته حرام ، والكسب من طریقہ حرام .

والانصاب : جمع نصب ، وتطلق علی الأصنام التي كانت تنصب للعبادة لها أو علی الحجارة التي كانت تخص الذبح علیها تقرباً للأصنام .

والأزلام : جمع زلم . وهي السهام التي كانوا يتقاسمون بها الجزور أو البقرة إذا ذبحت . فسهم علیہ واحد ، وسهم إثنان وهكذا إلى عشرة . أو هي السهام التي كانوا يكتبون علی أحدها : أمرنی ربی وعلى الآخر نهانی ربی ، ويتركون الثالث غفلاً من الكتابة فإذا أرادوا سفراً أو حرباً أو زواجاً أو غیر ذلك ، أتوا إلى بیت الأصنام واستقسموها ، فإن خرج أمرنی ربی أقدموا علی ما يريدونه ، وإن خرج نهانی ربی أمسكوا عنه ، وإن خرج الغفل أجالوها ثانية حتى يخرج الأمر أو الناهی .

وقد نهى الله - تعالى - فی أوائل هذه السورة عن الاستقسام بالأزلام فقال : وإن تستقسموا بالأزلام ذلکم فسق ... (١) .

وقوله : رجس ، أى قدر تأباه النفوس الكريمة ، والعقول السليمة لقذارته ونجاسته .

قال الفخر الرازى : والرجس فی اللغة كل ما يستقدر من عمل . يقال : رجس الرجل رجساً إذا عملاً عملاً قبيحاً . وأصله من الرجس - بفتح الراء - وهو شدة الصوت . يقال : سحاب رجاس إذا كان شديداً الصوت بالرغد . فكأن الرجس هو العمل الذى يكون قوى الدرجة كامل الرتبة فى القبح ، (٢) .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما جاء فى

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٢ ص ٧٩ .

صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : نزات في آيات من القرآن ، وفيه قال . وأتيت على نفر من الأنصار فقالوا : تعال نطعمك ونسقيك خمرًا وذلك قبل أن تحرم الخمر - قال فأتيتهم في حش - أي بستان - فإذا رأس جزور مشوى عندهم وزق من خمر قال : فأكلت وشربت معهم . قال : قد كرت الأنصار والمهاجرين عندهم فقلت : المهاجرون خير من الأنصار . قال . فأخذ رجل - من الأنصار - لحى جل فضربنى به فخرج أنفى ، فأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبرته فأنزل الله - تعالى - يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه . . . الآيات ، (١) .

ومنها ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار . شربوا حتى ثملوا ، فعبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا ، جعل الرجل منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته فيقول : فعل هذا بي أخى فلان - وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن - ، والله لو كان بي رد وفا رحبًا ما فعل بي هذا ، حتى وقعت في قلوبهم الضغائن فأنزل الله : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر . . . إلى قوله : فهل أتم مشتهون ، (٢) .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ، إيمانًا حقا ، إنما تعاطى د الخمر ، أى : الشراب الذى يخامر العقل ويخالطه ويمنعه من التفكير السليم ، والميسر ، أى القمار الذى عن طريقه يكون تملك المال بالخطأ المبنى على المصادفة والمخاطرة . والأنصاب ، أى : الحجارة التى تذبح عليها الحيوانات تقربا للأصنام . . . والأزلام ، أى : السهام التى عن طريقها يطالب الشخص معرفة ما قسم له من خير أو شر . . . هذه الأنواع الأربعة د رجس من عمل الشيطان ، أى :

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٨٦

(٢) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ٣٤ .

مستفزة أعافها النفوس الكريمة ، وتأبأها العقول السليمة ، لأنها من تزيين الشيطان الذي هو عدو الإنسان ، ولا يريد له إلا ما كان شيئا قبيحا .

قال - تعالى - : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . . . » .

والفاء في قوله « فاجتنبوه » الإفصاح . والضمير فيه يعود على الرجس الذي هو خبر عن تلك الأمور الأربعة وهي الخمر والميسر والأنصاب والأزلام .
أي : إذا كان تعاطى هذه الأشياء الأربعة رجسا وقذرا ينأى عنه العقلاء فاجتنبوه لعلكم بسبب هذا الاجتناب والترك لذلك الرجس تنالون الفلاح والظفر في دنياكم وآخرتكم .

والنداء بقوله : « يا أيها الذين آمنوا . . . » عام لجميع المؤمنين . وقد ناداهم - سبحانه - بهذه الصيغة لتحريك حرارة العقيدة في قلوبهم ، حتى يستجيبوا لما نودوا من أجله ، وهو إجتنب تلك الرذائل وتركها تركا تاما .

وقوله : « رجس » خبر عن هذه الرذائل الأربعة . وصح الإخبار به - مع أنه مفرد - عن متعدد هو هذه الأربعة ، لأنه مصدر يستوى فيه القليل والكثير ، وشبهه بذلك قوله - تعالى - : « إنما المشركون نجس » .

وقيل : لأنه خبر عن الخمر ، وخبر المعطوفات عليها محذوف ثقة بالمذكور وقيل : لأن في الكلام مضافا إلى تلك الأشياء ، وهو خبر عنه . أي : إنما شأن هذه الأشياء أو تعاطيها رجس .

وقوله : « من عمل الشيطان » في محل رفع على أنه صفة لقوله : « رجس » أي : رجس كائن من عمل الشيطان ، لأنه قاجم عن تزيينه وتسويله ، إذ هو خبيث والخبيث لا يدعو إلا إلى الخبيث فالمراد من إضافة العمل إلى الشيطان المبالغة في كمال قبح ذلك العمل .

وعبر بقوله : « فاجتنبوه » للمبالغة في الأمر بترك هذه الرذائل ، فكأنه سبحانه يقول لا أمركم فقط بترك الرذائل ، بل أمركم أيضا بأن تكونوا

أنتم في جانب وهذه المنكرات في جانب آخر . فالامر هنا منصب على الترك وعلى كل ما يؤدي إلى اقتراف هذه المنكرات كخاططة المرتكبين لها ، وغشيان مجالسها . . . الخ .

ثم أكد سبحانه تحريم الخمر والميسر ببيان مفاسدهما الدنيوية والدينية فقال تعالى : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويهدمكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

أي : « إنما يريد الشيطان ، بتزيينه المنكرات لكم ، أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء ، بأن يقطع ما بينكم من صلوات ، ويشير في نفوسكم الأحقاد والضغائن بسبب تعاطيكم للخمر والميسر ، وذلك لأن شارب الخمر إذا ما استولت الخمر على عقله أزلت رشده ، وأفقده وعيه ، وتجعله قد يسىء إلى من أحسن إليه ، ويمتدئ على صديقه وجليسه ... وذلك يورث أشد ألوان العداوة والبغضاء بين الناس .

ولأن متعاطي الميسر كثيرا ما يخسر ماله على مائدة الميسر . والمال كما نعلم شقيق الروح ، فإذا ما خسر هذا المقامر صار عدوا لمن سلب ماله منه عند المقامرة ، وأصبح يضره له سوء ... وقد يؤدي به الحال إلى قتله حتى يشفي غيظه منه ، لأنه قد جعله فقيرا بائسا مجردا من أمواله بعد أن كان مالكها ... وفي ذلك ما فيه من تولد العداوة والبغضاء وإيقاد نار الفتن والشرور بين الناس .

فقوله تعالى : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ، إشارة إلى مفاسدهما الدنيوية .

أما مفاسدهما الدينية فقد أشار إليها سبحانه بقوله : « ويهدمكم عن ذكر الله وعن الصلاة ... » .

أي : ويريد الشيطان أيضا بسبب تعاطيكم للخمر والميسر - أي يهدمكم ،

أى يشغلكم ويمنعكم ، عن ذكر الله ، أى : عن طاعته ومراقبته والتقرب إليه ، ، وعن الصلاة ، التى هى الركن الثانى من أركان الإسلام ...
وذلك لأن شارب الخمر يمنعه ما حصل به من نشوة كاذبة ،
ومن فقدان لرشده . . . عن طاعة الله وعن أداء ما أوجبه عليه من صلاة
وغيرها ...

ولأن متعاطى الميسر بسبب استحلاله لكسب المال عن هذا الطريق
الخبث ، ويسبب فقدانه للعاطفة الدينية السليمة . . . صار لا يفكر فى القيام
بما أوجبه الله عليه من عبادات .

ورحم الله الألوسى ، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : «وجه صد الشيطان
لهم عن ذكر الله وعن الصلاة بسبب تعاطيهم للخمر والميسر أن الخمر لغلبة
السرور بها والطرب على النفوس ، والاستغراق فى الملاذ الجسدية ، تلهى عن
ذكر الله تعالى - وعن الصلاة .

وأن الميسر إن كان اللاعب به غالباً ، انشردت نفسه ، ومنه حب القلب
والقهر والكسب عما ذكر ، وإن كان مغلوباً حصل له من الانقباض والقهر
ما يحثه على الاحتيال لأن يصير غالباً فلا يخطر بقلبه غير ذلك .

وقد شاهدنا كثيراً ممن يلعب بالشطرنج يجرى بينهم من اللجاج والخلف
الكاذب والغفلة عن ذكر الله تعالى ما ينفر منه الفيل وتكبوا له الفرس ويحار
لشناعته الفهم وتسرد رقعة الأعمال (١) .

وجمع - سبحانه - الخمر والميسر مع الانصب والأزلام فى الآية الأولى
ثم أفردهما بالذكر فى هذه الآية ، لأن الخطاب للمؤمنين ، والمقصود نهيمهم
عن الخمر والميسر ، وإظهار أن هذه الأربعة متقاربة فى القبح والمفسدة ، أى

أن يحىء الانصاب والأزلام مع الخمر والميسر إنما هو لتقبيح تعاطيهما، وتأكيد حرمتها، حتى لا كان متعاطى الخمر والميسر يفعل أفعال أهل الجاهلية، وأهل الشرك بالله - تعالى - وكأنه - كما يقول الزمخشري - : لامباينة بين من عبد صنما وأشرك بالله في علم الغيب ، وبين من شرب خمرًا أو قامر .

وخص الصلاة بالذكر مع أنها لون من ألوان ذكر الله ، تعظيمًا لشأنها، كما هو الحال في ذكر الخاص بعد العام ، وإشعارًا بأن الصاد عنها كالصاد عن الإيمان ، لما أنها عماد الدين ، والفارق بين المسلم وبين الكافر .

والاستفهام في قوله : فهل أنتم منتهون ، لإنتكار استمرارهم على الخمر والميسر بعد أن بين لهم ما بين من مضارهما الدنيوية والدينية ، ولخصهم على ترك تعاطيهما فوراً ، أى : انتهوا سريعاً عنهما فقد بينت لكم ما يدعو إلى ذلك .

ولقد لبى الصحابة - رضى الله عنهم - هذا الأمر فقالوا : د انتهينا يارب ؛ انتهينا يارب ، وألقوا ما عندهم من خمر في طرقات المدينة ...

ثم أكد - سبحانه - وجوب هذا الانتهاء بأن أمر بطاعته وطاعة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا . ، أى : اجتنبوا - أيها المؤمنون - هذه الرذائل ، وانتهوا عنها فقد بينت لكم مضارها ، ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول، في جميع ما أرا به ونهيا عنه ، واحذروا ، مخالفتها . لأن مخالفة أوامرها تؤدي إلى الحسرة والخسران وأمر - سبحانه - بطاعته وبطاعة رسوله مع أن طاعة رسوله طاعة له - سبحانه - لتأكيد الدعوة إلى هذه الطاعة ، ولتكريم الرسول صلى الله عليه وسلم - حيث جعلت طاعته مجاورة لطاعة الله - تعالى - .

وقوله : ، فإن توليتم فاعلموا أنما على رسوانا البلاغ المبين ، تأكيداً للتحذير السابق ، وتنبيه إلى سوء عاقبة العاصين لأمر الله ورسوله .

وجواب الشرط محذوف والتقدير : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول - أيها المؤمنون - واحذروا مخالفة أمرهما ، فإن توليتم وأجركم عن طاعتهما ، فقد وقعتم في الخطيئة ، وستعاقبون عليهما عقابا شديدا ، واعلموا أنه ليس على رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - سوى التبليغ الواضح البين عن الله - تعالى - أما الحساب والجزاء ، والثواب والعقاب فمن الله وحده .

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذكرت أنواعا من التأكيدات ، وألوانا من التهديدات التي تدعو إلى اجتناب الخمر والميسر اجتنابا تاما ، وتركهما تركا لا عودة بعده إليهما .

وقد وضع صاحب الكشف هذا المعنى بقوله : « أكد - سبحانه - تحريم الخمر والميسر بوجوه من التأكيد :

منها : تصدير الجملة بإيما .

ومنها : قرنها بعبادة الأصنام ، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - « شارب الخمر كعابد الوثن » .

ومنها : أنه جعلهما رجسا كما قال - تعالى - : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان ،

ومنها : أنه جعلهما من عمل الشيطان ، والشيطان ، لا يأتي منه إلا الشر

البعث .

ومنها : أنه أمر بالاجتناب وظاهر الأمر للوجوب .

ومنها : : أنه جعل الاجتناب من القلاح ، وإذا كان الاجتناب فلاحا ،

كان الارتكاب خيبة وخسرانا .

ومنها : أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال - وهو وقوع التعادى والتباغض -

وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة .

ومنها : قوله « فهل أنتم متتهون » فهو من أبلغ ما ينهى به ، كأنه قيل : قد

تلى عليكم ما فيهما من أنواع الصوارف والموانع ، فهل أنتم مع هذه الصوارف

منتهون أم أنتم على ما كنتم عليه ، كان لم تؤعظوا ولم تنزجروا ، (١) .

هذا ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي :

١ - أن هذه الآيات السكرية هي آخر ما نزل في القرآن لتحريم الخمر
تحريراً قاطعاً ، لأن التعبير بالإنتهاء والأمر به فيه إشارة إن تهديدات سابقة
للتحريم .

قال القرطبي : تحريم الخمر كان بتدريج ونوازل كثيرة ، فإنهم كانوا
مولعين بشربها ، وأول ما نزل في شأن الخمر قوله - تعالى - : يسألونك عن
الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس . (٢) أي : في تجارتهم .
فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا : لا حاجة فيها فيه إثم كبير ، ولم
يتركها بعض الناس . وقالوا : نأخذ منفعتها ونترك إثمها فنزلت هذه الآية
: يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . . (٣) فتركها بعض الناس
وقالوا : لا حاجة فيها يشغلنا عن الصلاة ، وشربها بعض الناس في غير أوقات
الصلاة ، حتى نزلت : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر . . . الآية ،
فصار حراماً عليهم حتى صار بعضهم يقول : ما حرم الله شيئاً أشد من
الخمر . . . (٤)

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع أنه قال : لما نزلت آية البقرة ، يسألونك
عن الخمر والميسر . . . ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن ربكم
يقدم في تحريم الخمر . ثم نزلت آية النساء : ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى .
فقال - صلى الله عليه وسلم - : إن ربكم يقدم في تحريم الخمر . ثم نزلت آية
المائدة : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر . . . فحرمت عند ذلك . . .

(١) تفسير البكشاف ج ١ ص ٦٧٥ - بتصرف ١ - ير -

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٩

(٣) سورة النساء الآية ٤٣

(٤) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٨٦

(٢٤) - سورة المائدة

ولما سمع عمر قوله - تعالى - « فهل أنتم متهون » قال : إلهتنا يارب (١)
ولا شك في أن تدرج القرآن في تحريم الخمر يدل دلالة واضحة على
رحمة الله - تعالى - بعباده المؤمنين ، وتربية حكيمة حتى يقلعوا عما تعودوا
بسهوله ويسره . ، وذلك لأن شرب الخمر كان من العادات المتأصلة في النفوس
ويكفي للدلالة على حب العرب لها قول أنس بن مالك : حرمت الخمر وما
يكن للعرب عيش أعجب منها ، وما حرم عليهم شيء أشد عليهم من الخمر .

ولقد كان موقف الصحابة من هذا التحريم لما يحبونه ويشتهونه ، يمثل
أسمى ألوان الطاعة والاستجابة لأمر الله - تعالى - ، فعندما بلغهم تحريم الخمر
أراقوا ما عندهم منها في الطرقات ، بل وحطموا الأواني التي كانت توضع
فيها الخمر .

أخرج البخاري عن أنس قال : كنت ساق القوم في منزل أبي طلحة
وكان خرم يومئذ الفضيخ - أي : فقيع البسر ... فأمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم مناويا ينادي « ألا إن الخمر قد حُرمت » .

قال : فقال لي أبو طلحة : أخرج فأهرقها . قال : فخرجت فهرقتها فجرت
في سلك المدينة (٢) .

وأخرج ابن جرير عن قتادة عن أنس بن مالك قال : بينا أنا أدير الكأس
على أبي طلحة ، وأبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وسهيل بن بيضاء
وأبي ذبابة حتى مالت رؤوسهم من خليط بسر وتمر ، فسمعنا منادياً ينادي
إن الخمر قد حُرمت . قال : فما دخل علينا داخل ولا خرج ، حتى أهرق
الشراب ، وكسرنا القلال ، وتوضأ بعضنا ، ولأغسل بعضنا ، ثم خرجنا إلى
المسجد ، وإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ « يا أيها الذين آمنوا !

(١) تفسير الألوسي ج ٧ ص ١٧ .

(٢) البخاري في باب : صب الخمر من كتاب « المظالم والنصب » ج ٣ ص ١٧٣ .

الخمر والميسر ... إلى قوله ، فهل أقم منتهون

فقال رجل لفتادة : سمعته من أنس بن مالك ؟ قال : نعم . وقال رجل لأنس أنت سمعته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : نعم . وحدثني من لم يكذب : والله ما كنا نكذب ، ولا ندرى ما الكذب (١) .

وأخرج ابن جرير - أيضاً - عن أبي بريدة عن أبيه قال : بينما نحن قعود على شراب لنا ، ونحن نشرب الخمر حلاً ، إذ قمت حتى أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر ، يأبها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ... الآيات ، فجئت إلى أصحابي ، فقرأتها عليهم ، إلى قوله : فهل أقم منتهون ، قال : وبعض القوم شربته في يده قد شرب بعضاً ، وبقي بعض الإناء ، فقال بالإناء تحت شفته (٢) العليا ، كما يفعل الحجام ، ثم صبوا ما في باطنهم ، فقالوا : اتهمنا ربنا ، اتهمنا ربنا ، (٣) .

وهكذا نرى أن قوة الإيمان التي غرسها الإسلام في نفوس أتباعه عن طريق تعاليمه الحكيمه ، وتربيته السامية ... قد تغلبت على ما أحبته النفوس وأزالت من القلوب ما ألفتها الطباع إلهاً شديداً

٢ - أن كلمة خمر اسم خامر العقل وغطاء من الأثرية المسكرة ، سواء أكانت من عصير العنب ، أم من الشعير ، أم من التمر ، أم من غير ذلك وكلها سواء في التحريم قل المشروب منها أو كثر ، سكر شاربها أو لم يسكر ، وأن على الشارب حد الشرب في الجميع .

(١) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ٣٧ .

(٢) قوله : « فقال بالإناء » الفعل قال هنا بمعنى أخذ أو فعل : والمعنى أنه أخذ الإناء الذي يشرب فيه الخمر فضرب به تحت شفته العليا حتى جرحها كما يخرج الحجام من بريد حجامته . والقصد من ذلك قهر نفسه والتصميم على فكف عن شرب الخمر كفاً بآنا . ولاباطية : إناء يوضع فيه الخمر .

(٣) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ٢٤ .

وبهذا القول قال جمهور العلماء : ومن أدلتهم النقلية ما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال : خطب عمر على منبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : إنه قد نزل تحريم الخمر وهي خمسة أشياء : العنب والتمر والحنطة والشعير والعسل ، والخمر ما خامر العقل

وأخرج أيضا عن عائشة قالت : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن البتخ - وهو نبيذ العسل - وكان أهل اليمن يشربونه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل ما أسكر فهو حرام . .

وأخرج كذلك عن أنس قال : حرمت علينا الخمر حين حرمت ، وما نجد - يعني بالمدينة - خمر الأعناب إلا قليلا . وعامة خمرنا البسر والتمر ، (١) .

فهذه الأحاديث الصحيحة صريحة في أن ما أسكر من هذه الأشربة المأخوذة من التمر أو الحنطة أو الشعير أو العنب . . . يسمى خمرًا .

ومن أدلتهم العقابية أصل الاشتقاق اللغوي لكلمة خمر ، فقد عرفنا أنها سميت بهذا الاسم لخامرتها العقل وستره ، فكل ما خامر العقل من الأشربة وجب أن يطلق عليه لفظ خمر سواء أكان من العنب أم من غيره .

ويرى الأحناف ووافقهم بعض العلماء كبارهم النخعي ، وسفيان الثوري ، وابن أبي ليلى : أن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير العنب فقط ، أما المسكر من غيره كالشراب الذي من التمر أو الشعير فلا يسمى خمرًا بل يسمى نبيذاً .

ومن حججهم أن الخمر حرمت ولم يكن العرب يعرفون الخمر في غير المأخوذة من ماء العنب ، فالخمر عندهم اسم لهذا النوع فقط . وما وجد فيه مخامرة للعقل من غير هذا النوع لا يسمى خمرًا ؛ لأن اللغة لا تثبت من طريق القياس . وقد ورد عن ابن عمر أنه قال : حرمت الخمر وما بالمدينة منها شيء . . .

(١) صحيح البخاري كتاب الأشربة ج ٧ ص ١٣٦

ولقد كان بالمدينة من المسكرات نقيع النمر والبسر ، فدل ذلك على أن ابن عمر - وهو عربي - ما كان يرى أن اسم الخمر يتناول هذين .

ويقول الأحناف ومن وافقهم : إن الأحاديث التي استشهد بها الجمهور على أن الخمر اسم لكل مسكر من عصير العنب أو غيره . . . ، هذه الأحاديث لبيان الحكم الشرعي ، والحرمه بالقياس لتحقيق عللة الحرمة وهي الإسكار في القدر المسكر من هذه الأشياء .

وقد ابنى على هذا الخلاف بين الجمهور والأحناف أحكام أخرى تتعلق بنجاسة هذه الأشياء ، وبوجوب إقامة الحد على شاربيها . . . الخ . وتفصيل هذه الأحكام يرجع فيه إلى كتب الفقه وأصوله .

هذا ، وقد رجح المحققون من العلماء ما ذهب إليه الجمهور ، وضعفوا ما ذهب إليه الأحناف ومن وافقهم .

قال ابن العربي : وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة فلا يلتفت إليها . والصحيح ما رواه الأئمة أن أنسا قال : « حرمت الخمر يوم حرمت وما بالمدينة خمر الأعناب إلا القليل ، وعامة خمرها البسر والنمر » ،

واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم يكن عندهم يومئذ خمر عنب ، وإنما كانوا يشربون خمر النبيذ ، فكسروا دنانهم - أي : أواني الخمر - ، وبادروا إلى الامتثال لاعتقادهم أن ذلك كله خمر ، (١) - أي : وأقرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ذلك .

وقال الألوسي : وعندى أن الحق الذي لا ينبغى العدول عنه ، أن الشراب المتخذ مما عدا العنب كيف كان وبأى اسم سمى متى كان بحيث يسكر من لم يتعوده فهو حرام ، وقليله كمكثيرة ، ويحد شاربه ، ويقع طلاقه ، ونجاسته غليظة . وفي الصحيحين أنه - صلى الله عليه وسلم - سئل عن النقيع - وهو نبيذ العسل - فقال : « كل شراب أسكر فهو حرام » .

وروى أبو داود : دهنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن كل مسكر ومفتر . .

وصح عنه - صلى الله عليه وسلم - : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » .
والأحاديث متضافرة على ذلك .

وامرئى إن اجتماع الفساق في زماننا على شرب المسكرات مما عدا الخمر ،
ورغبتهم فيها ، فوق اجتماعهم على شرب الخمر ورغبتهم فيه بكثير . وقد وضعوا
لها أسماء - كالغبرية والأكسير - ونحوهما ، ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها
من الحرمة ، وتبيح شربها للأمة - وهيئات هيئات - فالأمر وراء ما يظنون ،
وإن الله وإنا إليه راجعون (١) .

٣ - قال القرطبي ماملاً منه : « فهم الجمهور من تحريم الخمر ، وأستخبات
الشرع لها ، وإطلاق الرجس عليها ، والأمر باجتنابها ، الحكم بنجاستها .

وخالفهم في ذلك - ربيعة والليث بن سعد والمزني صاحب الشافعي ،
وبعض المتأخرين من البغداديين والقرويين فرأوا أنها ظاهرة وأن المحرم إنما
هو شربها . . .

والصحيح ما عليه الجمهور لأن وصفها بأنها « رجس » يدل على نجاستها ،
فإن الرجس في اللسان النجاسة . . .

وقوله : « فاجتنبوه » يقتضى الاجتناب المطلق الذى لا ينتفع معه بشئ .
بوجه من الوجوه . . . وعلى هذا تدل الأحاديث الواردة في هذا الباب .

روى مسلم عن ابن عباس أن رجلاً أهدى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -
راوية خمر ، - أى قربة خمر - فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
« هل علمت أن الله حرمها » قال : لا . قال : فسار رجلاً فقال له رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - « ديم صار رته » ؟ قال : أمرته أن يبيعها ، فقال : « إن
الذى حرم شربها حرم بيعها » . . .

ثم قال القرطبي : وهذه الآيات تدل على أن كل طهو دغا قليله إلى كثير ، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه ، وصعد عن ذكر الله وعن الصلاة فهو كشرب الخمر ، ووجب أن يكون حراما مثله ... (١) .

٤ - هذه الآيات السكرية تدل على تأكيد تحريم الخمر وما ذكر معها من رذائل ، كما تدل على ما تؤدي إليه من مفسد ومضار ، وما يحق بمركبها من سوء عاقبة ...

وقد ساق ابن كثير عند تفسيره لهذه الآيات جملة من الأحاديث في هذا المعنى ، ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعنت الخمر على عشرة أوجه : لعنت الخمر بعينها ، وشاربها ، وساقها وبائعها ومبتاعها ، وعاصرها ومعتصرها ، وحاملها والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها .

وقال ابن وهب ... قال عبد الله بن عمر : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمانان بما أعطى .

وروى أبو داود عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : كل مخمر خمز ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب مسكرا بخست صلاته أربعين صباحا ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد الرابعة كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال ، قيل وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : دديد أهل النار ... (٢) .

هذا جانب من الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآيات السكرية ، ومن الأحاديث التي وردت في حرمة الخمر وفي سوء مصير شاربيها .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٨٨ - بتصرف وتلخيص .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٩٢ .

وقد أتبع - سبحانه - ذلك ببيان حكم من شربها ومات قبل أن ينزل
تحريمها فقال - تعالى - :

« ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا
ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا
وأحسنوا ، والله يحب المحسنين (٩٣) » .

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات متقاربة في معناها ، ومن
ذلك ما رواه الترمذي عن البراء بن عازب قال : مات ناس من أصحاب النبي
- صلى الله عليه وسلم - وهم يشربون الخمر . فلما نزل تحريمها قال ناس من أصحاب
الرسول - صلى الله عليه وسلم - : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها
قال : فنزلت : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... الآية » .

وعن ابن عباس قال : قالوا يا رسول الله ، رأيت الذين ماتوا وهم يشربون
الخمر ، لما نزل تحريم الخمر ، فنزلت : « ليس على الذين آمنوا ... الآية » .

وروى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة : ... أنه بعد أن نزل قوله
- تعالى - : « يأبى الله الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ... الآيات » ، قال الناس :
يا رسول الله ، ناس قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فرشهم ، كانوا يشربون
الخمر ويأكلون الميسر ؛ وقد جعله الله رجساً ومن عمل الشيطان ؟ فأنزل
الله - تعالى - : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما
طعموا ... الآية » (١) .

قال القرطبي : وهذه الآية وتلك الأحاديث نظير سؤا لهم عن مات إلى
القبلة الأولى فنزلت : وما كان الله ليضيع إيمانكم . .

ومن فعل ما أبيح له حتى مات على فعله ولم يكن له ولا عليه شيء ، لا لائم

ولامؤاخدة ولا ذم ولا أجر ولا مدح، لأن المباح مستوى الطرفين بالنسبة إلى الشرع، وعلى هذا فما كان ينبغي أن يتخوف ولا يسأل عن حال من مات والخير في بطنه وقت إباحتها، فإما أن يكون ذلك القاتل غفل عن دليل الإباحة فلم يخطر له، أو يكون لغلبة خوفه من الله - تعالى -، وشفقته على إخوانه المؤمنين توهم مؤاخدة ومعاينة لأجل شرب الخمر المتقدم، فرفع الله التوهم بقول: ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا... الآية، (١).

وقال الألوسي: وقيل إن هذه الآية نزلت في القوم الذين حرموا على أنفسهم اللحوم وسلكوا طريق الترهيب كعثمان بن مظعون وغيره... والاول هو المختار، (٢).

وقوله - تعالى - : فيما طعموا، أى: ذاقوا، مأخوذ من الطعم - بالفتح - وهو قد روق الشيء والمليذ به، سواء أكان ما كولا أم مشروبا وهو المراد هنا.

قال القرطبي: وأصل هذه الكلمة في الأكل. يقال: طعم الطعام وشرب الشراب لكن قد تجاوز في ذلك فيقال: لم أطمع خبزا ولا ماء ولا نوما... (٣).

والمعنى: ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح، أى: حرج أو إثم، فيما طعموا، أى فيما تناولوه من خمر أو ما يشبهها من محرمات قبل أن يحرمها الله - تعالى - وكذلك للإثم ولا حرج على من مات قبل التحريم.

وقوله: إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات، تحريض للمؤمنين على الازدياد من الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

أى: إذا ما اتقوا الله وخافوه وتلقوا أوامره بالقبول، وثبتوا على الإيمان، وأكثروا من الأعمال الصالحات..

وقوله: ثم اتقوا وآمنوا، معطوف على ما قبله.

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٩٣ (٢) تفسير الألوسي ج ٦ ص ٢١١.

(٣) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٩٦.

أى : ثم استمروا على تقواكم وامتلاء قلوبهم بخشية الله ، والإيمان الحق به - سبحانه - فتكرير التقوى والإيمان هنا لبيان أنه يجب استمرارهم ومواظبتهم على ذلك ، مع تمسكهم بما يقتضيه الإيمان والتقوى من فعل الخير وابتعاد من الشر .

وقوله : « ثم انقوا واحسنوا » معطوف على ما قبله - أيضا - لتأكيد معنى الاستمرار على هذه التقوى طول مدة حياتهم مع إحسانهم إلى أنفسهم بالإكفار من العمل الصالح ، وإلى غيرهم بما يستطيعونه من إسداء الخير إليه .
وقوله : « والله يحب المحسنين » ، تذييل قصد به تأكيد ما قبله من الحض على الإيمان والتقوى والإحسان ، ومدح المتمسكين بتلك الصفات الحميدة .
أى : والله - تعالى - يحب المحسنين إلى أنفسهم بإلزامها بالوقوف عند حدود الله ، والاستجابة له فيما أمر أو نهى أو أحل أو حرم . . . برغبة ومسارة ، وإلى غيرهم بمد يد العون إليهم .

فآية الكريمة من مقاصدها ببيان جانب من مظاهر رحمة الله بعباده ، ورأفته بهم ؛ حيث بين لهم : أن من شرب الخمر أو لعب الميسر أو فعل ما يشتهرهما من محرمات ، ثم مات قبل أن ينزل الأمر بتحريم هذه الأشياء . . . فإن الله - تعالى - لا يؤاخذة على ذلك . لأن المؤاخذة على الفعل تبدأ من وقت تحريمه لا من قبل تحريمه .

وكذلك الحال بالنسبة لمن وقع في هذه الأشياء قبل أن تحرم فإن الله لا يؤاخذة عليها ، وإنما يؤاخذة عليها بعد نزول تحريمها . . . وهذا من فضل الله على عباده ، ورحمته بهم .

هذا ، وقد تعددت أقوال المفسرين حول مسألتين تتعلقان بهذه الآية الكريمة .

أما المسألة الأولى فهي : كيف شرط الله في رفع الجناح أى الإثم عن المطعومات والمشروبات الإيمان والتقوى ، مع أن الجناح مرفوع عن المباح من هذه الأشياء حتى عن الكافرين ؟

وقد قالوا في الإجابة على ذلك : إن تعليق نفي الجناح أى الإثم بهذه الأحوال ليس على سبيل اشتراطها ؛ فإن نفي الإثم عن الذى يتناول المباح قبل أن يحرم لا يشترط بشرط ، وإنما تعليق نفي الجناح بهذه الأحوال - ومعنى التقوى والإيمان ... - وارد على سبيل المدح لهم ، وإثناء عليهم ؛ وللدلالة على أنهم جديرون بهذه الصفات ، ولإدخال الطمأنينة على قلوبهم حتى يوقنوا بأن من تعاطى شيئاً من المحرمات قبل تحريمها فلا يؤاخذ الله على ذلك ، وإنما يؤاخذ إذا تعاطاها بعد تحريمها .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : د قيل لما نزل تحريم الخمر قالت الصحابة : يا رسول الله !! كيف يا خواتنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر وبأكلون مال الميسر؟ فنزلت الآية : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح ... إلخ ، يعنى أن المؤمنين لا جناح عليهم فى أى شئ طعموه من المباحات إذا ما إتقوا المحارم ، ثم إتقوا وآمنوا وأحسنوا ، على معنى : أن أولئك كانوا على هذه الصفة ثناء عليهم وحمداً لأحوالهم فى الإيمان والتقوى والإحسان . ومثاله أن يقال لك : هل على زيد جناح فيما فعل ؟ فنقول : وقد علمت أن ذلك أمر مباح : ليس على أحد جناح فى المباح إذا إتقى المحارم ، وكان مؤمناً محسناً . تريد : أن زيدا تقى مؤمن بحسن ، وأنه غير مؤاخذ بما فعل ، (١) .

وقال أبو السعود ما ملخصه : ما عدا إتقاء المحرمات من الصفات الجميلة المذكورة ، لا دخل لها فى إنتفاء الجناح . وإنما ذكرت فى حيزه إذا ، شهادة باتصاف الذين سئلوا عن حالهم بها ، ومدحاً لهم بذلك ، وحمداً لأحوالهم . فكأنه قيل : ليس عليهم جناح فيما طعموه إذ كانوا فى طاعته تعالى : مع ما لهم من الصفات الحميدة بحيث كلما أمروا بشئ تلقوه بالامتثال ، وإنما كانوا يتعاطون الخمر والميسر فى حياتهم لعدم تحريمها إذ ذك ، ولو حرما فى عصرهم لانقرهما بالمرة ، (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٦٧٦ (٢) تفسير أبى السعود ج ٢ ص ٥٧

وأما المسألة الثانية التي كثرت أقوال المفسرين فيها فهي : تكرار التقوى مرة مع الإيمان والعمل الصالح ، ومرة مع الإيمان ، ومرة مع الإحسان ؟ وقد ذكر القرطبي في ذلك أربعة أقوال فقال :

الأول : أنه ليس في ذكر التقوى تكرار ، والمعنى : إتقوا شربها وآمنوا بتحريمها ، أو دام إتقاؤهم وإيمانهم ، أو على معنى إضافة الإحسان إلى الإتياء .

والثاني : إتقوا قبل التحريم في غيرها من المحرمات ، ثم إتقوا بعد تحريمها شربها ، ثم إتقوا فيما بقي من أعمالهم وأحسنوا العمل .

الثالث : إتقوا الشرك وآمنوا بالله ورسوله ، والمعنى الثاني ثم إتقوا الكبائر ، وإزدادوا إيماناً ، والمعنى الثالث ، ثم إتقوا الصغائر وأحسنوا أي تنفلوا .

الرابع : قال ابن جرير : الإتياء الأول : هو الإتياء بتلقى أمر الله بالقبول والتصديق ، والدينونة به العمل . والإتياء الثاني : الإتياء بالشبات على التصديق ، والثالث : الإتياء بالإحسان والتقرب بالنوافل ، (١) .

والذي يبدو لنا أن ما قاله ابن جرير أقرب إلى الصواب ، وأن تكرير التقوى إنما هو لتأكيد وجوب إمتلاء قلب المؤمن بها ، وإستمراره على ذلك حتى يلقى الله . فإن المؤمن بعداومته على خشيته - سبحانه - يتدرج من الكمال إلى الأكمل حتى يصل في إيمانه وتقواه إلى مرتبة الإحسان والتي ترفع إلى أعلى عليين ، والتي عرفها النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ولقد بين لنا القرآن في مواطن كثيرة أن المؤمن بقوى إيمانه ويزداد ، بكثرة تدبره لما أنزله الله من شرائع وهدايات ... ومن ذلك قوله - تعالى -

« وإذا ما أنزلت سريرة فمنهم من يقول أيكم زادة هذه إيماناً ، فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ، (١) » .

وقال تعالى - « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً (٢) » .
وبذلك نرى الآية الكريمة قد طمأننت المؤمنين إلى أن الله - تعالى - لن يؤاخذهم بما تعاطوه من محرمات قبل تحریمها . وأن الواجب عليهم أن يستمروا على مراقبتهم له ، وخشيتهم منه حتى يلقوه - عز وجل - .

وبعد أن حذر الله - تعالى - المؤمنين من تعاطي المنكرات كالخمر والميسر وبين لهم حكم من مات قبل تحریم هذه الأشياء ... بعد كل ذلك بين - سبحانه - بشيء من التفصيل بعض الأحكام التي تتعلق بالصيد . فقال تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ، فَمَنْ اعتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَعَلُهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) » .

قال الألوسي : هذه الآية - كما خرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان - نزلت في عمرة الحديبية ، حيث ابتلام الله - تعالى - بالصيد وهم محرمون ، فسكانت الوحوش تغشاهم في رحالهم ، وكانوا متمكنين من صيدها أخذاً بأيديهم ، وطعنوا برماحهم فماتوا بأخذها فنزلت ... (٣)

وقوله : « لَيَبْلُوَنَّكُمْ ، أي : ليخبرنكم وليمتحننكم من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان » ،

(١) سورة التوبة : الآيتان ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) سورة المدثر الآية ٣١

(٣) تفسير الألوسي ج ٧ ص ٢١

ولفظ الصيد في قوله : د من الصيد ، مصدر بمعنى المصيد أى ، ما يصطادونه والمعنى : يا أيها الذين آمنوا ليختبرن الله سبحانه - إيمانكم ومبلغ قوته بأن يرسل إليكم وأنتم محرمون شيئاً من الصيد الذى تحبونه ، بحيث يسكون في متناول أيديكم وربما حكم .

وقوله : ليبلونكم الله ، جربا ب قسم محذوف ، والتقدير : والله ليعاملنكم سبحانه معاملة المختبر ليقبين المطيع من العاصي :

وأكد - سبحانه - هذا الخبر بلام القسم ونون التوكيد ، للإشارة إلى أهمية هذا الاختبار حتى يسارعوا إلى طاعته - سبحانه وامتنال أمره .

والتنوين في قوله د بشىء ، للتقليل والتحقير . وإنما امتحنوا بهذا الشيء الصغير ، تنبيها إلى أن من يثبت ويمصم نفسه عن ارتكاب هذه الأشياء الصغيرة فإنه لن يثبت أمام التكالييف الكبيرة .

ويمكن أن يقال ، إن التنوين هنا للتعظيم باعتبار أجزاء الأليم المترتب على الاعتداء على الصيد في حال الإحرام .

قال صاحب المكشاف : فإن قلت ما معنى التقليل والتصغير في قوله : بشىء من الصيد ؟

قلت : قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التى تدحض عندها أقدام الثابتين - كالأبتلاء ببذل الأرواح والأموال - وإنما هو شبهة بما ابتلى به أهل أيلة من صيد السمك ، وأنهم إذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عندما هو أشد منه (١)

وقوله : د بشىء من الصيد تناله أيديكم وربما حكم ، هو موضع الاختبار و د من ، في قوله د من الصيد ، لبيان الجنس ، أو التبعيض ، لأن المراد صيد البر دون البحر ، وصيد الاحرام دون صيد الإحلال .

ومعنى د تناله أيديكم وربما حكم ، تستطيع أيديكم أن تأخذ هذا الصيد

بسهولة وبسر إذا كان صغيرا وقريبا منكم ، وتستطيع رماحكم أن تناله إذا كان كبيرا أو بعيدا بعدا نسبيا منكم ...

وخص الأيدي والرماح بالذكر ، لأن معظم التصرفات التي تتعلق بالصيد تكون بالأيدي ، ولأن معظم الآلات التي تستعمل في الصيد تكون بالرماح .
وقوله : د ليعلم الله من يخافه بالغيب ، تعليل قصد به بيان الحكمة من وراء الإبتلاء والاختبار .

والمراد بالعلم في قوله : د ليعلم الله ... ، إظهار ماعله أزلا من أهل طاعته ومعصيته ، حتى يتميز الخبيث من الطيب .

والمعنى : اجتبرناكم أيها المؤمنون بنوع من البلايا - وهو تحريم مصيد البر صغارا وكبارا - وأقم عزمون أو في الحرم ، ليظهر ماعله أزلا - سبحانه - من أهل طاعته ومعصيته ، وبذلك يتميز للناس الخبيث من الطيب ، ويعرف الشخص الذي يخاف الله ويراقبه - مع أنه لم ير الله - سبحانه - من الشخص الذي لا يخاف الله ولا يراقبه .

ويجوز أن يكون الكلام على حذف مضاف ، أي : ليعلم أولياء الله من يخافه بالغيب .

قال الجمل : وقوله د بالغيب ، حال من فاعل يخافه ، أي : يخاف الله حالة كونه غائبا عن الله ، ومعنى كون العبد غائبا عن الله ، أنه لم ير الله تعالى .
أو حال من المفعول . أي : يخاف الله حال كونه - تعالى - ملتبسا بالغيب عن العبد ، أي غير مرئي له ... (١) .

وقوله : د فن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، بيان لسوء عاقبة المخالف لأوامر الله ، والمتجاوز لحدوده .

واسم الإشارة د ذلك ، يعود إلى ما بينه - سبحانه - لعباده من أحكام .
والمعنى : لقد اجتبرناكم - أيها المؤمنون - بما اجتبرناكم به ، ليميز قوى الإيمان من ضعيفه ، فن تعدى منكم حدود الله بعد هذا البيان والإعلام ،

فله عذاب شديد الآلام ، عظيم الإهانة ، لأن التعدي بعد الإنذار ، دليل على عدم المبالاة بأوامر الله ، ومن لم يبال بأوامر الله ساءت عاقبته ، وقبح مصيره . هذا ولقد نجحت الأمة الإسلامية - وخصوصاً سلفها الصالح - في هذا الاختبار ، فقد تجنب أبناؤها وهم محرمون أو في الحرم نصيد البر مهما أغرام قربه منهم ، وحبهم له على صيده والانتفاع به . . .

بينما أخفق بنو إسرائيل فيما يشبه هذا الاختبار ؛ فقد نهام الله - تعالى - عن الصيد في يوم السبت ، فكانت الأسماك تظهر لهم في هذا اليوم لمتحاناً من الله لهم ، فما كان منهم إلا أن تحايلوا على صيدها ، بأن حبسوها في يوم السبت ليصيدوها في غيرها . . . فاستحقوا من الله اللعنة والمسوخ . . . واستحققت الأمة الإسلامية أن تكون خير أمة أخرجت للناس .

ثم نهى - سبحانه - المؤمنين نهياً صريحاً عن قتل الصيد وهم حرم ، وبين ما يجب على القاتل . . . وكرر تحذيره وتهديده لمن يتعدى حدوده فقال - تعالى - :
 « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مُمْتَعِدًا فَأَجْزَاءُ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ ، يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بِالْغِ كَةِ أَوْ كَفَّارَةً طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، هَذَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ، وَمَنْ هَادٍ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٩٥) » .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ . . . » هذا خطاب عام لكل مسلم ذكر وأُنثى . وهذا النهى هو الإبتلاء المذكور في قوله - تعالى - قبل هذه الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ . . . الآية » . وروى أن أبا اليسر - واسمه عمرو بن مالك الأنصاري - كان محرماً عام الحديبية بمكة ، فقتل حمار وحش فنزلت هذه الآية (١) .

والمراد بالصيد هنا المصيد ، لأنه هو الذي يقع عليه القتل .

وقوله : حرم ، جمع حرام . وهذا اللفظ يتناول المحرم بالحج أو بالعمرة أو بهما وإن كان في الحل ، كما يتناول من كان في الحرم وإن كان حلالا . قال ابن جرير : « والحرم جمع حرام ، والذكر والأنثى فيه بلفظ واحد . نقول : هذا رجل حرام ، وهذه امرأة حرام ، فإذا قيل محرم ، قيل للمرأة محرمة . والإحرام : هو الدخول فيه . يقال : أحرم القوم : إذا دخلوا في الشهر الحرام ، أو في الحرم . فتأويل الكلام : لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون ، (١) .

والصيد المنهى عن قتله هنا : صيد البر ، لأن صيد البحر قد أحله الله بعد ذلك بقوله : « أحل لكم صيد البحر وطعامه الآية » .

والنهي كما يتناول قتل صيد البر بإزهاق روحه بأي طريق من طرق الإزهاق ، يتناول - أيضاً - قتله بطريق التسبب كالإشارة إليه مثلا ويتناول كذلك حظر الصيد نفسه ، لقوله - تعالى - في مطلع هذه السورة : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير على الصيد وأنتم حرم » .

ولقوله - تعالى - بهذه الآية النى معنا : « أحل لكم صيد البحر وطعامه مناعا لكم وللسيارة ، وحرم عليكم صيد البر ما دمنتم خروما » . فالنهي في قوله - تعالى - « لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » ، يتناول القتل عن طريق المباشرة أو التسبب كما يتناول أى عمل يؤدي إلى صيد الحيوان .

وإنما كان النهي في الآية منصبا على القتل ، لأنه هو المقصود الأعظم من وراء مباشرة عملية الصيد ، إذ الصائد يريد قتل المصيد لكي يأكله في الغالب . هذا ، وقد اختلف الفقهاء في المصيد الذي يحرم صيده على المحرم .

(١) تفسير ابن جرير ٧ ص ٤٠ .

فذهب بعضهم إلى أن المراد به ما يصاد مطلقا سواء أكان ما كولا أم غير ما كول ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما جاء النص باستثنائه ، وذلك لأن الصيد اسم عام يتناول كل ما يصاد من المأكول ومن غير المأكول

- وهذا الرأي قال الأحناف ومن وافقهم من الفقهاء .
ويرى الشافعية أن المراد به المأكول فقط ، لأن الصيد إنما يطلق على ما يحل أكله لحسب

وقد اتبني على هذا الخلاف أن من قتل وهو محرم سبعا ، فالأحناف يرون أنه يجب عليه الجزاء الذي فصلته الآية والشافعية يرون أنه لا يجب عليه ذلك .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » .

هذا تحريم منه - تعالى - لقتل الصيد في حال الإحرام ، ونهى عن تعاطيه فيه . وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ولو ما تولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعي يجوز قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضا ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور ، - وفي رواية الحية بدل العقرب - ومن العلماء كالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور : الذئب والسبع والتمر والفهد ، لأنها أشد ضررا منه (١)

وقوله : « ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم . . . » بيان لما يجب على المحرم في حال قتله للصيد .

قال الألوسي ما ملخصه : والمعنى : « ومن قتله » كائنا « منكم » حال كونه « متعمدا » أي : ذا كرا لإحرامه طالما بحرمة قتل ما يقتله ، ومثله من قتله خطأ

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٩٨ .

والفاء في قوله ، جزاء مثل ما قتل من النعم ، جزائية إذا اعتبرنا ، من ، شرطية وهو الظاهر ، وإذا اعتبرناها موصولة تكون زائدة لشبه المبتدأ بالشرط . . .

وقوله : ، جزاء ، بالرفع والتنوين - مبتدأ ، و ، مثل ، مرفوع على أنه صفة ، والخبر محذوف . أى : فعلية جزاء مماثل لما قتله . . . ، وهذا قرأ الكوفيون ويعقوب . وقرأ باقي السبعة برفع ، جزاء ، بدون تنوين - ويجز ، مثل ، بالإضافة . . .

وقد خرجت هذه القراءة بتخريجات منها : أن تعتبر الإضافة بيانية أى : جزاء هو مثل ما قتل . . . (١) .

وظاهرة الآية يفيد ترتيب الجزاء على القتل العمد ، إلا أنهم اختلفوا هنا على أقوال ذكرها القرطبي فقال ما ملخصه :

قوله - تعالى - : ومن قتله منكم متعمدا جزاء مثل ما قتل من النعم ، ذكر - سبحانه - المتعمد ولم يذكر المخطئ ، ولا النامى والمتعمد هنا هو القاصد للشيء مع العلم بالإحرام . والمخطئ هو الذى يقصد شيئا فيصيب صيدا . والنامى هو الذى يتمدد الصيد ولا يذكر إحرامه . واختلف العلماء فى ذلك على خمسة أقوال :

الأول : ما أسنده الدارقطنى عن ابن عباس قال : إنما التكفير فى العمد ، وإنما غلطوا فى الخطأ لئلا يمودوا .

الثانى : أن قوله ، متعمدا ، خرج على الغالب ، فالحق به النادر كأصول الشريعة .

الثالث : أنه لا شيء على المخطئ والنامى وبه قال الطبرى وأحمد - فى إحدى روايته - وطاؤوس ودارد وأبو ثور . . .

الرابع : أنه يحكم عليه في العمد والخطأ والنسيان ، وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم ...

قال الزهري : وجب الجزاء في العمد بالقرآن ، وفي الخطأ والنسيان بالسنة . . . فقد سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الضبع فقال : دهي صيد ، وجعل فيها إذا أصابها المحرم كبشا ، ولم يقل عمدا ولا خطأ .

الخامس : أن يقتله متعمدا لقتله ناسيا لإحرامه - وهو قول مجاهد - ، لقوله - تعالى - بعد ذلك : ومن عاد فينتقم الله منه ، قال : ولو كان ذا كرا لإحرامه لوجبت عليه العقوبة لأول مرة . قال : فدل على أنه أراد متعمدا لقتله ناسيا لإحرامه ... (١)

ويبدو لنا أن القول الرابع الذي قال به الأئمة أبو حنيفة والشافعي ومالك أقرب إلى الصواب ، لأن تخصيص العمد بالذكر في الآية ، لاجل أن يرتب عليه الانتقام عند العود ، لأن العمد هو الذي يرتب عليه ذلك دون الخطأ ، ولأن جزاء الخطأ معروف من الأدلة التي قررت التسوية في ضمان المتلفات ، إذ من المعروف أن من قتل صيد إنسان عمدا أو خطأ في غير الحرام فعليه جراؤه ، فهذا حكم عام في جميع المتلفات . . وما دام الأمر كذلك كان الجراء ثابتا على المحرم متى قتل الصيد سواء أكان قتله له عمدا أم خطأ .

وقد اختلف العلماء - أيضا في المراد بالمثل في قوله - تعالى - : ومن قتله منكم متعمدا لجزاء مثل ما قتل من النعم ، .

فجمهور الفقهاء يرون أن المراد بالمثل النضير . أي أن الجزاء يكون بالمماثلة بين الصيد المقتول وبين حيوان يقاربه في الحجم والمنظر من النعم وهي الإبل والبقر والغنم .

ومن حججهم أن الله أوجب مثل المصيد المقتول مقيدا بكونه من النعم ،

فلا بد أن يكون الجزاء مثلاً من النعم ، وعليه فلا تصح القيمة لأنها ليست من النعم . . .

قال ابن كثير : وفي قوله - تعالى - : « فجزاء مثل ما قتل من النعم ، دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي ، خلافاً لأبي حنيفة حيث أوجب القيمة سواء أكان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي . قال : وهو مخير إن شاء تصدق بثمانه . وإن شاء اشترى به هدياً .

والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالانباع . فإنهم حكموا في النعامة ببدنه ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز . . . وأما إذا لم يكن الصيد مثلاً فقد حكم ابن عباس فيه بثمان يحمل إلى مكة ، (١) .

ثم بين -- سبحانه -- بعد ذلك طريق معرفة الجزاء ، ومآله ، وأنواعه ، فقال -- تعالى -- : « يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة . أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً .

والضمير في قوله : به ، يعود على الجزاء المماثل المصيد المقتول . وقوله : هدياً ، حال من جزاء ، أو منصوب على المصدرية . أي يهديه هدياً .

والهدى : اسم لما يذبح في الحج لإهدائه إلى فقراء مكة . وقوله : بالغ الكعبة ، صفة لقوله : هدياً ، لأن إضافته لفظية . وقوله : « أو كفارة » معطوف على جزاء . وأو للتخيير ، وكذلك في قوله : « أو عدل ذلك صياماً » .

والعدل - بالفتح - ما عادل الشيء من غير جنسه . وأما بالكسر - من جنسه . وقيل هما بيان ومعناهما المثل مطلقاً .

والمعنى الإجمالي للآية الكريمة : بأيتها الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً ، لا تقتلوا

الصيد وأنتم محرمون ، ومن قتل منكم الصيد وهو بهذه الصفة فعليه جزاء من النعم مماثل الصيد المقتول ومقارب له في الخلقة والمنظر ، أو في القيمة ، وهذا الجزاء المماثل للصيد المقتول يحكم به رجلا منكم تتوافر فيهما العدالة والخبرة حتى يكون حكمهما أقرب إلى الحق والصواب ، ويكون هذا الجزاء الواجب على قاتل الصيد هدياً بالغ الكعبة ، أى : يصل إلى الحرم فيذبح فيه ويتصدق به على مساكينه ، أو يكون على قاتل الصيد كفارة ، هى : طعام مساكين ، بأن يطعمهم من غالب ثروت البلد ما يساوى قيمة هذا الجزاء المماثل للصيد المقتول بحيث يعطى لكل مسكين نصف صاع من بر أو صاعاً من غيره ، أو يكون عليه ما يعادل هذا الطعام صياماً ، بأن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً ، وما قل عن طعام المسكين يصوم عنه يوماً كاملاً .

وإذا لم يوجد للصيد المقتول مماثل كالعصفور وما يشبهه فعليه قيمته ، فشتري بها طعاماً لكل مسكين مد ، أو يصوم عن كل مد يوم .

وبهذا نرى أن المحرم إذا قتل الصيد فعليه جزاء من النعم مماثل للصيد المقتول في الخلقة والمنظر أو عليه ما يساوى قيمة هذا الجزاء طعاماً ، أو عليه ما يعادل هذا الطعام صياماً . . . وهذا ما يقول به جمهور الفقهاء .

ما أبو حنيفة . فيرى - كما سبق أن أشرنا - أن المماثلة إنما تعتبر ابتداءً بحسب القيمة ، فيقوم الصيد المقتول من حيث هو ، فإن بلغت قيمته قيمة هدى ينخر الجاني بين أن يشتري بها هدياً يهدي إلى الكعبة ويذبح في الحرم ويتصدق بلحمه على الفقراء ، وبين أن يشتري بها طعاماً للمساكين ، وبين أن يصوم عن طعام كل مسكين يوماً .

والمراد من الكعبة هنا الحرم ؛ وإنما خصت بالذكر نظماً لها . قال بعض العلماء : ولا شك أن التأخير هنا ليس على حقيقته ، إنما هو ترتيب مراتب على حسب القدوة على كل رتبة ، فالأصل بلالريب شراء هدى وذبحه في الحرم ، فإن تعذر ذلك كان الطعام ، فإن تعذر كان الصيام . . .

هذا هو الظاهر عند الحنفية . وروى عنهم قالوا بالتخيير إذا عرفت القيمة بين الذبح عند الكعبة وبين إطعام المساكين ، وبين الصوم .

وعندى أن الترتيب حسب القدرة أوضح وذلك هو رأى أحمد وزفر . والمذاهب الأخرى تلتقى في الجملة مع المذهب الحنفى بيد أنها تعتبر المماثلة في الأوصاف .

وعندى أن المذهب الحنفى أوضح وأسهل تطبيقاً ، وأدق في تعرف المثل وقد اضطروا إليه عند استبدال الطعام بالذبح ، إذ لا يعرف مقدار الطعام إلا بمعرفة القيمة ، (١)

هذا ، وقوله - تعالى - : ليزوق وبال أمره ، تعليل لا يجاب الجزاء السابق على المحرم القاتل للصيد عن تعمد .

وقوله : ليزوق ، من الذوق وهو إدراك المذاومات باللسان لمعرفة ما فيها من حلاوة أو مرارة أو غير ذلك . والمراد به هنا : إدراك ألم العذاب على سبيل الاستعارة .

والوبال في الأصل : الثقل والشدة والوخامة . ومنه طعام وبيل إذا كان ثقبلاً على المعدة . ومرعى وبيل وهو الذى يتأذى به بعد أكله . . .

والمراد به هنا : سوء عاقبة فعله .

والمعنى : شرعنا ما شرعنا من جزاء على المحرم في حالة قتله للصيد ، ليدرك سوء عاقبة قتله وفعله السيئ ، وليعلم أن مخالفته لأمر الله تؤدي إلى الخسارة في الدنيا والآخرة .

قال الإمام الرازى : وإنما سمي الله - تعالى - ذلك وبالا ، لأنه خير بين ثلاثة أشياء : إثنان منها توجب تنقيص المال - وهو تقبل على الطبع - وهما : الجزاء بالمثل والإطعام . والثالث : يوجب إيلاام البدن وهو الصوم ، وذلك أيضاً تقبيل على الطبع .

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة مجلة لواء الإسلام العدد

والمعنى أنه - تعالى - أوجب على قاتل الصيد أحد هذه الأشياء التي كل واحد منها ثقيل على الطبع حتى يحترز عن قتل الصيد في الحرم وفي حال الإحرام ، (١)

وقوله : « عفا الله عما سلف » بيان لمظاهر من مظاهر رحمة الله بعباده ولطفه بهم ، لأنه - سبحانه - لم يؤاخذهم على قتلهم للصيد وهم محرمون قبل تحريمها والنهي عنها .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بتهديد شديد لمن تتكرر منه المخالفة لأوامر الله ونواهيه فقال : « ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » أي . ومن عاد وهو محرم إلى قتل الصيد بعد ورود النهي عن ذلك فإن الله - تعالى - ينتقم منه ويعاقبه عقاباً شديداً فهو - سبحانه - العزيز الذي لا يغالب ولا يقاوم المنتقم الذي لا يدفع انتقامه بأى وسيلة من الوسائل .

هذا وجهور العلماء على أن المحرم يتكرر الجزاء عليه في قتل الصيد يتكرر القتل وأن عقوبة الآخرة - وهي انتقام الله من الجاني - لا تمنع وجوب الجزاء عليه في الدنيا .

قال ابن كثير . ثم الجهم - ور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء ولا فرق بين الأولى والثانية والثالثة وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد .

وقال علي بن طلحة عن ابن عباس قال : من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم يحكم عليه فيه كلها قتله . فإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة . فإن عاد يقال له ينتقم الله منك .. ، (٢)

وبذلك نرى الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين من التعرض للصيد في حالة إحرامهم ، وبينت الجزاء المترتب على من يفعل ذلك ، وهددت من يستهين بحدود الله بالعذاب الشديد .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٢ ص ٩٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٠١ .

ثم بين - سبحانه - ما أحله للحرم وما حرّمه عليه ، مما يتعلق بالصيد . فقال - تعالى - :

« أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) » .

والمراد بصيد البحر : ما نوالده ومشواه في الماء . والمراد بالبحر : ما يشمل جميع المياه العذبة والمالحة سواء أكانت أنهارا أم غدران أم غيرهما .

والمراد بالصيد : الإصطياد أو ما يصاد منه .

والمراد بطعامه : ما يطعم من صيده . وهو عطف على « صيد » من عطف الخاص عن العام ، ويكون الحل الواقع على الصيد حل المقصود به حل الإنتفاع مطلقا ثم عطف عليه ما يفيد حل الآكل خاصة من باب إظهار الإمتنان بالإنعام بما هو قوام الحياة وهو الآكل ؛ فإن صيد البحر قد يقصد لمنافع أخرى غير الأكل ، كالاتفاع بزيت بعض أنواع المصيد منه .

ويرى ابن أبي ليلى أن المراد بالصيد والطعام المعنى المصدرى ، وقدر مضائفا في صيد البحر ، وجعل الضمير في « طعامه » يعود إليه لا إلى البحر ، فيكون المعنى :

أحل لكم صيد حيوان البحر كما أحل لكم أن تأكلوا ما صدتموه منه . فهو يرى حل الأكل من جميع حيوانات البحر .

وقيل : بل المراد بصيد البحر ما أخذ بحيلة ، وبطعامه ما ألقاه البحر من حيواناته أو انحسر عنه الماء وأخذة الآخذ من غير حيلة أو معالجة .

وقوله : « متاعا » مفعول لأجله .

وقوله : « وللسيارة » متعلق بأحل . وهو جمع سيار باعتبار الجماعة .

والمراد بالسيارة : القوم المسافرين .

والمعنى : أحل الله لكم أيها المحرمون صيد البحر كما أحل لكم أكل ما يؤكل منه ، لأجل تمتعكم وإنتفاعكم بذلك في حال إقامتكم وفي حال سفركم فأنتم تتمتعون بهذه النعم مقيمين ومساافرين ، وذلك يقتضى منكم الشكر لله لكي يزيدكم من هذه النعم .

قال ابن كثير ما ملخصه : وقد استدل الجمهور على حل ميتة البحر بهذه الآية وبما أخرجه الشيخان عن جابر قال : بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعثا قبل الساحل ، فأمر عليهم أبا عبيدة وهم ثلاثمائة - قال : وأنا فيهم - قال فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فبني الزاد . . . قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت كبير . فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة . فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكرنا ذلك له فقال : هو رزق أخرجته الله لكم . هل معكم من لحمه شيء . فتطعمونا ؟ قال : فأرسلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - منه فأكله . .

وأخرج الإمام أحمد وأهل السنن ومالك والشافعي عن أبي هريرة : أن رجلا سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله !! إنا نوكب البحر ونحمل معنا القليل من الماء ، فإن توضأنا به عطشنا أفئتوضأ بماء البحر ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : هو الطهور ماؤه الحل ميتته . .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أحلت لنا ميتتان ودمان ؛ فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالحب والكبد والطحال . .

رواة الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي وله شواهد . . وقد إحتج بهذه الآية أيضا من ذهب من الفقهاء إلى أنه يؤكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئا . . . وقد إستثنى بعضهم الضفادع وأباح ما سواها . . وقال أبو حنيفة لا يؤكل مامات في البحر كما لا يؤكل مامات في البر لعموم قوله - تعالى - : حرمت عليكم الميتة . . (١)

ثم أكد - سبحانه - حرمة صيد البر للمحرمين فقال : « وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما ، والمراد بصيد البر : ما كان أو والده وماواه في البر مما هو متوحش بأصل خلقته .

وبعض الفقهاء يرى أن التحريم هنا منصب على الفعل ، وعليه فالآية إنما تدل على حرمة الاصطياد فقط ، وأما الأكل منه - أى من المصيد - بأن يصيده حلال فلا تدل عليه الآية .

وبعضهم يرى أن التحريم هنا منصب على ذات الصيد ، وعليه فتكون الآية تقتضى تحريم جميع وجوه الانتفاع بالصيد إلا ما يخرج الدليل .

وقد بسط القرطبي الكلام في هذه المسألة فقال مملخصه : قوله - تعالى - : « وحرم عليكم صيد البر مادمتم حرما » التحريم ليس صفة للأعيان وإنما يتعلق بالأفعال فمعنى قوله : « وحرم عليكم صيد البر ... » ، أى فعل الصيد ، وهو المنع من الاصطياد .

أو يكون الصيد بمعنى المصيد الأظهر لإجماع العلماء على أنه لا يجوز للمحرم قبول صيد وهب له ، ولا يجوز له شراؤه ، ولا اصطیاده ، ولا استحداث مملكه بوجه من الوجوه .

وقد اختلف العلماء فيما يأكله المحرم من الصيد ، فقال مالك والشافعي وأحمد ... : إنه لا بأس بأكل المحرم الصيد إذا لم يصد له ولا من أجله ، لما رواه الترمذي والنسائي عن جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « صيد البر لكم حلال ما لم تصيدوه أو يصد لكم » .

وقال أبو حنيفة : أكل الصيد للمحرم جائز على كل حال إذا اصطاده الحلال - سواء صيد من أجله أو لم يصد لظاهر قوله - تعالى - : « ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم » ، فحرم صيده وقتله على المحرمين ، دون ما صاده غيرهم ..

وروى عن علي بن أبي طالب وابن عباس وابن عمر أنه لا يجوز للمحرم أكل صيد على حال من الأحوال سواء صيد من أجله أو لم يصد ... لحديث الصعب بن جثامة اللبي ، أنه أهدى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

حمارا وحشيا وهو بالأبواء فرده عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :
فلما أن رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما في وجهي قال : إنما لم نرده
عليك إلا أنا حرم ، خرجه الأئمة واللفظ للمالك ... (١) :

ثم ختم - سبحانه - الآية المكرمة بالدعوة إلى خشية وتقواه وبالتذكير
بالحشر وما فيه من حساب وعقاب فقال : ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون ، .
أى : واتقوا الله في كل أحوالكم ، وقفوا عند حذره فلا تتجاوزوها ،
واعلموا أن مرجعكم وحشركم إليه وحده ، وسيجازيكم على أعمالكم التي
عملتموها في دنياكم .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أحلت للمحرم صيد البحر - فضلا من
الله ورحمته - ؛ لأن البحر بعيد عن الحرم ، والمحرم قد يحرم في منطقة قد
تكون فيها بحار ، فتحريم صائد البحر عليه قد يؤدي إلى تعب وإجهاده . . .
دون أن تكون هناك فائدة تعود على سكان الحرم ،

أما الحكم من وراء تحريم الصيد البري على المحرمين فمنها : أن البيت
الحرام بواد غير زرع ، وسكان هذه المنطقة من وسائل حياتهم الصيد ،
فلو أبيح الصيد للمحرمين القادمين لزيارة البيت من كل فج عميق . . . لأدى
ذلك إلى قتل الكثير من الصيد البري الذي هو مصدر انتفاع للقاطنين في تلك
المناطق . . . وفضلا عن كل ذلك ففي تحريم الصيد البري الذي يعيش في منا
الحرم ، تكريم لهذه المناطق ، وتشريف لها ، وإعلاء شأنها ومكانتها . . .
فهي أماكن الأمان والأطمئنان والسلام . . . لا للبشر وحدهم ، بل للبشر ولغير
البشر من مخلوقات الله التي نهت شريعته عن التعرض لها بسوء .

وبعد هذا النهي الشديد للمحرمين عن صيد البر وهم على هذه الحالة . . .
بين - سبحانه - المنزلة السامية للكمبة التي هي أشرف مكان ، وأصلحه لأمان
الناس وأطمئنانهم . . . كما بين - سبحانه - مكانته الأشهر الحرم وما يقدم
فيها من خيرات لسكان الحرم - فقال - تعالى - :

« جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ، وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ
وَالْهَدْيَ وَالْقِلَادَ ، ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٩٧) اَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٩٩) فَلَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ (١٠٠) . .

قال الفخر الرازي : . اعلم أن اتصال هذه الآية - « جعل الله الكعبة . . »
بما قبلها ، هو أن الله - تعالى - حرم في الآية المتقدمة الاصطياد على المحرم ،
فبين أن المحرم كما أنه سبب لأمن الوحش والطير . فكذلك هو سبب لأمن
الناس عن الآفات والمخافات ، وسبب لحصول الخيرات والسعادات في الدنيا
والآخرة ، (١) .

والكعبة في اللغة : البيت المكعب أى المربع . وقيل المرتفع .
قال القرطبي : وقد سميت الكعبة كعبة ، لأنها مربعة .. وقيل : لأنها سميت
كعبة لنتوتها وبروزها ، فكل ناتئ بارز كعب .. ومنه كعب القدم وكعب
الفنأة ، وكعب ثدى المرأة إذا ظهر في صدرها ... ، (٢) .

وجعل هنا يحتمل أن تكون بمعنى صير فيتعدى لاثنيين أو ثلما الكعبة
وثانيهما قياما ويحتمل أن يكون بمعنى خلق أو شرع فيتعدى لواحد وهو الكعبة
ويكون قوله : « قياما » ، حال من البيت الحرام .

والبيت الحرام : بدل من الكعبة أو عطف بيان جىء به على سبيل المدح
والتعظيم . ووصف بالحرام لإيداعا بحرمته وإشعارا بشرفه ، حيث حرم -
مباحاته - القتل والقتال فيه ، وجعله مكان أمان الناس واطمئنانهم .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٣ ص ٩٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٢٤ .

وقوله : قياما ، أصله قواما فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .
والقيام والقوام ما به صلاح الشيء ، كما يقال : الملك العادل قوام رعيته ،
لأنه يدبر أمرهم ، ويردع ظالمهم ، ويحجز قويهم عن ضعيفهم ، ومسيئتهم عن
محسنهم

والمراد بالشهر الحرام : الأشهر الحرم على إرادة الجنس وهي : ذو القعدة ،
وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب .

وقيل المراد به شهر ذي الحجة فحسب ، لأنه هو الذي تؤدي فيه فريضة
الحج ، فالتميز يف للعباد وليس للجنس .

والهدى : اسم لما يهدي إلى الحرم من حيوان ، ليمتدح بذبجه إلى الله
تعالى - وهو جمع هدية - بسكون الدال - .

والقلائد جمع قلادة وهي ما يقلد به الهدى ليعلم أنه مهدي إلى البيت الحرام
فلا يتعرض له أحد بسوء .

فالمراد بالقلائد هنا الحيوانات ذوات القلائد التي تساق إلى الحرم لذبحها
فيه ، فيكون ذكر القلائد بعد الهدى من باب التخصيص بالذكر عن سبيل
الاهتمام بشأنها ، لأن الثواب فيها أكثر .

وقيل المراد بها : ما كان يفعله بعض الناس من وضع قلادة من شعر
أو من غيره في أعناقهم عندما يحرمون حتى لا يتعرض لهم أحد بسوء .

وقوله : والشهر الحرام والهدى والقلائد ، معطوف على ما قبله وهو الكعبة .
والمعنى : افتضت حكمة الله - تعالى - ورحمته بعبادة أن يصير الكعبة التي
هي البيت الحرام قياما للناس ، أي به قوامهم في إصلاح أمورهم دينا ودنيا ،
وكذلك جعل الأشهر الحرم والهدى وخصوصا ما يقلد منه قياما للناس أيضا .

وذلك لأن البيت الحرام الذي يأتي الناس إليه من كل فج عميق ، يجدون
في رحابه ما يقوى إيمانهم ، ويرفع درجاتهم ، ويفسل سيئاتهم ، ويصلح من
شئون دنياهم عن طريق تبادل المنافع ، وبذل الأموال ، والشعور بالأمان

والاطمئنان ، وتوثيق الصلات الدينية والديورية التي ترضى الله - تعالى - ،
وتجملهم أهلاً لفضله ورحمته .

ولأن الأشهر الحرم تأتي للناس فتجملهم بمنعون عن القتال فيها ، فتهدا
نفوسهم ، ويحصل النألف والتزاور بعد التدابر والتقاطع والتعادي ولأن الهدى
والقلائد التي يسوقها المحرمون إلى الحرم لنبحها فيها ما فيها من التوسعة على
الفقراء . وإشاعة روح المحبة والتسامح والإخاء .

ورحم الله الإمام القرطبي حيث يقول : « والحكمة في جعل الله - تعالى -
هذه الأشياء قياماً للناس ، أن الله - سبحانه - خلق الخلق على سبيلقة الأدوية
من التحاسد والتقاطع والسلب والغارة . . . فلم يكن بد في الحكمة الإلهية من
وازع يزجهم - أي يزجرهم - عن التنازع ، ويحملهم على التألف ، ويرد
الظالم عن المظلوم ، فقد روى مالك أن عثمان بن عفان كان يقول : ما يزع الإمام
أكثر مما يزع القرآن . . »

فجعل - سبحانه - الخليفة في الأرض حتى لا يكون الناس فوضى ،
وعظام في قلوبهم البيت الحرام ، وأوقع في نفوسهم هيئته ، فكان من لجأ إليه
معصوماً به ، وكان من اضطهد محمياً بالسكون فيه .

ولما كان لهذا البيت موضماً مخصوصاً - ومكاناً معيناً - لا يدركه كل مظلوم ،
فقد جعل - سبحانه - الأشهر الحرام ملجأً آخر . . . وقرر في قلوبهم حرمتها ،
فكانوا لا يروعون فيها سرباً - أي نفساً - ولا يطلبون فيها دماً ، حتى كان الرجل
يلقي قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه . . . ثم شرع لهم الهدى والقلائد ، فكانوا
إذا أخذوا بعيرا وأشمره دماً ، أو علقوا عليه قلادة أو فعل ذلك الرجل
بنفسه . . . لم يروعه أحد حيث لقيه . . . (١) .

واسم الإشارة في قوله : « ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما
في الأرض . . . »

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٢٥ بتصرف وبتلخيص

يعود على الجمل المذكور الذي هو تصيير البيت الحرام وما عطف عليه للناس ، أى : صلاحاً لأحوالهم الدينية والدنيوية .

والمعنى : فعمل الله - تعالى - ذلك لتعلموا أنه - سبحانه - يعلم علماً تاماً شاملاً ما فى السموات وما فى الأرض ، ولتوقنوا بأنه يعلم طبائع البشر وحاجاتهم ومكنونات نفوسهم ، وهتاف أرواحهم . . لأن تشريع هذه الشرائع المستبعدة لدفع المضار وجلب المصالح الدينية والدنيوية دليل على أنه - سبحانه - يعلم ما فى السموات وما فى الأرض . وعلى أنه بكل شيء عليم دون أن تخفى عليه خافية ، هذا السكون : وكرر - سبحانه - ما وفى ، فى المعطوف والمطوف عليه الإشارة إلى دقة العلم وشموله ، وأنه - سبحانه - لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وقوله ، وأن الله بكل شيء عليم ، تعميم لإثر تخصيص . للتأكيد وقدم الخاص على العام ليعلم أن ذكر الخاص كالدليل على العام .

قال الجمل : واسم الإشارة ، ذلك ، فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : الحكم الذى حكمناه ذلك لا غير . والثانى : أنه مبتدأ وخبره محذوف أى : ذلك الحكم هو الحق لا غيره . والثالث : أنه منصوب بفعل مقدر يدل عليه السياق . أى : شرع الله ذلك . . . وهذا أقواها ، لتعلق لام العلة به . وقوله ، تعلموا ، منصوب بإضمار أن بعد لام كى . وقوله : وأن الله بكل شيء عليم ، معطوف على ما قبله وهو ، أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، (١) .

ثم رهب الله - تعالى - عباده من عقابه ، ورغبهم فى ثوابه فقال : واعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم .

أى : اعلوا - أيها الناس - أن الله شديد العقاب لمن اتهك حرمانه ،

وتجاوز حدوده ، وأنه - سبحانه - واسع المغفرة والرحمة لمن أطاعه وتاب إليه توبة صادقة .

وفي تصدير الآية الكريمة بفعل الامر « اعدوا » تنبيه شديد إلى أهمية ما سيبقى عليهم من أمر أو نهي ، حتى يستقر في قلوبهم ، ويرسخ في نفوسهم ، فيسئل عليهم تنفيذ

وجمع - سبحانه - بين الترهيب والترغيب ، حتى يكون المؤمن بين الرجاء والخوف ، فلا يقنط من رحمة الله ولا يجترئ على ارتكاب ما يغضبه - سبحانه - .

وبعد هذا الترغيب والترهيب بين - سبحانه - وظيفه رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبذرون وما تكتمون » .

وأصل البلاغ - كما يقول القرطبي - البلوغ ، وهو الوصول . يقال : بلغ يبلغ بلوغاً وأبلغه إبلاغاً . . . وبلغه تبليغاً ، ومنه البلاغة ، لأنها إيصال المعنى إلى النفس في أحسن صورة من اللفظ . . . (١) .

أي : ليس على رسولنا - أيها الناس - إلا تبليغ ما أمرناه بتبليغه إليكم وتوصيل ما كفناه بتوصيله لكم ، وهو لم يقصر في ذلك ، ولم يأل جهداً في نصحكم وإرشادكم فأطيعوه لتسعدوا . واعلموا أن الله - تعالى - يعلم ما تظهرون وما تخفون من خير أو شر ، وسيجازيكم بما تستحقون يوم القيامة .

فالآية الكريمة تأكيد لما اشتملت عليه سابقاتها من ترغيب وترهيب ، ومن تبشير وإنذار ، وتصريح بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليه تبليغ ما كلفه الله بتبليغه إلى الناس ، وليس عليه بعد ذلك هدايتهم أو ضلالهم ، وإنما الله وحده هو الذي بيده ذلك ، وهو الذي بيده حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٢٧ .

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بأنه لا يستوى عنده الخبيث والطيب فقال:
 « قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ... » .

والخبيث - كما يقول الراغب - ما يكره رداءة وخساسة محسوسا كان أم
 معقولا ، وأصله الردى ، الدخلة الجارى مجرى خبث الحديد كما قال الشاعر :

سبكناه ونحسبه جينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

وذلك يتناول الباطل فى الاعتقاد ، والكذب فى المقال ، والقبیح فى
 الفعل ... (١) .

والطيب : الشيء الحسن الذى أباحته الشريعة ورضيته العقول السليمة ،
 ويتناول الاعتقاد الحق ، والمقال الصدق ، والعمل الصالح .

والمعنى : قل - يا محمد - للناس : إنه لا يستوى عند الله ولا عند العقلاء
 القبيح والحسن من كل شيء ، لأن الشيء القبيح - فى ذاته أو فى سببه أو فى غير
 ذلك من أشكاله - يفيض إلى الله وإلى كل عاقل ، وسيكون مصيره إلى الهلاك
 والى الوار .

أما الشيء الطيب الحسن فهو محبوب من الله ومن كل عاقل ، ومحمود العاقبة
 دينا ودنيا .

وقوله : « ولو أعجبك كثرة الخبيث » ، زيادة فى التنفير من الشيء الخبيث ،
 وحض على التمسك بما هو طيب .

أى : لا يستوى فى ميزان الله ولا فى ميزان العقلاء الخبيث والطيب ، حتى
 ولو كان الفريق الخبيث كثير المظهر ، براق الشكل « تعجب الناظرين هيئته
 فلا تغتر به أيها العاقل ، ولا تؤثر فى نفسك كثرة وسطوته ... فإنه مهما
 كثر وظهر وفشا ... فإنه سىء العاقبة ، مريع الزوال ، لذته تعقبها الحسرة ،
 وشهوته تتلوها الندامة ، وسطوته تصحبها الخسارة والكرهية ، وطريقه
 المليئة بالندس والقذر ... يجب أن يوصد أبوابها الأخيار الشرفاء .

أما الطريق الطيب أو الشىء الطيب فهو محمود العاقبة ، لذته الحلال ، يباركها الله ، وثماره الحسنة تؤيدها شريعته وتستريح لها العقول السليمة ، والقلوب النقية من كل دنس وباطل وطريقه المستقيم - مهما قل سالكوها - هي الطريق التى توصل إلى كل خير وفلاح .

ولا شك أن العقل عندما يتخلص من الهوى سيختار الطيب على الخبيث لأن فى الطيب سعادة الدنيا والآخرة .

وما أحسن قول أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها : - ما تمتع الأشرار بشىء إلا وتمتع به الأخيار ، وزادوا عليهم رضا الله - عز وجل - .

والغناء فى قوله : - فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ، للإفصاح عن كلام مقدر ، والتقدير :

إذا كان الأمر كما بينت لكم - أيها الناس - من أنه لا يستوى الخبيث الطيب ، لأن أهل الخبيث سيعاقبون ويندمون مهما كثروا . . . وأهل الطيب سينابون ويفرحون . . . إذا كان الأمر كذلك فاتقوا الله يا أصحاب العقول السليمة بأن تجتنبوا كل ما هو خبيث ، وتقبلوا على كل ما هو طيب ، لعلكم بسبب هذه التقوى والخشية من الله تنالون والفلاح والنجاح فى دنياكم وآخرتكم .

والجمله الكريمة تذييل قصد به تأكيد ما مر من الترغيب فى الطاعات والتحذير من المعاصى .

قال الفخر الرازى : لما ذكر - سبحانه - هذه الترغيبات الكفيرة فى الطاعة ، والتحذيرات من المعصية ، أتبعها بوجه آخر يؤكدها فقال : - فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ، أى : فاتقوا الله به هذه البيانات الجلية والتعريفات القوية ، ولا تقدموا على مخالفته لعلكم تصيرون فائزين بالمطالب الدنيوية والدينية العاجلة والآجلة (١) .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ١٠٤ وراجع فى تفسير هذه الإيات إذا كنت تبتغى المزيد من العلم والمعرفة ، فقد أجاد فى هذا المقام وأبدع - رحمه الله - .

وبعد هذا الحديث المستفيض عن الحلال والحرام في شريعة الإسلام..
انتهت آيات السورة الكريمة إلى تربية المسلمين وإرشادهم إلى الآداب التي
يجب أن يتمسكوا بها ، ونهيهم عن الأسئله التي لاخير يرجى من وراء
إثارتها ... فقال تعالى :-

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ ، وَإِنْ
تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تَبْدَ لَكُمْ ، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ
حَلِيمٌ » (١٠١) قد سألهما قومٌ مِنْ قِبَلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) .

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هاتين الآيتين روايات متعددة ، منها
ما حكاه القرطبي في قوله : روى البخاري ومسلم وغيرهما - واللفظ للبخاري -
عن أنس قال : قال رجل للنبي - صلى الله عليه وسلم - يا رسول الله من أبي ؟
قال : « أبوك فلان » .

وخرج البخاري أيضا عن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وفيه :
« فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به مادمت في مقامى هذا ، فقام إليه
رجل فقال : أين مدخلى يا رسول الله ؟ قال : النار ، فقام عبد الله بن حذافة
- وكان إذا لاحى يدعى إلى غير أبيه - فقال من أبى يا رسول الله ؟ فقال :
أهلك حذافة ...

وروى الدارقطني والترمذي عن علي رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه
الآية ، « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ... » قالوا :
يا رسول الله ، أفى كل عام ؟ فسكت . فقالوا : أفى كل عام ؟ قال : « لا ولو
قلت نعم لوجبت ، فأنزل الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ
أَشْيَاءَ ... الآية .

وروى مجاهد عن ابن عباس أنها نزلت في قوم سألوا رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

ثم قال القرطبي : ويحتمل أن تكون الآية نزلت جواباً للجميع ، فيكون السؤال قريباً بعضها من بعض (١) ...

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله حق الإيمان ، لا تسألوا فيكم صلى الله عليه وسلم أو غيره ، عن أشياء تتعلق بالعقيدة أو بالأحكام الشرعية أو بغيرها هذه الأشياء ، إن تبدل لكم ، وتظهر ، تسؤم ، أى : تغمكم وتخذلوا على السؤال عنها لما يترتب عليها من إحراجكم ، ومن المشقة عليكم ، ومن الفضيحة لبعضكم ...

فالآية السكريّة - كما يقول ابن كثير - تأديب من الله لعباده المؤمنين ، ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءت لهم ، وشق عليهم سماعها ، كما جاء في الحديث أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر (٢) .

وقد وجه - سبحانه - النداء إليهم بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة العقيدة في نفوسهم ، حتى يستجيبوا بسرعة ورغبة إلى ما كلفوا به .

وقوله : « أشياء » اسم جمع من لفظ شيء ، فهو مفرد لفظاً جمع معنى كطرفاء ، وقصباء - وهذا رأى الخليل وسيبويه وجمهور النصارى - . ويرى الفراء أن أشياء جمع لشيء . وهو ممنوع من الصرف لآلف التأنيث الممدودة ، ومتعلق بقوله : « تسألوا » .

ومفعول « تسألوا » محذوف للتعميم - أى : لا تسألوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا تسألوا غيره عن أشياء لا فائدة من السؤال عنها ، بل إن السؤال عنها قد يؤدي إلى إحراجكم وإلى المشقة عليكم ...

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٣٠

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٠٤

وقوله : « إن تبد لكم تسؤم » صفة لأشياء داعية إلى الانتهاء عن السؤال عنها .

وعبر « بأن » المفيدة للشك وعدم القطع بوقوع الشرط والجزاء الإشارة إلى أن هذا الإشك كاف في تركهم للسؤال عن هذه الأشياء ، فإن المؤمن الحق يبتعد عن كل مالا فائدة من وراءه من أسئلة أو غيرها .

وقوله : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » معطوف على ما قبله وهو قوله : « إن تبد لكم تسؤم » .

والضمير في قوله « عنها » يعود على « أشياء » و « حين » ظرف زمان منصوب بالفعل « تسألوا » ،

والمعنى : لا تكثروا - أيها المؤمنون - من الأسئلة التي لا خير لكم في السؤال عنها ، وإن تسألوا عن أشياء نزل بها القرآن بحملة ، فتطلبوا بيانها تبين لكم حينئذ لاحتياجكم إليها .

قال الفخر الرازي : السؤال على قسمين ، أحدهما : السؤال عن شيء لم يجر ذكره في الكتاب والسنة بوجه من الوجوه . فهذا السؤال منهي عنه بقوله : « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم » .

والنوع الثاني من السؤال : السؤال عن شيء نزل به القرآن لكن السامع لم يفهمه كما ينبغي فهذهما السؤال واجب ، وهو المراد بقوله : « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم » .

والفائدة في ذكر هذا القسم ، أنه لما منع في الجملة الأولى من السؤال ، أو هم أن جميع أنواع السؤال ممنوع منه ، فذكر ذلك تمييزا لهذا القسم عن ذلك القسم .

فإن قيل : إن قوله « وإن تسألوا عنها » هذا الضمير عائد على الأشياء المذكورة في قوله : « لا تسألوا عن أشياء » فكيف يعقل في « أشياء » بأعيانها أن يكون السؤال عنها ممنوعا وجائزا معا ؟

قلنا : الجواب عنه من وجهين : الأول : جائز أن يكون السؤال عنها ممنوعا قبل نزول القرآن بها ومأمورا بها بعد نزول القرآن بها . والثاني : أنهما وإن كانا نوعين مختلفين ، إلا أنهما في حكم شيء واحد ، فلهذا حسن اتحاد الضمير ، وإن كانا في الحقيقة نوعين مختلفين ، (١) :

وقال القرطبي : قوله - تعالى - « وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدل لكم فيه غموض » ، وذلك أن في أول الآية النهي عن السؤال ، ثم قال : « وإن تسألوا ... الخ » ، فأباحه لهم .

ف قيل : المعنى وإن تسألوا عن غيرها فيما مست الحاجة إليه ، فحذف المضاف ولا يصح جملة على غير المحذوف .

قال الجرجاني : الكناية في « عنها » ترجع إلى أشياء آخر ، كقوله تعالى : « وإله خلقنا الإنسان من سلاله من طين » ، يعني آدم ، ثم قال : « ثم جعلناه نطفة ... » أي : ابن آدم ، لأن آدم لم يجعل نطفة في قرار مكين ، لكن لما ذكر الإنسان وهو آدم دل على إنسان مثله ، وعرف ذلك بقريضة الحال .

فالمعنى : وإن تسألوا عن أشياء - آخر - حين ينزل القرآن من تحليل أو تحریم أو حكم ، أو مست حاجتكم إلى التفسير ، فإذا سألتم فينبذ تبدل لكم فقد أباح - سبحانه - هذا النوع من السؤال ، (٢) .

والضمير في قوله « عفا الله عنها » يعود إلى أشياء ، والجملة في محل جر صفة أخرى لأشياء .

أي : أن هذه الأشياء التي نهيت عن السؤال عنها هي عفا الله عنه - راحة منه وفضلا - حيث لم يكلفكم بها ، ولم يفضحكم بيانها .

ويجوز أن يعود الضمير إلى الاستئذان المدلول عليها بقوله « لا تسألوا » ،

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١٢ ص ١٠٧

(٢) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٢٣

فتكون الجملة مستأنفة ، ويكون المعنى : عفا الله عن أسئلتكم السالفة التي سألتموها قبل النهي ، وتجاوز - سبحانه - عن معاقبتكم عليها رحمة منه وكرما ، فمن الواجب عليكم بعد ذلك ألا تعودوا إلى مثلها أبداً .

قال صاحب المنار : ولا مانع عندنا بمنعنا من إرادة المعنيين معا ، فإن كل ما يدل عليه عبارات القرآن من المعاني الحقيقية والمجازية والكناية يجوز عندنا أن يكون مراداً منها مجتمعة تلك المعاني أو منفردة ما لم يمنع مانع من ذلك كأن تكون تلك المعاني مما لا يمكن اجتماعها شرعاً أو عقلاً ، فحينئذ لا يصح أن تكون كلها مرادة بل يرجح بعضها على بعض بطرق الترجيح المعروفة من لفظية ومعنوية .

وقوله : والله غفور حلیم ، اعتراض تذييلي مقرر لعفوه - سبحانه - أي : عفا الله عن كل ذلك ، وهو - سبحانه - واسع المغفرة والحلم والصفح ولذا لم يكلفكم بما يشق عليكم . ولم يؤاخذكم بما فرط منكم من أقوال وأعمال قبل النهي عنها .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر العبر والعظات والحكم من وراء نهيمهم عن الأسئلة التي لا خير يرجى من ورائها فقال : قد سألتها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ، .

والضمير في قوله : قد سألتها ، يعود إلى الأسئلة المنهية عنها في قوله - تعالى - : لا تسألوا ... ، .

أي : قد سأل قوم من قبلكم - أيها المؤمنون - أمثال هذه الأسئلة التي لا خير يرجى من ورائها ، ثم أصبحوا بعد إظهار الإجابة عليها كافرين بها ، لأنهم استثقلوا الإجابة عما سألوا عنه ، وتركوا العمل بما تطلعوا إلى معرفته ويجوز أن يكون الضمير عاتداً إلى أشياء في قوله : لا تسألوا عن أشياء ... ، على تقدير السؤال عن حكمها أو عن سببها أو عن أصلها ، أو عن غير ذلك مما لا فائدة من السؤال عنه .

والى هذين المعنيين أشار الألوسى بقوله : « قد سألتها ، أى : المسألة ،
فالضمير فى موقع المصدر لا المفعول به . والمراد : سأل مثلها فى كونها محظورة
ومستتعبة للوبال د قوم ، . وعدم التصريح بالمثل المبالغة فى التحذير .

وجوز أن يكون الضمير للأشياء على تقدير المضاف أيضا ، فالضمير فى
موقع المفعول به ، وذلك من باب الحذف والإيصال . والمراد : سأل عنها ...
وإختلف فى تعيين القوم : فمن ابن عباس هم قوم عيسى ؛ سألوه لإنزال المائدة
ثم كفروا بها . وقيل : هم قوم صالح - عليه السلام - سألوه الناقة ثم عقروها
وكفروا بها . وقيل : هم بنو إسرائيل كانوا يسألون أنبياءهم عن أشياء فإذا
أخبروهم كذبوهم (١) :

والذى نراه أن لفظ د قوم ، يشمل هؤلاء الأقوام الذين ذكرهم الألوسى
كما يشمل غيرهم ممن سألوا عن أشياء لآخر من السؤال عنها ، فلما أجيئوا عما
سألوا عنه لم يعملوا بما أخبروا به بل كفروا به وهجروه وأنكروه . . .
ونكر - سبحانه - لفظ د قوم ، لأنه ليس الغرض تعيين ذواتهم ،
بل الغرض النهى عن التشبه بهم مهما كانت أجناسهم أو أزمانهم .

وجاء العطف فى الآية د ثم ، المفيدة للتراخي ، للدلالة على التباعد المعنوى
بين اللجاجة فى السؤال وبين الجحود والكفر بعد ذلك ؛ فكانهم كانوا
يريدون حكما يناسب أهواءهم ، فلما جاءهم الحكم الذى لا يهوىونه
كفروا به ...

وقوله د ثم أصبحوا بها كافرين ، يؤذن بأنهم قبل السؤال عن تلك الأشياء
أو قبل الخوض فى تلك الاستئلة لم يكونوا كافرين ، ولكنهم أصبحوا بسبب
الخوض فيها والتفتيش عنها كافرين ، لأنهم لم يمثلوا ما أجيئوا به ، وإنما نبذوه
وراء ظهورهم .

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين تنبيان المؤمنين فى كل زمان ومكان

عن الخوض في الأسئلة عن أشياء يسوءهم الكشف عنها ، وضربنا لهم الأمثال بحال الذين من قبلهم ممن كانوا يشددون على أنفسهم بالأسئلة عن التكاليف والأحكام ، فلما كتبها الله عليهم كفروا بها ولم يؤدوها ، ولو سكتوا عن هذه الأسئلة التي لا فائدة من ورائها لكان خيرا لهم وأقوم

هذا ، وقد ساق الشيخ القاسمي - رحمه الله - عقب تفسيره هاتين الآيتين أقوالا متعددة للعلماء فيما يؤخذ منهما من آداب وأحكام ، فقال - مملخصه - :
قال ابن كثير : ظاهر الآية النهي عن السؤال عن الأشياء التي إذا علم بها الشخص ساءت له . فالأولى الإعراض عنها

فقد روى الإمام أحمد ومسلم والنسائي عن أبي هريرة : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :

ذروني ما تركتكم . فإنما ملك من كان قبلكم بكثرة سؤا لهم وإختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشيء فأنوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه . . .

وروى الدارقطني وأبو نعيم عن أبي ثعلبة الحاشني : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :

إن الله - تعالى - فرض فرائض فلا تضيعوها . وحد حدودا فلا تعتدوها . وحرم أشياء فلا تقربوها . وترك أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها .

ثم قال الشيخ القاسمي : ثم رأيت في موافقات ، الامام الشاطبي في هذا الموضوع - مبحثا جليلا قال فيه : . . .

الإكثار من الأسئلة مذموم . والدليل عليه النقل المستفيض من الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح . . . وهذه مواضع يكره السؤال فيها :

١ - السؤال عما لا ينفع في الدن ، كسؤال عبد الله بن حذافة من أبي يارسول الله ؟ فأجابه أبوك حذافة . .

٢ - أن يسأل عن شيء بينه القرآن ، كما سأل الرجل عن الحج : أكل عام
يا رسول الله ؟ مع أن قوله - تعالى - وقف على الناس حج البيت من استطاع
إليه سبيلا ، قاصر بظاهره أنه للأبد ، لإطلاقه ..

٣ - السؤال من غير احتياج إليه في الوقت ، وكأن هذا - والله أعلم -
خاص بما لم ينزل فيه حكم ، وعليه يدل قوله : ذروني ما تركتكم ، .
وقوله : وسكت عن أشياء رخصة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها .

٤ - أن يسأل عن صغاب المسائل وشرارها ، كما جاء في النهي عن
الغلوطات (١) ،

٥ - أن يسأل عن علة الحكم - وهو من قبيل التعبدات ، أو السائل
عن لا يليق به ذلك السؤال - كما في حديث قضاء الصوم دون الصلاة .

٦ - فقد أخرج مسلم في صحيحه عن معاذة قالت : سألت عائشة فقالت :
ما بال الحائض تقضى الصلاة ؟ فقالت : أحرورية أنت ؟

قلت : لست بحرورية ، ولكني أسأل . قالت عائشة : كان بصيبتنا ذلك
فتؤمر بقضاء الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة .

٧ - أن يبلغ بالسؤال إلى حدد التكليف والتعمق ، وعلى ذلك يدل
قوله يدل عليه ما أخرجه مالك في الموطأ عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب
أن عمر بن الخطاب خرج في ركب ، فيهم عمرو بن العاص . حتى وردوا
حوضا ، فقال عمرو بن العاص : يا صاحب الحوض اهل ترد حوضك

(١) قال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي عند تطبيقه على هذه الكلمة : أخرج
أبو داود عن معاوية أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن الغلوطات - بفتح
الغين وضم اللام - جمع غلوطة ... وهي المسائل يقال لها العلماء ليزلوا فيها فبيح
بذلك شر وقتنة ...

وقيل : أصلها غلوطة خففت بطرح الهمزة . كما نقول : لجر . وانت تريد
الآجر - حاشية تفسير القاسمي ج ٦ ص ٢١٧٨ .

السباع ؟ فقال عمر بن الخطاب : يا صاحب الخوض ! لا تخبرنا . فإنا نرد على السباع وترد علينا .

٧ - السؤال عن المتشابهات ، وعلى ذلك يدل قوله - تعالى - : فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ... الآية . .

وعن عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه عرضاً للخصومات أسرع التنقل .

ومن ذلك سؤال مالك عن الاستواء ؛ فقد جاء رجل إلى مالك فقال :

يا أبا عبد الله ، الرحمن على العرش استوى ، كيف استوى ؟

قال راوى الحديث : فما رأيت مالكا وجده - أى غضب - فى شيء

كموجدته من مقالته .

وعلاء الرخصاء - أى العرق - وأطرق القوم . فقال مالك : الاستواء

معلوم ، والكيف غير معقول . والإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة . وإنى أخاف أن تكون ضالا .

٨ - السؤال عما شجر بين السلف الصالح . وقد سئل عمر بن عبد العزيز

عن قتال أهل صفين فقال : تلك دماء كف الله عنها يدي ، فلا أحب أن أطح بها لساني .

٩ - سؤال التعنت والإفحام وطلب الغلبة عند الخصام : وقد ذم القرآن هذا

اللون من الناس فقال . وهو ألد الخصام ،^(١) وقال ، بل هم قوم خصمون ،^(٢) .

وفى الحديث : أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم .

هذه جملة من المواضع التى يكره السؤال فيها ، ويقاس عليها ما سواها ،

وليس النهى فيها واحدا ، بل فيها ما تشدد كراهيته ، ومنها ما يخفف ، ومنها ما يحرم . ومنها ما يكون محل اجتهاد . .

(١) سورة البقرة : الآية ٢٠٤ .

(٢) سورة الزخرف . الآية ٥٨ .

والنهي في الآية مقيد بما لا تدعو إليه الحاجة من الأسئلة ؛ لأن الأمر الذي تدعو إليه الحاجة في أمور الدين قد أذن الله بالسؤال عنه فقال : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، (١) .

وفي الحديث : قاتلهم الله ! ! هلا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء الجهل بالسؤال ... ، (٢) .

ثم حكى - سبحانه - بعض الأوهام والخرافات التي كان أهل الجاهلية يتمسكون بها ، ويعتبرونها من العادات الدينية الراسخة في نفوسهم ، مع أنها لا أصل لها ، وإنما هم الذين ابتدعوها ونسبوها إلى دين الله بدون دليل أو برهان فقال - تعالى - :

« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرم لا يعقلون (١٠٣) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون (١٠٤) » .

قال الفخر الرازي : أعلم أنه - تعالى - لما منع الناس من البحث عن أمور ما كلفوا بالبحث عنها ، كذلك منعهم عن التزام أمور ما كلفوا التزامها . ولما كان الكفار يحرمون على أنفسهم الانتفاع بهذه الحيوانات - وإن كانوا في غاية الاحتياج إلى الانتفاع بها - بين تعالى - أن ذلك باطل فقال : « ما جعل الله من بحيرة ... » ، (٣) .

وجعل هنا بمعنى شرع ووضع ، ود من ، زائدة لتأكيد النفي والبحيرة بزنة فعيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق .

(١) سورة الانبياء . الآية ٧ .

(٢) تفسير القاسمي وحاشيته - بتصرف وتلخيص - ج ٦ ص ٢١٦٦ وما بعدها .

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ١٢ ص ١٠٩ .

وكانوا في الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكرا ، شقوا
أذنهما ومنعوا ركوبها ، وتركوها لآلهم ، وامتنعوا عن نحرها وركوبها .
وسموها : البحيرة ، أى : مشقوقة الأذن .

وعن قتادة أنهم كانوا إذا أنجبت خمسة أبطن نظروا في الخامس فإن كان
ذكرا ذبحوه وأكلوه ، وإن كان أنثى شقوا أذنهما وتركوها ترعى دون أن
يستعملها أحد في حلب أو ركوب ...

والسائبة بزنة فاعلة من ساب إذا جرى على وجه الأرض . يقال ساب
الماء إذا ترك يجرى .

قال أبو عبيدة : كان الرجل في الجاهلية إذا قدم من سفر أو شفى من
مرض .. سبب ناقته وخلها وجعلها كالبحيرة وتسمى السائبة .

وقال محمد بن إسحاق : السائبة هي الناقة تلد عشرة أبطن إناث ، فتحمل
ولا تركب ولا يحز وبرها ، ولا يشرب لبنها إلا ضيف .

وعن ابن عباس : هي التي تسبب للأصنام ، فتعطى للسذنة ولا يطعم من
لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم .

والوصيلة بزنة فعيلة بمعنى فاعله . قال الفراء هي الشاة تلتج سبعة أبطن
عناقين عناقين - أى اثنين اثنين - وإذا ولدت في آخرها أنثى وذكرا .
قيل : وصلت أخاها . فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء ،
ونحري يجري السائبة في تركها دون أن يحز وبرها ...

وقال الزجاج : هي الشاة إذا ولدت ذكرا كان لآلهم وإذا ولدت أنثى
كانت لهم وإذا ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلا تذبح ويكون
الذكر لآلهم .

وقيل : هي الناقة تبكر بأنثى ثم تشفى بأنثى ، فكانوا يتركونها للطواغيت ،
ويقولون : قد وصلت أنثى بأنثى أس بينهما ذكر .

والحام إسم فاعل من حمى يحمى أن يمنع .
 قال القراء : هو الفحل إذا لقح ولد ولده قالوا : قد حمى ظهره فلا يركب
 ولا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء أو مرعى .
 وقال أبو عبيدة : هو الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون : حمى
 ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء أو مرعى .

هذه بعض الأقوال التي ذكرها العلماء في تفسير هذه الألفاظ الأربعة ،
 وهناك أقوال أخرى سواها تختلف عنها .

ويبدو أن الخلاف في حقيقة هذه الأربعة مرجعه إلى إختلاف القبائل في
 بلاد العرب ، وإختلاف الأماكن التي يقيمون فيها ، والعادات الباطلة التي
 شيروا عليها وألفوها .

هذا ، وقد ذكر ابن كثير بعض الروايات التي وردت في تفسير هذه
 الألفاظ ، كما ذكر أول من أدخل هذه العادات الباطلة في بلاد العرب فقال
 ما ملخصه : روى البخاري ومسلم والنسائي عن سعيد بن المسيب قال .
 البحيرة : هي التي تكون درها للطواغيت . . . والسائبة : هي التي كانوا
 يسيبونها لأهلهم لا يحمل عليها شيء . . . والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول
 نتاج الإبل ثم تقتل بعد أن تلد وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلك إحداها
 بالآخرى ليس بينها ذكر . والحام : فحل الإبل يضرب الضرائب المعداد فاذا
 قضى ضرابه تركوه للطواغيت ولا يحملون عليه شيئاً ..

وروى الإمام أحمد بن عبد الله بن مسعود عن النبي - صلى الله عليه وسلم -
 قال إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن لحي ولاني
 رأيت يجر أمعاءه في النار ،

والمعنى : ما شرع الله - تعالى - شيئاً مما حرمه أهل الجاهلية على أنفسهم
 من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام وهذه الحيوانات إنما حرم أهل الجاهلية

أكلها والإنتفاع بها من عند أنفسهم بدون علم أو برهان ، وهم في هذا التحريم إنما يفترون على الله الكذب الصريح القاطع بسبب كفرهم وضلالهم وأكثرهم لا يفقهون الحق ولا يستجيبون له إنقيادا لأهوائهم ورؤسائهم .

والمراد بالذين كفروا في قوله ، وليكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، رؤسائهم وزعمائهم الذين يأنون لعوامهم بالأحكام الفاسدة والمزاعم الباطلة ، وينسبونها إلى دين الله كذبا وزورا .

والمراد بأكثرهم في قوله : ، وأكثرهم لا يعقلون ، عوامهم ودهماءهم الذين يسيرون خلف كل ناعق بدون تفكير أو تدبر .

وقد عبر - سبحانه - بقوله ، وأكثرهم ، إنصافا للقلة العاقلة التي خالفت هذه الأوهام الباطلة ، واستجابات للحق عند ظهوره .

ثم حكى - سبحانه - ما كان عليه هؤلاء العوام المقلدون من جمود وخضوع للباطل فقال : ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، .

أي : وإذا قال قائل - على سبيل النصح والإرشاد إلى الخير - هؤلاء المقلدين المنقادين إنقيادا أعمى للأوهام ... إذا قال لهم هذا القائل : تعالوا أي : أقبِلوا واستجيبوا لما أنزل الله في كتابه ، ولما أنزل على رسوله من هدايات لتسعدوا وتفوزوا ... قالوا : يعناد وغباء - ، حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، : كافينا في هذا الشأن ما وجدنا عليه آباءنا من عقائد وتقالييد وعادات ... فلا اختلفت إلى ما سواه .

وهذه حجة كل ضال مقلد لمن سبقوه بغير تعقل ولا تدبر ... إنه يترك معاني العزة والكرامة وأعمال الفكر ... ليمش أسير ذلته للأوهام التي شب عليها ، وسار خلفها مقلدا غيره ، ومنقادا له إنقياد الخانعين الأذلاء .

ولم يذكر - سبحانه القائل في قوله : ، وإذا قيل لهم ... ، للإشارة إلى أن الذين يدعونهم إلى طريق الحق متعددون ، قائلين - صلى الله عليه وسلم -

يدعوم ، والمؤمنون يدعونهم . والأدلة الدالة على صدق هذا الدين تدعوم ... ومع كل ذلك فهم في ضلالهم سادرون ، وتحت سلطان سادتهم خانعون :

وقوله - تعالى - « أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ، رد عليهم بأللوب التائب والتعجيب من جهالاتهم وخضوعهم للباطل بدون مراجعة أو تفكير .

والواو في قوله « أو لو كان آباؤهم ... ، واو الحال . والهمزة التي دخلت عليها الانكار والتعجيب من ضلالهم .

والهمزة : أيقولون حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا . ويغلقون على أنفسهم باب الهداية ليبقوا في ظلمات الضلالة ... ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا من الحق ، ولا يهتدون إليه لانفاس بصيرتهم .

وليس المراد أن آباؤهم لو كانوا يعلمون شيئا أو يهتدون إلى شيء . لجاز لهم ترك ما أنزل الله ... وإنما المراد هنا تسجيل الواقع المظلم الذي كانوا عليه وكان عليه آباؤهم من قبلهم . فآباؤهم كانوا كذلك يتبعون ما شرعه لهم آباؤهم بدون تأمل أو تفكير .

فآلية الكريمة زيادة في توبيخهم وتوبيخ آباؤهم ؛ لأنهم جميعا مشركون في الانفاس في الضلال والجهل .

وبعد أن بين - سبحانه - ما بين من التكليف والأحكام والحلال والحرام ، وذم المقلدين لآبائهم تقليدا أعمى ... وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين ، أمرهم فيه بأن يلزموا أنفسهم طاعة الله ، وأنهم ليس عليهم شيء من آثام غيرهم ماداموا قد نصحوهم وأرشدوهم إلى الخير فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) » .

وقوله : عليكم ، اسم فعل أمر بمعنى : إلهموا وقوله : أنفسكم ، منصوب على الإغراء بقوله : عليكم .

قال الجمل . واختلف النحويون في الضمير المتصل بها - أي بكلمة عليكم - ، والصحيح أنه في موضع جر كما كان قبل أن تنقل الكلمة إلى الإغراء... (١) . والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بالله إيماناً حقاً ، إلهموا العمل بطاعة الله ، بأن تؤدوا ما أمركم به ، وتنتهوا عما نهاكم عنه ، وأنتم بعد ذلك لا يضركم من ضل إذا هتديتم ، أي : لا يضركم ضلال من ضل وغرى ، مادمتم أنتم قد أدبتم حق أنفسكم عليكم بصيانتها عما يغضب الله وأدبتم حق غيركم عليكم بإرشاده ونصحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ... فإن أبى هذا الغير الاستجابة لكم بعد النصيح والإرشاد والأخذ على يده من الوقوع في الظلم فلا ضير عليكم في تماديه في غيه وضلاله ، فإن مصيركم ومرجهكم جميعاً إلى الله - تعالى - وحده ، فينبشكم ، يوم القيامة بما كنتم تعملون ، في الدنيا من خير أو شر ، ويجازى أهل الخير بما يستحقون من ثواب ، ويجازى أهل الشر بما يستحقون من عقاب .

هذا . وقد يقول قائل : إن ظاهر هذه الآية قد يفهم منه بعض الناس أنه لا يضر المؤمنين أن يتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ماداموا قد أصلحوا أنفسهم ؛ لأنها تقول : عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا هتديتم ... ، فهل هذا الفهم مقبول ؟

والجواب على ذلك ، أن هذا الفهم ليس مقبولا ، لأن الآية الكريمة مسوقة لتسلية المؤمنين ، ولإدخال الطمأنينة على قلوبهم إذا لم يجسدوا أذناً صاغية لدعوتهم .

فكأنها تقول لهم : إلهمكم - أيها المؤمنون - إذا فتم بما يجب عليكم ،

لا يضركم تقصير غيركم ، ولا شك أن عما يجب عليهم القيام به : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذ لا يكون المرء مهتديا إلى الحق مع ترك لفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما يكون مهتديا متى أصلح نفسه ودعا غيره إلى الخير والصلاح .

أى أن الهداية التى ذكرها - سبحانه - فى قوله : إذا اهتديتم ، لا تتم إلا بإصلاح النفس ، ودعوة الغير إلى الخير والبر .

وقد أشار صاحب الكشف إلى هذه المعانى بقوله : كان المؤمنون تذهب أنفسهم حسرة على أهل العتو والعناد من الكفرة ، يتمنون دخولهم فى الإسلام ، فقبل لهم ، عليهم أنفسكم ، وما كلفتم من إصلاحها والمشى بها فى طرق الهدى ، لا يضركم ، الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين ... وليس المراد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ فإن من تركهما مع القدرة عليهما لا يكون مهتديا ، وإنما هو بعض الضلال الذين فصلت الآية بينهم وبينه ... (١)

ويبدو أن هذه الآية الكريمة قد فهمها بعض الناس فهما غير سليم - حتى فى الصدر الأول من الإسلام - .

قال القرطبي : روى أبو داود والترمذى وغيرهما عن قيس بن أبى حازم قال : خطبنا أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فقال : أيها الناس - إنفسكم تقرأون هذه الآية وتناولونها على غير تأويلها ، يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ... ، وإنى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعذبهم الله بعذاب من عنده ، .

وروى أبو داود والترمذى وغيرهما عن أبى أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشفي فقلت له : كيف تصنع بهذه الآية ؟ فقال : أية آية ؟ قلت :

قوله - تعالى - : يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ... قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً . سألت عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : اتتمزوا بالمعروف وتناهوا عن المنكر . حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة . وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك أمر العامة ، فإن من ورأىكم أياماً الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم .

وفي رواية قيل يا رسول الله ! أجر خمسين مناً أو منهم ؟ قال : مثل أجر خمسين منكم ، (١) .

وأخرج ابن جرير عن جابر بن نفير قال : كنت في حلقة فيها أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وإني لأصغر القوم ؛ فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقلت أنا : أليس الله يقول : يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، فأقبلوا على بلسان واحد وقالوا : تنزع آية من القرآن لا تعرفها . ولا تدري ما تأويلها ، حتى تمنيت أني لم أكن تكلمت . ثم أقبلوا يتحدثون ، فلما حضر قيامهم قالوا : إنك غلام حدث السن ، وإنك نزع آية لا تدري ما هي ، وعسى أن تدرك ذلك الزمان ، إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ، وأعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بنفسك لا يضرك من صل إذا اهتديت ، (٢) .

والخلاصة أن الآية الكريمة لا ترخص في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرين لأنها - كما قال الجاكم - لو استدل بها على وجوبهما لكان أولى ، لأن قوله : عليكم أنفسكم ، معناه : إلزموا أن تصلحوا أنفسكم بإتباع الدلائل من كتاب الله وسنة رسوله ، والعقليات المؤيدة بها ، ودعوة الإخوان إلى ذلك ، بإقامة الحجج ودفع الشبه ؛ وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، ولا تقصروا في ذلك ... (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٣٣ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ٩٦ .

(٣) تفسير القاسمي ج ٦ ص ٢٩١ .

وقال الفخر الرازي عن عبد الله بن المبارك أنه قال : هذه أوكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه - سبحانه - قال : عليكم أنفسكم ، يعني عليكم أهل دينكم ، ولا يضركم من ضل من الكفار ، وهذا كقوله : فاقتلوا أنفسكم ، يعني أهل دينكم ، فقوله : عليكم أنفسكم ، يعني بأن يعظ بعضكم بعضاً ، ويرغب بعضكم بعضاً في الخيرات ، وينفره عن القبائح والسيئات ... (١) .

ثم ختمت السورة حديثها الطويل المتنوع عن الأحكام الشرعية ، ببيان بعض أحكام المعاملات في المجتمع الإسلامي ، فتحدثت عن التشريع الخاص بالإشهاد على الوصية في حالة السفر ، وعن الضمانات التي شرعتها لكي يصل الحق إلى أهله كاملاً غير منقوص فقال - تعالى - :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَتَمَّضْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ ، فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنْ آذَأَلْنَا الْآعِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُرِيَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا ثَمَنًا فَأَخْرَانِ يَتُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَّانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمْنَا الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا لِلَّهِ يُهْدِيَ الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) » .

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات روايات مختلفة في تفاصيلها ، إلا أنها متقاربة في مغزاها ...

ومن ذلك ما ذكره ابن كثير بقوله : روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس
عن نعيم الداري في هذه الآية : يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم . . . قال :
برىء الناس منها غيري وغير عدي بن بداء ، وكافنا نصرانيين يختلفان إلى
الشام قبل الإسلام ، فاتيا الشام لتجارتهما ، وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له
بديل بن أبي مريم ، بتجارة ، ومعه جام من فضة أي إناء من فضة - يريد به
الملك ، وهو أعظم تجارته ؛ فرض فارصا إليهما . وأمرهما أن يبلغا ما ترك
أهله - أي : يوصلا ما تركه من متاع لورثته .

قال نعيم : فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم ، واقتسمنا الثمن
أنا وعدي ، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا ، وفقدوا الجام فسالونا
عنه ، فقلنا : ماترك غير هذا ، وما دفع إلينا غيره .

قال نعيم : فلما أسلمت بعد قدوم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة
تأثمت من ذلك ، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر ، ودفعت إليهم خمسمائة درهم ،
وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها ، فوثبوا عليه ، فأمرهم النبي - صلى الله عليه وسلم -
أن يستحلفوه بما يحكم به على أهل دينه ، فحلف فزلت : يا أيها الذين
آمنوا شهادة . . . الآيات فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم فحلفا ، فزعت
الخمسمائة من عدي بن بداء . . . (١)

وقال القرطبي : ولا أعلم خلافا أن هذه الآيات نزات بسبب نعيم الداري
وعدي بن بداء ، روى البخاري والدارقطني وغيرهما عن ابن عباس قال :
كان نعيم الداري وعدي بن بداء يختلفان إلى مكة ، فخرج معهما فتى من بني
سهم فتوفي بأرض ليس بها مسلم ، فارصا إليهما ، فدفعنا تركته إلى أهله وحبسنا
جاما من فضة مخصوصا بالذهب - أي عليه صفائح الذهب مثل خوص النخل -
فاستحلفهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كتبتما ولا اطلعتما ، ثم

وجد الجام بمكة فقالوا : اشترينا من عدى ونعيم ، فجاء رجلان من ورثة السهمي ، خلفا أن الجام للسهمي ، ولشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا ، قال : فأخذوا الجام وفيهم نزلت هذه الآيات (١) .

هذا ، والمعنى الإجمالي لهذه الآيات : أن الله - تعالى - شرع لكم - أيها المؤمنون - الوصية في السفر ، فعلى من يحس منكم بدنو أجله وهو في السفر أن يحضر رجلا مسلما وبوصيه بإبصال ماله لورثته ، فإذا لم يجد رجلا مسلما فليحضر كافرا ، والاثنان أحوط ، فإذا أوصلا ما عندهما إلى ورثة الميث ، وارتاب الورثة في أمانة هذين الرجلين ، فعليهم في هذه الحالة أن يرفعوا الأمر للحاكم ، وعلى الحاكم أن يستحلف الرجلين بالله بعد الصلاة ، بأنهما ما كتبا شيئا من وصية وما خانا .

فإذا ظهر بعد ذلك للحاكم أو لورثة الميث أن هذين الرجلين لم يكونا أمينين في أداء ما كلفهما الميث بأدائه ، فعندئذ يقوم رجلان من أقرب ورثة الميث ، ليحلفا بالله أن شهادتهما أحق وأولى من شهادة الرجلين الأولين ، وأن هذين الرجلين لم يؤديا الوصية على وجهها .

ثم بين - سبحانه - في الآية الثالثة أن ما شرعه الله لهم هو ضمن طريق لأداء الشهادة على وجهها الصحيح ، وعليهم أن يراقبوه ويتقوه لكي يكونوا من المؤمنين الصادقين :

هذا هو المعنى الإجمالي للآيات الكريمة ، سقناه قبل تفصيل القول في تفسيرها حتى يتبين ذهن لفهمها بوضوح .

قال الألوسي : وقوله : « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ... إلخ » ، استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم ، إثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم . وفيه من إظهار العناية بمضمونه ما لا يخفى .

والشهادة معان منها ، الإحضار ، والقضاء ، والحكم ، والحلف ، والعلم والإيصاء ، والمراد بها هنا الأخير ، كما نص عليه جماعة من المفسرين (١) .
وقوله : « شهادة » ، يصح أن يكون مبتدأ . وخبره قوله : « اثنان » ، على حذف مضاف . أى : شهادة لإثنين .

ويصح أن يكون مبتدأ والخبر محذوف . أى : فيما أمرتم به أن بشهد اثنان : ويكون قوله « اثنان » ، فاعلاً لقوله « شهادة » ، وعليه تكون إضافة قوله « شهادة » ، إلى الظرف وهو « بينكم » ، على التوسع .

قال القرطبي : قوله : « شهادة بينكم » ، قيل : معناه شهادة ما بينكم ، لحذفت « ما » ، وأضيفت الشهادة إلى الظرف ، واستعمل إسما على الحقيقة ، وهو المسمى عند الفحويين بالمفعول على السعة . . . ومنه قوله - تعالى - « هذا فراق بيني وبينك » ، أى : ما بيني وبينك ،

والمراد بقوله : « إذا حضر أحدكم الموت » ، ظهور أماراته وعلاماته . وهو ظرف متعلق بقوله : « شهادة » ،

وقوله : « حين الوصية » ، بدل من الظرف . وفي هذا الإبدال تنبيه على أن الوصية لا ينبغي أن يتهاون فيها .

وقوله : « ذوا عدل منكم » ، صفتان لقوله « اثنان » .

وقوله : « أو آخران من غيركم » ، معطوف على قوله « اثنان » .

والمراد من غير المسلمين ، ويرى بعضهم أن المراد بقوله « منكم » ، أى : من قبيلتكم ، وبقوله : « من غيركم » ، أى : من غير قبيلتكم .

وقوله : « إن أقم ضربتم في الأرض فاصابتكم مصيبة الموت » ، بيان لمكان الوصية وزمانها .

والمراد بالضرب في الأرض السفر فيها . وقيل للمسافر ضارب في الأرض لأنه يضربها برجله أو بعصاه .

والمراد بقوله : « فأصابكم مصيبة الموت ، أي : فقاربتم نهاية أجلكم بأن أحسستم بدنو الموت منكم . فليس المراد الموت بالفعل ، وإنما المراد مشارفته ومقاربته .

وسمى سبجانه - الموت مصيبة ، لأنه بطبيعته يؤلم ، أو يصحبه أو يقاربه ، أو يسبقه آلام نفسية .

قال القرطبي : وفي الكلام حذف تقديره إن أنتم ضربتم في الأرض فأصابكم مصيبة الموت ، فأوصيتم إلى إثنتين عدلين في ظنكم ، ودفعتم إليهما ما معكم من المال ، ثم متم وذهبا إلى وريثكم بالتركة فارتابوا في أمرهما ، وادعوا عليهما خيانة ، فالحكم أن تحبسوهما من بعد الصلاة ، أي تستوثقوا منهما . . . (١)

فقوله : تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله . . . كلام مستأنف لبيان ما يجب على الحاكم أن يفعله عند الشك في أمانه الرجائين الذين دفع إليهما الميت ما له ليوصلاه إلى أهله .

ومعنى تحبسونهما ، توقفونهما وتمسكونهما لأداء اليمين اللازمة عليهما والمراد بالصلاة : صلاة العصر . وقد روى ذلك عن ابن عباس وجماعة من التابعين . قال الفخر الرازي : إنما عرف هذا التعيين بوجوه : أحدها : أن هذا الوقت كان معروفا عندهم بالتحليف بعدها ، فالتقييد بالمعروف المشهور أغنى عن التقييد باللفظ . وثانيها : ما روى أنه لما نزلت هذه الآية صلى النبي - صلى الله عليه وسلم - العصر ، ودعا بعدى وئيم فاستحلفهما عند المنبر فصار فعل الرسول دليلا على التقييد . وثالثها : أن جميع أهل الأديان يعظمون هذا الوقت ويذكرون الله فيه ، ويحترزون عن الحلف بالكاذب (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٥٢ -

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١٢ ص ١١٧ .

وقال الزهري : المراد بالصلاة : الصلاة مطلقاً : وإنما كان الحلف بعد الصلاة ، لأنها داعية إلى النطق بالصدق ، ونافية عن الكذب والزور .

أى : توقعون - أيها المسلمون - هذين الرجلين بعد الصلاة لأداء اليمين ، فيقسمان بالله ، أى : فيحلفان بالله ، إن إرتبتم ، في صدقهما ، بأن يقولوا : « لا نشترى به ثمننا ولو كان ذا قربى ، أى : لا نحصل بيمين الله عرضاً من أعراض الدنيا ، ولو كان من تقسم له ونشهد عليه قريباً لنا ... »

« ولا نكنتم شهادة الله ، أى : ولا نكنتم الشهادة التي أمرنا الله بإظهارها وأدائها ، إنا إذا لم نالآمين ، أى : إنا إذا لم نكون معدودين من المستقرين في الذنوب والآثام إن كنتمناها وبدلناها عن وجهها الصحيح . »

وقوله « إن إرتبتم ، شرط لا يترجه تحليف الشاهدين إلا به ، ومتى لم يقع ريب ولا إختلاف فلا يمين . »

وجواب الشرط محذوف للعلم به مما قبله . أى : إن إرتبتم فحلفوهما . والضمير في قوله : « به ، يعود إلى القسم المفهوم من قوله : « فيقسمان ، أى : فيقسمان بالله لا نشترى بصحة القسم ثمننا مهما كان هذا الثمن . » وقوله : « ولو كان ذا قربى ... » تأكيد لتزهمهما عن الحلف بالكاذب قال صاحب الكشف : والضمير في « به ، للقسم . وفي « كان ، المقسم له . » يعنى : لا نستبدل بصحة القسم بالله عرضاً من الدنيا . أى : لا نحلف كاذبين لأجل المال . ولو كان من يقسم له قريباً منا . على معنا : أن هذه عاداتهم في صدقهم وأمانتهم أبداً ، وأنهم داخلون تحت قوله - تعالى - : « كونوا أقوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين (١) » .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد أكد هذا القسم بجملة من المؤكيدات منها : أن الحالفين يحلفان بأنهما لا يحصلان بيمين الله ثمناً مهما كانت قيمته ، وبأنهما لن يحاييا إنساناً مهما بلغت درجة قرابته وبأنهما لن يكتنبا الشهادة التي أمرهما الله

بأدائها على وجهها الصحيح ، وبأنهما يقران على أنفسهما بإستحقاق عقوبة الآثم المذنب إن كتبا أو خانا أو حادا عن الحق ، وهذا كله لأجل أن تصل وصية الميت إلى أهله كاملة غير منقوصة .

ثم بين - سبحانه - الحكيم فيما إذا تبين أن الرجلين اللذين دفع إليهم الموصى ما له لم يكونا أمينين فقال : « فإن عثر على أنهما إستحقا إثمهما وآخران يقومان مقامهما من الذين إستحق عليهم الأوليان ... » .

وقوله : « عثر » أى : أطلع . يقال عثر الرجل على الشيء عثورا إذا أطلع عليه . ويقال : عثرت منه على خيانة أى : أطلعت .

وقوله : « الأوليان » ، تثنية أولى بمعنى أقرب . فالمراد بقوله « الأوليان » أى : الأحقان بالشهادة لقرابتهما ومعرفةهما بأحوال الميت .

والمعنى : فإن أطلع بعد تخليف الشاهدين الوصي من جهة الميت على أنهما « إستحقا إثمهما » أى : فعلا ما يوجب الإثم من خيانة أو كتمان أو ما يشبههما « فآخران يقومان مقامهما » أى : فرجلان آخران يقومان مقام اللذين أطلع على خيانتهم : أى يقفان موقفيهما فى الحبس بعد الصلاة والحلف ويكون هذان الرجلان الآخران « من الذين إستحق عليهم الأوليان » .

قال القرطبي : قال ابن السرى : أى من الذين إستحق عليهم الإيضاء ... وإختاره ابن العربى ؛ وأيضاً فإن التفسير عليه ؛ لأن المعنى عند أهل التفسير : من الذين إستحققت عليهم الوصية (١) .

وقال بعض العلماء : قوله : « من الذين إستحق عليهم الأوليان » أى : من ورثة الميت الذين إستحق من بينهم الأوليان أى : الأقربان إلى الميت ، الوارثان له ، الأحقان بالشهادة ، أى : البين . فقوله « الأوليان » فاعل « إستحق » .

ومفعول «استحق» محذوف، قدره بعضهم «وصيتهما»، وقدره ابن عطية «ما لهم وتركهم»، وقدره الزمخشري، أن يجردوهما للقيام بالشهادة لأنها حقهما، ويظهر وإيهما كذب الكاذبين.

وقرى: «استحق» على البناء المفعول. أى من الذين استحق عليهم الإثم أى «جنى عليهم»، وهم أهل الميت وعشيرته. وعليه فقوله: «الأوليان» هو بدل من الضمير فى «يقومان» أو من «آخران» (١).

وقوله: «فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين» بيان لكيفية اليمين التى يحلفها هذان الأوليان.

أى: فيحلف بالله هذان الأوليان - أى الأقربان إلى الميت - قائمى «لشهادتنا» أى: ليمينتنا «أحق» بالقبول «من شهادتهما» أى: من يمينهما «وما اعتدينا» أى: وما تجاوزنا الحق فى يمينتنا، وفيما نسبناه إليهما من خيانة «إنا إذا لمن الظالمين» أى إنا إذا اعتدينا وقلنا فيهما خلاف الحق لنكون فى زمرة الظالمين لأنفسهم، المستحقين لسنن الله وعقابه.

قال الألوسى: وقوله «فيقسمان بالله» معطوف على «يقومان» فى قوله «فآخران يقومان مقامهما»، والسببية ظاهرة. وقوله: «لشهادتنا أحق من شهادتهما» جواب القسم. والمراد بالشهادة هنا - عند الكثيرين - اليمين، كما فى قوله - تعالى - : فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله،

وصيغة التفضيل «أحق»، إنما هى لإمكان قبول يمينهما فى الجملة باعتبار صدقهما فى إدعاء تملكهما لما ظهر فى أيديهما (٢).

ثم بين - سبحانه - وجه الحكمة والمصلحة فيما شرعه مما تقدم تفصيله فقال «ذلك أدنى أن يأنوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم».

(١) تفسير الألوسى ج ٧ ص ٥١ - بتصرف وتلخيص.

(٢) تفسير القاسمى ج ٦ ص ٢١٦٦.

فاسم الإشارة ، ذلك ، يعود إلى ما شرعه الله من أحكام تتعلق بالوصية التي تكون في السفر ويموت صاحبها .

أى : ذلك الحكم المذكور ، أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها ، أى : أقرب إلى أن يؤدي الأوصياء الشهادة في هذه الحادثة وأمثالها على وجهها الصحيح . أى : على حقيقةها من غير تغيير لها خوفاً من عذاب الآخرة . فالوجه في قوله ، على وجهها ، بمعنى الذات والحقيقة .

والجملة الكريمة ببيان لحكمة مشروعية التخليف بالتغليظ المتقدم ، وقوله : ، أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم ، بيان لحكمة رد اليمين على الورثة . وهو معطوف على مقدر ينسب عنه المقام ، فكأنه قيل : ذلك الذى شرعناه لكم أقرب إلى أن يأتى الأوصياء بالشهادة على وجهها الصحيح ، ويخافوا عذاب الآخرة بسبب اليمين الكاذبة ، أو يخافوا أن ترد أيمان على الورثة بعد أيمانهم فيظهر كذبهم على رؤوس الأشهاد ، فيكون ذلك الخوف داعياً لهم إلى النطق بالحق وترك الكذب والخيانة .

فأى الخوفين حصل عندهم سيقودهم إلى التزام الحق وترك الخيانة . وإيصال الحقوق لذريها كاملة غير منقوصة .

فمن لم يمنعه خوف الله من أن يكذب أو يخون لضعف دينه ، منعه خوف الفضيحة على رؤوس الأشهاد .

ثم قال - سبحانه - ذلك أدنى ، أى أقرب إلى الحق وأبعد عن الباطل ، لأن معرفة الحق من كل وجهه وجزئياته ، مرجعها إلى الله العليم بخفايا الأمور وبواطنها وبواعثها . . . أما الحاكم فإنه يحكم على حسب ما يظهر له من حق ، وحكمه قابل للخطأ والصواب .

والضمير في قوله ، يأتوا ، ويخافوا ، وأيمانهم ، يعود إلى الأوصياء الذين أوصاهم الميت بإيصال ما يريد إيصاله لورثته ، ثم حدث شك من الورثة في أمانتهم .

وجاء الضمير بمجموع مع أن السياق لاثنين فقط ، لأن المراد ما يعم هذين المذكورين وما يعم غيرهما من بقية الناس .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وإتقوا الله واسمعوا الله لا يهدي القوم الفاسقين » .

أى : وأتقوا الله فى كل ماتأثون وتذرون من أموركم واسمعوا ما تؤمرون به سماع إذعان وقبول وطاعة ، واعلموا أن الله - تعالى - لا يوفق القوم الخارجين عن طاعته إلى طريق الخير والفلاح ، لأنهم آثروا الفى على الرشد ولم يستجيبوا الندى على الهدى .

فهذا الختام للآية الكريمة لإشتمل على إبلغ الوان التحذير من معصية الله ومن مخالفة أمره .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - الحث على الوصية وتأكيدها ، وعدم التهاون فيها بسبب السفر أو غيره ، لأن الوصية تثبت الحقوق ، وتمنع التنازع ، ولهذا شدد الإسلام فى ضرورة كتابة الوصية ، والشخص قوى معافى ، ففى صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

« ما حق امرئ مسلم له شىء يريد أن يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » .

قال ابن عمر - رأى هذا الحديث - : ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله قال ذلك إلا وعندى وصيتى ، (١) .

٢ - الإشهاد على الوصية فى الحضر والسفر ، ليكون أمرها أثبت ، والرجاء فى تنفيذها أقوى ، فإن عدم الإشهاد عليها كثيرا ما يؤدى إلى التنازع وإلى التشكك فى صحتها .

٣ - شرعية اختيار الأوقات والأمكنة والصيغ المغلظة التي تؤثر في قلوب الشهود وفي قلوب مقسمي الإيمان ، وتحملهم على النطق بالحق .

قال صاحب المنار : ويشهد لاختيار الأوقات جعل القسم بعد الصلاة ، ومثله في ذلك اختيار المكان ومما ورد في السنة في ذلك ما رواه مالك وأحمد وأبو داود . . . عن جابر مرفوعاً ، لا يحلف أحد عند منبري كاذباً إلا نبواً مقعده من النار ، . . .

ويشهد بجواز التغليظ على الحالف في صيغة اليمين - بأن يقول فيه ما يرجي أن يكون رادعاً للحالف عن الكذب - ما جاء في الآيات الكريمة من قوله - تعالى - « فيقسمان بالله - إن ارتبتم - لا نشترى به ثمناً ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآمين ، (١) » .

٤ - جواز تحليف الشهود إذا ارتاب الحكام أو الخصوم في شهادتهم ، وقد روى عن ابن عباس أنه حلف المرأة التي شهدت في قضية رضاع بين زوجين .

٥ - جواز شهادة غير المسلمين على المسلمين عند الضرورة . وقد بسط الإمام القرطبي القول في هذه المسألة فقال ما ملخصه :
اختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال :

الأول : أن الكاف والميم في قوله « اثنان ذرا عدل منكم ، ضمير للمسلمين ، وأن الكاف والميم في قوله « أو آخران من غيركم ، للكافرين » فعلى هذا تكون شهادة أهل الكتاب على المسلمين جائزة في السفر إذا كانت وصية . وهو الأشبه بسياق الآية ، مع ما تقرر من الأحاديث .

وهو قول ثلاثة من الصحابة الذين شاهدوا التنزيل وهم : أبو موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس ، وتبعهم في ذلك جمع من التابعين ، واختاره أحمد بن حنبل وقال :

(١) تفسير المنار ج ٧ ص ٢٢٧ . بتصرفي وتلخيص -

شهادة أهل الذمة جائزة على المسلمين في السفر عند عدم المسلمين ، كلهم يقولون : « منكم » من المؤمنين . ومعنى « من غيركم » ، بمعنى الكفار .

القول الثاني : أن قوله - سبحانه - « أو آخران من غيركم » منسوخ وهذا قول زيد بن أسلم ، والنخعي ومالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم من الفقهاء

واحتجوا بقوله - تعالى - « من ترضون من الشهداء » ، وبقوله : « وأشهدوا ذوى عدل منكم » ، فهؤلاء زعموا أن آية الدين من آخر ما نزل وأن فيها « ممن ترضون من الشهداء » فهو ناسخ لذلك ، ولم يكن الإسلام يومئذ إلا بالمدينة ، فجازت شهادة أهل الكتاب ، وهو اليوم طَبَّقَ الأرض فسقطت شهادة الكفار ، وقد أجمع المسلمون على أن شهادة الفساق لا تجوز ، والكفار فساق فلا تجوز شهادتهم .

قال القرطبي : قلت : ما ذكرتموه صحيح إلا أنا نقول بموجبه ، وأن ذلك جائز في شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر خاصة للضرورة بحيث لا يوجد مسلم ، وأما مع وجود مسلم فلا .

ولم يأت ما ادعيتموه من النسخ عن أحد ممن شهد التنزيل ، وقد قال بالأولى ثلاثة من الصحابة ، ومخالفة الصحابة إلى غيرهم ينفر عنه أهل العلم .

ويقوى هذا أن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا ، حتى قال ابن عباس والحسن وغيرهما : إنه لا منسوخ فيها . وما ادعوه من النسخ لا يصح ، فإن النسخ لا بد فيه من إثبات النسخ على وجه يناهى الجمع بينهما مع تراخي النسخ فما ذكروه لا يصح أن يكون ناسخا ، فإنه في قصة غير قصة الوصية لمكان الحاجة والضرورة ، ولا يمتنع اختلاف الحكم عند الضرورات ..

القول الثالث : أن الآية لا نسخ فيها . قاله الزهري والحسن وعكرمة ، ويكون معنى قوله « منكم » ، أى من عشيرتكم وقرابتكم .. ومعنى « أو آخران من غيركم » ، أى : من غير القرابة والعشيرة .

وهذا ينبغي على غامض في العربية ، وذلك أن معنى « آخر » ، في العربية من جنس الأول ، تقول : مررت بكريم وكريم آخر ، ولا تقول مررت بكريم وخسيس آخر ... فوجب على هذا أن يكون قوله « أو آخران من غيركم » ، أى من غير المسلمين ... (١) .

وبعد أن سافت السورة الكريمة قبل ذلك ماسافت من تشريعات حكيمة ومن تفصيل لأحوال أهل الكتاب وعقائدهم الزائفة ... بعد كل ذلك اتجهت السورة في أواخرها إلى الكلام عن أحوال الناس يوم القيامة ، وعن معجزات عيسى - عليه السلام - وعن موقف الحوار بين منه ... فقال - تعالى - :

«يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ، إِذْ أَبَدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي ، فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتَهْبِئُ الْأَكْمَشَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ» (١١٠) .

قال الفخر الرازي : أعلم أن عادة الله - تعالى - جارية في هذا الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعا كثيرة من الشرائع والتكاليف والأحكام ، اتبعها إما بالإلهيات ، وإما بشرح أحوال الأنبياء ، أو بشرح أحوال القيامة ، ليصير ذلك مؤكدا لما تقدم ذكره من التكاليف والشرائع فلا جرم

(١) - تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٤٩ .

لما ذكر - فيما تقدم - أنواعا كثيرة من الشرائع ، أنبأها بوصف أحوال
القيامة ...

ثم قال وفي هذه الآية قولان . أحدهما : أنها متصلة بما قبلها .. والتقدير :
واتقوا الله يوم يجمع الله الرسل - فيكون قوله : . يوم يجمع ... ، بدل
اشتغال من قوله في الآية السابقة ، واتقوا الله ... ، والقول الثاني : أنها
منقطعة عما قبلها ... والتقدير :

اذكروا يوم يجمع الله الرسل ... ، (١) .

والمعنى : لقد سبقنا لكم - أيها الناس - ما سبقنا من الترغيب والترهيب ،
وبينا لكم ما بيننا من الأحكام والآداب ، فمن الواجب عليكم أن تتقوا الله ،
وأن تحذروا عقابه ، وأن تذكروا ذلك اليوم الهائل الشديد ، يوم يجمع الله
الرسل الذين أرسلهم إلى مختلف الأقوام ، في شتى الأمكنة والأزمان ، فيقول
لهم : ماذا أجبتهم من أقوامكم ؟

أي : ما الإجابة التي أجابكم بها أقوامكم ؟

وخص - سبحانه - الرسل بالذكر - مع أن الرسل وغيرهم سيجمعون
للحساب يوم القيامة - لإظهار شرفهم ، ولإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح
بجمع غيرهم من الأقوام ، لأن هؤلاء الأقوام إنما هم تبع لهم .

وقال - سبحانه - وماذا أجبتهم ، ولم يقل - مثلاً - وهل بلغتم رسالتى أولاً ،
للإشعار بأن الرسل المكرام قد بلغوا رسالة الله على أكمل وجه ، وأن الذين
خالفهم من أقوامهم سيتحملون وزر مخالفتهم يوم القيامة .

وقوله : قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ، حكاية لإجابة الرسل
فإن قيل : لماذا نفوا عن أنفسهم العلم مع أن عندهم بعض العلم ؟ فالجواب على
ذلك أن هذا من باب التأدب مع الله - تعالى - فكأنهم يقولون : لا علم لنا
بذكر بجانب علمك المحيط بكل شيء ، ونحن وإن كنا قد عرفنا ما أجابنا به

(١) تفسير القمى الرازى ج ١٢ ص ٢٢ - بصرف وتلخيص - .

أقوامنا ، إلا أن معرفتنا هذه لا تعدى الظواهر ، أما عليك أنت - يا ربنا -
فشمامل للظواهر والبواطن ، وأنهم قالوا ذلك إظهارا للتشكي والالتجاء إلى الله
ليحكم بينهم وبين أقوامهم الذين كذبوهم . أو أن مرادهم لا علم لنا بما كان
منهم بعد أن فارقناهم وفارقنا من جاء بعدنا من الناس ، لأن علينا مقصور
على حال من شاهدناهم وعاصرناهم .

ورحم الله صاحب الكشف فقد حكى هذه الأقوال وغيرها بأسلوب
البليغ فقال :

فإن قلت : ما معنى سؤالهم ؟ قلت : توبيخ قومهم . كما كان سؤال الموءودة
توبيخا للوائد . فإن قلت : كيف يقولون : لا علم لنا ، وقد علموا بما
أجيبوا ؟

قلت : يعلمون أن الغرض بالسؤال توبيخ أعدائهم ، فيسكون الأمر إلى
عليه وإحاطته بما منوا به منهم - أى : بما ابتلوا به منهم - ، وكابدوا من سوء
إجابتهم ، إظهارا للتشكي واللجأ إلى ربهم في الانتقام منهم ، وذلك أعظم على
المكفرة ، وأفت في أعضادهم ، وأجلب لحسرتهم وسقوطهم في أيديهم ، إذا
اجتمع توبيخ الله لهم ونشكي أنبيائه عليهم . ومثاله : أن ينسكب بعض
الخوارج على السلطان خاصة من خواصه نكبة ، قد عرفها السلطان وأطلع
على كنهها ، وعزم على الانتصار له منه . فيجمع بينهما ويقول له : ما فعل
بك هذا الخارجى ؟ - وهو عالم بما فعل به - يريد توبيخه وتبكيته ، فيقول
له : أنت أعلم بما فعل بي ، تفويضا للأمر إلى علم سلطانه ، وانكالا عليه ،
وإظهارا للاسكاية وتعظيما لما حل به منه . وقيل : من هول ذلك اليوم يفرعون
ويذهلون عن الجواب ، ثم يجيبون بعد ما تثوب إليهم عقولهم بالشهادة
على أنفسهم .

وقيل معناه : علينا ساقط مع عليك ومغمور ، لأنك علام الغيوب ، ومن
علم الخفيات لم تخف عليه الظواهر التى فيها لإجابة الأمم لرسلهم .

وقيل معناه : لا علم لنا بما كان منهم بعدنا ، وإنما الحمد لكم للخاتمة ، وكيف يخفى عليهم أمرهم ، وقد رأوهم سود الوجوه موبخين ، (١) .
ثم ذكر - سبحانه - بعض النعم التي أنعم بها على عيسى وأمه فقال : إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك . . .
وقوله : إذ قال الله يا عيسى ابن مريم . . . بدل من قوله : يوم يجمع الله الرسل ، وقد نصب بإضمار اذكر .

والمعنى : اذكر أيها المخاطب لتعتبر وتتعظ يوم يجمع الله الرسل فيقول لهم ماذا أجبتكم . . . واذكر - أيضاً - زيادة في العبرة والعظة قوله - سبحانه - لعيسى ابن مريم ، تذكر يا عيسى نعمي المتعددة عليك وعلى والدتك - وعبر بالماضي في قوله : إذ قال الله . . . مع أن هذا القول سيكون في الآخرة ، للدلالة على تحقق الوقوع . وأن هذا القول سيحصل بلا أدنى ريب يوم القيامة .

قال أبو السعود : قوله - تعالى : إذ قال الله يا عيسى ابن مريم ، شروع في بيان ما جرى بينه - تعالى - وبين واحد من الرسل المجموعين ، من المفاوضة على التفصيل ، إثر بيان ما جرى بينه - تعالى - وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج لتفصيل أحوال الباقين ، وتخصيص شأن عيسى بالبيان ، لما أن شأنه - عليه السلام - متعلق بكل الفريقين من أهل الكتاب الذين نعت عليهم هذه السورة جناباتهم . فتفصيل شأنه يكون أعظم عليهم ، وأجلب لحسراتهم ، وأدخل في صرفهم عن غيهم وعنادهم ، (٢) .

والمراد بالنعمة في قوله واذكر نعمتي ، النعم المتعددة التي أنعم بها - سبحانه - على عيسى وعلى والدته مريم حيث طهرها من كل ريبة ، واصطفها على نساء العالمين . وفي ندائه - سبحانه - لعيسى بقوله يا عيسى ابن مريم ، إشارة إلى أنه ابن لها وليس ابناً لأحد سواها ، فقد ولد من غير أب ، ومن كان شأنه

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٦٩٠ .

(٢) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ٧٠ .

كذلك لا يصلح أن يكون إلهًا ، لأن الإله الحق لا يمكن أن يكون مولودًا أو محدثًا .

وقوله : « إذ أبدتك روح القدس تكلم الناس في المهد وكملاً ... » ، تعيد للنعم التي أنعم الله - تعالى - بها على عيسى .

وقوله « أبدتك » أي قويتك من التأييد بمعنى التقوية .
والمراد بروح القدس : جبريل - عليه السلام - فإن من وظائفه أن يؤيد الله به رسله بالتعليم الإلهي ، وبالتثبيت في المواقف التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها .

وقيل : المراد بروح القدس ، روح عيسى حيث أبدته - سبحانه - بطبيعة روحانية مطهرة في وقت سادت فيه المادية وسيطرت .
أي : أبدتك بروح الطهارة والنزاهة والكمال ، فكنت متسماً بهذه الروح الطاهرة من كل سوء .

والمهد : سن الطفولة والصبا - والكهولة : السن التي يكون في أعقاب سن الشباب .

والمعنى : اذكر يا عيسى نعمي عليك وعلى والدتك ، وقت أن قويتك بروح القدس الذي تقوم به حجبتك ، ووقت أن جعلتك تكلم الناس في طفولتك بكلام حكيم لا يختلف عن كلامك معهم في حال كهولتك وإكمال رجوليتك .
وقوله : « إذ أبدتك » ، ظرف لنعمتي . أي : اذكر إنعمي عليك وقت تأييدي لك . . . وذكر - سبحانه - كلامه في حال الكهولة - مع أن الكلام في هذه الحالة معهود في الناس - للإيدان بأن كلامه في هاتين الحالتين - المهد والكهولة - كان على نسق واحد بديع صادر عن كمال العقل والتدبير ، دون أن يكون هناك فرق بين حالة الضعف وحالة القوة . قال الرازي : وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له ، وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده .

وقال ابن كثير : قوله : « اذكر نعمتي عليك » ، أى فى خلقى لإياك من أم بلا ذكر ، وجعلنى لإياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى « وعنى والدتك ، حيث جعلتك لها برهانا على برائتها بما نسبته الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة » وإذ أبدتك بروح القدس ، وهو جبريل ، وجعلتك نبيا داعيا إلى الله فى صفرك وكبرك . فأطلقتك فى المهد صغيرا : فشهدت ببراءتك أمك من كل عيب . واعترفت لى بالعبودية . وأخبرت عن رسالتى لإياك ودعوتك إلى عبادتى . ولهذا قال : « تكلم الناس فى المهد وكهلا ، أى : تدعو إلى الله الناس فى صفرك وكبرك . وضمن « تكلم » معنى تدعو ، لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب ، (١) .

وقوله : « وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل » ، أى - إن النعمة أخرى من النعم التى أنعم بها - سبحانه - على عيسى .

والمراد بالكتاب : الكتابة . أى أن عيسى - عليه السلام - لم يكن أميا بل كان قارئاً وكاتبا وقيل المراد به ما سبقه من كتب التبيين كزبور داود ، وصحف إبراهيم ، وأخبار الأنبياء الذين جاءوا من قبله .

والمراد بالحكمة : الفهم العميق للعلوم ، مع العمل بما فهمه وإرشاد الغير إليه . أى : واذكر وقت أن علمتك الكتابة حتى تستطيع أن تتحدى من يعرفونها من قومك . ووقت أن علمتك « الحكمة » ، بحيث تفهم أسرار العلوم فهما سليما تفوق به غيرك ، كما علمتك أحكام الكتاب الذى أنزلته على أخيك موسى وهو التوراة ، وأحكام الكتاب الذى أنزلته عليك وهو الإنجيل .

ثم ذكر - سبحانه - بعض معجزات عيسى ، بعد أن بين بعض ما منحه من علم ومعرفة ، فقال : « وإذ نخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، أى : واذكر وقت أن وفقتك لأن نخلق أى تصور من الطين صورة مماثلة لهيئة الطير « فتنفخ فيها » ، أى فى تلك الهيئة المصورة « فتكون » أى فتصير تلك الهيئة المصورة ، طيرا بإذنى ، أى : تصير كذلك بقدرتى وإرادتى وأمرى .

ثم قال - تعالى : « وتبرئ . الأكمة . وهو الذي يولد أعمى ؛ وتبرئ . كذلك ، الأبرص ، وهو المريض بهذا المرض العضال ، بإذنى » .
وقوله : « وتبرئ . » معطوف على « تخلق » .

وقوله : « وإذ تخرج الموتى بإذنى » معطوف على قوله : « وإذ تخلق من الطين ... » .

أى : « واذكر وقت أن جعلت من معجزاتك أن تخرج الموتى من القبور أحياء ينطقون ويتحركون .. وكل ذلك بإذنى ومشيتى وإرادتى » .
وقد ذكر المفسرون أن إبراهيم عيسى الأكمة والأبرص وإحياء الموتى كان عن طريق الدعاء ، وكان دعاؤه يا حى يا قيوم ، وذكروا من بين من أحياهم سام بن نوح (١) . . . » .

وبعد أن ذكر - سبحانه - بعض المعجزات التى أعطاها لعيسى لىكى ينفع بها الناس ، أتبعها بذكر ما دفعه عنه من مضار فقال : « وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جثتهم بالبينات ... » .

أى : « واذكر نعمتى عليك وقت أن صرفت عنك اليهود الذين أرادوا السوء ، وسعوا فى قتلك وصلبك مع أنك قد بشرتهم وأنذرتهم وجثتهم بالمعجزات الواضحات التى تشهد بصدقك فى نبوتك » .

وقوله « فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » تذييل قصد به ذمهم وتسجيل الحقد والجحود عليهم .

أى : « لقد أعطيناك يا عيسى ما أعطيناك من النعم والمعجزات لتكون دليلاً لنا طقا بصدقك ، وشاهداً بحمل الناس على الإيمان بنبوتك ، وليكن الكافرين من بنى إسرائيل الذين أرسلت إليهم لم يصدقوا ما جثتهم به من معجزات واضحات ، بل سارعوا إلى تكذيبك قائلين : ما هذا الذى جثتنا به يا عيسى إلا سحر ظاهر ، وتخيل بين » .

وهكذا نرى أن الكافرين من بنى إسرائيل ، لم تزد لهم البينات التي جاء بها عيسى إلا جحوداً وعناداً .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك ما قاله الحواريون لعيسى ، وما طلبوه منه ، مما يدل على إكرام الله - تعالى - لنبيه عيسى فقال :

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١) إِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نَرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥) » .

قال ابن كثير مملخصه : وقوله : « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ ... » هذا أيضاً من الامتنان على عيسى ، بأن جعل الله له أصحاباً وأنصاراً - وهم الحواريون - والمراد بهذا الوحي الإلهام كما في قوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، وَكَأَيُّ قَوْلِهِ « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... » وقال بعض السلف في هذه الآية « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ ... » أي : ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا ... (١) .

فأنت ترى أن الإمام ابن كثير يرى أن المراد بالوحي هنا الإلهام . وعلى ذلك كثير من المفسرين ، ومنهم من يرى أن المراد بقوله « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ... »

الحواريين . . . أى : أمرتهم فى الإنجيل على لسانك أو أمرتهم على السنة رسلى .

قال الآلومى معزواً هذا رأى : وقد جاء إستعمال الوحى بمعنى الأمر فى كلام العرب ، كما قال الزجاج وأنشد :

الحمد لله الذى إستقلت . . . بإذنه السماء واطمأنت . . . أوحى لها القرار فاستقرت أى : أمرها أن تقرر فامتثلت (١) .

والحواريون جمع حوارى . وهم أنصار عيسى الذين لازموه وآمنوا به وصدقوه ، وكانوا عوناً له فى الدعوة إلى الحق .

يقال : فلان حوارى فلان . أى : خاصته من أصحابه . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم - فى الزبير بن العوام : لكل بنى حوارى وحوارى الزبير . . .

وأصل مادة حور ، الدلالة على شدة الصفاء ونصوع البياض ، ولذلك قالوا فى خالص لباب الدقيق : الحوارى وقالوا فى النساء البيض : الحواريات والهوريات . . .

وقد سمي الله - تعالى - أنصار عيسى بالحواريين ، لأنهم أخلصوا لله نياتهم ، وطهروا نفوسهم من النفاق والخداع ، فصاروا فى تقائهم وصفائهم كالشيء الأبيض الخالص البياض .

قال الراغب : والحواريون أنصار عيسى - عليه السلام - قيل كانوا صيادين . وقال بعض العلماء . إنما سموا حواريين لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين والعلم (٢)

والمعنى : إذ كررتمنى عليك - يا عيسى - حين ، أوحيت إلى الحواريين ، بطريق الإلهام أو بطريق الأمر على لسانك ، وقلت لهم : أن آمنوا بى وبرسولى ، أى : آمنوا وصدقوا بأنى أنا الواحد الأحد المستحق للعبادة

(١) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٥٨

(٢) المفردات فى غريب القرآن للراغب الاصفهاني ص ١٣٥ .

والخضوع . . . وآمنوا برسولي عيسى بأنه مرسل من جمعي لهدايتكم
وسعادتكم . . .

وفي ذكر كلمة « برسولي » إشارة إلى مقامه من الله - عز وجل - وإتصال
شخصه عن ذات الله - سبحانه - وأن عيسى ما هو إلا رسول من رب
العالمين ، وأن من زعموا أنه عن ذلك جاهلون وضالون .

وقوله : قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ، حكاية لما نطق به الحواريون من
إيمان وطاعة .

أى : أن الحواريين عندما دعوا إلى الدين الحق « قالوا آمنا » بأن الله هو
الواحد الأحد المستحق للعبادة ، وأنه لا والد له ولا ولد . . . ثم أكدوا إيمانهم
هذا ، بأن قالوا « واشهد » علينا يا إلهنا وأشهد لنا يا عيسى يوم القيامة بأننا
مسلمون ، أى : متقادون لكل ما جئتنا به وما تدعونا إليه .

وقدموا ذكر الإيمان لأنه صفة القلب ، وأخروا ذكر الإسلام لأنه عبارة
عن الانقياد الظاهري ، فكانهم قالوا : لقد استقر الإيمان في قلوبنا لاستقرار
مكيننا ، كان من ثمارة أن انتقادت ظواهرنا لكل ما يأمرنا الله به على
لسانك يا عيسى .

قال الفخر الرازي ما ملخصه : فإن قيل : أنه - تعالى - قال في أول
الآية « أذكر نعمتي عليك وعلى والدك . . . » ثم إن جمع ما ذكره - تعالى -
من النعم مختص بعيسى ، وليس لأمه تعلق بشيء منها . قلنا : كل ما حصل الولد
من النعم الجليلة والدرجات العالية ، فهو حاصل على سبيل التضمن والتبعية للأم
ولذلك قال - تعالى - « وجعلنا ابن مريم وأمه آية . . . » فجعلهما معاً آية
واحدة لشدة اتصال كل واحدة منهما بالآخر . . .

ولما ذكر - سبحانه - قوله « وإذ أرحبت . . . » في معرض تعديد
النعم لأن صيرورة الإنسان مقبولة القول عند الناس ، محبوباً في قلوبهم ، من
أعظم نعم الله على الإنسان .

وقد عدد عليه من النعم سبباً : إذ أيدتك ... وإذ علمتك .. وإذ تخلق
وإذ تنهى ... وإذ تخرج الموتى ... وإذ كفت ... وإذ أوحيت . (١) .

ثم حكى - سبحانه - بعض ما دار بين عيسى وبين الحواريين فقال :
« إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة
من السماء . . . »

« المائدة ، الخوان إذا كان عليه الطعام من ما ديميد ، إذا تحرك . فكان
المائدة تتحرك بما عليها . وقال أبو عبيدة : سميت « مائدة » لأنها منيد بها
صاحبها . أى : أعطيها وتفضل عليه بها . والخوان : ما يؤكل عليه الطعام .
وبرى الإخفش وغيره أن المائدة هى الطعام نفسه ، مأخوذة من « مادة »
إذا أفضل .

و « إذ » فى قوله « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم » متعلق بمحذوف
تقديره : أذكر وقت قول الحواريين يا عيسى ابن مريم .

وقد ذكره باسمه ونسبه إلى أمه - كما حكى القرآن عنهم - ثلاثتهم أنهم
« اعتقدوا ألوهيته أو ولديته وقوله : « هل يستطيع - ربك أن ينزل علينا مائدة
من السماء » فيه قرأتان سبعيتان :

الأولى « يستطيع ربك » بالياء - على أنه فعل وفاعل . وقوله « أن ينزل »
المفعول . والاستفهام على هذه القراءة محمول على المجاز ، لأن الحواريين
كانوا مؤمنين ، ولا يعقل من مؤمن أن يشك فى قدرة الله .

ومن تخريجاتهم فى معنى هذه القراءة أن قوله « يستطيع » بمعنى « يطيع »
والسين زائدة . كاستجاب وأجاب .

أى : أن معنى الجملة الكريمة : هل بطوئك - ربك يا عيسى إن سألته أن
ينزل علينا مائدة من السماء .

وسنفصل القول في تخريج هذه القراءة ، وفي إختلاف المفسرين في إيمان
الحواريين بعد إتهامنا من تفسير هذه الآيات الكريمة .

أما القراءة الثانية : فهي : هل تستطيع ربك ، بالتاء . وبفتح الباء في ربك ،
والمعنى : هل تستطيع يا عيسى أن تسأل ربك أن يزل علينا مائدة من السماء .

فقوله ، ربك ، منصوب على التعظيم بفعل محذوف يقدر على حسب المقام
وهذه القراءة لا إشكال فيها ، لأن الاستطاعة فيها متجهة إلى عيسى . أى :
أتستطيع يا عيسى سؤال ربك إنزال المائدة أم لا تستطيع ؟

قال القرطبي : قراءة السكسائي وعلى وابن عباس وسعيد بن جبير ومجاهد
هل تستطيع ، بالتاء ، ربك ، بالنصب وقرأ الباقرن بالياء . هل يستطيع ،
ربك ، بالرفع .

والمعنى على قراءة السكسائي - بالتاء - : هل تستطيع أن تسأل ربك .

قالت عائشة : كان القوم أعلم بالله - تعالى - من أن يقولوا ، هل يستطيع
ربك ، وقال معاذ : أقرأنا النبي - صلى الله عليه وسلم - : هل يستطيع ربك .
قال معاذ : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - مراراً يقرأ بالتاء .^(١) .

وقوله - سبحانه - وقال إنقوا الله إن كنتم مؤمنين ، حكاية لما رده عيسى
على الحواريين فيما طلبوه من إنزال المائدة :

أى قال لهم عيسى : إنقوا الله وهفوا عنده حدوده ، واملئوا قلوبكم هيبة
وخشية منه ، ولا تطلبوا أمثال هذه المطالب إن كنتم مؤمنين حق الإيمان ،
فإن المؤمن الصادق في إيمانه يبتعد عن أمثال هذه المطالب التي قد تؤدي
إلى فتنه .

ثم حكى القرآن ما رده الحواريون على عيسى فقال : (قالوا نريد أن
نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن صدقتنا و نكون عليهم) من الشاهدين .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٦٤ . بتصرف وتلخيص -

أى : قال الحواريون لعيسى إننا نريد نزول هذه المائدة علينا من السماء لأسباب :

أولها : أننا نرغب فى الأكل منها لنتنال البركة ، ولأننا فى حاجة إلى الطعام بعد أن ضيق علينا أعداؤك وأعداؤنا الذين لم يؤمنوا برسالتك .

وثانيها : أننا نرغب فى نزولها لكي نزداد قلوبنا إطمئنانا إلى أنك صادق فيما تبلغه عن ربك ، فإن إنضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي ، مما يؤدي إلى رسوخ الإيمان ، وقوة اليقين .

وثالثها : أننا نرغب فى نزولها لكي نعلم أن قد صدقتنا فى دعوى النبوة ، وفى جميع ما تخبرنا به من مأمورات ومنهيات ، لأن نزولها من السماء يجعلها تخالف ما جئتنا به من معجزات أرضية ، وفى ذلك ما فيه من الدلالة على صدقك فى نبوتك .

ورابع هذه الأسباب : أننا نرغب فى نزولها لكي نكون من الشاهدين على هذه المعجزة عند الذين لم يحضروها من بنى إسرائيل ، ليزداد الذين آمنوا منهم إيماناً ، ويؤمن الذى عنده استعدوا للإيمان .

وبذلك نرى أن الحواريين قد بينوا لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - أنهم لا يريدون نزول المائدة من السماء لأنهم يشكون فى قدرة الله ، أو فى نبوة عيسى أو أن مقصدهم من هذا الطلب التعت . . . وإنما هم يريدون نزولها لتلك الأسباب السابقة التى يبلغون من ورائها الأكل وزيادة الإيمان واليقين والشهادة أمام الذين لم يحضروا نزولها بكمال قدرة الله ، وصدق عيسى فى نبوته .

ثم حكى - سبحانه - ما تضرع به عيسى بعد أن سمع من الحواريين ما قالوه فى سبب طلبهم لنزول المائدة من السماء فقال - تعالى - (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين) .

وقوله : (اللهم) أى : يا الله . فالميم المشددة موحى عن حرف الهمزة ،

ولذلك لا يجتمعان . وهذا التعويض خاص بعداء الله ذي الجلال والإكرام .
وقوله : « عيدا ، أى سرورا وفرحا لنا ، لأن كلمة العيد تستعمل بمعنى
الفرح والسرور .

قال القرطبي : والعيد واحد الأعياد .. وأصله من عاد يعود أى : رجع .
وقيل ليوم الفطر والأضحي عيدا ، لأنهما يعودان كل سنة . وقال الخليل :
العيد كل يوم يجمع الناس فيه كأنهم عادوا إليه ، وقال ابن الأثير : سمي
عيدا لأنه يعود إلى المرح والفرح فهو يوم سرور ، (١) .

والمعنى : قال عيسى بهزاعة وخشوع - بعد أن سمع من الحوار بين جنهم -
« اللهم ربنا ، أى : يا الله يا ربنا ومالك أمرنا ، وجيب سؤالنا . . . أتوصل
إليك أن نزل علينا « مائدة من السماء » . أى : أطعمة كائنة من السماء ، هذه
الأطعمة ، تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا ، أى : يكون يوم نزولها عيدا
نعظمه ونكثر من التقرب إليك فيه نحن الذين شاهدناها ، ويكون - أيضا -
يوم نزولها عيدا وسرورا وبهجة لمن سيأتى بعدنا ، من لم يشاهدها .

قال ابن كثير . قال السدي : أى نتخذ ذلك اليوم الذى نزل فيه عيدا
نعظمه نحن ومن بعدنا . وقال سفيان الثوري : يعنى يوما نصلى فيه . وقال
قتادة : أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم . وقال سلمان الفارسي : تكون عظة
لنا ولمن بعدنا (٢) .

وقوله : « وآية منك ، معطوف على قوله « عيدا » .
أى : تكون هذه المائدة النازلة من السماء عيدا لأولنا وآخرنا ، وتكون
أيضا - دليلا وعلامة منك - سبحانه - على صحة نبوتى ورسالتى ، فيصدقونى
فيما أبلغه عنك ، ويزداد يقينهم بكال قدرتك .

وقوله : « وارزقنا وأنت خير الرازقين » ، تذييل بمشابة التعليل لما قبله .
أى : أؤثرهم علينا يا ربنا ، وارزقنا من عندك رزقا هنيئا رغدا ، فإنك أنت
خير الرازقين ، وخير المعطين ، وكل عطاء من سواك لا يخفى ولا يشبع .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٦٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١١٦

وقد جمع عيسى في دعائه بين لفظي (اللهم وربنا) لإظهار انتهاء التضرع وشدة الخضوع ، حتى يكون تضرعاً أهلاً للقبول والإجابة .

وعبر عن مجيء المائدة بالإزالة من السماء ، الإشارة إلى أنها هبة رفيعة ، ونعمة شريفة ، آتية من مكان عال مرتفع في الحس والمعنى ، فيجب أن تقابل بالشكر لوأهبها - عز وجل - وبتمام الخضوع والإخلاص له .

وقوله (تكون لنا عيداً) صفة ثانية لمائدة ، وقوله (لنا) خبر كان ، وقوله (عيداً) حال من الضمير في الظرف .

قال الفخر الرازي : تأمل في هذا الترتيب ، فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكرُوا في طلبها أغراضاً ، فقدموا ذكر الأكل فقالوا (نريد أن نأكل منها) وأخروا الأغراض الدينية الروحانية .

فأما عيسى فإنه لما ذكر المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال : (وأرزقنا) وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحية ، وبعضها جسمانية .

ثم إن عيسى لشدة صفاء دِينِهِ لما ذكر الرزق إنتقل إلى الرزاق بقوله (وأرزقنا) لم يقف عليه : بل إنتقل من الرزق إلى الرزاق فقال : وأنت خير الرازقين) بقوله : (ربنا) لبداً منه بذكر الحق . وقوله (أنزل علينا) إنتقال من الذات إلى الصفات .

وقوله (تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا) إشارة إلى إبتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة ، بل من حيث إنها صادرة من المنعم . وقوله : (وآية منك) إشارة إلى كون هذه المائدة دليلاً لأصحاب النظر والإستدلال .

وقوله : (وأرزقنا) إشارة إلى حصة النفس . ثم قال الإمام الرازي : فانظر كيف لبداً بالأشرف فالأشرف فازلا إلى الأدنى فالأدنى .

ثم قال : (وأنت خير الرازقين) وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى

الخالق ، ومن غير الله إلى الله ، وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ونزولها (١) .

ثم ختم - سبحانه - حديثه عن هذه المائدة وما جرى بشأنها بين عيسى والحواريين من أقوال فقال - تعالى - : (قال الله إني منزلها عليكم ، فن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) .

وقوله : (منزلها) ورد فيه قراءتان متواتران . إحداهما : منزلها - بتشديد الزاي - من التنزيل وهي تفيد الكثير أو التدريج كما تنبئ عن ذلك صيغة التفعيل . وبهذه القراءة قرأ ابن عامر وعاصم ونافع .

وقرأ الباقر (منزلها) بكسر الزاي - من الإنزال المفيد لنزولها دفعه واحدة . والمعنى : قال الله - تعالى - إني منزل عليكم المائدة من السماء إجابة لدعاء رسولي عيسى - عليه السلام - (فمن يكفر بعد منكم) أي فمن يكفر بعد نزولها منكم أيها الطالبون لها (فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين) أي : فإن الله - تعالى - يعذب هذا الكافر بآياتي عذابا لا يعذب مثله أحدا من عالمي زمانه أو من العالمين جميعا .

وقد أكد - سبحانه - عذابه للكافر بآيات الله بعد ظهورها وقيام الأدلة على صحتها بمؤكدات منها : حرف إن في قوله (فإني أعذبه) ومنها : المصدر في قوله (فإني أعذبه عذابا) إذ المفعول المطلق هنا لتأكيد وقوع الفعل وهو العذاب . ومنها : وصف هذا العذاب بأنه لا يعذب مثله لأحد من العالمين .

وهذه المؤكدات لوقوع العذاب على الكافر بآيات الله بعد وضوحها من أسبابه . أن الكافر بعد إجابة ما طلبوه ، وبعد رؤيته ومشاهدته ، وبعد قيام الأدلة على وحدانية الله وكمال قدرته ، وبعد ظهور البراهين الدالة على صدق رسوله . . .

أقول : الكفر بعد كل ذلك يكون سببه الجحود والعناد والحسد ،
والجاحد والمعاند والحاسد يستحقون أشد العذاب ، وأعظم العقاب .
هذا ، وهنا مسألتان تتعلقان بهذه الآيات الكريمة ، نرى من الخير أن
نتحدث عنهما بشيء من التفصيل .

المسألة الأولى : آراء العلماء في إيمان الحواريين وعدم إيمانهم .

المسألة الثانية : آراء العلماء في نزول المائدة وعدم نزولها .

وللإجابة على المسألة الأولى نقول : اهل منشأ الخلاف في إيمان الحواريين
وعدم إيمانهم مرجعه إلى قو لهم لعيسى - كما حكى القرآن عنهم - هل يستطيع
ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء . . . ؟ فإن هذا القول يشعر بشكهم في
قدرة الله على إنزال هذه المائدة .

وقد ذهب فريق من العلماء - وعلى رأسهم الزمخشري - إلى عدم إيمانهم ،
وجعلوا الظرف في قوله : ، إذ قال الحواريون . . . ، متعلقا بقوله قبل ذلك
قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون .

أى : أنهم قالوا لعيسى آمنا واشهد بأننا مسلمون ، في الوقت الذى قالوا له
فيه : هل يستطيع ربك . . . ، فكانهم ادعوا الإيمان والاسلام ادعاء بدون
إيقان وإذعان ، وإلا فلماذا كانوا صادقين في دعوائهم لما قالوا لعيسى بأسلوب
الاستفهام : هل يستطيع ربك . . . ؟

قال صاحب الكشف : فإن قلت : كيف قالوا : هل يستطيع ربك ، بعد
إيمانهم وإخلاصهم ؟ قلت : ما وصفهم الله بالإيمان والاخلاص ، وإنما حكى
إدعائهم لها ، ثم أتبعه بقوله : ، إذ قالوا ، فإذا دعواهم كانت باطلة ، وإنهم
كانوا شاكين ، وقوله : هل يستطيع ربك ، كلام لا يرد مثله عن مؤمنين
معظمين لهم . وكذلك قول عيسى لهم معناه : اتقوا الله ولا تشكروا في اقتداره
واستطاعته ، ولا تقترحوا عليه ، ولا تحكموا ما تشتهون من الآيات فتطلبكموا

إذا عصيتموه بعد هذا ، إن كنتم مؤمنين » أى : إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة . (١)

وذهب جمهور العلماء إلى أن الحواريين عندما قالوا لعيسى « هل يستطيع ربك .. » كانوا مؤمنين ، واستدلوا على ذلك بأدلة منها :

١ - أن الظرف في قوله : « إذ قال الحواريون .. » ليس متعلقا بقوله : « قالوا آمنا .. » وإنما هو منصوب بفعل مضمحل تقديره أذكر ، وهذا ما رجحه العلامة أبو السعود في تفسيره فقد قال :

قوله : « إذ قال الحواريون .. » كلام مستألف مسوق لبيان بعض ما جرى بينه عليه السلام - وبين قومه منقطع عما قبله ، كما ينبغي عنه الاظهار في موضع الاضمار وإذ منصوب بمضمحل وقيل هو ظرف لقالوا أريد به التنبيه على أن إدعاءهم الايمان والاخلاص لم يكن من تحقق وإيقان ولا يساعده النظام الكريم (٢) .

٢ - أن قول الحواريين لعيسى « هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » لا يسحب عنهم الايمان ، وقد خرج العلماء قولهم هذا بتخريجات منها :

(١) أن قولهم لم يكن من باب الشك في قدرة الله ، وإنما هو من باب زيادة الاطمئنان من طريق ضم علم المشاهدة إلى العلم النظري بدليل أنهم قالوا بعد ذلك « نريد أن تأكل منها ونطمئن قلوبنا » .

وشبهه بهذا قول إبراهيم « رب أرني كيف تحي الموتى » قال أولم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » .

قال القرطبي ما ملخصه : « الحواريون خالصان الانبياء ودخلاؤهم

(١) تفسير الكشاف - ١ ص ٦٩٣ .

(٢) تفسير أبي السعود - ٢ ص ٧٢ .

وأنصارهم ، وقد كانوا عالمين باستطاعة الله لذلك ، وبغيره علم دلالة وخير ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك ، كما قال إبراهيم ، رب أرني كيف تحيي الموتى . . . وقد كان إبراهيم علم ذلك علم خبر ونظر ، ولكنه أراد المعاينة التي لا يدخلها ريب ولا شبهة ، لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات ، وعلم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك ، ولذلك قال الحواريون : « وتطمئن قلوبنا » كما قال إبراهيم « ولكن ليطمئن قلبي » .

(ب) أن السؤال إنما هو عن الفعل لا عن القدرة عليه . وقد بسط الألوسي هذا المعنى فقال : إن معنى « هل يستطيع ربك » هل يفعل ربك ، كما تقول للقادر على القيام : هل يستطيع أن تقوم بمعنى مبالغة في التقاضى .

والتعبير عن الفعل بالاستطاعة من باب التعبير عن المسبب بالسبب ، إذ هي - أى الاستطاعة - من أسباب الإيجاد . . . (١) .

(ح) أن الاستطاعة هنا بمعنى الإطاعة - كما سبق أن أشرنا - . وبشبه لذلك قول الفخر الرازى : قال السدى : قوله « هل يستطيع ربك » . . .

أى : هل يطيعك ربك إن سأله . وهذا تفريع على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة (٢) .

والذى نراه أن رأى الجمهور أرجح للأدلة التى ذكرناها ، ولأن الله تعالى - قد ذكر قبل هذه الآية أنه قد امتن عليهم بإلهامهم الإيمان فقال :

« وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى . . . » ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين ، لكشف الله عن حقيقتهم ، فقد جرت سنته - سبحانه - مع أنبيائه أن يظهر لهم نفاق المنافقين حتى يحذروهم

ولأنهم لو كانوا غير مؤمنين ، لما أمر الله أتباع النبى - صلى الله عليه وسلم - بالتأسي بهم فى إخلاصهم ورسوخ بقيتهم قال - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا

(١) تفسير الألوسي ج ٧ ص ٥٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١٢ ص ١٢٩ .

كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله... (١).

وقال - تعالى - ، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله؟ قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهدنا مسلمون ، (٢).

فهاتان الآيتان صريحتان في مدح الحواريين ، وفي أنهم قوم التفوا حول عيسى - عليه السلام - وفاصروه مناصرة صادقة ، وآمنوا به لإيماننا سليما من الشك والتردد .

وأما المسألة الثانية - وهي آراء العلماء في نزول المائدة : فالجمهور على أنها نزلت .

وقد رجح ذلك ابن جرير فقال ما ملخصه : والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال :

إن الله أنزل المائدة .. لأن الله لا يخلف وعده . ولا يقع في خيره الخلف وقد قال - تعالى - مخبرا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى حين سأله ما سأله من ذلك ، إني منزلها عليكم ، وغير جائز أن يقول الله إني منزلها عليكم ثم لا ينزلها ، لأن ذلك منه - تعالى - خبر ، ولا يكون منه خلاف ما يخبر... (٣).

وقد علق ابن كثير على ما رجحه ابن جرير فقال : وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم .

ومن الآثار ما أخرجه الترمذي عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لعد : فخانوا وأدخروا ورفعوا لعد فسيخهم قردة وخنازير .

قال الترمذي : وقد روى عن عمار من طريق موقوفا وهو أصبح .

(١) الآية الأخيرة من سورة الصف .

(٢) سورة آل عمران . الآية ٥٢ .

(٣) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ١٣٥ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس ، أن عيسى ابن مريم قالوا له ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء . قال : فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها . عليها سبعة أحرات وسبعة أرغفة . فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم (١) .

والذي يراجع بعض كتب التفسير يرى كلاما كثيرا عما كان على المائدة من أصناف الطعام ، وعن كيفية نزولها ومكانه ، وعن كيفية استقبالها وكشف فطانتها ، والأكل منها ، والباقي عليها بعد الأكل ... وهذا الكلام الكثير رأينا من الخير أن نضرب عنه صفحا ، لضعف أسانيدِهِ ، ولأنه لا يخلو عن غرابة ونسكاراة - كما قال ابن كثير - فقد ذكر - رحمه الله - أثرا طويلا في هذا المعنى ثم قال في نهايته : - هذا أثر غريب جدا قطعه ابن حاتم في مواضع من هذه القصة ، وقد جمعته أنا لئلا يكون سياقه أتم ... (٢)

ويعنى في هذا المقام قول ابن جرير : وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة ، فإن يقال : كان عليها ما كول . وجائز أن يكون هذا المأكول سمكا وخبزا ، وجائز أن يكون كان ثمر الجنة ، وغير نافع العلم به ، ولا ضار للجهل به ، إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل (٣) .

ويرى الحسن ومجاهد أن المائدة لم تنزل ، فقد روى ابن جرير - بسنده - عن قتادة قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : « فن يكفر بعد منكم » ، قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل .

وروى منصور بن زاذان عن الحسن أيضا أنه قال في المائدة : إنها لم تنزل .

(١) تفسير ابن كثير كثير ج ٢ ص ١١٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١١٩

(٣) تفسير ابن جرير ج ٧ ص ٣٥٠

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد قال :
هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء .

أى : مثل ضربه الله للناس نهيًا لهم عن مسألة الآيات لأنبيائه ،

قال الحافظ ابن كثير : وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن . وقد
يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى . وليس في كتابهم ، ولو كانت
قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله . وكان يكون موجودا في
كتابهم متواترا ولا أقل من الأحاد (١) .

وقد علق بعض العلماء على كلام ابن كثير هذا فقال : ولنا أن نقول : إن
هذا الاستدلال إن كان يعنى عدم نزولها فقط ، فقد يكون له شيء من الوجاهة
وإن كان يعنى أنها لم تنزل ولم يسأل ، فهو محل نظر كبير ، لأن السؤال ما لم
ينته بإجابة كونه فعالية تبرز بها المائدة للناس ، ويرونها بأعينهم ، ويلامسونها
بأيديهم ، فلا بعد بذلك مما تتوفر الدواعى على نقله ، لا سيما وعيسى في أشبه
محسورة : جماعة سألوا وأجيبوا ، وانتهى الأمر برجوعهم عما سألوا فعدم
تواتر سؤالاتهم في كتب النصارى أو عدم وجوده فيها لا يستغرب ، كما يستغرب
الأمر فيما لو نزلت المائدة فعلا ورآها الناس فعلا ، وأكلوا منها . وتذوقوا
طعامها ، ولم يذكر عن ذلك شيء .

وقد ذكر القرآن هذه الحقيقة ابتداء وانفرد بها عن سائر الكتب ،
ولا يلزم أن يكون كل ما قصه الله - تعالى - في القرآن قد قصه في غيره من
الكتب المتقدمة ، ولا أن أصحاب الأناجيل علموا بكل شيء حتى يمثل هذه
المحاورة الخاصة التي لم تنته بمحادث كوني حتى يكون عدم ذكرهم إياها في
أناجيلهم - التي وضعوها - دليلا على عدم سؤالاتها . فقصة السؤال إذن لم
ترد فيها عند النصارى ولكنها وردت فيما عند المسلمين .

ومر الجائز أن تكون مما ورد في الأناجيل ، وأن تكون مما أخفاه أهل

الكتاب ، أوضاع منهم عليه بسبب ما . والقرآن كما وصف نفسه مهيمن على كتبهم التي وصفها بأنهم حرقوها وأنهم كانوا يخفون كثيرا منها ، وأنه يبين لهم كثيرا مما كانوا يخفون ، (١) .

هذا ، وما سبق يتبين لنا أن العلماء متفقون على أن الحوار بين قد سألوا عيسى أن يدعو ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء ، وأن عيسى قد دعا ربه فعلا أن ينزلها ، كما جاء في الآية الكريمة . .

ومحل الخلاف بينهم أنزلت أم لا ؟ فالجمهور يزعمون أنها نزلت لأن الله وعد بذلك في قوله : « إني منزلها عليكم » ، والحسن ومجاهد يريان أنها لم تنزل ، لأن الوعد بنزولها مقيد بما رتب عليه من وقوع العذاب بهم إذا لم يؤمنوا بعد نزولها ، وأن القوم بعد أن سمعوا هذا الشرط قالوا : لا حاجة لنا فيها . فلم تنزل . ويبدو لنا أن رأى الجمهور أقرب إلى الصواب ، لأن ظاهر الآيات يؤيده ، وكذلك الآثار التي وردت في ذلك .

ثم حكى السورة الكريمة ما يقول الله عيسى يوم القيامة ، وما سيرد به عيسى على خالقه - عز وجل - حتى تزداد حسرة الذين وصفوا المسيح وأمه بما هما بريئان منه فقال - تعالى - :

« وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ قَالَ : سُبْحَانَكَ . مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَادُمْتُ فِيهِمْ ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٢٨١ ، افضيلة الامام الأكبر المرحوم الشيخ

شيء شهيد (١١٧) إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (١١٨) .

وقوله : ، وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله . . . ، معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : ، إذ قال الخواريون

والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهذا القول إنما يكون في الآخرة - على الصحيح - .

والمعنى : واذكر أيها الرسول الكريم وليد كرمك كل مكلف وقت أن يسأل الله - تعالى - عبده ورسوله عيسى فيقول له يا عيسى : أنت قلت للناس : اتخذوني ، أي : اجعلوني ، وأمي إلهين من دون الله ، أي من غير الله .

قال القرطبي : اختلف في وقت هذه المقالة ، فقال قتادة وابن جريج وأكثر المفسرين : إنما يقول له هذا يوم القيامة . وقال السدي وقطرب : قال له ذلك حين رفعه إلى السماء وقالت النصارى فيه ما قالت فإن ، إذ ، في كلام العرب لما مضى . والأول أصح ، يدل عليه ما قبله من قوله : يوم يجمع الله الرسل . الآية ، كما يدل عليه ما بعده وهو قوله : ، هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم

وعلى هذا تكون إذ بمعنى إذا كما في قوله : ، ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت ، أي : إذا فرعوا . . . فعبير عن المستقبل بلفظ الماضي ، لأنه لتحقيق أمره وظهور برهانه . كأنه قد وقع (١) . . .

وكان النداء بقوله - سبحانه - يا عيسى ابن مريم ، أي : بذكر البقرة ، للإشارة إلى الولادة الطبيعية التي تنفي أن يكون إلهها أو ابن إله أو فيه

عنصر الألوهية بأى وضع من الأوضاع ، لأن الألوهية والبشرية تقيضان
لا يجتمعان ، فلا يمكن أن يكون البشر فيه ألوهية ، ولا الإله فيه بشرية .
والتعبير بقوله : اتخذوني ، يدل على أنه ليس له حقيقة ، بل هو فى ذاته
اتخاذ بما لا أصل له .

والمقصود بالاستفهام فى قوله : أنت قلت ... ، توبيخ للكفرة من قومه
وتبكيك كل من نسب إلى عيسى وأمه ما ليس من حقهما ، وفضيحتهم على
رءوس الأشهاد فى ذلك اليوم العصيب ، لأن عيسى سينفى عن نفسه أمامهم أنه
قال ذلك ، وإنما هو أمرهم بعبادة الله وحده . ولا شك أن النفى بعد السؤال
أبلغ فى التكذيب ، وأشد فى التوبيخ والتقريع ، وادعى لقيام الحجة على من
وصفوه بما هو برىء منه .

قال الألوسى : واستشككت الآية بأنه لا يعلم أن أحداً من النصارى اتخذ
مريم إلهاً .

وأجيب عنه بأجوبة الأول : أنهم لما جفلوا عيسى إلهاً لزمهم أن يجعلوا
والدته أيضاً كذلك لأن الولد من جنس من يلدّه ، فذكر : إلهين ، على طريق
الإلزام لهم .

والثانى : أنهم لما عظموها تعظيم الإله أطلق عليها اسم الإله كما أطلق اسم
الرب على الأختار والرهبان فى قوله : اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من
من دون الله

والثالث : أنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك . وبعض هذا القول
ما حكاه أبو جعفر الإمامى عن بعض النصارى أنه قد كان فيما مضى قوم يقال
لهم : المريمية ، يعتقدون فى مريم الألوهية . وهو أولى الأوجه عندى (١) .
وقوله - تعالى - : قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، .
بيان لما أجاب به عيسى على خالقه - عز وجل - .

أى : قال عيسى مجيباً ربه بكل أدب وإذعان : تنزيها لك - يا إلهى - عن أن أقول هذا القول ، فإنه ليس من حقى ولا من حق أحد أن ينطق به .

فأنت ترى أن سيدنا عيسى - عليه السلام - قد صدر كلامه بالتنزيه المطلق لله - عز وجل - ثم عقب ذلك بتأكيد هذا التنزيه ، بأن أعلن بأنه ليس من حقه أن يقول هذا القول ، لأنه عبد له - تعالى - ومخلوق بقدرته . ومرسل منه لهداية الناس فكيف يلقى بمن كان شأنه كذلك أن يقول لمن أرسل إليهم : اتخذوني وأمى إلهين من دون الله . .

ثم أضاف إلى كل ذلك الاستشهاد بالله - تعالى - على برأته ، وإظهار ضعفه المطلق أمام علم خالقه وقدرته فقال - كما حكى القرآن عنه - : إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسه ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . . .
أى . إن كنت قلت هذا القول وهو : اتخذوني وأمى إلهين من دون الله ، فأنت تعلمه ولا يخفى عليك منه شئ . - لأنك أنت - يا إلهى - تعلم ما فى نفسى ، أى ما فى ذاتى ، ولا أعلم ما فى ذانك .

والمراد : تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم ، وتعلم ما فى غيبى ولا أعلم ما فى غيبك ، وتعلم ما أقول وأفعل ولا أعلم ما تقول وتفعل إنك أنت - يا إلهى - علام الغيوب .

فهذه الجملة الكريمة بجانب تأكيدها للنقى ما سئل عنه عيسى - عليه السلام - تدل بأبلغ تعبير على إثبات شمول علم الله - تعالى - بكل شئ . وقد أكد عيسى ذلك ، بأن المؤكدة ، وبالضمير أنت ، وبصيغة المبالغة : علام ، وبصيغة الجمع للفظ : الغيوب ، فهو لم يقل : إنك أنت عالم الغيب ، وإنما قال - كما حكى القرآن عنه - : إنك أنت علام الغيوب ، بكل أنوارها ، وبكل ما يتعلق بالكائنات كلها

وبعد هذا التنزيه من عيسى - عليه السلام - لله عز وجل - ، وبعد هذا النقى المؤكد لما سئل عنه . . . بعد كل ذلك يحكى القرآن ما قاله عيسى لقومه

فيقول : « ما قلت لهم ألا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم ، وكنتم عليهم شهيذاً ما دمت فيهم ، أي : ما قلت لهم - يا إلهي - « اتخذوني وامي إلهين من دون الله ، وإنما القول الذي قلته لهم هو الذي أمرتني أن أبلغهم إياه وهو عبادتك وحدك لا شريك لك ، فأنت ربي وربهم ، وأنت الذي خلقتني وخلقتهم ، فيجب أن ندين لك جميعاً بالعبادة والخضوع والطاعة ، وأنت تعلم - يا إلهي - أنني لم أقصر في ذلك ، وأنني كنت رقيباً وشهيداً على قومي ، وداعياً لهم إلى إخلاص العبادات لك والعمل بموجب أمرك مدة بقائي فيهم .

قال الفخر الرازي : وأن في قوله « أن أعبدوا الله ... مفسرة ، والمفسر هو الهاء في « به » ، من قوله « إلا ما أمرتني به » ، وهو يعود إلى القول بالمأمورية . والمعنى : ما قلت لهم إلا قولاً أمرتني به ، وذلك القول هو أن : أعبدوا الله ربي وربكم . واعلم أنه كان الأصل أن يقال : ما أمرتهم إلا بما أمرتني به إلا أنه وضع القول موضع الأمر ، نزولاً على موجب الأدب الحسن ، لتلا يجعل نفسه وربه آمرين معاً ، ودل على الأصل بذكر أن المفسرة (١) .

وقوله : « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد » بيان لاقتناء مهمته بعد فراقه لقومه .

أي : أنت تعلم يا إلهي بآني ما أمرتهم إلا بعبادتك ، وبآني ما قصرت في حملهم على طاعتك مدة وجودي معهم ، « فلما توفيتني » يا إلهي . أي : قبضتني بالرفع إلى السماء حياً . كنت أنت الرقيب عليهم ، أن : كنت أنت وحدك الحفيظ عليهم المراقب لأحوالهم ، العالم بتصرفاتهم ، الخبير بمن أحسن منهم وبمن أساء . وأنت - يا إلهي - على كل شيء شهيد ، لا تخفى عليك خافية من أمور خلقك .

هذا ، وما ذهبنا إليه من أن معنى « فلما توفيتني » أي : قبضتني بالرفع إلى السماء حياً قول جمهور العلماء .

ومنهم من يرى أن معنى « فلما توفيتني » أى : أمتنى وزعموا أن رفعه إلى السماء كان بعد موته .

قال بعض العلماء مؤيدا ماذهب إليه الجمهور : قوله « فلما توفيتني » أى فلما أخذتني وافيا بالرفع إلى السماء حيا ، انجاء لى عما دبروه من قتلى ، من التوفى وهو أخذ الشئ وافيا أى كاملا . وقد جاء التوفى بهذا المعنى فى قوله - تعالى - « يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ... » . ولا يصح أن يحمل التوفى على الإمامة ، لأن إمامة عيسى فى وقت حصار أعدائه له ليس فيها ما يسوغ الامتثان بها . ورفعته إلى السماء جثة هامة سخر من القول . وقد نزه الله السماء أن تكون قبورا لجثث الموتى . وإن كان الرفع بالروح فقط ، فأى مزية لعيسى فى ذلك على سائر الأنبياء ، والسماء مستقر أرواحهم الطاهرة فالحق أنه - عليه السلام - رفع إلى السماء حيا بجسده وروحه وقد جعله الله آية ، والله على كل شئ قدير (١) .

وقال الشيخ القاسمى : وقد دلت الآية الكريمة على أن الأنبياء بعد استيفاء أجلهم الدنيوى ، ونقلهم إلى البرزخ لا يعملون أعمال أمتهم . وقد روى البخارى هنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا - أى غير مختوفين - ثم قال : « كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين » . ثم قال : ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم . الأول لأنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب أصيحابى . فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح : كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، فيقال لى . إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم (٢) .

(١) تفسير صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٢١٣ فضيلة الاستاذ الشيخ حسين محمد مخلوف

(٢) تفسير القاسمى ج ٦ ص ٢٢٢٣ .

وبعد أن أجاب عيسى على سؤال ربه تلك الإجابة الموفقة . فوض الأمر
لأبيه - سبحانه - في شأن قومه ، فقال - كما حكى القرآن عنه - إن تعذبهم
فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم .

أى : إن تعذب - يا إلهى - قومى ، فإنك تعذب عبادك الذين خلقتهم
بقدرتك ، والذين تملكهم ملكاً تاماً ، ولا اعتراض على المالك المطلق فيما
يفعل بمملوكه . وإن تغفر لهم ، وتستتر سيئاتهم وتصفح عنهم ، فذلك إليك
وحدك ، لأن صفحك عن تشاء من عبادك هو صفح القوى القاهرة الغالب
الذى لا يعجزه شئ . ، والذى يضع الأمور في مواضعها بمقتضى حكمته السامية
وقد قال بعض المفسرين هنا : كيف جاز لعيسى أن يقول : « وإن تغفر لهم ،
وا الله - تعالى - لا يغفر أن يشرك به ؟ »

وقد أجاب عن ذلك الإمام القرطبي بقوله : - قول عيسى « وإن تغفر لهم ،
قاله على وجه الاستعطاف لهم ، والرافة بهم ، كما يستعطف السيد لعبده ، ولهذا
لم يقل : فإنهم عصوك . وقيل قاله على وجه التسليم لأمره ، والاستجارة من
عذابه ، وهو يعلم أنه لا يغفر للكافر ، وقيل . الهاء والميم فى « إن تعذبهم ،
لمن مات منهم على الكفر . والهاء والميم فى قوله : « وإن تغفر لهم ، لمن تاب
منهم قبل الموت . وهذا وجه حسن ... » (١) .

أقول : هذا الوجه الثالث الذى ذكره القرطبي قد اكتفى به بعض
المفسرين فقال : قوله : « إن تعذبهم ، أى : من أقام على الكفر منهم ، فإنهم
عبادك ، وأنت مالكهم تتصرف فيهم كيف شئت لا اعتراض عليك ، وإن
تغفر لهم ، أى : لمن آمن منهم ، فإنك أنت العزيز ، الغالب على أمره ، الحكيم ،
فى صنعه » (٢) .

(١) تفسير القرطبي - ج ٦ ص ٢٧٨ .

(٢) تفسير الجلالين - ومعه حاشية الجلال - ج ١ ص ٥٤٦ .

ومع وجاهة هذا الوجه فإننا نرى أن الآية الكريمة حكاية للتفويض المطلق الذي فرضه عيسى إلى ربه - سبحانه - في شأن قومه ، ولهذا قال ابن كثير :
هذا الكلام يتضمن رد المفوضة إلى الله - تعالى - فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وكذبوا على رسوله ، وجعلوا لله ندا وصاحبه وولدا .

وهذه الآية لها شأن عظيم ، ونبا عجيب ، وقد ورد في الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قام بها ليلة حتى الصباح يرددها .

فقد روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : صلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة : فقرا بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ، إن تعذبهم فإنهم عبادك . . . الآية . فلما أصبح قلت : يا رسول الله ألم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : إني سألت ربي - عز وجل - الشفاعة لأمتي فأعطانيها . وهي نائلة - إن شاء الله - لمن لا يشرك بالله شيئا (١) .

وبعد أن حكى القرآن الكريم مارد به عيسى عليه السلام - على قول ربه وخالقه - سبحانه - « أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله » وقد تضمن هذا الرد - كما سبق أن بينا - التنزيه المطلق لله - تعالى - ، والنفي التام لأن يكون عيسى قد قال - هذا القول . . . بعد كل ذلك ختم - سبحانه - تلك المجاورة ببيان حسن عاقبة الصادقين يوم القيامة فقال - تعالى - :

« قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صَدُقْتُمْ ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١١٩) اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠) » .

قال الألوسي : « قال الله . . » كلام مستأنف ختم به - سبحانه - حكاية ما حكى عما يقع يوم يجمع الله الرسل . وأشير إلى تقيجته ومآله . والمراد بقول الله - تعالى - عقيب جواب عيسى الإشارة إلى صدقه ضمن بيان حال الصادقين الذين هو في زمرتهم . . (١) .

والمراد باليوم في قوله « هذا يوم . . » يوم القيامة الذي تجازى فيه كل نفس بما كسبت وقد قرأ الجمهور برفع « يوم » من غير تنوين على أنه خبر لاسم الإشارة أي : قال الله - تعالى - : « إن هذا اليوم هو اليوم الذي ينتفع الصادقون فيه بصدقهم في إيمانهم وأعمالهم ، لأنه يوم الجزاء والعطاء على ما قدموا من خيرات في دنياهم .

أي أن صدقهم في الدنيا ينفعهم يوم القيامة ، بخلاف صدق الكفار يوم القيامة فإنه لا ينفعهم ، لأنهم لم يكونوا مؤمنين في دنياهم .

وقرأ نافع « يوم » بالنصب من غير تنوين على أنه ظرف لقال . أي : قال الله - تعالى - هذا القول لعيسى يوم ينتفع الصادقون بصدقهم .

وقوله : « لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا » جملة مستأنفة لبيان مظاهر النفع الذي ظفر به الصادقون في هذا اليوم .

أي : أن هؤلاء الصادقين في دنياهم قد نالوا في آخرتهم جنات تجري من تحت أشجارها وسرورها . . . الأنهار « خالدين فيها أبدا » أي : مقيمين فيها إقامة دائمة لا يعتريها انقطاع وقوله : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » أي : رضى الله عنهم فأعطاهم بسبب إيمانهم الصادق وعملهم الصالح عطاء هو نهاية الآمال والأمانى . ورضوا عنه بسبب هذا العطاء الجزيل الذي لا تحيط العبارة بوصفه .

واسم الإشارة في قوله : « ذلك للفوز العظيم ، يعود إلى ما انتفع به الصادقون من جنات تجري من تحتها الأنهار » ومن رضا الله عنهم . . .

أي : إلى النعيم الجثامي المتمثل في الجنات وما يقبها من عيشة هنيئة . .
وإلى النعيم الروحاني المتمثل في رضا الله عنهم .

قال الفخر الرازي : أعلم أنه - تعالى - لما أخبر أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم في القيامة ، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب ، وحقيقة الثواب : أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم ، فقوله : « لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » ، إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم ، وقوله : « خالدون فيها أبدا » ، إشارة إلى الدوام . واعتبر هذه الدقيقة : فإنه أينما ذكر الثواب قال « خالدون فيها أبدا » ، وأينما ذكر العقاب للفساق من أهل الإيمان ، ذكر لفظ الخلود ولم يذكر معه التأييد ، وأما قوله : « رضي الله عنهم ورضوا عنه . . . » فتحت أسرار حجيبة لا تسمح الأقلام بمثلمها ، جعلنا الله من أهلها . . . (١) .

ثم ختم - سبحانه - السورة السكريمة بهذه الآية الدالة على شمول ملكه لكل شيء في هذا الكون فقال : « لله الملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير » .

أي : لله - تعالى - وحده دون أحد سواء الملك الكامل للسموات والأرض ولما فيهن من كل كائن ، وهو - سبحانه - على كل شيء قدير ، لا يعجزه أمر أراده ، ومن زعم أن له شريكا - سواء أكان هذا الشريك عيسى أو أمه أو غيرهما - فقد أعظم الفرية وتسربل بالجهل ، وكان مستحقا لحزى الدنيا ، وعذاب الآخرة . . .

وقال - سبحانه - « وما فيهن » فغلب غير العقلاء ، الإشارة إلى أن كل المخلوقات مسخرة في قبضة قهره وقدرته وقضائه وقدره ، وهم في ذلك التسخير

كالجمادات التي لا قدره لها ... إذ أن قدرة سائر المخلوقات بالنسبة لقدرة الله
كلا قدرة ...

وإن هذه الآية الكريمة ، لمتسقة كل الاتساق مع الآية التي قبلها ، لأنه
-- سبحانه -- بعد أن بين جزاء الصادقين في دنياهم ... عقبه ببيان سعة
ملكه ، وشمول قدرته الدالين على أن هذا الجزاء لا يقدر عليه أحد سواه
-- سبحانه -- .

وإن هذه الآية الكريمة - أيضا - لمتسقة كل الاتساق لأن تكون
خاتمة لهذه السورة التي ساقّت مساقّت من تشريعات وأحكام وآداب وهدايات
ومن حجج حكيمة ، وأدلة ساطعة دحضت بها الأقوال الباطلة التي إفترأها
أهل الكتاب - وخصوصا النصارى - على عيسى وأمه مريم ، وبرهنت على
أن عيسى وأمه ماهما إلا عبدان من عباد الله ، يدينان له بالعبادة والطاعة
والخضوع ، وبأمران غيرهما بأن ينهج نهجهم في ذلك .

ثم أما بعد : فهذا ما وفقني الله - تعالى - لكتابته في تفسير سورة المائدة ،
تلك السورة التي اشتملت - من بين ما اشتملت - على كثير من التشريعات التي
تتعلق بالحلال والحرام ، وبالعبادات والحدود والقصاص والإيمان ... كما
اشتملت على كثير من الآيات التي تتعلق بأهل الكتاب ، فقد ذكرت حكم أطعمتهم
وحكم الزواج والمحصنات من نسائهم ، كما ذكرت أقوالهم الباطلة في شأن عيسى
وأمه وردت على مزاجهم بما يدحض مفترياتهم في هذا الشأن وفي غيره ...

والله أسأل أن يجعل ما كتبناه خالصا لوجهه ، ونافعا وشفيعا لنا يوم
نلقاه يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .
والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه واتباعه إلى يوم الدين .

محمد السيد طنطاوى

مفتى جمهورية مصر العربية

فهرس إجمالى لتفسير «سورة المائدة»

الصفحة	رقمها	الآية المفسرة
٢٦	١	يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود
٣٢	٢	يأيها الذين آمنوا لا تحلوا عمائر
٤٢	٣	حرمت عليكم الميتة والدم
٥٨	٤	يسألونك ماذا أحل لهم
٦٥	٥	اليوم أحل لكم الطيبات
٧٤	٦	يأيها الذين آمنوا إذا قمتم
٨٨	٧	واذكروا نعمة الله عليكم
٩٤	٨	يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين
٩٦	٩	وعد الله الذين آمنوا وعملوا
٩٧	١٠	والذين كفروا وكذبوا
٩٩	١١	يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة
١٠١	١٢	ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل
١٠٧	١٣	فما نقضهم ميثاقهم
١١٠	١٤	ومن الذين قالوا إنا نصارى
١١٥	١٥	يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا
١١٧	١٦	يهدى به الله من اتبع
١١٩	١٧	لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح
١٢٤	١٨	وقالت اليهود والنصارى
١٢٩	١٩	يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا
١٣٣	٢٠	وإذا قال موسى لقومه
١٣٥	٢١	يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة
١٣٨	٢٢	قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين
١٤٠	٢٣	قال رجلا من الذين يخافون
١٤٥	٢٤	قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا
١٤٧	٢٥	قال رب إني لا أملك إلا
١٥٠	٢٦	

الصفحة	رقمها	الآية المقصورة
١٥٣	٢٧	واتل عليهم نبأ ابني آدم
١٥٨	٢٨	لئن بسطت إلى يدك
١٦٠	٢٩	إني أريد أن تبوء
١٦١	٣٠	فطوعت له نفسه
١٦٤	٣١	فبعث الله غرابا يبحث
١٦٧	٣٢	من أجل ذلك كتبنا على
١٦٩	٣٣	إدنا جزاء الذين يحاربون
١٧٩	٣٤	إلا الذين تابوا من قبل
١٨٢	٣٥	بأيها الذين آمنوا اتقوا الله
١٨٧	٣٦	إن الذين كفروا لو أن هم
١٨٨	٣٧	يريدون أن يخرجوا من النار
١٨٩	٣٨	والسارق والسارقة فاقطعوا
١٩٣	٣٩	فمن تاب من بعد ذلك
١٩٥	٤٠	ألم تعلم أن الله له ملك
١٩٧	٤١	بأيها الرسول لا يحزنك
٢٠٨	٤٢	سماعون لا تكذب أكالون
٢١٣	٤٣	وكيف يحكونك وعندكم
٢١٤	٤٤	إنا أنزلنا التوراة
٢٢٠	٤٥	وكتبنا عليهم فيها أن
٢٢٨	٤٦	وقفينا على آثارهم بعيسى
٢٣٣	٤٧	وليسكم أهل الإنجيل
٢٣٤	٤٨	وأنزلنا إليك الكتاب بالحق
٢٤٠	٤٩	وأن احكم بينهم بما أنزل الله
٢٤٢	٥٠	الحكم الجاهلية يبينون
٢٤٨	٥١	بأيها الذين آمنوا لا تتخذوا لليهود
٢٥٢	٥٢	فترى الذين في قلوبهم مرض
٢٥٦	٥٣	ويقول الذين آمنوا
٢٥٨	٥٤	بأيها الذين آمنوا من يريد
	٥٥	إدنا وليسكم الله ورسوله

الآية المفصلة	رقمها	الصفحة
ومن يقول الله ورسوله	٥٦	٢٦٢
يأبها الذين آمنوا لا تتخذوا	٥٧	٢٦٧
وإذا ناديتهم إلى الصلاة	٥٨	٢٦٨
قل يا أهل الكتاب	٥٩	٢٧٠
قل هل أنبئكم بشر من ذلك	٦٠	٢٧٤
وإذا جاءوكم قالوا آمنا	٦١	٢٧٦
ونرى كثيراً منهم يتولون	٦٢	٢٧٨
فولا ينههم الربانيون	٦٣	٢٧٩
وقالت اليهود يد الله مغلولة	٦٤	٢٨١
ولو أن أهل الكتاب	٦٥	٢٨٨
ولو أنهم أقاموا التوراة	٦٦	٢٩٠
يأبها الرسول بلغ	٦٧	٢٩٢
قل يا أهل الكتاب	٦٨	٢٩٨
إن الذين آمنوا	٦٩	٣٠٠
لقد أخذنا ميثاق	٧٠	٣٠٣
وحسبوا أن لا نكون فتنة	٧١	٣٠٧
لقد كفر الذين قالوا	٧٢	٣١١
لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث	٧٣	٣١٤
أفلا يتوبون إلى الله	٧٤	٣١٦
ما المسيح ابن مريم إلا رسول	٧٥	٣١٨
قل أتعبدون من دون الله	٧٦	٣٢٠
قل يا أهل الكتاب لا تغلو	٧٧	٣٢٢
لن الذين كفروا من بني إسرائيل	٧٨	٣٢٥
كانوا لا يتناهون	٧٩	٣٢٨
نرى كثيراً منهم	٨٠	٣٣١
ولو كانوا يؤمنون	٨١	٣٣٢
لنجدن أهد الناس	٨٢	٣٣٣
وإذا سمعوا ما أنزل	٨٣	٣٣٧
	٨٤	٣٣٨

الصفحة	رقمها	الآية المفسرة
٣٣٩	٨٥	فأتاهم الله بما قالوا
٣٤٠	٨٦	والذين كفروا وكذبوا
٣٤١	٨٧	يأياها الذين آمنوا لا تحرموا
٣٤٢	٨٨	وكلوا مما رزقكم الله
٣٤٧	٨٩	لا يؤاخذكم الله باللغو
٣٦٠	٩٠	يأياها الذين آمنوا إنما الحمر
٣٧٠	٩١	إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم
٣٧٣	٩٢	وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول
٣٧٦	٩٣	ليس على الذين آمنوا على وعملوا
٣٨٥	٩٤	يأياها الذين آمنوا ليبلونكم الله
٣٩٠	٩٥	يأياها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد
٣٩٣	٩٦	أحل لكم صيد البحر وطعامه
٣٩٧	٩٧	جعل الله للكعبة البيت الحرام
٣٩٨	٩٨	اعلموا أن الله شديد العقاب
٣٩٩	٩٩	ما على الرسول إلا البلاغ
٤٠٠	١٠٠	قل لا يستوى الحبيث والطيب
٤٠٤	١٠١	يأياها الذين آمنوا لا تسألوا
٤٠٨	١٠٢	قد سألتها قوم من قبلكم
٤١٣	١٠٣	ما جعل الله من بحيرة
٤١٥	١٠٤	وإذا قيل لهم تعالوا
٤١٧	١٠٥	يأياها الذين آمنوا عليكم أنفسكم
٤٢١	١٠٦	يأياها الذين آمنوا شهادة بينكم
٤٢٧	١٠٧	فإن عثر على أنهما استحقا
٤٣٠	١٠٨	ذلك أدنى أن يأنوا بالشهادة
٤٣٣	١٠٩	يوم يجمع الله الرسل
٤٣٦	١١٠	إذا قال الله يا عيسى ابن مريم
٤٤٠	١١١	وإذا أوحيت إلى الحواريين
٤٤٤	١١٢	إذا قال الحواريون
.....	١١٣	قالوا نريد أن نأكل منها

الصفحة	رقمها	الآية المنصورة
٤٤٨	١١٤	قال عيسى ابن مريم
٤٥٠	١١٥	قال الله اني منزل عليكم
٤٥٥	١١٦	واذ قال الله يا عيسى ابن مريم
٤٥٩	١١٧	ما قلت لهم الا ما امرتني به
٤٦١	١١٨	ان تعذبهم فانهم عبادك
٤٦٣	١١٩	قال الله هذا يوم ينفع الصادقين
٤٦٥	١٢٠	الله ملك السموات والارض

رقم الإبداع ٣٦٧٥ / ١٩٧٩